

صفحات من تاريخ مصر

المقالات الأدبية: ٥





مۇلفاتىمىز

اهداءات ٢٠٠٢

د.١ / يوسف زيدان

مدير المخطوطات و الاهداءات

يحيى حقي

صفحات من تاريخ مصر

المقالات الأدبية: ٥

إعداد ومراجعة
فؤاد دودة



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٨٩

بلاغ عن جريمة قتل

بلاغ بأن إنسانا قتل إنه مات ميتة ربه هو في حقيقة الأمر مقتول بيد آثمة
ماكرة : عرفت كيف تنفذ جريمتها في السر : وتضفي عليها غطاء من
الكتمان – مثل هذا البلاغ ، حتى ولو كان غفلا من الامضاء ، أو بامضاء
مصطنع ، هو في أغلب الأحوال (عليه بما هناك) أو (عليه ببواطن
الأمور) ، تتحرك له النيابة العامة فورا ، وتأمّر بإجراء التحقيق ، وتجري
وراء القاتل حتى تضبطه .

فما بالك إذا كان البلاغ مقدما من اثنين من كبار العلماء ، هما البروفيسر
هاريسون والدكتور كونلي من أساتذة التشريح من جامعة ليفربول ، عن
جريمة قتل وقعت في بلدنا ، وجثة القتيل لا تزال محفوظة عندنا كأنما لم يمسه
البلى .

وقد مر على هذا البلاغ أكثر من أسبوع ، ومع ذلك فإلى الآن لم أسمع
أن النيابة العامة أمرت بإجراء التحقيق وندب الخبراء لفحص الجثة توطئة
لمعرفة سبب الوفاة والتأكد من صحة البلاغ ، كما تفعل في كل جريمة قتل .

ولھفتنا على ضبط القتال فى هذه القضية الجديدة أشد من كل لھفة لنا
سابقة لأن الضحية فيها فتى غربه : لم يكذب طر شاربه ، ورغم أنه قارب
العشرين فإننا لا نزال نتصوره من رسومه وتمائله — صبيا يمضى أغلب وقته
بين لعبه ، وبلغ من إلحاح هذا التصور أننا نحسب زوجته أختاله ، هى
أيضا طفلة تلعب معه !

فتى فوق ذلك عليل ، ضئيل الجسم : هش ! لو نفخته لوقع . وأهم
من ذلك كله عندى أنه فتى وسيم . يالعينه الكحيلتين الواسعتين ،
تأكلان خده ، تشعان بالبراءة والجمال . يا لبطنه الضامر ، ويديه
الرخصتين !

ما أبشع قتل مثل هذا الفتى . وحتى لو لم يؤخذ على غرة ، فمحال أن
يكون قاتله قد شق عليه قتله . إنها منازلة من جانب واحد ، خبطة واحدة
بعصا على رأس هذا الكتكوت كافية للقضاء عليه . فإذا رأيناه قد وضعت
فى يديه عدة الحرب وصولجان الملك ، فإنما كانت للزينة والدلالة على
منصبه ، لا على قدرته هو على البطش والقتال . عبثا تبحث عنه مرسوما
وهو يقود جيشا فى معركة ، بل تجده أينما رأيته يعيش على كف النعيم
والرفاهية والترف والبذخ لا تمس يده شيئا إلا كان تحفه فنية صنعة
وزخرفة : عرشه وتاجه وكرسيه وعصاه وكساؤه ، وصندله فى قدميه .
صناديقه وعلمه ، قماقم عطوره ودهونه . ومن حوله إماءه ينشدن له
ويرقصن . على رأس الصف عازفة (الهارب) ممشوقة القوام ، لها عينا
غزال وأنف أقنى ، وشفتان دسمتان ! ومن عجب أن الفنان الذى رسمها
عرف كيف ينطق الحجر ، فينم عن شفافية ثوبها القصير فتكاد ترى لحمها

من تحته ! إن اهتزرت لجمالها وعشقتها من كل قلبى وفضلتها على نساء العالمين ، فإن هذا لا يطمس فى روحى إحساسا بأنها - مثل بقية الصنف - تبيع دموعها سرا من ذل الرق . من أجلها أيضا جعلت إذا دخلت (الكونسير) أول شيء أبحت عنه هو عازفة (الهارب) ، إذ لا آلة فيه غيرها يشتد بها اعترازى لأنها منحدره عن جدران مقابرنا الغابرة .

لا شك أنك أدركت الآن عمن أتحدث ، عن توت عنخ آمون . كنا نطوف بمومياء ونظن أنه مات ميتة ربه : عن مرض لأنه كان عليلا كما رأيت ؛ حتى جاء أخيرا بلاغ من هذين العالمين الإنجليزيين بأنها فحصا جمجمته بالأشعة السينية - وهذا هو التشريح فى عصر العلم الحديث ، لا مشروط ولا تمزيق لحم ، ولا بسيج دم ، ولا هتك للأحشاء - فتبين لهما أن بها آثار نزيف بالملخ نتيجة لضربة على الرأس ، ووجدا كذلك أثر جرح طويل بالقرب من الأذن اليسرى يحتمل أن يكون سببه تلك الضربة التى أحدثت النزيف . أقول لا شك أن الضربة كانت من (شومة) لا تزال إلى اليوم هى التى تفتح النافوخ «بهبة» واحدة : إنها المدفع الرشاش الذى اختصت به بلادنا .

هذا هو البلاغ الذى نتظر من النيابة تحقيقه على الفور . أريد أن أخدمها وأحاول أن أجد من عندى جوابا - افتراضيا طبعاً - عن السؤال الهام : من القاتل ؟ تتجه الشبهة ولا مفر للمنتفع من القتل ، إلى من خلفه فى الحكم ، الذى لم يؤمن بقول القاتل : لو صبر القاتل على المقتول ! إنه الكاهن (اى) كبير كهنة آمون ، وحامل لقب الأب الإلهى ولكن كل

الدلائل تبعد الشبهة عنه . فهو الذى ربى توت عنخ على حجره ، وكأنه يتولى الحكم فعلا أثناء حياة الفرعون الصغير .

أىكون القاتل إذن هو القائد حور محب الذى خلف (اى) فى الحكم ؟ وأنه أرهب (اى) لكتمان السر ، متوقعا لهذا الشيخ أن يموت عن قريب ويخلى له العرش ؟ قاصدا بذلك أيضا إبعاد الشبهة عنه ، لأنه ليس هو الذى قفز مكان القتيل فورا ، وربما سار وراء نعش توت عنخ آمون وهويذرف الدمع مدرارا ويلطم الخدين من فرط حزنه فيها زعم . إن كان هذا هو الذى حدث فهو أخبث قاتل عرفته بلادنا وأشدّهم لؤما . لا بد أن أعترف أننى منذ وقعت على ذكره وأنا أقرأ تاريخ تلك الفترة واسمه لا يوحى لى إلا بالشر .

ربما تعللت النيابة فى تخلفها عن إجراء التحقيق بأن الجناية قد وقعت منذ أكثر من ٢٣ قرنا ، وأن القاتل قد أفلت من يدها ، وغاص هو والضحية فى أعماق بئر الموت ، ولكنها كأنها لم تسمع بالحكمة القائلة : « ربك يمهّل ولا يمهّل » .

ها هو قد انكشف سر الجريمة التى طواها النسيان وأصبحت رائحتها الآن تملأ الخياشيم فلا بد أن تبدأ النيابة فى تحقيق هذه الجريمة فورا ، إن لم تدفع بالقاتل إلى محكمة الجنايات فلتقدمه إلى محكمة التاريخ وهى الأعلى والأبقى . وعساها أن لا تعطى للملف الجديد رقمه المسلسل بل فيمكن رقمه عندها هو رقم (١) — فهذه أقدم جناية قتل فى تاريخنا بقيت تنتظر التحقيق .

(« التعاون » ، العدد ٣٥٠ ، ٢/١١/١٩٦٩ ، ص ٩)

ارجع لنا بالسلامة . .

كأن هوجة السياحة أقلقت أيضا توت عنخ آمون . كان ثاوريا فى أمان
الله فى المتحف، إليه يحج الناس وهو لا يتحرك ، الظاهر أنه ضاق ذرعا
بجموده ، وخشى على مفاصله أن تتصلب وربما زهق أيضا من سماع نص
واحد يتكرر كل يوم من الصباح للمساء، ينطق به الأدلاء كالبيغاوات وهم
يحكون بكل لسان حكايته – وأكثر من نصفها كذب فى كذب – ولعل عينه
لمحت من خلال النوافذ أنوار النيون فى الميدان تعلن عن شركات الطيران
والسياحة وتبشر بمتع لا حد لها .

لم يقاوم الإغراء تنازل عن أبهة العرش وقرر أن يسافر ويضرب فى أرض
الله كبقية خلق الله ، بلد يشيله وبلد يحطه . . وكانت أول رحلة له على
ظهر سفينة رحلت به إلى أمريكا . . كأن ابن أقدم الأمم اشتهى أن يكون
أول لقاء له مع أحدث الأمم حتى تختصر رحلته التاريخ كله .

ولم يكد يعود حتى شد الرحال من جديد – بالطائرة هذه المرة – إلى

باريس . . لقد استحلى التجول . وعما قليل سيطلب ولا ريب تجديد جواز سفره بسبب امتلاء صفحاته .

أعتقد أن توت عنخ آمون حين سافر لأمريكا رتل صلاة خافتة على روح « برستد » . . العالم الأثرى الأمريكى . . إنه نشأ فى أسرة فقيرة ، لم يتعلم إلا بفضل إحسان بعض ذوى الخير من أثرياء أقربائه الأبعدين لا تدرى أى سر دفعه لدراسة الحضارة الفرعونية ، وهبها كل حياته وكل قطرة من دمه ، ليتك تقرأ فى الكتاب الذى ألفه ابنه عنه (رواد إلى الماضى) لتعلم كيف أعد نفسه للقاء معشوقته . . درس جميع اللغات القديمة المرتبطة بالهieroغليفية ، درس الأديان جميعها ، درس الرياضة والتاريخ والعمارة وعلم مساحة الأرض ، ثم نزل بمصر فلم يترك من شمالها إلى جنوبها أثرا فرعونيا واحدا إلا نقل بخط يده على الورق ما رآه عليه من نقوش ورسوم ولو اقتضاه الأمر أن يرقى إلى قمم الجدران الشاهقة . . إنه صاحب الفضل الأكبر فى التعريف بالحضارة المصرية القديمة لعامة القراء . . بفضل سهولة أسلوبه ، وما يشيع فيه من تعاطف إنسانى جميل ، ولكن فضله الذى لا أنساه له هو تقريره للملأ كافة بأن الضمير الإنسانى استيقظ أول ما استيقظ فى أرض مصر .

أما فى باريس فإن توت عنخ آمون سيقرأوردا كاملا - لا صلاة واحدة - على روح رجل فرنسى هو « شامبليون » . . إنه أيضا تعذب فى مطلع حياته كثيرا ولكن كتب له أن يكون القمة العليا والمورد الأوحى الذى تنبع منه كل الأنهار . . لولاه لما قام علم الآثار الفرعونية ولظلت رموزها مستغلقة . . لولاه لما نشأ عالم أثرى بعده .

على جدران المعابد والمقابر ، وعلى ورق البردى خط يعتمد على التصوير ، يحكى حكاية مصر من بدايتها . . إنه طلاس مستعصية على الحل . . عكف عليه علماء كثيرون يستنطقونه فلا يفلحون . . وظلت حضارة مصر الأولى خرساء لا تتكلم .

وفجأة في لحظة إلهام ، ولكنها أنت بعد جهد تنهد له الجبال ، عثر شامبليون على المفتاح فإذا بكتاب مصر مقروء ومفهوم . .

وكأنما إرادة المولى سبحانه وتعالى اقتضت أن تؤخر الكشف عن حجر رشيد إلى أن ييزغ في الأرض نور « شامبليون » . . ولأننى مصرى فإنى أعتقد أن كشف شامبليون لمفتاح الخط الهيروغليفى هو من أعظم الانتصارات الإنسانية وأنه أروع مثل على العبقريّة . .

دعنى أقل لك أيضا إن اليونان حينما هبت تطالب بالاستقلال عن تركيا ، لتنعم بحريتها وجدت تأييدا كبيرا من أغلب مثقفى أوروبا . . بل إن «بيرون» الشاعر أراد أن يقاتل مع أبناء اليونان . . قد يقال إنها حلقة من الحروب الصليبية ولكن الإحساس الغالب هو الوفاء لجميل الحضارة الإغريقية التى ورثها هؤلاء المثقفون .

إن جامعات إنجلترا ظلت أجيالا وعماد الدراسة فيها هو تعليم الإغريقية واللاتينية من أجل هذا سلطت أبهر الأضواء على حضارة اليونان وعلى فنونها . . من عمارة ونحت ومسرح . . مع إهمال الفن الفرعونى واتهامه . . تارة بأنه فن جامد ، وتارة بأنه فن جنائزى .

وانى أؤمل فى رحلات توت عنخ آمون أن تسلط الأضواء على حضارة

مصر ، وأن تجذب لها قلوب المثقفين فيكون لهم تعاطف مع بلادنا في
جهادها اليوم من أجل استعادة أمجادها . . من أجل أن تحيا في عزة
وكرامة . .

وأتمنى أيضا أن يسأل هؤلاء المثقفون أنفسهم – وهم يستعرضون أيام
توت عنخ آمون ويتصورون عدد المعابد والمقابر – ترى كم كان عدد
الفنانين في مصر؟ . . إنه يفوق ألف ألف مرة عدد الفنانين في حضارة
اليونان . . حتى كأنك لو قبضت – أينما كنت في مصر – على حفنة من
تراب لأحسست على الفور أنها من ذوب فن دفين في ثراها .

(« التعاون » ، العدد ١٩٨ ، ٤/١٢/١٩٦٦ ، ص ١٠ ، ٩)

صندوق عبوة سكر

وربما

« سترافيش » أيضاً

أيا كان البيت الذى ضم طفولته فلا شك ترددت فيه ولو لمرة واحدة كلمة « عيب » فأدرك منها معنى « الخجل » وأشرق فى ذهنه معنى « الضمير » .

وأيا كانت المدرسة الابتدائية التى دخلها وهو صبى فلا شك قابل فيها ولو أستاذاً واحداً ضرب له المثل فى استقامة الخلق وصبر الشريف على الشدائد لا يذل ولا يخون .

وأيا كانت الجامعة التى التحق بها وهو فتى فلا شك أنه رأى فيها – ولو على وجه واحد – معنى التبتل للعلم والإخلاص له وكراهية الجشع والدناءة .

وأيا كانت الفتاة التى خطبها حين غاريشه فلا شك أنها رأت فى عينيه – فى لحظة من اللحظات – بريقاً ينبىء بالشهامة والقدرة على حمايتها : برقة القلب والقدرة على الحنان والحب . . هذه هى اللحظة التى قالت له فيها « نعم » وهى لا تدري أى رجل تتزوج . .

وحين أصبح أبا لا شك منح أولاده وجهها يقرأون عليه معنى الرجولة والشهامة والشرف . وحين وافته الشهرة وتحاطفته سيدات الصالونات فلا شك أنه لبس رداء التواضع وأكثر في إشارته من مد كفيه مفتوحتين دلالة على أن يده نظيفة وأنه كرّس كل حياته لوجه العلم وحده . . . هكذا حسبناه — أفليس هو معدودا بين العلماء؟ — ولكن ، مع الأسف الشديد ، تكشف لنا أخيرا — وفجأة — بفضل عالم من جنسه وملته أيضا ، وهذا من أعجب العجب ، أننا كنا نخطيء أشد الخطأ في حسن الظن به ، كنا مغشوشين ومغفلين ونحن لا ندري لم نر إلا الطلاء ، لم نر ما تحته من معدن خسيس منحط ، أصبحت الآن لا أدري كيف أخاطبه ، إن أبدا لغة أقدر عليها مكرهاً ستصبح ناعمة كالحرير إذا قيست إلى خشونة فعلته . ولو سبته باثعات السمك في نابولي (وهن أساتذة الرديح والتشليق) لما غرق في سبهن بل خاضه بقدميه لأنه بلغ في الحقارة أعلى القمم . هو المستر كارتر ، العالم « ! » الأثرى الإنجليزى الذى جاء لبلادنا فاحتفينا به ورخصنا له بالتنقيب عن آثارنا . ظنناه — كما يقول هو فى نفسه — رجلا شريفاً — وها هو الحظ يواتيه — وربما ستروبيا — فكيتشف مقبرة توت عنخ آمون .

تعال معي ، واصحبه ساعة أن انفلت خلصة من الجميع ودخل وحده كاللص — إلى المقبرة ، آه ! آه ! هذا هو القناع الذهبى على وجه المومياء ينطق بالسكينة فى يد الخلود ، لا بد له أن يخلعه ليأخذه — مال على المومياء بوجه اندلق عليه الجشع ، تقلصت شفتاه وبرزت عروق رقبته وجف ريقه من شدة الميل للخطف . برقت عيناه ببريق مخيف يدل على خراب الذمة

والنهم ورغبة الخطف والسرقة ، بسرعة بسرعة ، ليس للميت عنده
حرمة ، حتى لو كان من عامة الناس ، فما بالك بفرعون مصر ! ما بالك
بالرجل الذى سيمنع هذا الخسيس شهرة لم يبلغها عالم آخر فى بلده ؟ لا
لا . . هيا هيا ، أنه يمد للجنة يدين ترتعشان باللهفة ، ها هما تنحطان على
القناع كما تنحط الحداة على كتكوت ، فإذا بهما بسبب العجلة تفصلان
رأس توت عن جسمه ، فلا يبالي ، ويلقى به جانبا كأنه كرة ، وما الذى
حدث ؟ لا شىء ؟؟

ها هو - أيضا فى عجلته وخشونته يكسر ذراعى توت وساقيه ها هو يتزع
عن الأصابع - وهويكاد يكسرها كسرا - كل ما عليها من خواتم ، ينبغى
أن نرجع القهقري فنبلغ أيام هولاكو ، وتيمورلنك لنرى آخر مثل لهذا
الأستاذ العظيم ، حين كانت تبتر ذراع الفتاة الصريعة - وربما قبل موتها -
لخلع أساورها ، وتقطم أصابعها لخلع خواتمها ، وتصلم أذناها لخلع
قرطها . هذا هو ما فعله كارتر ، وأقسم لك أن الأمر لو اقتصر على هذا
لغفرنا له ، ولكن انظر إلى هذا النمط السافل الدنىء كيف سوغ له
ضميره ، كيف رضيت له إنسانيته ، أن يجمع أشلاء توت المتناثرة ثم
يضعها فى صندوق خشبي للسكر وربما « ستترفيش » أيضا كأن هذه
الأشلاء بقايا خردة أو روبابيكيا أو نفاية حمامة . لم يكن مضطراً إلى هذا
الامتهان فقد كان يستطيع أن يضع الأشلاء وهى مكسورة فى التابوت
ويغلقه ، ولكنه كان متطوعا - بل نكاد نقول إنه كان متعجلا . إن
لصوص المقابر أشرف منه لأنهم سرقوا ولم يعيشوا بالجثث كما فعل هو ،
وبقيت فعلته كارثة مجهولة لدينا فلم نعلمها إلا حين أعيد فتح التابوت
أخيرا للكشف بالأشعة على توت عنخ آمون . حقا إنه وقع فى يد العلماء كما

طلب الرحمة من ربه في حياته فهو يطلبها منه في مماته فقد أصبحت جثته
المحنطة فرجة لمن يريد أن يتفرج . هذا هو رأسه المتورق تتبادل الأيدي كأنه
بطيخة ..

والآن أسأل نفسي : وأين كان مندوب مصلحة الآثار .. ومعه على
الأقل مائة خفير بشوارب كالصقر - حين تسلل كارتر إلى المقبرة وارتكب
فعلته ؟ .. ما فات فات ولكني أقترح الآن على مصلحة الآثار أن تعلق على
بابها لوحين ، لوحة شرف على يمينه تسجل فيها أسماء العلماء الذين عاملونا
بشرف وأمانة ، وقائمة سوداء على اليسار تسجل بها أسماء من غشنا من
أمثال كارتر والأثرى الألماني الذي قام بتهريب رأس نفرتيتي ..

لا شيء يطفئ الغضب مثل اليأس وها أنذا أشعر به في ختام مقال
فأقول إن أمة ترضى بالقعود وتترك للأجنبي الكشف عن آثارها ، عن
بتروها ، تترك له كتابة تاريخها تستحق كل ما يجري عليها .

(« المساء » ، ١٦ / ١٢ / ١٩٦٨ ، ص ٦)

المنبع

إذا سألتني عن أهم تطور لحق مجتمعا بفضل ثورة ٢٣ يوليو لما اكتفيت بتغليب التطور الجسيم الأخير الذي ينعقد القمة ويتمثل في تطبيق نظام اشتراكي خاص بنا في بلدنا ، مع أن الاشتراكية - مهما اختلفت أشكالها - تحول جذري شامل يمتد إلى جميع مجالات الحياة فيقلبها من وضع إلى وضع حتى ليصح القول بأن لا شبه بين وجه المجتمع بعدها ووجهه قبلها ، لن أكتفى بذكرها ، بل سأنفذ منها ومن كافة صور تطبيقها عندنا لأصل إلى شيء آخر هو الذي يصح - في اعتقادي - وصفه بأنه أبلغ تطور لحق حياتنا بفضل الثورة ، إنه المنبع الخفي الذي تصدر عنه كافة التيارات الظاهرة ، هذا المنبع هو تطورنا من حال كنا نحتقر فيه قدرتنا بتقليد الغرب وتتبع خطوه والمشي على هديه إلى حال أصبحنا نملك فيها النظرة المستقلة والثقة بالنفس ولا نخاف من الاعتماد عليها . فكفنا عن تقليد الغرب تقليداً أعمى ، وأخذنا نفصل جميع ملابسنا على قَدُّنا من قماش من صنع بلدنا .

ويخطيء من يحسب أننا نفعل هذا بسبب ازدرائنا بالغرب أو حكمنا

القاطع بإفلاسه ، حقا إننا نقول هذا الكلام أحيانا بلا نحن عليه ، فالغرب نفسه لا ينكر أن بعض أنظمته قد أفلست ، وأن قياد الحضارة يوشك أن يفلت من يده ، ولكنى لا أحب الغلو في هذا الاعتقاد حتى يحجب عن عينك ما لأهم تطور في مجتمعتنا - وهو كما قلت الكف عن تقليد الغرب تقليدا أعمى - من عماد رئيسى - بل من عماد وحيد - وأعنى به ثملكننا للثقة بالنفس والاعتماد عليها . فإن مثل هذه النظرة تستبقى لنا اعتدال الحكم ، وليس من نيتنا ولا من شأننا أن نحاكم الغرب ونقيم من أنفسنا قضاة يفصلون في قضاياها ، بل نحن أصحاب قضية يجرى وراءها ملايين من أهلنا ، نحاول كسبها في محاكم بلدنا ومن الخير أن نركز عليها اهتمامنا .

كان يصلنا بالأمس القريب من الصناعة فتات على سبيل العارية بحيث لا نحس أننا نملكه ، الدور الذى رسمه لنا صاحبها وقصرنا عليه هو دور الخفير الواقف على باب المصنع ، وفي يده بندقية لا تقتل عصفورا ، لا يحسن إلا دق الأرض بـرجله وضرب السلام لجناح الخساجة الباشمهندس الذى يعرف وحده أسرار المصنع .

حدث هذا أيضا في المعاهدات المعقودة مع حكومة لندن أثناء الاحتلال ، ترك بأرضنا قاعدة بريطانية بأسلحة حديثة لا نملك مثلها ، وكل الذى تطلبه منا أن نقف على باب القاعدة كهذا الخفير وعلى كتفنا بندقية مثل بندقيته .

وكنا نستورد العلم وهو عارية أيضا لا نملك فيه حق التصرف فلا عجب أن عجزنا عن أن نحدث فيه جديدا من ابتكارنا .

أما اليوم فنحس أننا أصحاب الصناعة القائمة في بلدنا ، حقا إننا لا نزال نستورد من الغرب أدوات كثيرة ولكننا كففنا عن التسليم بأنها عارية ، بل نشعر أنها ملك لنا وأننا مسئولون عن صيانتها وتجديدها والنهوض بها .

ونحس كذلك بأننا أصبحنا نملك العلم الذى لا نقول إننا نستورده ، بل نقول إننا نشارك في تملكه لأنه حق شائع للناس جميعا ، وحين ملكناه أحسنا أننا مطالبون — بل وقادرون على أن نساهم في تقدمه ودفع عجلته إلى الأمام .

وهذا التطور خطير كما قلت ، فإن مسئولية النجاح أو الإخفاق لم تكن في عنقنا ، لا ضير علينا أن نقف موقف الأغا على باب الحريم أو موقف المتفرج من بعيد لبعيد ، شرف النجاح وعار الهزيمة لغيره ، أما هو قصفر اليدين ، سعادته في غفلته ، هو والبهم السائمة سواء .

وأكبر دليل على حقيقة هذا التطور البليغ أن الغير أقدر منا على رؤيته وتقدير نتائجه القريبة والبعيدة ، فقد لا نحس به لأننا منغمسون فيه ، ومن حسن الحظ أننى أكتب هذا المقال فى اليوم الذى نشرت فيه الصحف تصريحاً للرئيس الباكستانى « أيوب خان » يؤكد فيه بأننا سيكون لنا دور قيادى رئيسى فى المجتمع العالمى ، ربما وصل إلى هذا الاعتقاد عن طريق أسباب لا نقرها ولأغراض لا نرضاها ، وعمد إلى مبالغة بحسن بنا أن نقبلها بحساب ، ولكن أساس تصريحه على كل حال هو إيمانه بتقدمنا أو قل بمقدرتنا على التقدم أفطن بعد ذلك أن يصدر منه هذا التصريح إلا إذا

أحس هو من بعيد بهذا التطور البليغ الذى لحق حياتنا . إنه قادر على الرؤية لأنه يعيش وسط شعوب آسيوية تتشابه ظروفها مع ظروفنا ، فهل عليه أن يوازن بيننا وبينها ، هذا هو تفسير تكالب الاستعمار على محاربتنا وتقويض صلاتنا بالدول الإفريقية ، أولا بالدس والخديعة والأكاذيب ، لأنه يعلم أننا قلب إفريقيا وأن الصوت الذى يرتفع من القاهرة يدوى فى أرجائها .

يخطئ كذلك من يحسب أن تملكنا للصناعة والعلم سيجعلنا نشم بأنوفنا ونغد يدنا من أعلى إلى أسفل ، إذا أخذنا فبحذر ومقدار ، وإذا أعطينا فبمن واستعلاء . كلا ، فإننى أعتقد أن طلبنا للعلم والصناعة سيزداد عما كان من قبل بكثير ، لقد اختفى مركب النقص ، والعبد المقلد لسيدته مهما بلغ شبهه بالقروء محدود القدرة بسبب عجزه وقلة حيلته وجهله بما ينفعه ، هو أسرع إلى تقليد القشور دون اللباب لأنه أميل إلى الراحة وفراغ البال ، أما الرجل الحر الواثق بنفسه فلا ترضى له كرامته إلا أن يمتحن همته ويرى فى تأخره عارا عليه ولا يمنعه طلب العلم من صاحبه أن يقف منه موقف الند للند ، فيسهل بينهما الأخذ والإعطاء .

لم نكن بالأمس نحمل المسئولية ، أما الآن فهى فى أعناقنا ، لا مهرب لنا منها فإذا أدركنا هذا وجب علينا حشد كل الجهود من أجل أن نتصر . . نتصر لأنفسنا أولا ، ولأن العالم يرقبنا . . لم يبدأ الشرق يقلد الغرب إلا بعد صدام عنيف بينهما خرج منه الشرق فى النهاية مغلوبا على أمره ، ولكنه لم يفقد فى يومه أمله فى النهوض ، سأحدثك فى مقال قادم عن تاريخ هذا الصدام ، لن أعود به إلى الحروب الصليبية لا لأن الشرق قد خرج منها

منتصرا بل لأن الفروق من الجانبين لم تكن حيثئذ جسيمة ، سأكتفى بالبدء بعصر الجبرق وأروى لك ما حدث له يوم الأربعاء ٥ ديسمبر سنة ١٧٩٨ ، ثم أروى لك كيف تبينت هذا الصدام منذ مطلع حياتي ، فأقص لك ذكرياتي عن سقوط أدرنة ، وطرابلس الغرب ، وحرب اليابان وروسيا ، وهزها لقلوبنا في مصر ، وكيف أخطأنا في فهم حرب « البوير » حبا في عداوة إنجلترا ، كيف استقبلنا في مصر أول طيارة يقودها أجنبي ، وكيف استقبلنا بعد ذلك أول طيارة يقودها مصري ، ماذا كان موقفنا في الحرب العالمية الأولى ، والهزة العنيفة التي أحدثتها في قلوبنا حروب مصطفى كمال ، ثم خيبة الأمل فيه ، ثم تراجع أهميته إلى الصفر ، ما أعجبه من تاريخ ..

(« المساء » ، ١١/١٢/١٩٦١ ، ص ٨)

٥ ديسمبر سنة ١٧٩٨

لم نصل إلى تملك الثقة بالنفس والاعتماد عليها إلا بعد أن مر الشرق بتجارب طويلة تمثلت في تطور شعور أهله إزاء تفوق الغرب عليهم . وخير وسيلة في نظري لفهم الشرق في العصر الحديث هي التي تتبع المظاهر التي تنم عن تطور هذا الشعور الداخلي ، ولا تكتفى بدراسة مراحل الجهاد من أجل التحرر السياسى فإنها سافرة مكشوفة وكتابتها سهلة ، بل تدرس أيضا تيارات أشد خفاء وأشق تبينا كان هدفها هو التحرر الفكرى . سأحاول أن أمسك الخيط من أوله ، فأرجع إلى كتب التاريخ ، ثم أدلى لك بشهادتي حين نصل إلى العشرينيات الأولى من هذا القرن .

بدأ عندنا لقاء الشرق والغرب بصدمة عنيفة تلاها انبهار فتقليد أعمى للتوافه من المظاهر المادية ، ثم يقظة وفرز واقتباس عن فهم ، وليس بين الفهم و تملك الثقة بالنفس إلا خطوة هينة . على هذا الخط البيانى يمكننا أن نرسم أيضا تطور بلدنا من مستعمرة زراعية اقطاعية إلى مجتمع زراعى صناعى اشتراكى مستقل ، وأن نرسم كذلك تطور الوعى القومى .

استسلم الشرق بعد انتصاره في الحروب الصليبية إلى الوهم بأن عالمه
المقفل مستوف لأسباب البقاء . الدفاع موكول إلى فرسان ، كل واحد
منهم يرى نفسه عترة بن شداد ، إذا امتشق الحسام صنع سوق السلاح ،
وركب جواده المطهم ، مهمازه من ذهب أو فضة ، وسرجه تحفة فنية ،
وخرج للقتال وهو مكشعر عن أنيابه ، أو بارم ذيله ، يصرخ ليلقى الرعب
في القلوب : هل من مبارز ؟ هل من مقاتل ؟ فهيهات أن يصمد له خصم
ولو كان أشجع الشجعان . إنهم جربوا سهولة الانتصار في محاربة بعضهم
البعض ، فلم يكن تاريخ مصر حينئذ إلا « كرشة » عظيمة من القلعة
للصليبية إثر « كرشة » أعظم من الصليبية للقلعة .

الزراعة والحرف شغلة شعب صبور يحب النكتة ، ولا ينكسر ظهره
مهما ثقلت المظالم ، ثم لم الخوف ؟ . . أليس الأزهر وبقية المساجد عامرة
بالعلماء حفظة الشرع الشريف ، يموج فيها طنين يسمع عن بعد وينزل بردا
وسلاما على قلوب العباد فيثقون بأن الدنيا بخير كأنما أخذوا على ربهم ميثاقا
بنصرهم على كل معتد ، لأنهم في إيمانهم على نور ، وعدوهم من كفره في
ظلام حالك .

فإذا بمصر تنحبطها صدمة عنيفة ، تمثلت في حملة نابليون سنة ١٧٩٨ ،
جاءها بفكرة مبتكرة بسيطة في فن الحرب : جنود منتظمون تحت قيادة
ضباط مدربين يصطفون في المعركة على هيئة مربعات ، والمدافع مقامة على
الزوايا . فإذا بهذه الفكرة البسيطة تحرق فرسان الشرق كالهشيم . لم تطل
معركة شبراخيت أكثر من ربع ساعة ، وموقعة الأهرام أكثر من ثلاثة

أرباع الساعة ، وانهزمت شجاعة الشجعان أمام تفوق الآلة والتكنيك الحربي الحديث . فطويت إلى الأبد صفحة فنون الشرق في الحرب .

وجاء نابليون أيضا بأفكار علمية كثيرة متمثلة في جيش لجب من العلماء ، في الرياضة والفلك والميكانيكا والطبيعة والكيمياء ، وطبقات الأرض والمعادن ، والنبات والحيوان ، والطب والجراحة والصيدلة ، والاقتصاد السياسى ، والعاديات والآثار ، وهندسة المعمار ، والتصوير والرسم ، وهندسة الرى والقناطر والطرق ، والهندسة الجغرافية والبحرية ، وهندسة الآلات الرياضية وصناعة الساعات ، والنقش والحفر ، والآداب والموسيقى ، والترجمة والطباعة ، فكان لامفر من أن تستيقظ مصر وتتأمل هذا العلم الحديث الذى جاءها به الغاصب وتغلب بفضلله عليه .

من حسن الحظ أن كان يعيش فى مصر حينئذ رجل ، لأعرف من أجدادنا أحدا يفوقه فى قدرته على تملك حبى وإعجابى وعلى تثبيت الاعتزاز ببلدى فى قلبى . هذا هو الجبرق مؤرخ مصر العظيم . ومن حسن الحظ أيضا أنه كان يمثل أرقى ما وصلت إليه الحضارة الشرقية ، وكان أبوه الشيخ حسن قد مضى بعلوم الأزهر إلى أقصى حد عرفته مصر . ليس المهم أنه وقف بعد أن وصل إلى شاطئ العلوم الحديثة ، بل إن المهم أن ذهنه كان متفتحا ، لا يشله الغرور أو التعصب . فنحن إذن بإزاء شهادة رجل مثقف متزن حكيم نشأ فى بيت من أرقى بيوت القاهرة فى ذلك العهد .

إننى أعتبر يوم ٥ ديسمبر سنة ١٧٩٨ من أهم أيام مصر الحديثة ،

ولهذا اتخذته عنوانا لهذه الكلمة . ففي ذلك اليوم خرج الجبرق من داره ليتفرج على ما يفعله الفرنسيون في هدم المباني لشق طرق حديثة في قلب العاصمة ، تستهدف - كطرق معاهدة سنة ١٩٣٦ - أغراضا حربية تحت ستار من أغراض عمرانية . فلما رجع لداره كتب لنا مايلي :

« فعلوا هذا الشغل الكبير والفعل العظيم في أقرب زمن . كانوا يصرفون الرجال من بعد الظهر ، ويستعينون في الأشغال وسرعة العمل بالآلات القريبة المأخذ السهلة التناول المساعدة في العمل وقلة الكلفة . كانوا يجعلون بدل الغلقان والقصاع عربات صغيرة ويدأها ممتدتان من خلف ، يملأها الفاعل ترابا أو طينا أو حجارة من مقدمها بسهولة ، بحيث تسع مقدار خمسة غلقان ، ثم يقبض بيديه على خشبتيها المذكورتين ويدفعها أمامه فتجرى على عجلتها بأذن مساعدة إلى محل العمل فيميلها بإحدى يديه ، ويفرغ ما فيها من غير تعب ولا مشقة ، وكذلك لهم فؤوس وقزم محكمة الصنعة متقنة الوضع ، وغالب الصناع من جنسهم ولا يقطعون الأحجار والأخشاب إلا بالطرق الهندسية على الزوايا القائمة والخطوط المستقيمة » .

هكذا كانت تعيش مصر في عالمها المقفل إلى حد أن عربة نقل صغيرة بعجلة أمامية واحدة بدت للجبرق كأنها معجزة شيطانية . ينبغي أن لا تقتصر على الابتسام بمحبة لسذاجة الجبرق ، بل نتأمل قوله بإمعان ففي وصفه دلالة بينة على الفروق العميقة بين عقلية الشرقى وعقلية الغربى ، فلو كان محله رجل أوربى وشاهد مثلا على تفوق فى الإنتاج لما انشغل حتى ذلك الوقت إلا بحساب الفرق بين أجر العمل اليدوى والعمل

الآلى ، وقاس هذا الفرق بمقياس الفائدة المثوية لقرض يستدينه من ممول
لشراء الآلة الحديثة ، وفرح لقدرته على الانتصار على منافسيه ولو خربت
بيوتهم

ولا يعكر مزاجه فى التفكير فى مصير العامل الذى ستوفره الآلة . هذه
هى العقلية التى قامت عليها عظمة النظام الرأسمالى . وأما الجبرى ، فإن
أورد لفظ الكلفة فى كلامه ، فمن الواضح أنه لم يكن معنيا إلا بأثر الآلة فى
التخفيف من سخرة الإنسان فى العمل الجسمانى . إنه يتحسر على قومه ،
لا لأنهم يصرفون مالا أكثر ، بل لأنهم يعملون كالحیوان . وبقيت هذه
العقلية غالبية على أهل الشرق زمنا طويلا ، وظل نجاحهم فى التملص منها
موضع شك دائم .

لم يكتف الجبرى بالفرجة على شق الطرق يوم ٥ ديسمبر سنة ١٧٩٨
فهو قد ذهب أيضا فى اليوم ذاته - ياله من يوم عظيم - إلى المجمع العلمى
الفرنسى ، وشاهد مكتبته ووسائل تيسيرها للعلم على طلابه ، وحضر
بعض التجارب الكيمائية والطبيعية التى هى أشبه بألعاب السحرة فى
السيرك . ثم عاد لداره ووصف لنا ما شاهدته بدهشة طفل ساذج كما
سنرى .

فهل أنا مبالغ إذا قلت إن الصدمة العقلية العنيفة بين الشرق والغرب
حدثت يوم ٥ ديسمبر ١٧٩٨ ؟ . . استيقظت مصر وأدركت أن هناك علما
حديثا غير علمها القديم وأن هذا العلم الحديث - لا المربعات العسكرية
ومدافع الزوايا وحدها - هو سر غلبة الغرب على الشرق مصر فى ذلك

اليوم هي الجبرق ، هي التي وقفت أمام هذا العلم الحديث موقف المنبر المتقطع الأنفاس .

لن يكون لها بعد ذلك سؤال لنفسها إلا قولها : هل أستطيع أن أملك هذا العلم ؟ وكيف أستطيع أن ألحق من سبقني ، ولا أقول أتقدمه ؟ أم تراني لن ألحقه أبدا لأنه يزداد ابتعادا عني كلما جريت وراءه ؟

وطال عهد الانبهار ، لأن الغرب انتقل في فتوحاته العلمية انطلاقا سريعا مذهلا ، ومن السهل أن يختلط الانبهار باليأس والحسرة والقنوط ، وقد شهدت بنفسى مظاهر هذا الانبهار وهذه الحسرة حين رأت مصر أول طائرة تصل إلى سمائها في مطلع هذا القرن كما سأرويها لك في مقال التالى .

والآن تعال معى نستمع لوصف الجبرق لما شاهده في اليوم العظيم يوم ٥ ديسمبر سنة ١٧٩٨ :

« ومن أغرب ما رأيته في ذلك المكان أن بعض المقيمين به أخذ زجاجة من الزجاجات الموضوع فيها بعض المياه المستخرجة ، فصب منها شيئا في كأس ، ثم صب عليها شيئا من زجاجة أخرى فعلى الماءان وصعد منها دخان ملون حتى انقطع وجف ما في الكأس وصار حجرا أصفر فقلبه على البرجات حجرا يابسا أخذناه بأيدينا ونظرناه ، ثم فعل كذلك بمياه أخرى فجمد حجرا أزرق ، وبأخرى فجمد حجرا أحمر ياقوتيا . وأخذ مرة شيئا قليلا جدا من غبار أبيض ووضعه على السندان وضربه بمطرقة بلطف فخرج له صوت هائل كصوت القرابانة (البندقية) انزعجوا فضحكوا

منا ، وأخذ مرة زجاجة فارغة مستطيلة في مقدار الشبر ضيقة الفم فغمسها في ماء قراح موضوع في صندوق من الخشب مصفح الداخل بالرصاص وأدخل معها أخرى على غير هيئتها وأنزلها في الماء وصعدهما بحركة انحبس بها الهواء في إحداهما ، وأتى آخر بفتيلة مشتعلة وأبرز ذلك فم الزجاجة من الماء وقرب الآخر الشعلة إليها في الحال فخرج ما فيها من الهواء المحبوس وفرقع بصوت هائل أيضا . وغير ذلك أمور كثيرة وبراهين حكمية تتولد من اجتماع العناصر وملاقاة الطبائع ، ومثل الفلكة المستديرة التي يديرون بها الزجاجة فيتولد من حركتها شرر يطير لملاقاة أدنى شيء كثيف ، ويظهر له صوت وطققة ، ولو لمس علاقتها شخص ولو خيطا لطيفا متصلا بها ولمس آخر الزجاجة الدائرة أو ما قرب منها بيده الأخرى ارتد بدنه وارتعد جسده وطققت عظام أكتافه وسواعده في الحال برجة سريعة ، ومن لمس هذا اللامبس أو شيئا من ثيابه أو شيئا متصلا به حصل له في ذلك ولو كانوا ألفا أو أكثر ولهم فيه أمور وأحوال وتراكيب غريبة ينتج منها نتائج لاتسعها عقول أمثالنا . . . »

حبذا لو قرأت كلام الجبرقي كله ، فإنك لو فعلت لأحبته كثيرا وأحببت بلدك أكثر وأكثر .

(المساء ، ١٨ / ١٢ / ١٩٦١ ، ص ٨)

حوت وهدد وغراب وحدأة وطاووس ونحلة وفوق البيعة بساط الريح والجن الأزرق

غرق الجبرق في الذهول حين شهد بعض الأعياب الكيمياء في المعهد
الفرنسي يوم ٥ ديسمبر سنة ١٧٩٨ ، وله العذر ولكن لاشيء يدل على
خمول بلاد الشرق وتخلفها حيثئذ أكثر من ذهوله أيضا لأنه رأى الفرنسيين
وهم يشقون الطرق يستعينون في نقل الأتربة بعربة يد صغيرة لها عجلة
واحدة حملها خمسة غلقان - وعدها من العجائب

وظل الغرب بعد ذلك - بفضل تملكه للعلوم الحديثة - يقف من
الشرق وهو يذله ويستعبده موقف المستعلى المتحدى ، موقف الرجل
الواعى الأزرق الناب من طفل ساذج غرير ، وحرص على أن يبقى هذه
العلوم احتكارا في يده ، بل أن يشع من حوله جوا من الإرهاب كما يكشر
القط عن أنيابه وينفخ . له اسطوانة واحدة يديرها على سمعنا : «إن شاء
الله» في دينكم ، وعجز عقولكم عن المنطق التركيبي ، وعجز لغتكم
القديمة عن مسايرة الزمن وطبيعة جوكم وبلادكم . عوائق هيهات لكم أن

تتغلبوا عليها ، فاقنعوا بحالكم ، وبحفظ القرآن في كتابتكم ، وقراءة كتبكم الصفراء في المساجد وانشاد « دلائل الخيرات » في التكايا ، واتركونا ندبر أموركم ونستخرج كنوز أرضكم ، ثم نجود عليكم تكريماً وإن شئنا بشمار هذا العلم الحديث ، كل عملكم هو الانتفاع بها لا صنعها . لم تتورع بجاحتهم الصفيقة من ترديد هذا الكلام في كتب المطالعة التي كنا نقرأها في مدارسنا الابتدائية

وقد نشأت وآثار هذا الدهول مخيمة على بلدنا ، سمعت من أمي -رحمها الله أن أهل قريتها ضربوا كفا بكف من شدة العجب حين علموا أن بالعاصمة عربية مسحورة بلا خيول على قضبان اسمها الترمای . . . يا أولاد ! . .

بل نشأت في عهد كان الناس يتندرون فيه بأهل مديرية الشرقية الكرماء ، لأنهم حين رأوا القطار يمر بأراضيهم ويزعق وقر في أذهانهم أنه مخلوق له عقل وإرادة وصوت ، وإلا كيف يجري وحده ويزعق ، وقرروا أن يقيموا له « عزومة » كبيرة ليتغدى أو يتعشى عندهم بجلالة قدره .

وسمعت بأذني وأنا صبي أناسا يرون من الإنصاف أن يمدحوا الاحتلال البريطاني لأنه جاءهم بالترام والكهرباء ، كما سمعت أكثر من مرة تأكيدات بأننا نعجز عن صنع إبرة .

هذا هو الجو الذي نشأت فيه .

وتوالت فتوحات شياطين الغرب . وكما كانت بعض الشعوب تتلهف على ظهور المسيح المنتظر كذلك كنا نتلهف على أن يخرج من بيننا رجال

يبتلون استعلاء الغرب وتحديه . لم نكن في مصر نصر على أن يخرج هؤلاء الرجال من بلدنا ، بل كنا على استعداد أن نظير فرحا لو خرجوا من أى بلد شرقى ، من تركيا مثلا ، أو حتى من اليابان وبيننا وبينها آلاف الأميال ، لا لشيء إلا أنها من بلاد الشرق وإن كانت في أقصاه .

حقا لقد أنبت ثرى مصر في تلك الحقبة نفرا قليلا من العلماء الأفذاذ ، يضارعون بل يفوقون أندادهم في الغرب ، كالمرحومين عثمان غالب ومحمود الفلكى . أما الأول فقد برع في علوم النبات ، وهاجر من مصر أنفا أن يعيش تحت ظل العلم البريطانى ، وأما الثانى فاقرا ما يقوله عبد الرحمن الرافعى عن جانب ضئيل من مواهبه المتعددة :

« له رسالة بديعة باللغة الفرنسية عن الاسكندرية القديمة طبعها سنة ١٨٦٦ ، وهى رسالة تتضمن نتائج مكتشفاته ، وما قام به من النقب والحفر ، وما وصل إليه من كشف معالمها القديمة كأسوارها وشوارعها وأفنياتها ومسارحها ومتحفها ومكتبتها الشهيرة وقصورها ومبانيها وضواحيها . ولم يسبقه إلى هذه المكتشفات المؤسسة على عمليات الحفر عالم عصرى من الإفرنج » .

ولكن تفوق هؤلاء الأبطال الذين ينبغى أن نذكرهم بإجلال على الدوام كان مع الأسف فى علوم لا تتصل بحياة الشعب ولا تبهر أبصاره .

لم يحدث إدخال القطار والترام والكهرباء فى بلدنا صدمة مذهلة ، بل كانت هذه المخترعات بمثابة خبطات هينة متتالية على رأس دائخ ، ولكن

الصدمة المنتجة للذهول والتي تذكرنا بصدمة الجبرق تمثلت في اختراع الطائرة وقدمها أول مرة لسماء مصر إنها معجزة المعجزات ، كيف يمكن للعقول أن تدرك ارتفاع جسم ثقيل في الهواء ليسبح في السماء كالخوت في البحر . .

إن صانعي هذه الطائرة هم من الجن لامن الإنس ، أوهم من طينة غير طينتنا . وقال الشرق لنفسه : كيف نلحقهم في الأرض وقد سبقونا إلى السماء . . وبلغ بنا السخف أشده حين حاولنا أن نعزى أنفسنا بتذكر رجل عربي اسمه من قبيل السجع : عباس بن فرناس . لأزال أذكر إلى اليوم مدرس اللغة العربية في المدرسة الابتدائية يلى علينا قصته ، كيف صنع له جناحين من الريش ، ثم ألقي بنفسه من مئذنة ونسى أن يجعل له ذنبا فوقه على زملة ومات . كان المدرس متنفش الصدر مزهوا بأن أحد رجال الشرق هو أول من حاول الطيران ، وكنا نحن التلاميذ أشد منه زهوا : مرة من أجل عباس بن فرناس ، ومرة لأن كلمة « زملة » هذه كانت جديدة علينا ، وكانت تبعث فينا طربا عجيبا لاندري سبيه .

كنت صبيا في سن السابعة ، ولكني لأزال أذكر إلى اليوم بوضوح كيف خفقت قلوبنا سنة ١٩١٢ انتظارا لمقدم اثنين من الضباط الأتراك هما : نوري بك وفتحى بك في رحلة لهما بالطائرة من تركيا إلى مصر . كنا نريد أن نستقلهم بالأعناق والورود والرياحين لالشيء إلا لرد الاعتبار ومسح الكسوف . ولكن مع الأسف ، حتى تباهى القرعاء بشعر بنت أختها لم يكن من نصيبنا ، فلم تكد الطائرة التركية تجتاز جبال الطوروس حتى هوت إلى الأرض ومات الاثنان ، وعدهما الشرق من الشهداء ودفنهما

فى مدخل قبر صلاح الدين بدمشق ، لا يزال قبرها قائما هناك إلى اليوم ،
و حين زرتة أحزننى أن يدا لأعرفها انتهزت فرصة تجديد القبر بعد
الانقلاب الكمالى فى تركيا كما يبدو وكتبت على رخام القبر سيرة البطلين
بالأحرف اللاتينية ، و خيل إلى أن فتى بك ونورى بك بضجان فى
مرقدى من هذه الفعلة الشنيعة . . ولعل صلاح الدين نفسه متململ
مثلها .

من الذى يتصدى لراثىها فى مصر غير أحمد شوقى رحمه الله ؟ . . رغم
كل ما يقال عن تبعيته للسراى فى القاهرة واستانبول واتهامه بأنه كان ندابة
تعدد بلا دموع فى كل المآتم ، ورغم تعودنا الآن الإزاء بشعر
المناسبات ، فإننى حين أقرأ ديوانه اليوم أعجب له كيف استطاع أن يجعل
شعره سجلا حافلا بتاريخ مصر الحديث .

لا زال أذكر تهج صوت أبى وهو يتلو علينا هذه القصيدة يوم
ظهورها ، وبقى مطلعها عالقا بذهنى بفضل رنته الموسيقية :

انظر إلى الأقمار كيف تزول
وإلى وجوه السعد كيف تحول

الشرطة الأولى جميلة والثانية ركيكة ، ثم عقدت الصدمة لسان
شوقى ، إنه وإن أشاد بالفداء وبمن يبذل من ماله وجهده وعلمه لنفع
الناس إلا أنه لم يأت بإشارة تدل على مغزى هذه الرحلة فى نظر أهل
الشرق ، بل اندفع بعقلية الشرقى إلى التفلسف السطحى كعادته كلما جاء
ذكر الموت . ولكن ينبغى أن لا أنسى له ثبؤة فى هذه القصيدة حين عبر عن

خشيته من أن تصبح السماء مسرحا للحروب والفتك والدمار . وأحب أن تعلم أن أول قنبلة سقطت على أم رأسنا في الشرق ، ألقت بها طائرة حربية إيطالية على الجيوش المدافعة عن ليبيا وقت غزوها سنة ١٩١٢ ، لاتزيد عن حجم برتقالة محشوة بارودا ، هكذا قرأنا وصفها في « الأهرام » ، ولكنها كانت فاتحة الغارات الجوية التي دمرت وارسو وبرلين ونورمبرج وهامبورج ، ولأقول لندن أيضا ، لأن الإنجليز غالوا كثيرا في وصف الدمار الذي لحقها . وكانت هذه البرتقالة إيذانا بمولد القنبلة الذرية من قوة ١٠٠ مليون طن ديناميت . ولست أدري هل كتب شوقي قصيدته سنة ١٩١٢ قبل أو بعد سقوط هذه القنبلة ، ولعل أستاذنا الجليل صبرى السوربونى يأتينا بالخبر اليقين . قال شوقي :

« إني أخاف على السماء من الأذى
في يوم يفسد في السماء الجليل
كانت مطهرة الأديم نقية
لا آدم فيها ولا قابيل
يتوجه البعاني إلى رحباتها
ويرى بها برق الرجاء عليل
ويشير بالرأس المكلل نحوها
شيخ وباللحظ البريء بتول
واليوم للشهوات فيها والهوى
سيل وللدّم والدموع مسيل
أضحت ومن سفن الجواء طوائف
فيها ومن خيل الهواء رعيّل

وأزيل هيكلها المصون وسره
والدهر لسر المصون مزيل
انتبه لركاكة هذا الشعر فإن لها دلالة عميقة .

نسى شوقى مصرع فتحى بك ونورى بك ثم استيقظ معنا من جديد
بعد سنتين حين قدم لمصر طيار فرنسى اسمه « فيدرين » ليدور فى سماء
بلدنا ويذهل أهلها مرة أخرى (كأنما كان مكتوبا علينا فى هذا العهد ألا
نصاب بالذهول إلا على يد الفرنسيين » وأذكر إلى اليوم كيف صحب أبى
أسرته كلها رجالا ونساء وصبياننا من حيننا القديم إلى مصر الجديدة لتعجب
برؤية الطائرة .

وسجل شوقى فى قصيدة له قدوم هذا الفرنسى ، ولكنه أصر هذه المرة
على أن يصف الطائرة بالشعر الذى طالما وصف الإبل ، فقال بعنوان « آية
العصر فى سماء مصر » ، وهو عنوان سخيف السجع :
مركب لو سلف الدهر به
كان إحدى معجزات القدماء
نصفه طير ونصف بشر
يالها إحدى أعاجيب القضاء
رائع ، مرتفعاً أواقعا
أنفس الشجعان قبل الجبناء
مسرح فى كل حين ملجم
كامل العدة مرموق الرواء

كبساط الريح في القدرة أو
هدهد السيرة في صدق البلاء
أو كحوت يرتقى الموج به
سابع بين ظهور وخفاء
علا الجو فعلا وغدا
عجب الغربان فيه والحداء
وجناح غير ذى قائمة
كجناح النحل مصقول سواء
فيذا جاز الثريا لثرى
جر كالطاووس ذيل الخيلاء
يملأ الآفاق صوتا وصدى
كمزيف الجن في الأرض العراء

في ركافة قصيدته الثانية التي فاقت ركافة القصيدة الأولى شاهد على
أن شوقى أصيب بالذهول أمام الطائرة ، وإنعقد لسانه فلم يعد يعرف
ما يقول ، ودلق علينا جميع الحيوانات من حوت وهدهد وغراب وحادأة
ونحلة وطاووس ، وفوق البيعة بساط الريح والجن الأزرق . . الطائرة في
نظر شوقى هي عربة نقل الأتربة في نظر الجبرقى .

لن نستطيع بغير هذا أن نفهم الهبة العجيبة التي حركت مصر كلها
وهي تستقبل أول طائر مصرى يصل إليها من أوربا عبر الجبال والبحار . .
وهذا ما سأرويه لك في مقالى التالى .

(المساء ، ٢٥/١٢/١٩٦١ ، ص ٨)

هذا العيد

في ندوة عقدها لنا أخيراً الشاعر الفرنسي بيير برنار وهو يختتم زيارته الأولى للقاهرة قال إنه لم يحس — على نقيض ما كان يتوقع — بانتقاله من الغرب إلى الشرق . فالفندق الذى نزل فيه هو نسخة مكررة لأمثاله في بلده . والأدهى من ذلك أن الأثاث المعروض في متاجرنا هو من طراز أوروبى محجبه الآن ذوق الأوروبيين أنفسهم، نبذوه ونحن نتعلق به . ومضى خيال الشاعر إلى أبعد من ذلك فقال : إن صورة الحرب التى رسخت في ذهنه إلى النصر هى تسليح قوات قليلة في ستر الليل إلى مواقع العدو ، تباعته مع الفجر — فكأنما انشقت الأرض عنها — وتضربه ضربة واحدة سريعة ثم تكرر راجعة . فما بالناس في حرب يونيو حشدنا الجيش كله وصففناه على الحدود وفقاً لتكتيك مستورد قد لا نحسنه .

وحرص الشاعر — وهو شاب رقيق شديد الحياء — على القول في نهاية الندوة بأن آخر شيء كان يتوقعه هو التصدى للتحديث أمام جمع من

الناس ، تتعلق به نظراتهم ولا تتحول عنه . إنه حمل هم هذه الندوة وأرق له فهو شاعر وليس محاضراً . ولكن برنامج زيارته كان يقتضيه أن يرقى هذا المركب الصعب . وأبعد شيء عن ذهنه إذن هو النقد ، أو حتى التطوع بالنصيحة واقتراح علاج ، إنما يحدثنا من قلبه حديث صديق لصديق ، غاية مقصده أن يفصح لنا عن خواطره ، أن يسألنا لمجرد العلم : من نحن ؟ أليس لنا كيان متوارث نتميز به ويدل علينا ؟ لماذا نكف عن أن نكون شهداء على حضارتنا ، حضارة العرب ، وهى سند تاريخنا ، ونصر على الدوبان فى حضارة أخرى ، منبثقة عن منابع غير منابعنا ، كثير من ملاحظها لا يحمدها أهلها هم أنفسهم ، ثم لا نقبس منها إلا القشور لا اللب .

وقد لحظت شيئاً من التملل والخرج يتتاب بعض الحاضرين من أهل بلدى . ليس فيهم إلا من هو مجيد للفرنسية متبحر فى آدابها . حدثت أنهم يخشون (لا أن الشاعر لم يأخذهم بعين الاعتبار الذى كانوا يأملون ، أى يلقاهم لقاء الأشباه . دع عنك لقاء الأنداد) بل أن يكون مقتضى النطق الذى سمعوه إذا ذهبوا به إلى آخر المطاف أنهم مطالبون إذا انصرفوا أن يخلعوا البدلة على باب الندوة ليلبسوا العباءة أو القفطان . ثم يمشوا إلى بيوت فسيحة لها حوش تتوسطه فسقية ، من طابق واحد أو اثنين على الأكثر ، وعلى النوافذ مشربيات ، وأن يعدوا لضيوفهم الأجانب فنادق على هيئة الربع أو الوكالة التى كانت تحط عندها القوافل . فإذا خرجوا منها ساروا تحت البواكى لا يخلو منها شارع فى قلب المدينة . وكل هذا عند المتمللين الضجرين هو التخلف بعينه . وحتى إذا أرادوا العدول لما

استطاعوا فقد يمضى بهم الزمن إلى طريق لا عودة منه . هم على يقين أن العودة مستحيلة . وهم أيضاً غير رافضين كل الرفض وجاهة المنطق الذى سمعوه . فهم حيارى لا يدرون ما هو البديل . حتى المحاضر نفسه لم يرشدهم إليه . ولعلمهم وجدوا أسهل مخرج لهم أن يقولوا : ما هو إلا قادم آخر من الغرب يريد من القاهرة — لمتعته قبل كل شىء — أن تكون بغداد ألف ليلة . أن تكون لها طرافة تجذب السياح كما يجذب عجائب الحيوان زائرى السيرك ، شرط اعتبارها أن تكون فرجة .

وقد ابتسمت فى سرى — والقلب عليل — مرتين . مرة حين تحقق توقعى . فما حضرت من قبل نقاشاً يدور حول هذه القضية إلا رأيت من يتمثل باليابان . وهذا ما حدث فى الندوة . إذ ظن أحد السامعين أنه قادر على حل العقدة ، فهى عنده سهلة . فوقف وطلب منا — مزهوا بثاقب فكره — أن نحذو حذو اليابان ، فالرجل اليابانى فى مكتبه وعمله لا يفرق عن الأوروبي ، فإذا عاد فإلى بيت يابانى ، طرازاً وأثاثاً وملبساً ، وعلاقات الأسرة ترسمها تقاليد موروثه لا تتغير .

شبتت من هذا الكلام . وطهقت من سيرة اليابان . وابتسمت ثانية حين وهمت أن المحاضر ربما بدا له أنه يثير لنا هذه القضية لأول مرة . مع أنها قضية قديمة جداً ، هلكت تقليباً وجسا ، بدأت فاترة فى أعقاب الحملة الفرنسية ، ثم دخلت مرحلة الدفء بعد عودة رفاة من أوروبا ، ثم إلى مرحلة الغليان بعد هزيمة عرابى واحتلال إنجلترا لمصر ، إذ لم يعد الغربى أجنبياً فحسب ، بل عدواً أيضاً . من قائل لا رفض له إلا برفض حضارته . ومن قائل لا نصرة عليه إلا بسلاح كسلاحه . فينبغى أن نكون

مثله ، والجيل الذى أنتمى إليه (مواليد مطلع هذا القرن) كان معجوناً فى قضيتين ملتحمتين أشد الالتحام . القضية الوطنية وقضية الجواب على سؤال : من نحن ؟

فما كان المطلب إلا استرداد الكرامة ولا كرامة لعبيد أو أمساخ . وتمزقنا بين من ينادى بالاقتباس بغير حدود ، ومن ينادى برفضه كل الرفض ، ومن يحاول التوفيق فينادى بأنه لا يتنكر للتراث ولكن يشترط انبعث حركة تجدد فكرى وعقائدى ليتحول من الجمود والتخلف إلى الحركة والمسايرة وهى شىء آخر غير التقليد . وكان الصراع بين الأطراف يعكس فى آن واحد وبالتبادل اختلافهم فى القضية الوطنية وقضية الحضارة .

ولعل هذه القضية لم تضغط على بلد عربى ضغطها على مصر . إذ كانت — بسبب موقعها الجغرافى — أبعد ما يدا ممدودة إلى أوروبا ، ولأن تراثها ينفرد بأنه قد انصبت فيه حضارات متعددة .

وإذا صدقت شهادتى فإن قضية الحضارة تحولت بعد ذلك من درجة الغليان إلى درجة الفتور . خف إلحاحها وربما تنوسيت . حقاً إننا نهتم الآن بالفولكلور ، ونسأل أين طابعنا فى فنوننا التشكيلية ، فى العمارة ، فى المسرح ، فى القصة إلخ إلخ ، ولكن كل هذا تفاصيل مفتتة للقضية ، وربما طمسها مع أنها تاركة ولا ريب شيئاً من الحيرة فى ضمير الأمة ، وربما كانت هذه الحيرة من أكبر أسباب تشتت جهودها وعقمها أحياناً ، فلا تتآزر هذه الجهود وتثمر إلا إذا تجمعت على نهج واضح نعرف منه من أين وإلى

أين نسير ، أى ينبغي أن تبقى هذه القضية فى درجة الغليان إلى أن نهتدى إلى حل . وبخاصة بعد غرز إسرائيل فى قلب الأمة العربية لا تقصد احتلال أراضىها فحسب بل تقويض تراثها .

هذا هو أملى فى العيد الألفى للقاهرة . أن لا نكتفى فيه بإصدار كتب وإلقاء محاضرات عن الآثار والخطط وتراجم الأعيان ، بل ينبغي أن يكون حاثاً لنا على أن ننفلد من كل هذه المظاهر إلى لب القضية ، لا أقول هذا عن ترف فكرى ، أو تلذذا بجدل يبدو أنه يدور فى فراغ ، بل لأنى واثق أن القضية لا تزال كامنة فى ضمير الأمة ، يجيئنى شبان كثيرون يقولون لى « من نحن ؟ » فأجيبهم مع الأسف : لست أدرى ، أنا مثلكم أردد الأغنية الشعبية « دلونى ع السبيل » .

(مجلة « المجلة » العدد ١٤٩ ، فبراير ١٩٦٩ ، ص ٢ ، ٣)

هذه الندوة

أحسست وأنا أستمع إلى خطاب الرئيس — وإلى حد ما — وأنا أطلع قرارات الندوة جسامة المهام الواقعة على عاتق هذا الجيل ، نوعاً وعدداً ، وربما أخذني شيء من الرهبة ، ما كان أسهل إغراءها لي بأن تتحول إلى إشفاق رخيص عليه ، وأن أتضعض لها فأنكص عن امتحان النفس وتحمل المسؤولية ، وأخيراً أن أستغرق في الأحلام ، كأنها كل ما أقدر عليه من جهاد ، وهى الهروب بعينه ، بل أشد فصائله خداعاً للنفس .

هذا الشرق العربي الذى دافع عن الحضارة لا عن نفسه فحسب بصد التتار والمغول ، والذى دافع عن أصالته ووحدة أراضيه بإجلاء الصليبيين يلقى الآن على الجيل الحاضر من أبنائه أشق وأشرف مهمة عرفها تاريخه إلى اليوم . مرة أخرى أن لا يدافع عن نفسه فحسب ، برد أعتى عدوان وقع على أراضيه ، بقلب هزيمة قاسية إلى نصر ، باسترداد عروبة فلسطين ،

بحماية الأماكن المقدسة ، بل أن يدافع أيضاً عن الحضارة ، أن يتولى وحده كسر الصهيونية وفضح زيفها وخطرها . ليبراً العالم المتدين كله من نصبها عليه وتغلغلها سرّاً في أحشائه لتضليله والسيطرة عليه ، ليبراً اليهود أنفسهم من جنون التميز والعظمة الذي يلوث إنسانيتهم ويشعل الأمم جميعاً بمشكلة مفتعلة مفروضة عليها بالإرهاب ، تحرمها من الاطمئنان أن الولاء واحد لا مزدوج . أن يعطى أبناء هذا الجيل للتاريخ تفسيره الحق ، فينشق له أقوم الطرق نحو مستقبل يسود فيه السلام ويمتنع العدوان .

وكأن هذا كله لا يكفي ، فهذا الجيل مطالب أيضاً ، لا بمتابعة السير بل بالوصول ، لا بترديد مقدمات النظرية مرة بعد أخرى ، بل بالاهتداء اليوم إلى الحل . فالأسئلة التي طرحها الرئيس بوضوح وجمع بين البساطة والعمق - شأن المستوى الرفيع الذي يبلغه دائماً في قضايا الفكر - ربما واجهتها أيضاً أجيال سابقة منذ الحملة الفرنسية وبقيت لنا وإن تكن في صورة جديدة أشد اتقاداً ، لأننا في عصر غزو الفضاء ، ما كان أكثر تقليبها على الجنين منذ مولدها . أبناء هذا الجيل هم المطالبون بالانتقال من الجدل إلى رأى يجمعون عليه ويؤمنون به ويقدمون على تحقيقه ، ياله من تكليف عسير أشد العسر ، كيف يستطيع شعبنا أن يعيش عصر الفضاء وفي نفس الوقت يستبقى جذوره في ترابه الوطني ، كيف يستطيع شعبنا أن يوفق بين الأصالة وهي التاريخ وبين التجديد وهو المستقبل ؟ كيف يستطيع شعبنا أن يعيش عصر العالمية الذي تلاشت فيه الحدود والمسافات وفي الوقت ذاته لا يضيع ذاته وصفاته ؟ كيف يستطيع شعبنا أن ينطلق إلى آفاق التكنولوجيا الحديثة وفي نفس الوقت لا يدوس على التراث المجيد ؟

قد لا نواجه وحدنا ضرورة الإجابة على هذه الأسئلة لذلك كان كلام الرئيس بصيغة الجمع (شعوب) لا صيغة المفرد المنطبقة على شعبه ، وإذا كان المجري العالمى للحضارة الإنسانية يشهد لمصر والأمة العربية كلها ، كما قال الرئيس أيضاً ، بإسهامها الموفور والمقتدر فإن الإجابات التى ستعطيها مصر على الأسئلة العسيرة التى عددناها ستكون بلا ريب إسهامها الجديد فى العصر الحديث .

ليس من قبيل الأحلام ، بل بتضرع إيمان يحتل القلب توجهت إلى المولى سبحانه - أن يقيض لهذه الأمة - وهى تجتاز محنتها - صفوة من أبنائها ينشغلون بهذه القضايا الكبرى كل الانشغال ويدركونها تمام الإدراك ويكرسون أنفسهم لخدمة العلم لوجه الله والوطن بلا انتظار لجزاء ، لا تأخذهم فى الحق لومة لائم ، يكفون عن المزاعم والخيلاء والمن بكل فضل مهما قيل عن التشكى والتراشق بالتهمة والتنازع على المناصب والجاه ، يصبرون على المشقة ، يقوم كل منهم بواجبه غير ملتفت هل سار غيره أم قعد ، هل أحسن أم أساء ، وأن يكون من بينهم شاعر يشدو بأعجاد الأمة ويحدو خطاها ويعدلها عن سلبية اللامبالاة إلى إيجابية العمل والجهاد .

وإذا كانت قرارات الندوة محصورة فى دائرة أنانية الاختصاص ، وقد لا تعد إلا إشارة بسيطة جزئية إلى المهام الجسيمة التى تنتظرنا فإنها مع ذلك ترمز لها وتنفلد إلى صميمها ، فهيئات لبلد يهمل تاريخه ويتنكر لماضيه أن يتعرف أين طريقه من غد .

انصرفت عن صفوف المستمعين وفى قلبى شعور مزدوج : الاعتزاز

الشديد بما ثبت عليه طبع بلدى الأصل من تسامح برفضه التفريق بين الأجناس والأديان فى دعوة العلماء الأجانب إلى الندوة (دون أن يطلب الإشادة وإن كانت تسرنا لو وافقتنا تطوعاً إبان المعركة التى نخوضها وبسببها فحسب ، فلعل وعسى) وشعور بالحسرة والغيرة لأن عناية هؤلاء العلماء الأجانب بدقائق تاريخ بلدى وآثاره قد يقال عنها إنها ربما كسفت عنايتنا نحن أهل البلد .

(مجلة « المجلة » ، العدد ١٤٩ ، مايو ١٩٦٩ ، ص ٢ ، ٣)

جواهر علق بها التراب

جواهر كريمة : فريدة : لم يكن لها قبلها مثل ولن يكون لها من بعد
مثل ؛ تتلأأ بالحسن ؛ تتألق بالجمال ؛ بالظرف والجلال معاً ؛
ما أصعب الجمع بين هاتين الصفتين : المهابة وخفة الدم ؛ الجد
والانشراح ؛ العظمة والسماحة ؛ تحنى لها رأسك ولكن بلا انسحاق
وشعور بمركب النقص ؛ لا تتعالى عليك - كأعمدة الأقصر - بل تمد لك
يدا تألفها يدك ؛ لا تنتسب إلى عملاق أنت عنده حشرة لا حساب لها
عنده ؛ تدفن أنت في حفرة أما هو ففى هرم ضخم ؛ بل تنتسب إلى إنسان
مثلك ؛ خاشع لربه ؛ يحبك ويبتسم لك ؛ ولكن ياله من إنسان ؛ إنه
رسول الفن إليك ؛ يقبسه لك من شعلته المقدسة ثم لا ينزل على قلبك إلا
برداً وسلاماً ، فيسر منك العين ويهيج القلب وينعش الروح ، عريقة من
ناحيتين : لأصالتها الفذة ؛ ولتعاقب أجواء طاهرة عليها بلا انقطاع ؛
تتردد فيها الصلوات وآيات سحر البلاغة في كلام الله .

إننى أتحدث عن مساجدنا العظيمة فى قلب قاهرتنا القديمة ؛ جامع
قلاوون ؛ الأب والابن ؛ جامع الغورى ؛ جامع برقوق ؛ جامع
المردانى ؛ جامع محمد أبو الذهب ؛ جامع الأقمر ؛ جامع إينال اليوسفى ؛
والأسيلة أيضاً ؛ سبيل الناصر ؛ سبيل خسرو باشا ؛ أسألنى أنت إذا
سألتك أنا : ماذا فعلنا بهذه الجواهر الكريمة الفريدة ؟ اذهب إليها ولو
مرة ؛ واذرف الدمع إن بقى فى قلبك إحساس بالجمال واعتزاز بالتراث
وحب لبلدنا العظيم — القاهرة — وتاريخها الطويل ؛ ستجدها وتراها فى
أبأس حال ؛ لا يصدق عليها إلا قولهم « أخنى عليها الدهر بكلكله » ،
مهانة بعد عز ، تراكم عليها التراب ، يقاس عمرها الآن بطبقاته ؛ تدلق
عندها القمامة ؛ يربط عند جدرانها الخيول ؛ وربما فك السائر عندها
حصره ؛ بعض أجزائها مؤجر مخازن لتجار الخيش أو النحاس وبعضها
مؤجر للسكنى ؛ هى حضيض المساكن الشعبية . ليست هذه هى
المصيبة ؛ بل المصيبة أن كل هذه الآثار تذوب بين أيدينا ؛ أرى رأى العين
دبيب الفناء فيها ؛ تشققت جدران بعض المساجد ، أصبحت فعلاً
خرائب ؛ ستجد المسجد الكبير الشاسع لا يقوم على تعهده إلا نفر قليل
جدا من الخدم أو البوابين ؛ إننى لا ألتفت وأطالب بإنفاق كل ما يلزم من
مال لترميمها وإعادة لها لبائها الأول ؛ لا أطلب بأنوار كاشفة وبرامج
صوت وضوء . . لا أطلب بإزاحة المساكن المتداعية من حولها لينكشف
استقلالها للعيون ؛ لا أطلب بأن يكون فى كل مسجد مندوب من مصلحة
الآثار درس فى الجامعة ؛ وكتاب بلغات عديدة يشرح تحفه ؛ وتاريخه ؛
أترك هذا كله ليوم تفيق الأمة لفنها ؛ بعد انتصارها ؛ إنه يوم آت ولا ريب
بإذن الله ؛ كل الذى أطلب به الآن هو صفيحة ماء ؛ وفرشاة من لباد ؛

ويدا تكنس وتغسل أرضه وسلامه وجدرائه . أليست مقامة هذه المساجد
لدين يرى أن النظافة من الإيمان .

اصبر على المشقة والمكاره ومرارة الامتعاض واسلك حوارى وأزقة ضيقة
لولبية ، وخض فى خضم من لحم بشرى يكدح فى طلب الرزق ؛ ثم قف
تحت قبة برقوق أو قلاوون ؛ وافتح عينك ونوافذ قلبك وأبوابه عسى أن
تصيبك فتطهرك هزة الطرب والانشراح للجمال ؛ الجمال الأنيس
الظريف ؛ هزة الخشوع لله ، سبحانه ؛ واهب الفن للإنسان ؛ ستجد
الرقم الذهبى فى الهندسة والزخرفة ؛ الزجاج الملون زينة علوية وعجب ؛
الخشب دانتيللا ؛ والمرمر تبخرت برودته ؛ يشع بالدفع كأنما رفعت عنه فى
التويد الفنان الذى حنا عليه وقطعه وسواه ؛ من هو ؟ ليتنى أعرف .

لا أعتب إلا على أصدقائى الذين يعرفون عند الناس بأنهم فئة
المثقفين ، كثير منهم يشتغل فى الصحافة ؛ إنهم يهملون واجبه المعلق فى
أعناقهم ؛ واجبه هو الانتباه لهذه الكنوز والاهتمام بها ولفت الأنظار
إليها ؛ يتكلمون عنها بصدق العاشق لا بزيغ البروجندست ، عسى
من تفرق الشاعر المستثارة ينشأ تيار قوى يكون له تأثيره ويحسب له
حساب . ولا يجدى فى اعتذارهم قولهم إنهم يقضون سهرات رمضان فى
قهوة الفيشاوى ؛ يشربون الشاي « الكشرى » ويدخنون الشيثة .

(« التعاون » العدد ٣٩٠ ، ٩/٨/١٩٧٠ ، ص ١٠ ، ٨) .

علم وتواضع

وقع هذا الكتاب في يدى صدفة وسط السيل المنهمر من المؤلفات التى لا تجد مع الأسف عناية برصدها ونقدها . ولعل ظهور مجلة «الكتاب» فى ثوبها الجديد يسد بعض جوانب هذا التقصير .

وظننت لأول وهلة أنه من الصنف الذى يكفيه التصفح السريع بدل القراءة المتأنية ، صنف شائع عندنا مع الأسف ، كثير من الكتب مسطر لمقالة أو دوران مفتعل حول فكرة بديهية ، أو صرعى وله بالاسترسال والاستطراد واللت والعجن والفكر المائع والأسلوب الأشد ميوعة . ولكنى لم أكد أبدأ سطره الأولى حتى جمحظت عيناى من شدة الانتباه وغمرتنى سعادة كبيرة ، وأحببت المؤلف – وأنا لا أعرفه – من كل قلبى .

هذا هو كتاب «من الفراعنة إلى عصر الذرة – سطور من قصة الصحة النفسية فى مصر» من تأليف الدكتور صبرى جرجس ، ومن منشورات دار الكاتب العربى .

فلم أكن أتوقع من المؤلف الغارق في طب النفوس - دراسة ومزاولة - أن يستوعب التاريخ فتكون له على ضوئه وقفة طويلة متأملة للحضارة العربية من خلال فتوحاتها في علوم الأمراض العقلية والنفسية - دراسة وعلاجاً وتأليفاً . ليس هذا هو المهم ، بل المهم أن المؤلف استطاع بعد هذه الوقفة أن يضع يده على مفاتيح المقومات الأساسية لهذه الحضارة . ولأن كلامه عنها جاء في مقدمة كتابه الذي لم يسهب رغم صغر حجمه (٦٤) صفحة من القطع المتوسط أن يجمع بين دفتيه تاريخاً منحدراً من عصر الفراعنة إلى عصر الذرة فقد اتسم هذا الكلام عن الحضارة العربية بتركيز شديد كأنه قنينة صغيرة جميلة بها روح عطر هو خلاصة أطنان من الزهور .

عمل الدكتور صبرى جرجس لم يأت بجديد ولكن هذا التركيز على المقومات الأساسية للحضارة العربية هو الذى جعلنى أحس أننى لم أقرأ من قبل مثل هذا الدفاع عن هذه الحضارة بلغ مبلغه من قوة الإيمان والإقناع، من الحب الصادق والفهم الصحيح. وتهاوت فى ذهنى جميع الاتهامات التى وجهها أعداؤها إليها جملة ، عن حسن نية ، أو مضللين عن حقد وسوء نية .

أسارع أولاً وأقول لك إن الدكتور صبرى جرجس نفى عن العرب تهمة إحراقهم لمكتبة الإسكندرية ، فقد قال فى صحيفة (٢٠) إنها تعرضت أولاً لتدمير جزئى عند استيلاء يوليوس قيصر على المدينة عام ٤٨ قبل الميلاد ، ثم على يد الامبراطور الرومانى أورليان سنة ٢٧٨ م . ، ثم للتدمير الشامل بتحريض من الأسقف ثيوفيلاس الذى قام بشن حملة

هوجاء ضد الوثنية ، أى قبل الفتح العربى بعدة قرون : لم يستنكف الدكتور صبرى جرجس أن يلقي التهمة على تعصب المسيحيين فى عصور سادها الجهل والظلام نقضاً لروح المسيحية السمحاء . .

ويبدأ الدكتور صبرى جرجس كلامه عن الحضارة العربية بهذه المقدمة الخاشعة .

» بينما كان الفكر البشرى يعانى من تلك النكسة المعقدة التى رانت عليه خلال الألف عام المعروفة باسم العصور المظلمة بسبب ازدياد سلطان الكنيسة ورفضها كل رأى يخالف ما كان مفكروها ينتهجونه وبطشها بصاحب أى فكر حر ، كانت شبه الجزيرة العربية تشهد بزوغ فجر حضارة جديدة لم يلبث ضياؤها أن أشرق حتى عم أرجاء العالم جميعاً ولم يقتصر فضل الحضارة العربية على أنها حملت مشعل المعرفة وصانت أمانة الفكر خلال القرون الوسطى التى امتدت زهاء ستمائة سنة كانت أوروبا أثناءها غارقة فى ظلمات الجهل ، بل إنها أسهمت إسهاماً غزيراً وأصيلاً فى كل ضروب المعرفة البشرية ، بما فى ذلك الطب . وليس يسع الباحث المنصف وهو يرقب ما كان للعرب من حيوية ذهنية وقدرة خارقة على استيعاب العلوم والمعارف وما أتاحوه لتنمية المعرفة والنهوض بها فى مناخ عقلى يتسم بالحرية والسماحة وسعة الأفق وما اتصفوا به من روح التسامح والصدقة لمختلف الشعوب التى اتصلوا بها بعد الفتح ، والترحيب بالمبرزين من رجال الفكر فيها ، ودعوتهم إلى المشاركة فى الجهد العلمى الذى نشطوا اليه وأقبلوا عليه فى تفتح باد وحماس بالغ ، نقول لا يسع الباحث المنصف وهو يرقب هذا كله إلا أن تفيض نفسه إعجاباً بالدور الذى قام به العرب فى

الحفاظ على المعرفة البشرية ونقلها في أمانة من حضارة أشرقَت يوما على ربوع مصر وبلاد الإغريق ثم خبا ضياؤها إلى حضارة كانت لاتزال يومئذ في ضمير الغيب ثم بدأ نورها يشرق بعد زهاء ألف عام من الظلمات على أوروبا متمثلين ما انتقل إليهم ومطعمين إياه بمساهمات فكرية أصيلة . إن أى عرفان بهذا السجل لا ينصف فضل العرب على الحضارة البشرية كل الإنصاف ويقصر دون الوفاء بحقهم عليها . . » (انتهى) .

وفي ظل الإعجاب الشديد بهذه الحضارة يتتبع المؤلف فتوحات العرب في العلوم العقلية والنفسية ويترجم للرازي (٨٤١ - ٩٢٥) ويروي نواذر طريقة عن أسلوبه في العلاج ، ثم يتبعه بالمعلم الأكبر أو المعلم الثاني ابن سينا (٩٨٠ - ١٠٢٧) ، ونجيب الدين أبو حامد المعاصر للرازي .

وكيف لا تهتز نفسى إعجابا بتاريخ أمتى وأنا أقرأ اقتباس المؤلف من المقرئى وصفه لاهتمام العرب بإنشاء المستشفيات كعمل من أعمال البر التى يسارع إليها أهل الخير . إن أول مستشفى عرفه الاسلام هو الذى أنشأه الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك بدمشق عام ٧٠٦ ميلادية . وأول مستشفى أنشئ بمصر كان بأمر من أحمد بن طولون ، وكانت له ككل المستشفيات الإسلامية - الخصائص التالية :

- أنه مفتوح لعامة الناس ، به قسم للرجال وقسم للنساء .
- الإقامة والعلاج بالمجان .
- لكل مرض قسم خاص به .
- قسم الأمراض العقلية والنفسية موجود داخل هذا المستشفى العام .

وهذا الضم لم يقدره علماء الغرب حق قدره إلا في الأيام الأخيرة فطالبوا
بالغاء عزل مرضى العقول والنفوس في مستشفيات منفصلة ؛ إذ أن
علاجهم أفضل في حالة الضم من حالة الانفصال .

بعد هذه المقدمات يتتبع الدكتور صبرى جرجس تاريخ الأمراض
العقلية والنفسية في مصر الحديثة ، ويصف تطور مستشفياتها ، ويخلص
من ذلك إلى صلب الكتاب وهو دراسة هذه الأمراض في مجتمعنا اليوم
 وجهود الدولة في معالجتها .

وقد أضاف الدكتور صبرى جرجس إلى عمله الغزير تواضعا
محموداً ، فأبى إلا أن يسمى كتابه « سطور في قصة الصحة النفسية في
مصر » . فما أجمل أن يجتمع العلم والتواضع .

((المساء) ، ١٦/١٠/١٩٦٧ ، ص ٤)

عودة الغائب الجريح

في مدينة بعيدة عنا لاتتكلم لغتنا، لها قدم في آسيا وقدم في أوروبا ،
يعلوها الضباب في فصل الشتاء ، وتغطيها الثلوج ، تهجع كاهل الكهف
في سبات عميق منذ ثلاثة قرون كاملة على رف في مخزن لعله مظلم يعلوه
التراب في مكتبة عامة غير مطروقة مجموعة من أوراق كتاب لغته عربية
مكتوب باليد ويخط عجيب هو مزيج من الفارسي والنسخ . ما هو هذا
الكتاب المظمور في بلد غريب يعاني فيه الوحدة والسيان ؟ تنبثنا الصفحة
الأولى أنه الجزء الثاني من كتاب « نسب قريش وما فيها » تأليف أبي عبد الله
الزبير بن بكار الزبيرى (رضى الله عنه) .

- « رواية أحمد بن سليمان الطوسى عنه .
- رواية أبي بكر بن شاذان عنه .
- رواية أحمد بن عمر العذرى المعروف بابن الدلائى عنه .
- رواية أبي ذر عبد بن أحمد الهروى عنه

- رواية محمد بن أبي نصر الحميدى عنه .
- رواية على بن الحسين بن عمر الفراء الموصلى عنه .
- رواية الشيخ ابى عبد الله محمد بن إبراهيم بن ثابت الكنانى عنه .
- رواية محمد بن الشريف القاضى الكامل ذى الحسين أسعد بن على الجوانى النسابة عنه « والجوانى الذى أملى هذه الأوراق هو عالم مصرى فى الأنساب ، ولى نقابة الأشراف فى مصر . ولد سنة ٥٢٧ هـ . وتوفى سنة ٥٨٨ هـ .

ترى ماذا جرى لهذه الأوراق بعد أن أملاها الجوانى ؟ كيف ومتى وصلت إلى تلك المدينة البعيدة ؟ ما هى الأيدى التى تداولتها ؟

جزى الله أجدادنا خير الجزاء ، قد كان من عادتهم أن يسجلوا على الكتاب اسم من ملكه يداً بعد يد ، فإذا رجعنا للورقة الأولى وجدنا مكتوباً فى أعلى الصفحة فوق عبارة « الجزء الثانى من كتاب الخ ما نصه : «وقف لله سبحانه ومقره بالقبة المنصورية» .

والقبة المنصورية هى إحدى العمارات الجليلة التى أنشأها السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الذى ولى مصر سنة ٦٧٨ هـ . إلى أن توفى سنة ٦٨٩ هـ . وفى سنة ٦٨٢ هـ عمر مارستاناً ومدرسة وقبة . وقد وصف المقرئى القبة المنصورية وصفاً عجيباً فى خططه فقال : «وبهذه القبة خزانة جليلة كان فيها عدة أحمال من الكتب فى أنواع العلوم مما وقفه الملك المنصور وغيره . وقد ذهب معظم هذه الكتب وتفرق فى أيدي الناس» .

وإذن فقد دخلت هذه النسخة بعد سنة ٦٨٣ أى بعد كتابتها بنحو
خمس وعشرين ومائة سنة على الأقل . فهل نستطيع أن نعلم أين كانت هذه
النسخة قبل أن تؤول إلى القبة المنصورية .

نعم ، ففي الجانب الأيمن من الورقة الأولى نجد مكتوبا ما يأتى :
«لعبد العظيم بن عبد القوى بن عبد الله المنذرى نفعه الله به آمين» .

وكاتب هذا بخطه هو الحافظ الكبير الإمام الثبت الشامى المصرى
شيخ الإسلام المنذرى ، مولده بمصر سنة ٥٨١ هـ ووفاته بها سنة
٦٥٦ هـ ، ولى مشيخة الدار الكاملية للحديث وانقطع بها ينشر العلم
عشرين سنة . فيكون من المرجح أن هذه النسخة قد آلت إليه فى حدود
٦٣٥ هـ أو قبلها أى بعد وفاة صاحبها الجوانى النسابة فى سنة ٥٨٨ هـ .
بنحو سبع وأربعين سنة ، فأين كانت طوال هذه المدة ؟ هذا سر غامض
علمه عند ربى .

ثم نجد فى الجانب الأيمن من هذه الورقة بخط مغربى دقيق لطيف ما
نصه «لمحمد بن على بن يوسف الأنصارى لطف الله له بمحبة والديه» .

ما معنى «بمحبة والديه» إن الكلمتين غير واضحتين فى الأصل ولا
سبيل لنا اليوم لقراءتهما إلا على هذا التخمين .

وكاتب هذا بخطه هو الإمام الأستاذ القارىء الكامل اللغوى النحوى
الأديب المؤرخ المعروف رضى الدين الشاطبى ولد ببليسية بالأندلس سنة
٦٠١ هجرية ثم هاجر إلى مصر ونزل للإقراء بالقاهرة إلى أن توفى بها سنة
٦٨٤ هـ .

فيكون تاريخ هذه الأوراق هكذا كتبت سنة ٥٥٧ هـ . بالقاهرة
وبقيت عند صاحبها الجواني النسابة إلى أن توفي سنة ٥٨٨ هـ ، ثم مضت
نحو سبع وأربعين سنة لم ندر أين كانت ، ثم آلت إلى المنذرى في نحو سنة
٦٣٥ هـ . حتى توفي سنة ٦٥٦ هـ . فدخلت في حوزة الشاطبي حتى توفي
سنة ٦٨٤ هـ ، ثم دخلت وقفا في القبة المنصورية في سنة ٦٨٤ هـ أو
بعدها . ولعلها بقيت هناك إلى عهد المقريزى الذى ذكر - كما سبق
القول - أن معظم كتب القبة المنصورية قد تفرق في أيدي الناس ، ثم لا
ندرى بعد ذلك من أمرها شيئاً أربعة قرون يحوطها ظلام دامس إلى أن
دخلت آخر أمرها قبل سنة ١٠٨٥ هـ . في حوزة الوزير العثماني الجليل
فاتح البلاد والحصون في المجر وبولونيا وإقريطش أبي العباس أحمد بن أبي
عبد الله محمد المعروف بكوبرلى ، وهى في مكتبته النفيسة بالأستانة إلى يوم
الناس .

ظلت هذه الأوراق هاجعة كأهل الكهف في سبات عميق تحت جو
غريب إلى أن قبض الله لها العالم السعودى الشغوف بالتراث الشيخ حمد
الجاسر فتبع هذا الكتاب الجليل حتى عثر على نسخته في استانبول وعلى
نسخة أخرى لها قصة أعجب موجودة في مكتبة «بودليان» بأكسفورد ومع
هذا الجهد فإنه لم يعثر إلا على النصف الأخير من الكتاب أما النصف الأول
فأين هو ؟ علم ذلك عند الله . . هل ضاع كما ضاع أغلب تراثنا ؟

ونسخة « الجواني » لم تسلم من التلف ، ففيها خروم كثيرة ، وجار
المقص على أطراف بعض الصفحات ، ثم دفع الشيخ حمد الجاسر بصورة
فوتوغرافية من كل من النسختين إلى الأستاذ العلامة المحقق محمود محمد

شاكر ، فأخرجه للناس على نحو لا يدع لناقد قولاً بعد أن فك جميع عقده
وجلا كل غوامضه .

ما سقت لك هذا الكلام إلا لأقول لك إنه كلما صدر كتاب فيه إحياء
لتراثنا الجليل المبعثر في بقاع الأرض إلا تلقيته بخشوع أكاد أقبله كما تقبل
الأم ابنها التائه إذا عاد إليها بعد يأس . إننى لأقف عند مادة الكتاب القديم
أيا كانت قيمته في وقتنا الحاضر ، وإنما أقف وأنا واجف القلب من شدة
الدهشة والإعجاب بأجدادنا الذين وقفوا أنفسهم على طلب العلم الذى
يعرفونه في زمانهم ، أخلصوا له إخلاصاً يقرب من العبادة . حمل الكلمة
ونقلها من جيل إلى جيل ، من أستاذ إلى تلميذ ، أمانة في أعناقهم كما لو لم
يكن لهم في الدنيا شاغل سواها . أرض الإسلام واحدة ، الحدود زائلة
والعلماء يتساندون في حمل الأمانة والحفاظ عليها ، أنت رأيت في كلمتى
هذه علماء من مكة ، من الشام ، من القاهرة ، من بلنسية ، كلهم خدموا
مؤلفاً واحداً في عهد لم يعرف الطباعة إنما بفضلهم وحده وصل إلينا من
هذا التراث فتات ينبىء عن الثروة الضخمة التى خلفها الأجداد ، أكثرها
ضاع إلى الأبد ، وأقلها لا يزال مع الأسف — مبعثراً في بقاع الأرض فمتى
يرجع إلينا ؟ ومتى نعرف كيف نفيد منه ؟

فى كتاب « جمهرة نسب قريش وأخبارها » للزبير بن بكار شعر كثير لا
نجدّه فى الكتب التى هى بين أيدينا ، بل إن الأخبار التى رواها الزبير تعد
من أعظم الوثائق التاريخية الدالة على الحياة الاجتماعية فى الجاهلية
والإسلام ، فضلاً عما فيها من جمال العبارة ودقتها وجلالها — هكذا هو
حال تراثنا ، وإنه كل يوم يخدم بعضه بعضاً ، ولا غنى لبعضه عن بعض ،

وبالضيعة أمة لا تعرف تراثها . ما أشد حماقة من يهزأ بنشر هذا الكتاب في وقتنا الحاضر ، أو يشكك في فائدته، إنما يهزأ به الأعمى الذي لا يرى كنوزه ولا يرى هذا النور الوهاج الذي يشع من وجوه العلماء من أجدادنا الذين ضربوا للعالم أروع الأمثال على الإخلاص للعلم وحمل أمانته لوجه الله وحده ، ثم انظر إليهم كيف أنهم لم يتركوا عالماً واحداً ، في جيل من الأجيال دون أن يترجموا له ويقدرُوا آثاره ، فاتصل علم الأمة ولم ينقطع .

(المساء ، ٢٠/٨/١٩٦٢ ، ص ٨)

الأعياد والألعاب في القاهرة

من العدد الثانى للحوليات الإسلامية الصادر عن المعهد الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة بمناسبة عيدها الألفى والذي ضم عدة أبحاث قيمة لنفر من العلماء الفرنسيين اخترت مقال الأستاذ جاستون فييت لأترجمه لك ، لأنه ترك المباني والآثار وتحدث عن الشعب وأحواله وعنوان المقال : الأعياد والألعاب في القاهرة :

كتب فلوبير (١٨٢١-١٨٨٠) فى خطاب له وهو يزور مصر : « الشعب هنا شديد المرح ، يهيم كثيرا بالعجائب والمساخر والمواكب » . ووقوف المارة فى الطرقات وصرف أوقاتهم للتفرج بالنظر أو الاستماع على مظاهر تلهيهم ، خلة تجدها فى كل زمان ومكان ، وقد وصلنا عن بلاد إسلامية غير مصر وصف أقدم لاحتشاد الناس حول مدرب لحيوانات تؤدى ألعابا تتسم بالذكاء والمهارة ، أو حول رجل يعرض دبا ، أو قرداى ترقص قروده على دقات دفه ، ولهيام الناس كذلك بالتفرج على المجاذيب

الزاعمين أنهم من أولياء الله ، وعلى أدعياء الطب والقدرة على شفاء الأمراض ، وقد تجدهم يسرون وراء رجل مسكين يساق به إلى المشنقة ، وقد ورد في كتب عربية عديدة ذكر أناس تتجمع حولهم المارة ليروهم وهم يلعبون بالسيوف أو يسفون الرمال ، أو يزدردون الطوب أوفتات الزجاج أو وهم يؤدون بعض ألعاب الحواة كقدرتهم على إخفاء الأشياء كأنها ذابت في الهواء فإذا بها بين أيديهم سليمة كما كانت ، وكل ذلك على مرأى من الواقفين حولهم ، وقد روى لنا ابن خلدون وإن لم يضمن لنا صدق ما رواه أن بالقاهرة أناسا مهنتهم هي تعليم الكلام للطيور ، وتدريب الحمير على القيام بألعاب عديدة هم أيضا حواة يدهشون المتفرجين بحيلهم البارعة ويتولون أيضا تدريب تلاميذهم على المشى فوق حبل مشدود في الهواء ، وعلى الرقص والغناء فوقه ، والحكاية التالية تشهد بما كان ، يقول ابن إياس : إن السلطان سليم العثماني جىء له وهو بالقاهرة سنة ١٥١٧ بغراب مدرب على أن يهتف . الله حق ، الله ينصر السلطان . فمنح صاحبه ثلاثين ديناراً وهنأه على براعته .

والقصد من هذه المقدمة عرض بعض أسباب اللهو والتسلية التي كان يهيم بها أهل القاهرة في القرن الماضي .

ونجد في تاريخ المجتمعات الإسلامية عند نشأة الإسلام ارتباطا بين محترفي ألعاب التسلية ومنشدى السير الشعبية وكان من الأمثلة الشائعة قولهم : حيل المنشدين والقردياتية ، وقد وصف لنا الأستاذ بيلا ما كانت تعج به مدينة البصرة من عروض تقام في الطرقات . وإذا كان للطبقة الراقية والوسطى فرق تختص بها من عازفي الموسيقى ومنشدى الأغاني

والمهرجين فقد بقى لعامة الناس إلى جانب رواة السير الشعبية المسلية والشطار النصابين سوق رائجة للقردياتية ومدرّبى مختلف الحيوان . وكان الزامرون بترقيص الثعابين أحب هذه الفئات إليهم . وقد نقل الأستاذ كانار عن القزوينى قوله :

« إن الميدان الأخضر في مدينة « دمشق » تجرى به ألعاب المصارعة والمصارعين والمغنيين وفرق الناس يوم السبت طلبا للهو » ، ولا تزال مدينة مراكش إلى الليلة تشهد في ميدان جامع الفناء كل مساء زامرا من أصحاب الحيل والخوارق الجسمانية ومن البهلوانات والسحرة وبائعى النار والراقصين والزامرين للثعابين . ونحن لا نجد للملاهى العامة أنماطا محددة ولا دورا تختص بها وهكذا فإن الإسلام وإن اقتبس من الحضارات السابقة عليه طقوس الذهاب إلى الحمامات الشعبية فإننا لا نجد في ظله دورا توقف على الملاهى الشعبية ، كالمرح أو حلبة السيرك ، ولكننا نرى في مصر - كما قدمنا - كما في بلاد أخرى كيف أن الشعب قد اعتاد التجمع في ساحات بعينها في مناسبات معينة ليلتمس نصيبه من اللهو .

ونجد المقريزى وهو يتحدث عن حى بين القصرين يقول إنه تقام به اجتماعات عديدة للاستماع إلى السير الشعبية والحكايات التاريخية أو لإنشاد الشعر ، بالجملة للترويح عن النفوس بكل ما يدعو للتسلية . كما كان يشهد هذا الحى أيضا عروضاً للمبارزة يقوم بها أناس لهم براعة فائقة في استخدام كل أنواع الأسلحة وفي ألعاب التحطيب كذلك بالعصى الغليظة ، وإلى جانبهم عازفون على الآلات الموسيقية لمصاحبة منشدى المواويل .

ويقول المقرئى إن حى الحسينية ، وهو فى شمال القاهرة ، كان يتعذر السير فيه لشدة ازدحامه بالشىالين والمارة وبائعى الأطعمة والمهرجين والبهلونات .

وإذا صدقنا كلام أحد كتاب القرن الثانى عشر المسمى محمد فرطى فإن هذا الحى الشهير ، حى بين القصرين ، كان يشهد فى ذلك العهد اجتماع الناس للاستماع إلى تلاوة حكايات ألف ليلة وليلة ، ورواة الحكايات الشعبية هم أسلاف رواة القصص الذين صاحبوا نشأة الإسلام ، وقد ظلت سوقهم رائجة فى مصر ، ثم أصابها الكساد بظهور خيال الظل والتمثيليات المسرحية ، ثم فى أيامنا هذه ظهور الفونوغراف والإذاعة والسينما .

وكتاب الأغانى لأبى الفرج الأصبهاني يشهد أن الموسيقى والرقص كان لهما دور كبير فى المجتمعات الإسلامية وبخاصة فى عصور الخلفاء . وعنيت زخارف الخشب والخزف فى عهد الفاطميين بتصوير الموسيقيين والراقصين والراقصات مما يدل على محبة الناس لهم . أما الموسيقيون فكانوا يعزفون ألحانهم فى حفلات خاصة بمناسبة زواج أو ختان . وليس هناك ما يدل على الرقص فى حفلات عامة فى دور مخصصة لها ، ولو أننا نعلم أن فرقا من الموسيقيين والمغنيين كانت تسير فى الطريق الذى تسير فيه المواكب الرسمية للمماليك ، ربما لتسلية جمهور النظارة إلى أن يحين مرور الموكب . وكان الموسيقيون والمغنيون والمغنيات يتوجهون إلى القصر بدعوة منه ، أو يصحبون السلطان فى أسفاره وكان الناس حينئذ ، كالعهد بهم اليوم ، يهيمون بتتبع أخبار نجوم الطرب وتدور عنهم أحاديثهم فى منندياتهم ، وقد

قال لنا ابن إياس إنه سمع في شبابه أخبارا كثيرة عن مغن مشهور هو محمد غازوني . الذي كان معروفا ببراعته الفنية وقدرته على أداء مختلف طبقات الأنغام ، وروى عنه كلمة تمزق القلب قالها حين أصيب بشلل نصفي وهو يتوجه بالكلام إلى زائريه : ليكن لكم شفقة على إنسان لم يعد صوته يسمع وأصبح نصف جسده ميتا لا نفع فيه .

وبقى لنا من عهد قايتباي ذكر لمغن يسمى على بن رحاب ، الذي بدأ نجمه يسطع سنة ١٤٦٣ منافسا لمغن آخر اسمه إبراهيم بن الجندی وكانت لهذه المنافسة بينهما آثار وخيمة ، وانتهت إحدى الحفلات بنشوب عراك بين أنصار هذا وذاك ، فنفى على بن رحاب إلى سوريا سنة ١٤٦٦ ، ثم مالبث أن عفى عنه وعاد إلى مصر ، وتوفي بها سنة ١٥٠٠ ، فعلم عنه أنه كان فنانا لا يبارى ، هو الذي يضع الألحان لأغانيه ، ولكنه من سوء حظه خاض غمار المعترك الديني وخرج علينا بعبارات جارحة عن رأيه ، فحكم عليه بالجلد ثم أركبوه وهو عار حمارا وطاقوا به في أنحاء القاهرة .

(المساء ، ، ١٩٧٠/٢/٢ ، ص ٦ ، ٥)

* * *

ولم تسلم المغنيات أيضا من عسف السلطات الرسمية ، ونقرأ لابن إياس وهو يروى وقائع سنة ٨٤٦ هـ (١٤٨١ م) قوله :
قبض يشبك ابن حيدر والى القاهرة على امرأة يقال لها خديجة الرحابية . وكانت من أعيان مغنيات مصر ولها إنشاد لطيف وكان أصلها

من مغنيات العرب ثم عظم أمرها جدا وحظيت عند أرباب الدولة ورؤساء مصر . وكانت جميلة حسنة الغناء فافتتن بها الكثير من الناس فلما قبض عليها كانت في بعض الأفراح فقبض عليها من هناك . فلما مثلت بين يديه قال لها : أنت التي أفسدت عقول الناس ، ثم أمر بضربها بين يديه نحوًا من خمسين عصا وقرر عليها مبلغًا وكتب عليها قسماً ألا تغنى أو تحضر في مقام . فلما خلصت من ذلك أقامت مريضة من الرجفة التي وقعت لها ثم ماتت عقب ذلك وكان لها من العمر نحو الثلاثين سنة . «
ويضيف فييت قوله : « فحزن عليها جميع الناس . »

أما زميلتها عزيزة بنت سطحى فكانت أحسن منها حظاً ، ويقول ابن إياس إنها كانت من أشهر المغنيات معدودة من عجائب الزمان . كانت جميلة الصورة بارعة في الغناء ، يجود الشعر وتزداد حلاوته وهي تغنيه : لم تأت بعدها مغنية تقاربها في فنها ولم تحظ مغنية أخرى بمثل ما حظيت به من إعجاب الناس ، وفي مقدمتهم كبار الموظفين والأعيان ، وامتد العمر بهذه المغنية التي طبقت شهرتها آفاق مصر كلها وماتت في سن الثمانين .

ووصلنا أيضاً اسم محمد بن برقوق ٨٧٣ هـ (١٤٧١ م) وهو ملحن ومغن بارع في فنه وإنشاده ، وذكر لنا ابن إياس كذلك اثنين من عازفي الطنبور هما على بن تائم ومحمد بن قدجيك ، كما امتدح طويلاً مغنية تركية اسمها شهر دار وكانت زوجة لأحمد بن جيعان ناظر الخزانة في مطلع الحكم العثماني .

ولم يأنف ابن إياس لحسن الحظ من أن يروى لنا نوادر عصره فها هو ذا يروى لنا نادرة عجيبة جرت سنة ٩٢٧ هـ (١٥٢١ م) أي بعد أربع سنوات

من دخول الأتراك إلى مصر . قام اتفاق على ترتيب مباراة في الغناء بين مغن شهير كبير المقام هو محمد بن سراعية ومغن آخر اسمه محمد أوجاق ، وقال محمد بن سراعية : عندي أغنية لم يسمعها أحد بعد فإذا أردتم تصديق قولي فليجتمع يوم الأحد القادم في بركة الرطل كل أعلام التلحين والغناء في المدينة . وكان الزمن زمن موسم الربيع ، وفي الموعد المضروب وفد على مكان الاجتماع كل الملحنين والمغنيين واتخذوا مجلسهم وسط البركة وتحلق حولهم عدد غفير من الناس وهم في شوق لاغتنام متعة بديعة . وأدى كل مغن أحسن ما عنده ، فكان اليوم يوم أنس وطرب . أما محمد بن سراعية فلم يظهر معتذرا بمرضه ، فعّد الناس غيابه دليل انهزامه في المباراة أو دليل عجزه عن إثبات صدق دعواه .

ونذكر في خاتمة هذا الموضوع حادثة مؤسفة محزنة . كان السلطان قانصوه الغورى يحب المغنيين ويصطحبهم في أسفاره ، فلما خرج لمقاتلة العثمانيين اصطحب معه ثلاثة من المغنيين هلكوا معه في ميدان القتال ، ولم يبق لهم أثر . وكان يُطلق على أسماء المغنيات لقب « العوالم » أو « الغوازي » أو « البر مكية » ويمدنا « الجبرقي » بمعلومات كثيرة في هذا الصدد في حديثه عن موكب عروس فيقول إنه يفوق كل ما سبقه من روعة وفخفة سارت به طوائف محترفي الغناء والألعاب ، لكل حرفة عربتها

عربة أرباب الملاحى (وهم المغنيون والمنشدون) وعربة « نساء المغانى » وعربة أرباب الملاعب وعربة البهلوانات وعربة الراقصين ، وكانوا يسمون أيضا الشنك ، وعربة محترفي المصارعة . إن المقام الكبير الذى احتلته

الموسيقى والرقص في القاهرة الإسلامية تستحق بحثاً منفرداً وقد اقتصرنا على أمثلة لها دلالتها .

لم يكن من المؤلف إذن أن يتاح لعامة الناس الاستمتاع بالحفلات غير المقامة لهم ، ولكنهم كانوا يدعون أيام الإخشيديين والفاطميين للاحتفال بالأعياد المسيحية . ولا يجمل بنا أن نستشهد بمثال فرد لنقيم الحكم ، فهاهو المحاسبى يروى من وقائع سنة ٤١٥ هـ (١٠٢٤ م) مشهداً عجباً كان مسرحه قرية بوصير جنوب الجيزة في حضرة الخليفة الظاهر ، فوصف لنا بالتفصيل موكب طاف بتلك القرية إجلالاً للسجن الذى شهد عذاب البطريق يوسف ، وفرض أهل القرية وأصحاب دكاكينها على تجار الفسطاط أن يتحملوا عنهم بنفقة هذا الموكب . تلكاً تجار الفسطاط في الاستجابة لهم ولكن الخليفة أمرهم بأن يدفعوا ما تقرر عليهم . وأمضى الخليفة يومين في بوصير وبدأ عليه السرور لما شاهده من الاحتفالات .

ونوجز فنقول إن طائفة الرماطية (وهم جنس من الفجر) دخلوا سجن البطريق يوسف على وجوههم تمائيل (يعنى أقنعة) يؤدون المضاحك ويسردون الحكايات ويعرضون خيال الظل أو يتلاعبون بدمى لها هيئة عجيبة ، وطاف هذا الموكب بالقاهرة أيضاً طيلة أسبوعين .

وهناك ذكر لموكب آخر أكبر خطراً يقام بمناسبة عيد مدبى لا دينى هو عيد النيروز رأس السنة القبطية . ويروى المؤرخون الحوادث البشعة التى كان يشهدها ذلك اليوم إذ كان يختار لعيد رأس السنة القبطية رجل من عامة الناس ليكون أمير العيد وزعيمه ويكون له حاشية كبيرة ، تصرفاته

كأنما هي تصرفات أمير حقا تسانده السلطات الرسمية ليلعب هذا الدور كأن الأمر جد لا هزل ، فيركب هو وحاشيته جمالا ضخاما ويمر المركب على بيوت أعيان البلد فتصدر من أمير العيد أحكام بغرامات أو أحكام قبض واستدعاء للتحقيق . كل هذا داخل في اختصاص أمير العيد هزل كله في صورة جد ، لأنه كان يرضى بكل ما يقدم له من هدايا كأنها أداء للغرامات ولو كانت تافهة ، ثم يجتمع المغنيون وأرباب الملاعب للمثول بين يديه يحملون آلات العزف ويطلقون صرخات عالية ويحتسون جهاراً كؤوس النبيذ والجمعة ، وترش المارة في الطرقات بماء لا يسلم من القذارة . فكل من خرج من بيته في ذلك اليوم لم يسلم من تلوث ثيابه اللهم إلا إذا اقتداها بمبلغ من المال .

وقد أمرت السلطات بتحريم هذا العيد سنة ٧٨٤ هـ (١٣٨٣ م) بأمر من السلطان برقوق لسنوات سبقت توليه السلطنة وبين أيدينا صورة تفصيلية لما جرى من الشعب الذي ترتب عليه تحريم هذا العيد . فقد تجمعت الغوغاء وأركبوا مهرجا وهو عارى البدن على رأسه عمامة ضخمة من سعف النخيل على حمار وتخبروا رجلا جسيما قوى العضلات أطلقوا عليه لقب أمير عيد رأس السنة القبطية وطافوا به على بيوت الأعيان يفرض عليهم غرامات باهظة يعطيهم عنها إيصالات ممهورة بختم ، فإذا رفض إنسان دفع الغرامة انحال عليه أهل المركب بالسب والإهانة ، ولو كان من الأعيان ويظل مستمرا على باب بيته إلى أن يدفع الغرامة ، ثم انطلقوا يرشون على المارة ماء قذراً أو نبيذاً ، وشاع قذف البيض الفاسد على الوجوه والضرب بالنعال على القفا ، والخبط لنهشيم العمائم ، فامتنع المرور في

الطرقات وعجز الناس عن الوصول إلى الأسواق ونشبت معارك وخناقات وربما وقعت حوادث قتل من جراء السكر والعريضة .

ولكن تحريم مواكب أعياد رأس السنة القبطية لم يسلب أهل القاهرة كل متعتهم فإن هذه الأعياد كانت تصادف أعياد جبر الخليج فكانت تقام لها احتفالات شعبية صاخبة مديدة .

ويتابع جامستون فييت في الجزء التالى وصف أعياد جبر الخليج بتفصيل كثير .

(والمساء ، ٩/٢/١٩٧٠ ، ص ٦ ، ٥)

* * *

إن أوفى وصف لأعياد وفاء النيل فى القاهرة نجده عند الجغرافى لىون الإفريقى (المولود بغرناطة سنة ١٤٨٣) بعد أن زار مصر سنة ١٥١٧ قال : « فى بدء الأيام التى يغمر فيها النيل أرض مصر يقام فى القاهرة عيد كبير وتعلو فيه الضجة والهاثافات وأنغام الموسيقى حتى لكأن البلد انقلب رأسا على عقب - تستقل كل أسرة قاربا تزينه بأغلى الأقمشة وأجمل السجاجيد وتحمل معها أطايب الطعام والحلوى وشموعا غاية فى اللطف والبهاء . الناس كلهم فى القوارب يلتمس كل منهم لهوه حسب طاقته ويشارك السلطان نفسه فى الاحتفال بهذا العيد يصحبه الرؤساء من أعوانه وقواده فيأخذ طريقه إلى خليج فى النيل يسمى بالخليج الكبير حيث

موقع السد . ويتناول السلطان فأسا ويشرع بضرب جدار السد ، ثم يجذو حذوه كبار رجال حاشيته حتى ينهدم جانب الجدار الذى يحبس الماء عن الجريان فلا يكاد الجدار ينهدم حتى يتدفق النيل فى الخليج وهو يهدر بعنف ، ثم ينصب من هناك إلى الخلجان الأخرى فى المدينة المحمية بسورها بحيث تصبح القاهرة فى ذلك اليوم شبيهة بمدينة البندقية . فيتاح التنقل بالقوارب بين مساكن مصر ونواحيها كلها . وهكذا فان ثمره ما ربحه التاجر أو الصانع خلال العام كله ينفقه فى هذا الأسبوع على الطعام والحلوى والشموع والعطور واستخدام محترفى الغناء والموسيقى . وهذا العيد بعث لأعياد كانت عند قدماء المصريين

وهكذا ما إن يعلن عن وفاء النيل حتى يحتشد له أغلب سكان القاهرة وينصبوا خياما لهم على الشاطئ وفي جزر النهر . ولا يتخلف عن الجمع أحد من المطربين وعازفى الموسيقى ومحترفى الألعاب وأصحاب أماكن اللهو والمحظيات والخلعاء تحف بهم جموع من شباب صاخب . كلهم بلا استثناء يشاركون فى بهجة العيد وينفقون أموالا لا حصر لها .

ويورد الرحالة كارلييه دى مېتون (١٥٧٩) مزيدا من التفاصيل فيقول إن الناس تخرج فى هذا العيد إلى الشوارع يلتمسون ما يتاح لهم من اللهو . يتفرجون على الراقصين ومدربي القردة وعلى مبارزات رجال فوق ظهور الخيل ، يستخدمون سيوفهم بالأيدى والأقدام .

والجانب الشيق عندنا فى هذا الاحتفال الذى يقام فى الخلاء هو امتداده أيضا إلى الليل . فتطلق الألعاب النارية وتقام زينة من الأنوار بهية ، لم يفت المؤلفات العربية وصفها . وبقي الاحتفال بهذا العيد من

التقاليد المرعية . وبلغ التأنق في زينتة أقصى غايته . فكانت الفوانيس ترتب بحيث يخيّل لرائيها أنه إزاء قلاع أو قصور أو حتى مشهد مبارزة .

وكان الاحتفال بهذا العيد النهري يمتد أيضا إلى بركتين . فتقام زينة من الأنوار لها بهجة كبيرة عند بركة الرطلى فيهرع إليها الناس للفرجة ويحتشدون على جوانب البركة يشهدون فرق « التشخيص » . . وفي أواخر القرن الخامس عشر أصبحت البركة المستجدة في الأزبكية منتدى لجموع المحتفلين بالعيد ، إذ كان حين يتم الفيضان يقام احتفال رسمي لفتح السد ليجرى الماء إلى بركة صغيرة . إنه احتفال كبير . يشارك فيه الرؤساء من رجال الدولة ويتقاطر إليه جموع غفيرة من الناس للفرجة ولا يقتصر الاحتفال على إقامة مأدبة كبيرة رسمية بل تطلق الألعاب النارية وتراقص قوارب عديدة على صفحة البركة . وتندلع شهوة الأكل والشرب إلى حشد جنونى . وكانت الألعاب النارية في بعض الأحيان سببا لوقوع إصابات لبعض الناس .

ويعمدنا الرحالة كوبان (١٦٣٨) بتفاصيل شيقة عن هذا العيد فيقول إن حشودا كبيرة من الناس تتجمع في سطح الماء أو على الشواطىء أو حتى داخل المساكن يعلق على واجهاتها فوانيس عديدة حتى تصبح كأنها بساط من النور . يربط هذه الفوانيس حبال رقيقة على الجدران طولا وعرضا وفق تشكيل ونسق جميل . لكل واجهة زيتنها الخاصة إما ترسم جسد حيوان وإما أشكالا زخرفية كنفوش السجاد . وتبقى الفوانيس مضاءة طول الليل ، لا تنطفئ . وعلى الجانب الآخر من قاع النيل أمام مصر القديمة يتراءى للناس مركبان من أكبر المراكب التى تشق النيل . ويعلوفوق هذين

المركبين هرم خشبي رشقت عليه الفوانيس متقاربة . تبدل أماكنها صعوداً وهبوطاً أو في حركة دائرية ويتم ذلك في سرعة مذهلة . منظر يبهج العيون . ولا يتأتى لأحد أن يلحظ كيف يتم هذا التبدل والدوران . لا شك أن هذه الفوانيس موصولة بعجلات يحركها رجال مختبئون داخل الهرم الخشبي . . وإلى جانب المركبين ثالث تنطلق منه الصواريخ والألعاب النارية . فتبعث السرور في القلوب .

أما الرحالة فردريك نوردان (سنة ١٨٣٧) فلم يصف العيد بأسلوب شاعري . بل بقى منه في نفسه ضيق وحرَج ، فاقصر في وصف العيد على قوله إن الباشا أمر بإطلاق ألعاب نارية لا تستحق الإشادة بها لأن عددها كان لا يزيد عن عشرين صاروخاً ، وإن الاحتفال الديني طالما تغنى بوصفه بعض الرحالة لا يزيد عن احتفال بزواج عند الفلاحين، أما الذي يثير الدهشة والعجب فهو مواكب الرؤساء لأنها فاقت كل المواكب المماثلة في روعة المنظر . ما أكثر الحماقات التي تصدر في هذا العيد من الناس . تعبيراً عن سرورهم بأن فيضان النيل قد أتى لهم بالخصب ووفرة المحصول .

ولم يحدث عاماً بعد عام أن مر عيد دون أن تزهر في زحمته بعض الأرواح . نتقل الآن إلى احتفالات طلعة المحمل وعودته .

(« المساء » ، ٢٣/٢/١٩٧٠ ، ص ٦)

* * *

لا أطيل هنا وصف احتشاد الناس للاحتفال بطلعة المحمل وعودته . فقد تكفل الأب جوميه في كتابه بإيراد تفاصيل عديدة عن هذا المحمل

الرائع الزينة المنصوب فوق جمل متين جسيم ، تعبيرا عن الرفعة وجلالة
القدر ، ومما قاله إن الاحتفال بالمحمل سنة ٦٨١هـ - (١٢٨٢ م) شوهد
فيه لأول مرة حملة الرماح وهم يقومون بمبارزات وهمية على سبيل اللعب ،
ونجد مزيدا من البيان في نص للقلقشندی ترجمه جودفروا ديموين يقول :
« ويركب جماعة من الممالك السلطانية الرماحة ملبسين المصنفات الحديد
المغشاة بالحرير الملون ، وخيولهم ملبسة البركستوانات والوجوه الفولاذ كما
في القتال ، وبأيديهم الرماح ، عليها الشطقات السلطانية فيلعبون تحت
القلعة كما في حالة الحرب ، ومنهم جماعة صغار بيد كل منهم رمحان يديرهما
في يده وهو واقف على ظهر الفرس وربما كان وقوفه في نعل من خشب على
ذباب سيفين من كل جهة .

(المترجم : المصنفات : هي زرد الحديد الذي يحمى المقاتل ، والتي
تحمى الجواد تسمى بركستوانات)

ومحدثنا الأب جوميه عن شيوع الهرج والمرج بين الناس بسبب هؤلاء
الرماحة ، الذين يلقبون بشياطين أو عفاريت المحمل ، يبرزون للناس في
هيئة مخيفة مضحكة معا ، فيضحك لهم الناس وهم في فزع ، هم جنود
فوق جياذ رشقت بها أجراس صغيرة ومعلقات معدنية عجبية شتى ، ولكن
مشاركتهم في الاحتفال لم تكن منتظمة ، فهم يظهرون حيناً ويغيبون
حيناً ، أما الرماحة فقد بقوا يلازمونه وهم يرتدون زى القتال وعدته ، وقد
جدد السلطان قايتباي تحريم ظهور عفاريت المحمل في الاحتفال ويبدو أن
السلطات الرسمية كانت تتردد بين تحريم ظهورهم خشية ما يقع بسببهم
من هرج ومرج وبين السماح لهم لكي لا يجرموا الشعب من متعة يهيم بها
هيأما كبيرا ، ويعبر ابن إياس عن سروره باستئناف العادات القديمة التي

سناها السلطان قنصوه الغورى فيقول وهو يصف المحمل : إن الرماحة ارتدوا زيهم الأحمر وفقا للعادات القديمة وشق الموكب أحياء المدينة فكان مشهدا رائعا بدت فيه مناظر كانت قد اختفت وطواها النسيان ، واجتمع نفر غفير من الناس يشاهدون مبارزات الرماحة وألعابهم وانطلقت جموع الشعب ترقص وترفع أصواتها بالغناء ، فعمت البهجة والسرور ، ولكن ابن إياس لاحظ أن دور عفاريت المحمل قد أسند في ذلك العهد إلى نفر من المهرجين المحترفين .

هذا الوصف المستفيض لا يمنع كتاب الرحالة توبان من أن يكون مرجعا قيما لنا ، إذ قال إن الناس كانت تحتشد لهذا الاحتفال بجموع غفيرة ، وأن عدد الجمال المصاحبة للمحمل تبلغ تسعة أو عشرة آلاف ، ولكن لا يشق المدينة منها إلا الجمال المحملة بمتاع أمير الحج ، بل يتخير منها أفضلها . أما الباقي فيظل خارج المدينة ، منها خمسمائة جمل لحمل قرب الماء ، وبقيتها لحمل المؤونة والخيام ، هذا إلى جانب خمسة أو ستة جياذ تجر مدافع صغيرة ، أما أمير الحج فيرتدى ثيابا بهية جميلة ، هدية من الباشا ، ويتلقى نفر من ضباطه هدايا مماثلة وإن تكن أقل قيمة : ويرفع المحمل فوق الجمل بتوقير شديد ، ويتزاحم الناس للتمكن من لثم أطراف الكسوة ويعمد البعيدون عنها إلى رمى مناديلهم إليها وأيديهم تمسك بها فإذا لمست الكسوة لثموا هذه المناديل ومسحوا بها على وجوههم ، ويسير أمام المحمل ووراءه جموع من أتباع الطرق الصوفية ، لهم شارات عجيبة وحركة أعجب منها ، فيهم من هو نصف عار ، ومن هو عار تمام العرى ، ومن يكتسى بجلد الوحوش ، ومن انقرز سهم في ذراعه وشق لحمه ، ومن يبدو كأنما به جنة ، يقبل على أكل أفاع تتلوى بين يديه ، يسنده ثلاثة

أو أربعة من زملائه ، ومن يحمل « الدبابيس » الطويلة الغليظة ، رؤوسها كتل ثقيلة من الخشب ، أثوابهم من ألوان شتى متنافرة ، وفيهم من يرقص ويقفز ، كما يحلوه .

(تعليق المترجم : يخامرني الشك في صدق قوله بأنه رأى بعض رجال الطرق الصوفية عاريا تمام العرى ، فهذا مستبعد منهم . وأكثر من ذلك فإنه منظر يمجّه ذوق أهل مصر وحياءهم ولو حدث لذكره ابن إياس أو غيره من مؤرخي بلادنا ، أما تعرية الصدر والظهر فقد شهدتها بعيني في مواكب الشيعة ليلة عاشوراء ، يلجأ إليه من يضرب جسده بسلسلة من الحديد إعرابا عن الجزع لمقتل الحسين .)

(« المساء » ، ٢/٣/١٩٧٠ ، ص ٦)

* * *

والى جانب الأعياد الموسمية فقد كان بالقاهرة أمكنة أشد من غيرها جذبا للناس في طلب اللهو ، تؤمها مختلف الطبقات ، ويجمل بنا الانطيل الحديث عن بنات الهوى والخلفاء ، لكن لا مفر من الإشارة إليهم إذا عددنا أصناف الناس الذين تشهد هذه الأمكنة لهوهم الصاحب . تجد في مبدأ الأمر من أطلق عليهم لقب « زعيرات الشماعين » ، لأنهن يتجمعن بالقرب من المسجد الأحمر في حوض سوق الشماعين ، هن سيما يعرفن بها وزى يتميزن به ، وهو لبس ملاءات الطرح ، وفي أرجلهن سراويل من أديم أحمر (نقلا عن المقرئى) ثم تشهد فيما بعد حمام القصرين ، في ميدان بين القصرين ، فإنه — بشهادة المقرئى كان مكانا ساخرا مبتدلا ، يقول :

« ولقد كنا نسمع أن من الناس من يقدم خلف الشاب أو المرأة عند

التمشى بعد العشاء بين القصرين ويلامس حتى يقضى وطره وهما ماشيان
من غير أن يدركهما أحد لشدة الزحام واشتغال كل أحد بلهوه »

ويذكر المقرئى اندلاق الخلاعة أيضا على شاطئ الخليج فى القاهرة
ويمدنا هذا المؤرخ أيضا بمعلومات أخرى فىقول :

« وكان يتجمع فى ميدان باب اللوق أصحاب الخلق وأرباب اللعب
والحرف ، كالمشعبدين والمخايلين والحواة والمتأففين وغير ذلك فىحشد
هنالك من الخلائق للفرجة ولعمل الفساد مما لا ينحصر كثرة .

(تعليق المترجم : طوى النسيان هذه الطوائف فأصبحنا نحتاج لمن
يشرح لنا من هو المتأفف و المشعبد الوارد ذكرهما فى النص . ولعل
المشعبد تحريف لكلمة « مشعوذ » وقد ترجم جاستون فييت كلمة متأفف
بكلمة « مهرج » وكلمة المشعبدين بكلمة « الحواة » ، مع أنه ظاهر من
نص المقرئى أنهم طائفة أخرى ، فقد ذكر الحواة إلى جانب المشعبدين
دلالة على اختلاف بينهما . وأضاف فييت من عنده إلى هذا الجمع طوائف
لاعبي القرة قوز ومدربي الحيات والثعابين . نعود الآن إلى النص الذى
نترجمه) .

وكانت هذه الأمكنة يؤمها جموع غفيرة من الناس للفرجة والانغماس
فى الخلاعة . ينفقون فى ذلك أموالا كثيرة . ويذكر المقرئى أيضا ظهور
جزيرة وسط النيل بجذاء بولاق سنة ٧٤٧هـ . (١٣٤٦م .) ما لبث أن
أصبحت مباءة للخلعاء يقتربون بها كل ضروب الفساد .

ولكن ميدان باب اللوق ظل مع ذلك معروفا بملاهيته ، يجتمع فيه سفلة
الناس ورعاعهم ، ويقول المؤرخ الرحالة ليون الإفريقى : نجد فى

القاهرة ميدانا فسيحا يطل عليه قصر ومدرسة بناهما المملوك أزيك الذى كان أيام حياته مستشارا للسلطان ، لذلك سمي الميدان بالأزبكية ، وبعد الصلاة والخطبة يتجمع الناس فى هذا الميدان كل يوم جمعة حيث نجد أمكنة للهو الذميم كالخمير والمواخير .

وكان البغاء مباحا فى كل الدول الإسلامية ، تشرف عليه الشرطة ، وتترأسه زعيمة لا بد لها من دفع ضريبة خاصة . ولكن لا بد أن يسبق هذا الكلام مقدمة نستمددها من ابن حوقل لأنه نقد بشدة هذه الأحوال التى لا ترضيه فى المجتمع الإسلامى حين تحدث عن الإقليم الذى يسكنه البربر إذ قال :

« لا نجد فى بلادهم فسادا يخرق العين ، ولا اقترافا للهو محرم مثل التعلق والانشغال بالعزف على العود وضرب الصاجات واستخدام الندابات والمغنيات والخليعات ، وبالجمله كل هذا الفساد الفظيع الذى تجده رائجا فى بلاد كثيرة » .

ولم تسلم دور البغاء من العسف بها بين حين وآخر ، ابتزازا للأموال ، يقول ابن إياس : « وفى شهر رجب سنة ٩١٥هـ (أكتوبر ١٥٠٩م .) قبض المحتسب على امرأة فاسدة اسمها أنس ، تدير منزلا للبغاء ، أقامته أولا فى الأزبكية ، ثم نقلته إلى قليوب . حيث أمر السلطان بالقبض عليها واعدامها غرقا ما لم تدفع غرامة قدرها خمسمائة دينار . ثم تنفى من البلاد . ولكن محنة هذه المرأة لم تقف عند هذا الحد ، فقد رأى طلبا للقربة إلى الله فى سنة انخفض فيها فيضان النيل بهذه المرأة العقاب

الذى أمر به السلطان التركى فى شهر رجب ٩٣٥هـ (يوليو ١٥١٩)
فيقول ابن إياس بسرور كبير :

« جرى القبض على امرأة اسمها أنس جهة الأزيكية تتجمع فى بيتها
البغايا وتدفع للمحتسب ضريبة شهرية معروف أمرها ، وصدر الحكم
بإعدامها غرقا فى النيل ، فسيقت إلى قصر العيني ، وقذف بها على الفور فى
النيل فماتت غرقا ساعة العصر ، واحتشدت جموع غفيرة من الناس لتشهد
غرقها . وهكذا أنقذ الله الناس من شرها وطهر البلاد من رجسها وأمر
المحتسب بغلق غرز الحشيش والخمامير - ولكن ها هو النيل قد علا
فيضانه واستحقت جباية الأموال المفروضة على الأرض فأمر حاكم المدينة
بعدم التعرض لأبناء أنس هذه إذا أداروا بيتا للدعارة ، وأتوا ما استحقت
عليه أمهم الموت غرقا » .

(المساء ، ١٩٧٠/٣/٩ ، ص ٦)

* * *

ويعدد الجبرقى أنواع الحرف التى كان يستهدف أصحابها تسليية
الناس فيقول : إن الأزيكية كانت تمتلىء بأرباب الملاعب ، (يعنى بهم فى
الأغلب لاعبي الجمباز) والمفضلين (أصبحنا لا نعرف أى شىء تعنى هذه
الكلمة) والجنابضة « وهم الذين يقومون بقفزات خطيرة » والجباضية
(وهم أصحاب عروض خيال الظل) ، ومدربي الثعابين والراقصين
والراقصات . ويصف ابن إياس رجلا يدير قرصا من النحاس مرفوعا فوق
عصا رفيعة ، ونجد عند ليون الإفريقى مزيدا من التفصيل فيقول :

« وكان يجتمع بالأزبكية أيضا عدد كبير من أرباب الملاهى ، الشارع مسرحهم ، وبالأخص الذين يقومون بترقيص الجمال والحمير فكان الرجل منهم إذا انتهى من ترقيص الحمار خاطبه قائلا :

مولانا السلطان أمر بإقامة عمارة ذات أبهة وفخامة ، وأنه أصدر تعليمات بجمع كل حمير القاهرة من غد صباحا لنقل الجير والحجر وبقية مواد البناء ، فما يكاد الحمار يسمع هذا الكلام حتى يقع على الأرض ، ويرفع قوائمه فى الهواء ، وينفخ بطنه ويغمض جفنيه كما لو كان قد نفق ، وتنهمر الدموع من عيني الرجل أمام المشاهدين حسرة على نكبته بفقده لحماره ، ويستجديهم أن يساعدوه بحسنة ليشتري بها حمارا غيره ، فإذا دار عليهم وجمع تبرعاتهم له تغيرت سحته وخاطبهم قائلا : لا تحسبوا أن حمارى قد مات ، إنه - بالعكس - حمار فارغ العين فجعان يعلم أنه سيشتغل من غد من مطلع الشمس لمغربها فلا بد أن تمتلىء بطنه ، ويعلم أننى رجل فقير فهو يريد بتصنعه للموت أن اشترى له علف يومه من غد بما تجودون به على من مال ، ثم يتوجه بالكلام إلى الحمار ويأمره أن يقف ، فلا يتحرك ، فيضربه بالعصا مرارا فلا تبدر من الحمار أقل حركة ، حينئذ يتابع الرجل دعاياته فيخاطب المشاهدين قائلا : « يكون فى علم كل واحد منكم ، يا أهل الجود والكرم ، أن مولانا السلطان أصدر مرسوما يلزم جميع أهل القاهرة أن يخرجوا للفرجة على موكبه احتفالا بالنصر ، وأن كل نساء أعيان القاهرة ، وكل بنت حلوة فيها مطلوبات لتركب كل واحدة منهن حمارا فشر الغزال ، لا بد من إكرامه ، إكراما لراكبته ، فتقدم له كيلة من أفضل أنواع الشعير ويسقى من ماء أحسن زير ، لا عكارة ولا طينة ،» فما يكاد ينتهى من كلامه حتى يقفز الحمار واقفا ويسير مختالا فخورا أمام

المشاهدين ، ولكن الرجل يتابع كلامه فيقول : « الأمر وما فيه يا جماعة أن شيخ الحارة طلب أن يستلف منى حمارى لتركب فوقه امرأته العجوز الكركوبة ، القبيحة الوجه » ، حينئذ يبدو على الحمار أنه فهم ما سمع ، كما لو كان له ذكاء بنى آدم ، فيخفض رأسه من شدة الهم ، ويندفع مبرطعا بقوائمه الأربع ، كأنه يريد أن يهرب بجلده فيقول له الرجل : « ما شاء الله . . تعال . . تعال ، لم أعرف من قبل يامكار يالثيم ياخنيس أنك لا تحب إلا البنت الشابة الحلوة » يطأطأ الحمار رأسه ويهزها كأنه يقول « نعم » ويستمر الرجل « قدامك ياسيدى أكثر من واحدة ، فأرى من التى تعجبك منهن ، ومن التى تختار ، فيدور الحمار على حلقة المشاهدين وهى لا تخلو عادة من نساء وقفن للفرجة ، يدور الحمار مرة أخرى حتى يقف أمام امرأة تكون أجمل الحاضرات ويتقدم إليها ويلمسها برأسه فيصيح بها الحاضرون معابئين لها : عروسة الحمار ، عروسة الحمار ، على حين يكون الرجل قد سارع فقفز فوق صدره ومضى لمكان آخر . وهناك صنف آخر من أرباب الملاعب ، يعرض على الناس عصافير مدربة حاطة على صندوق ، قادرة على أن تنتزع منه بالمتقار ورقة مطوية على طالع ، فمن أراد من المشاهدين معرفة طالعه رمى « نكلة » أمام العصفور فيلتقطها بمنقاره ويضعها فى الصندوق ثم ينتزع منه ورقة مطوية على الطالع وقد جربت أنا نفسى معرفة طالعى فخرجت لى ورقة لا تنبئ بخير ، ولكن الذى حدث لى فعلا فيما بعد كان أسوأ من المكتوب .

تكلم الرحالة منكوبيا - سنة ١٦٤٧ - عن كل هذه الحرف فذكر مدربي القروود ، ولاعبى المصارعة والبهلونات ، ولاعبى خيال الظل ، ووصفهم قائلا إنهم يحركون دمنى من وراء ستار ، وكذلك

وصف محترفي كشف الطالع بقراءة رمل مفروش أمامهم ، كما ذكر الحواة أيضا . وقد مر ذكر مدربي الشعابين وهي حرفة منحدره منذ ما قبل التاريخ ، لم تختف عن وادي النيل .

وقد ذكرها الرحالة جيمس بروس سنة ١٧٦٨ فقال : « رأيت رجلا يلتقط بيده إحدى الحيات من بين كثيرات منها موضوعة في زجاجة كبيرة ، ثم وضع الحية على رأسه العارية ، وغطاها ببطاقيّة حمراء ، ثم تناولها من تحتها ووضعها ، في عبه فوق صدره ، ثم لفها حول عنقه كأنها عقد ، كل ذلك دون أن تصيبه الحية بأقل أذى ، ثم يمد الرجل يده إلى دجاجة ربطها بجانبه فيقربها إلى الحية . . فتلدغها من فورها ، ثم لا تلبث الدجاجة أن تموت بعد لحظات قليلة ، وليس هذا كل ما يفعله الرجل ، بل رأيت يتناول الحية من عنقها ثم يشرع في أكلها ابتداء من الذيل ، حتى يأتي عليها ، هنيئا مريئا ، بلا امتعاض أو تقزز ، كأنما يأكل رأس جزرة حلوة أو رأس كرفس لذيذ .

واليك هذا الوصف الذي أمدنا به جوبينو الدبلوماسي والرحالة الفرنسي (١٨١٦ - ١٨٨٢) ، قال : صادفت ذات يوم رجلا من مدربي الشعابين عند منعطف درب لا يزيد عرضه على ثلاثة أقدام ، تحوطه منازل مرتفعة تحجب عنه الضوء فتغرقه في الظلمة ، جلس الرجل مستندا بظهره إلى جدار ! عابسا ، ينطق وجهه بالشر ، إنه يرث قدرته على السحر عن أزمنة وأجداد موغلة في القدم ، يتكتم أسراراً أخفى من أسرار سحره ، من عينيه ينبعث وميض لا يقل في فتكه عن السم الزعاف الذي يستحلبه

من أنياب حياته وكان أمامه ثعبان ملفوف ، مخيف ، قبيح المنظر أخذ يتلوى تحت قدميه كأنه يتشمم الهواء ليستمد قوة لطعنه لفريسته ، ثم إذا به ينتصب على ذيله قائما كأنه العصا ، ومرت فلاحتان فانبعث لهما صريخ من شدة الرعب وسارعت كل منهما إلى الهرب ولاذت بجدار تلتصق به ، لم يحرك الرجل ساكنا ولم يبد أقل اهتمام ، رمقهما بنظرة من طرف جفنيه ، وبدت على فمه ابتسامة مريبة ، كأنه يزهر بمقدرته وسلطانه ، ولكن بقية المارة زجروه وأمروه بأن يلم ثعبانه ويمضى لجال سبيله ، فمد للثعبان يده ، وبحركة تنم عن الحذر ، صادقة أو كاذبة تناوله بسكوت ودسه تحت ثوبه .

(« المساء » ، ٢٣/٣/١٩٧٠ ، ص ٦)

* * *

نختتم وصف ألعاب القاهرة وأعيادها بنبذة عن البهلوانات الذين عرفهم العهد الفاطمي ، يذكر المقرئ طائفة منهم تنسب إلى إقليم برقة ، اسمها (صبيان الخفي) ويقول عنها : كان لها اقطاعات وجرايات وكسوات ورسوم ، فإذا ركب الخليفة في العيدين مدبوا حبلين مسطوحين من أعلى باب النصر إلى الأرض حبلا عن يمين الباب ، وحبلا عن شماله ، فإذا عاد الخليفة من المصلى نزل على الحبلين طائفة من هؤلاء ، على أشكال خيل من خشب مدهون ، وفي أيديهم رايات ، وتلف كل واحد منهم رديفة ، وتحت رجله آخر معلق برجليه ويديه ويعملون أعمالا تذهل العقول ، ويركب منهم جماعة في الموكب على الخيول ، فيركضون وهم يتقلبون عليها ويخرج الواحد منهم من تحت إبط الفرس وهو يركض ، ويعود يركب من الجانب الآخر ، ويعود وهو على حاله لا يتوقف ، ولا يسقط منه شيء إلى الأرض ، ومنهم من يقف على ظهر الحصان فيركض به وهو واقف .

ولم تختف عروض البهلوانات بعد ذلك عن القاهرة وإن قل عددها ،
لا تنفك تجذب حشودا كبيرة من الناس تستمتع بها كثيرا ويرجع الفضل إلى
المؤرخ الدكتور أحمد دراج (وهو صاحب دراسة وافية عن السلطان
برسباى) فى تنبيهى إلى نصوص لم يسبق نشرها عندنا ويسعدنى أن أقدمها
للقرء لأول مرة ، أولها مستمد من كتاب (أبناء الفجر) لابن حجر
المعروف بالعسقلانى (١٣٧٢ - ١٤٤٩) وهو حجة مشهور فى علم
الحديث . قام برحلات فى مصر والشام والحجاز واليمن ، طلبا للعلم
ويسمى بحافظ عصره . إذ نعلم منه أن بهلوانا اسمه يزبك الجركسى ،
وهو رقيق أصله من بلاد الجركس أسره الأوربيون فبقى عندهم زمنا تلقى
خلاله دروسا فى البهلوانية فلما قصد القاهرة أخذ به السلطان فمثل بين يديه
واعتنق الإسلام وانضم إلى طائفة المماليك ، وأراد أن يعرض على
السلطان برهان براعته فمد جبلا من قمة مآذن جامع السلطان إلى قمة قصر
الأشرافية الكائن داخل القلعة ، ومشى على الحبل وهو يرمى تارة بالمكاحل
(أى البندقية) وتارة بسهام من قوس صغير ، فلما انتهى من العرض أمر له
السلطان بخلع سنية رفعته إلى رتبة (راكب حصان) بين طائفة
المماليك ، كما منحه الضباط الحاضرون مكافآت مالية ونقل لنا المقرئى فى
كتاب (السلوك) عرضا مماثلا قام به اثنان من البهلوانات فى شهر ربيع
الأول سنة ٨٢٩هـ (١٤٢٦م) أحدهما وثنى حديث عهد باعتناق
الإسلام ، له زى عسكرى ، وذكر المقرئى أن الحبل كان يرتفع من
الأرض مائة قدم ، فعم الذهول كل من شاهد هذا العرض وقال إنه لو لم ير
بعينه لما صدق إمكان حدوثه .

وفى كتاب « السلوك » للمقرئى خبر عن فتى من أولاد البلد ، أراد

أن ينافس هؤلاء البهلوانات الوافدين ، فمد في بيته سلكا وأخذ يتدرب على المشى فوقه ، فلما اجتاز الامتحان بنجاح انتقل فمد حبلا بين رأسى نخلتين وجرب المشى عليه حتى أتقنه حينئذ انبرى لتقديم العرض الذى يصبو إليه فمد سلكا بين قمة مئذنة جامع برقوق وقمة مئذنة جامع قلاوون عبر ميدان بين القصرين ، وجعل حبلا يتدلى من وسط هذا السلك ، وأخذ المشاهدون يتساءلون ترى أى لعبة خطيرة سيقوم بها هذا الفتى ، بدأ من قمة مئذنة جامع الظاهر (برقوق) وبدأ يمشى على السلك وهو منتصب القامة . قاصدا الوصول إلى المئذنة الأخرى وبينهما مسافة لا تقل عن مائة قدم ، وارتفاع السلك عن الأرض يزيد عن هذا القدر ، ثم إذا به بعد قليل يرقد على السلك كأنه فى فراش وثير ، ثم يقوم ويتابع سيره ، حتى إذا وصل إلى منتصف السلك عند ربطة الحبل المتدلى انزلق عليه فهبط إلى الأرض ، ثم طلع عليه وهو يقوم بحركات بهلوانية أذهلت المشاهدين ثم تابع سيره حتى بلغ غايته ، ولولا حرص هذا الفتى أيضا على ضرورة التزام رشاقة الحركة لما بلغ ما بلغ من مكانة بين المشاهدين ، ولا نمحت ذكرى أعباه من أذهانهم .

ثم عاد مرة أخرى ومد حبلا بين قمة مئذنة جامع السلطان حسن إلى قمة قصر الأشرفية داخل القلعة كما فعل من ينافسهم من قبل ، ورضى السلطان أن يتقلقل ليشهد بنفسه ألعاب هذا الفتى ، كما هرع إلى المكان حشد كبير من الناس ، وكان اليوم يوم جمعة هبت فيه رياح عاتية ، قادرة على أن تقتلع الأشجار وتهدم الجدران ، وبلغت العاصفة ذروتها والفتى يسير مستقيما الظهر على السلك حتى إذا بلغ منتصفه حيث الحبل المتدلى أمسك به وانزلق عليه إلى الأرض ، رأسه إلى أسفل وقدماه إلى أعلى ، ثم

صعد عليه وتابع سيره حتى بلغ غايته ثم إذا به لا يكتفى بهذا كله بل يترك السلك ويأخذ يتسلق قمة القصر بسرعة فائقة ، مستعينا بكرسى من رصاص مصقول ليلا مس جدران القبة بلا احتكاك ، يفعل والرياح الهوج ما كفت من هبونها بعنف يجعل الطير يتخبط في الهواء ، وقطع الفتى المسافة ذهابا وإيابا ، كأنما له طبع الريح ، لقد دل على براعة فائقة وبالأخص لأنه لم يتلق دروسا أو تدريبا طويلا على تعلمه ، لم يعتمد إلا على نفسه وعلى قوة إرادته .

ويقول المقرئ أيضا في كتابه « السلوك » . في يوم ١١ ربيع الثاني سنة ٨٢٩هـ (٢٠ فبراير سنة ١٤٢٦م) مد تاجر عجمى سلكا بين مئذنتي جامع السلطان حسن كما فعل سابقوه ، بدأ من إحدى مئذنتين وسار على السلك خطوات ثم كر راجعا إلى حيث بدأ وعاود المشى وهو مشدود القامة حتى بلغ غايته ، وقام أثناء سيره بألعاب عجيبة ، امتطى السلك فجعله بين ساقيه وتناول وهو على هذه الجلسة قوسا يحمله على كتفه ، وأخرج سهمين من جعبة يحملها على كتفه ، وأطلقهما من القوس واحدا تلو الأخرى بسرعة كبيرة ثم يقف على السلك ويمد جسده داخل طوق كان معه ، ويكرر لعبته على تنوع ، مرة يدخل الطوق بقدميه قبل صدره ، ومرة يدخل بالعكس ، ثم ينزل إلى الأرض منزلقا على حبل كان جعله يتدلى من منتصف السلك ، وأثناء نزوله يدور جسده وهو يهوى في حركة لولبية ، جاعلا رأسه أحيانا إلى أسفل ، ويلتزم في هذا الوضع المقلوب أن يطلق ثلاثة أسهم من قوسه ثم يصعد إلى الحبل ويستوى واقفا فوق السلك المشدود ، ثم إذا به يسقط فجأة من على السلك ، ولكن قدميه معلقتان به وتحميانه من دق عنقه على الأرض ، إبهام القدم هو المشبك الذي يربط

به بالسلك ، ثم يرفع جسده وهو ما يزال في وضعه المقلوب - الرأس إلى أسفل - حتى إذا علاه عدل وضعه ووضع قدميه على السلك ، معتمدا على قدم واحدة رافعا الأخرى إلى حذاء فمه ، ثم يعيد ما فعل خلف خلاف ، ثم يجمع قدميه على السلك ، وينحني ويسجد فوقه كأنما هو مائل في حضرة السلطان يقبل الأرض أمامه ، وقد أنست براعته المشاهدين كل ما يذكرونه عن سابقة . .

(عن جاستون فييت بتصرف واختصار)
(« المساء » ، ٣٠ - ٣ - ١٩٧٠ ، ص ٦)

ذكریات

مدينة المصنع والأسمنت والأسلاك المعلقة والقضبان الممدة . . أم
السيارة والبلاستيك والنيون والسينما والكوكاكولا ، المدينة الحديثة رأيته
بعيني تأكل بدأب وقسوة – كما يأكل القط فأرا – مدينة القرون الوسطى ،
أم الحمير وعربات الخيل والبغال والسقا ، عاشقة النحاس والمشربيات
والفوانيس وخيال الظل والكراكوز ، شاربة الخروب والسوييا والتمر
هندي والبنزهير والعرقسوس .

رأيته بعيني تهدم أبواب الحارات وتذك الأسوار وتندلق من فوقها فارشة
فوق الغيطان وتبعثر من مراقدها إلى التشرذ فالضياع صناعات يدوية ،
لكل صناعة معلم يسير مع الطائفة في موكب الرؤية ، وحى لا يقبل غيرها
ولا تخرج هي إلا منه ، اسمه من اسمها .

هي الآن تلفظ آخر أنفاسها ، من حقها على من عاش طفولته في حضن

شيخوخة عزها أن ينسى لحظة تطلعه وسيره نحو بشائر المستقبل لينحني عليها بتحنان ، من قبل أن يغيب وجهها في التراب . .

شهدت بعيني متاجر السيوف والبنادق المفضضة والبارود والخرطوش في حى سوق السلاح ، لا تشتري منه الآن حتى ولا سلاح جيليت . . هى البنادق التى انطلقت يوم مذبحة القلعة التى تطل على الحى . .

وكم من مرة سرت في هذا الطريق الضيق المحجب إلى ، أكاد أعشقة من أول حى المغربلين ، لم يسعدنى الحظ برؤية وجوههم المعفرة وأثوابهم القصيرة ، كانوا قد اختفوا وطلع شيء سمعت عنه ولم أره اسمه وابور الرمالى .

من بعده عتمة رقيقة تجدد فيها حى من لهاليب الصيف أجسادنا وعيوننا التراخومية ، تحت سقف من خشب متداع - ما أجمل تسلل أشعة الشمس من شقوقه يمتد حى الخيمية ، يعملون قعادي ، ويرسمون بالقصاقيص على العبك صورة رمسيس العظيم منتصباً في عربته في معركة قادش ، لو رآها في قبره لضرب كفا بكف ، ولكن هذا هو جزاء النقاش النخاع . . فيما بعد قرأت لأحمد فارس الشدياق وهو يصف كيف أن المرأة في زمنه كانت تزور جارتها المواجهة لها في هذا الحى بخطوة واحدة تقفز بها في الهواء من نافذة إلى نافذة . قال أيضاً إن المارة كانوا يرفعون رؤوسهم للسماء لا في دعاء بل للفرجة . .

بعده حى السروجية ، أمام كل عامل صورة حصان أو حمار : من خشب عليه جلد وقماش وحشويتشكل ، في اليد إبرة غليظة هى الميبر ،

السرج العربى له حاجز من أمام ومن خلف ، مكسو بالقطيفة ، مدندش بالشراريب . . هذه سروج السفر ولعب البرجاس ورقص الخيل ، عن مثل هذا السرج ورغم مسانده - سقط الغورى فى معركة « مرج دابق » أمام السلطان سليم «وداسته سنابك الخيل » - إني أحفظ هذه الحملة من أيام المدرسة - وعلى أمثاله أيضا تهادت شجاعة المماليك أمام مربعات نابوليون ومدافعه الحاضرة فى معركة الأهرام . ترى هل أحس حتى السروجية بالنذر ؟ أولا استيراد لسروج إفرنجية من أوربا ، ثم اختفاء رويدا رويدا للخيول ، وإن بقيت رائحة من البركة فى الحمير . . مر به الآن لتعلم على أى حال أصبح .

من بعده يجيء دور الأنف بعد أن كان الدور هو دور العين ، فى الجو رائحة لذيدة من توابل وعطور ، كأنما يحملها نسيم قادم من الشرق الأقصى القرنفل والقرفة والزنجبيل ما أجمل وقع هذه الأسماء على الأذن من هنا يشتري المغات للنفسة ، والقرطاس والتحويجة للسمنة ، والمفتقة والبخور للزار ، لابد لكل امرأة تعبده أن تشتري لفة من اللبان لتظل بقية يومها تمضغ وتطرع ، وكانت طرقة اللبان من علامات الدلال ، ورأيت أما تضرب بنتها لنهيها عن طرقة اللبان .

وعلى الرصيف بائع الفواش الزجاج ، أمامه حسناء تمد له يدها فيعالج غوايش ضيقة حتى تستقر فى ذراعها ، والمكسور منها محسوب على البائع . . إكراما لعيون الشارية . .

نمر الآن تحت بوابة ضخمة ، فى سور عتيق ، ونشهد بعجب خرقا من القماش معقودة على مسامير البوابة ، إنها (عمل) تستشفع به طالبة حاجة

أو طالبة انتقام من جارة . . فيما بعد لم أكن أمر تحتها إلا ذكرت طومان باي
وشنقه . . وانقبض قلبي لا لموت هذا البطل فحسب ، بل لخيانة أصدقائه
له .

لك أن تمضى بعد ذلك إلى الصاغة ، وكان في الحقيقة حى الزينة وحى
البنوك أيضا ، الأسورة على شكل ثعبان حلية ورصيد فى بنك . هنا نشترى
المشالله لوقاية الولد من الحسد . . رأيت بعينى خلاخيل الفضة الغليظة
التي كانت تلبسها خضرة وأم السعد . نزع الخاتم عند الموت من الأصبع
سهل . . ترى كيف كان خلع الخلخال . . ؟؟

وإن شئت عرجت على حى النحاسين ، الحلة واللقوقى وطاسة
الحضة ، سيخصص للنحاس عربية بتمامها يوم زفة الجهاز من بيت
العروسة إلى بيت العريس . . فى الجوضجة ، هى وقع الشاكوش على
النحاس . .

وأمام بيت فى هذا الحى كنت أحس برهبة وخشوع ، كان اسمه (بيت
القاضى) .

(التعاون، العدد ١٦١، ٢٠٠٣/٣/١٩٦٦ ص ٦)

عربي وافرنبجى

ما أكثر المهن البلدية الصغيرة التى كادت تختفى الآن أمام زحف الحياة الحديثة . وحين كتبت مقالى السابق عن تقهقر منصة عرايس مولد النبى إلى أطراف الأحياء الشعبية عادت ذاكرتى إلى القاهرة التى عرفتها وأنا صبى . كان من معالمها :

١ - موقف الحمير : فى العتبة الخضراء ، فى القلعة ، بل عند سور الأزبكية أمام فندق الكونتنتال ، وفى أماكن أخرى كثيرة لافتات مكتوبة هكذا « موقف لعشر حمير » . وكانت اللافتة المكتوبة أمام الكونتنتال مكتوبة هكذا « موقف لخمس حمار » كأن جوار السياح الأجانب كان يقتضى لخطبة الهجاء العربى . وكم ركبت حمارا من العتبة الخضراء لأعود إلى بيتى فى آخر شارع محمد على .

٢ - عربة سوارس : التى يجرها بغلان ، خط القلعة سيدنا الحسين مارا بالمغربلين والخيمية وبوابة المتولى ، خط القلعة السيدة زينب مارا بالحوض

المرصود وبركة فرعون ، خط السيدة إلى سيدنا الحسين . أنت ترى أن سوارس كانت لخدمة الفلاحين الذين يزورون أهل البيت ، ما بقى من الزباين تتكفل بهم عربات الكارو .

٣ - الحصرى : كان فى كل حى تقريبا دكان حصرى ، نراه مقرصا فى دكانه أو فى شارع أمامه وهو يمرر عيدان القش من بين خيوط الدوبارة المشدودة بين عارضتين .

وكان الناس يشترون هذا الحصير إما لفرشه على أرضية الحجرات أو لوضعه تحت البساط ، حسب القدرة ، وكانت حصيرة الصلاة لها أيضا سوق رائجة فستان بين زبينة الصلاة من أثر حصير خشن ، وزبينة الصلاة من أثر سجاد ناعم .

وكان أهم زبون صقع للحصير هى وزارة الأوقاف ، تشتريه لمساجدها العديدة ، وكان من النوادر التى يضحك لها الناس قولهم إن شركات الدخان والسجائر كانت هى التى تشتري المستهلك من حصير وزارة الأوقاف . .

اختفى دكان الحصرى أو كاد ، لم أعد أراه ، وكان الأمل أن تتطور هذه الصناعة اليدوية بحيث يضع الناس فى بيوتهم على الأرض أو على الجدار حصيرة جميلة الصنع والألوان . . إنها لمسة فنية رخيصة الثمن .

أقول هذا وفى ذهنى هذا الحصير اليابانى الرقيق الجميل الذى كانت تعرفه أسواقنا فيما مضى . .

٤ - المكوجى العربى : هو المختص وحده بكى ثياب لابسى العمائم من الجلب والقفاطين والأحزمة الشاهى . . لم يحدث لواحد من الأفندية أن أرسل إليه بدلته لكيها له ، بل لم يسأله هل هو قادر على كيها أو غير قادر ، ولا أدرى ماذا كان يجيبه لو سأل ، وصاحب الدكان لا يعمل بيديه وحدهما ، بل بهما وبقدمه اليمنى أيضا ، ثق أن قدمه هذه أهم له من يديه ، ما كان أحق مهنته إذن أن تسمى « قدمية » لا يدويه ، أو على الأقل « يدقدمية » ، على غرار « مسرواية » توفيق الحكيم . كان له طاولة واطئة . . يفرد عليها الجبة أو القفطان ثم يضع عليه مكواة كبيرة جدا ، غليظة لها يد خشبية طويلة ، يمسك هذه اليد بيده ويضغط على المكواة بقدمه اليمنى . . فهو منكفىء ، مقوس الظهر ، لا يماثله فى انحناء الظهر إلا نحات الحجارة الذى كاد ينقسم وسطه ، ولعل تقوس ظهر المكوجى العربى هو الذى جعل بخة الماء التى تخرج من فمه طراطيش تشبه المطر الغزير المنهمر ، مندفعة بقوة ، تخلخل الهواء فتجعله يمر بمنشور زجاجى .

وكان مهما إذ كان للمعممين شياكة لا تقل عن شياكة الأفندية ، بل ربما فاقتها ، وكان لهم « مانيكان » متجول ، هو المرحوم الحمصانى صاحب مصانع الشاه والكشمير ، له عربة خيل أنيقة ، جرسها يرن رنينا موسيقيا بديعا ، له وجه وردى وسيم لذيذ ، وشارب أصفر جميل . . يلبس عمامة صغيرة مقلوطة ، لا تحتل إلا قمة رأسه ، وجسده الرشيق عليه أجمل ما فى السوق من شاه وكشمير ، مفصل باتقان ، وخارج لتوه من دكان المكوجى العربى . لم أر رجلا مثله يعلن عن بضاعة بمثل هذا الظرف . وكان

الخمصاني وعربته وعمامته وجبته وقفطانه من معالم القاهرة التي عرفتها وأنا صبي .

ومكوجي الأفندية والخواجات كان يسمى « مكوجي إفرنجي » إذ كان العهد عهد انقسام بين عربي وإفرنجي . . هذا فرن إفرنجي ، وهذا فرن بلدي ، هذا ترزي إفرنجي وهذا ترزي عربي ، وفي القمة : هذا محام مختلط وهذا محام أهلي أو شرعي . . بل كانت ثمار بذور الخضروات المستوردة يطلق عليها وصف الرومي . هذا باذنجان رومي أو بامية رومي . . بجانب الباذنجان البلدي والبامية البلدي .

تدهور حال دكان المكوجي العربي ، ولم أعد أراه إلا نادرا ، لا عذيب فقد لبس البدلة بدلا من الجبة والقفطان أبناء الأزهر ، ودار العلوم ، وتضاءلت نسبة لابسى العمامة بين أبناء الشعب .

٥ - دكان الخراط : وهو يعمل بقدمين لا بقدم واحدة . وكان منظره يستوقفني ويستهويني فنحن نعتبر القدم في شدة الحمورية إذا قيست باليد ، فإذا بها في دكان الخراط تثبت أنها لا تقل عن اليد ذكاء وخفة وحصافة . واستخدام الإنسان لقدميه في عمل يثير الدهشة دائما . . لا عجب أن كان من النمر الرائجة في خيام الموالد رجل يلضم الأبرة مستعينا بقدميه وحدهما ، ويولع بهما أيضا وابور الجاز .

كاد دكان الخراط يختفي ، لم أعد أراه إلا نادرا ، ضم إلى القائمة « المرخاقي » الذي يشتغل في الرخام والمرمر وتصليح الأواني الخزفية . .

« والنجار الدقى » الذى يصنع المشربيات ، ودكان « ألقبايى » ، ودكان « السيرجة » التى كنا نشترى منه الكسبة والزيت الحار « بذر الكتان » والسيرج (بذر السمسم) وأكثر الدكاكين معاندة للزوال هو دكان « الطرشجى » ولكن مآله محتوم بسبب انتشار مصانع الطرشى .

ولعلى لم آسف على اختفاء كل هذا المهسن اليدوية أسفى على اختفاء نداءات الباعة الجواله . . إن طفولتى ملأى بنداءات عديدة منوعة ، بالليل والنهار ، وكان لها أجمل وقع على أذنى وقلبى .

(د التعاون ، العدد ١٧٨ ، ١٧/٧/١٩٦٦ ص ٨)

معاينة من الداخل

هذه اللجنة الحكومية التي قرأت في الصحف أخيراً نبأ تشكيلها لدراسة أوضاع الحمامات العامة - سألت نفسي ترى كيف سيعمل أعضاؤها ؟ هل سيكتفون بالمعاينة من الخارج أم ستقتضيهم الذمة أن ينفلتوا من ستارة رقيقة بالية رطبة كانت ذات يوم مخططة بالأحمر مسدلة على باب واطيء غير عريض في أحد دروب الأحياء الشعبية فيشفطهم دهليز ملتو ضيق لا يشعشع في غبشته إلا ضوء خجول كلما تحركت الستارة من بعيد ، ليفضى بهم إلى قاعة معتمة مكتومة صيفية الطقس حتى في عز الشتاء ، يقبع في أحد أركانها - وفي حضن الصمت - مسترزق ينتظر هو الآخر كرم المولى ، فإذا أعفاهم من الأجر وأمره الله - لأن المهمة رسمية - نادى فأقبل فوق قبقاب حنين على الأرض من فرط ما براه الشقا رجل عار إلا من فوطة كالمنديل المحلاوى حول ما أمر الله به أن يستر ، شدها منها فيها حول خصره ، نحيف تستطيع أن تعد ضلوعه ، حتى الأخير العائم منها ، جلد على عظم ، هذا جسد تعود على مغازلة نار مزمنة ، هذا هو

« المكيساتى » يا عزيزى . سيقودهم إلى دروة بها كنب بلدى يخلعون فيها ملابسهم ، فإذا تعرفوا كما ولدتهم أمهاتهم أخذ بيدهم برفق - هكذا يقتضى البروتوكول - كأنه جزار يجر ذبيحته ، أو مغسل حانوق يتسلم الشغل ، ومشى بهم إلى قدس الأقداس . . تحت قبة على سطحها عراك أبدى بين أشعة الشمس وتراب متراكم فوق براويز من زجاج أحمر وأخضر وأصفر ، هذا إذا كان الحمام ابن عز قديم ، وقدس الأقداس هو المغطس يشع من مائه المغلى بخار يملأ الحمام كله ، ينصحهم المكيساتى أن ينبطحوا قليلا فوق الرخام الساخن فهذا شفاء من الروماتزم وكافة أوجاع البرد وأن يتقلبوا عليه ظهرا وبطنا ثم يصبر عليهم إلى أن يتصببوا عرقا ، لوفى دلو للماء ، وأن تفك كل خلية فى جلدهم آخر زرار فى قميصها فيأتى بكيس صغير خشن يلبسه كالقفاز ويعمل به على أجسادهم من فوق لتحت ومن تحت لفوق - عمل فارة النجار على لوح من الخشب ، سيدهش كل واحد - وهو يظن أن جسده نظيف - من هذا المقدار الهائل من القاذورات السوداء التى فضحها هذا الكيس اللئيم ، إنه أزاح معها أيضا طبقة من الجلد فأصبح مس الحرير يؤذيه ، ومن العجيب أن لهذا المكيساتى عادة سمجة كنت أتأفف منها كل مرة ، لا شهادة عنده على براعته فى عمله واستحقاقه لبقشيش كبير إلا أن يقتل هذه القاذورات السوداء من على بطنى ، دفعا إلى صدرى ، ثم يمد ذراعى حتى يحشو بها يدى ، خذ : هذا الخبث كان فوق جثة حضرتك فأرحتك منه كما ترى ، آن الأوان للنزول إلى المغطس والاستعاذة بالله من لهبة مائه ، ومن بعده فم (بضم الفاء وتشديد الميم) أول وثن بالليفة والصابونة مع دلق الماء على الرأس والجسد من كوز بيد المكيساتى ، أصبح جسدك يلمع كالخذاء الاجلاسيه ، حينئذ يقودك

صاحبنا برفق أشد - لأنك دائخ ولا ريب - حتى الدروة فتستلقى على الكنب وقد التففت بفوطتين كبيرتين - كأنك أصبحت من الحجاج في وقفة عرفات - إذا أردت جىء لك بشاى أو قرفة ليعوض حرارتها بعض الفرق بين طقس المغطس وطقس الدروة ، وليعوض أيضا بعض السوائل التى أفرزها جسدك حتى كاد ينضب معينه . ولا بد أن يقول لك المكيسات وهو يودعك « عقبال حمام منى » وأعلم أننى حججت وذهبت إلى منى وبحثت عن حمامها فلم أجده . . ولا رأيت مسلما واحدا يستحم بها .



تميزت المدينة الإسلامية بكثرة الحمامات العامة بها ، يقال إن بغداد هارون الرشيد كان بها ألف حمام ، وكان على مرمى حجر من بيتى فى صغرى ثلاثة حمامات عامة ، حمام الصليبية ، وحمام اسمه « حمام الدود » قصاد الحلمية القديمة فى شارع محمد على ، وحمام فى شارع المغربلين ، تعمل الأسبوع كله ، ليلا ونهارا ، أيام مخصصة للرجال وأيام مخصصة للنساء ، وكنا نشاهد أحيانا بمتعة كبيرة كيف يقدم موكب العروسة للحمام وقد استأجرته الأسرة ليكون وقفا عليها ، تدخله بيضاء اليدين والقدمين وتخرج وهى مزركشة برسوم بديعة من الحناء ، الليلة القادمة هى ليلة الدخلة ، وكان الحمام شبه فندق ينام فيه من فقدوا المأوى ليلتهم ، ويؤدى خدمة كبيرة لبطون الشعب ، ففى مستوقده ينضج الفول المدمس داخل قدرة من فخار ، لا من نحاس أصفر فوق بريموس ، كالعهد به الآن ، وشتان بين الطعمين ، وكنا فى صباننا نسمع همسا - وبلذة عجيبة - لأن الكلام عيب عن أن بعض الحمامات مباءة لهواة الشذوذ الجنسى ،

ودخل الحمام فى أمثالنأ البلدية مرتين مشهورتين ، مرة نقول : « حمام بلا ماء » ، وصفا للضجة الشديدة ، وهذا مثل مستمد من الحمام يوم تخصصه للنساء ، ومرة أخرى يقول فيها المثل عن إنسان قد ضاع هدرإنه ضاع كالشبه . . . فى حمام فأنت إذا نزلت المغطس لن يدرى أحد بما يفعله ماغاب من جسدك فى الماء . . أعترف أن الجريمة تكون فى أغلب الأحيان اضطرارية ، تستحق العفو . .

* * *

تحدثت حال الحمامات العامة الشعبية ، اختفى معظمها ، وساد الباقى جو من الشيخوخة والفقر والمهانة ، وحل محلها - وللطبقة الراقية وحدها - حمامات اسمها « السونا » وفدت إلينا من بلاد الشمال ، تشغيلها بالكهرباء ، وبدل قفاز المكيسان فروع صلبة من شجر تجلد بها جسدك وخاصة ظهرك . لم أدخل واحدا منها ، رغم اشتهاى لها ، فلا تزال ذكرياتى مشدودة إلى حمام الدود . .

(« التعاون » ، العدد ٢٥٢ ، ١٧/١٢/١٩٦٧ ، ص ١٠)

أسواق

من أحب القراءات عندى - وأنا ابن بلد وصف القاهرة فى مختلف العصور وارتباط بعض أحيائها القديمة الباقية إلى اليوم بفترات هامة من تاريخها ، ارتباط انفك مع الزمن فى طى النسيان ، خذ مثلا هذا الشارع الضيق النازل من القلعة إلى السيدة زينب ، مارا بالصليبية وبركة فرعون ، أتمنى أن أكتب سيرته قبل أن أموت من خلال هذه السيرة سينبعث من جديد فى صورة درامية - عصر المماليك بزعماته ومجالس علمائه فى المساجد ووقائع الأيام المجيدة للمقاومة الشعبية لجيش نابوليون ولثورة سنة ١٩١٩ أيضا فقد سارت فيه أيضا جنازة ابن القباقبى الذى هجم على الإنجليز أمام دكان أبيه فى الركبية فصرعه رصاصهم مشت الأمة كلها وراء نعشه . هذا البطل مطوى أيضا فى النسيان ؛ بل لا نعرف اسمه . لن أذكره فى سيرة هذا الشارع إلا باسم « ابن القباقبى » والكتب التى تقتصر على وصف المباني والعمائر من مسجد وسبيل وتكية وخانقاه مما يؤلفه علماء الآثار ، هى فى هذا البحث بمثابة العظام لاغنى عنها ولكنها جافة مليئة

بمصطلحات معمارية من قولة : مقرنصات وعقود وأكتاف . أما الكتب
التي تستهويني فهي التي تكسو هذه العظام باللحم والجلد والعروق التي
يجرى فيها الدم فتتكلم عن المدينة كلامها عن كائن حي تحاول النفوذ إلى
روحه وسر طبائعه وتعنى بوصف الألوان والروائح واختلافها من حي إلى
حي ومن ساعة إلى ساعة ، ويغطيني أشد الغيظ أن أحد الأجانب –
لا أبناء البلد – هم الذين ينحون هذا النحو . آخر ما وصلني كتاب جميل
لدموند ستوارت عن القاهرة كما هي اليوم ، لعل البعيد يرى ما لا يراه
القريب ، وإحساس الضيف الطارئ بجو البيت أشد وأسرع من
إحساس صاحبه الأليف به ولكن الحب هو الذي يهزم كمامة القرب
والألفة . لن يكتب وصف القاهرة على هذا النحو من أبناء البلد إلا من
أحبها ، من عشقها ، ويألفها من فتاة جديرة بالحب وبالعشق .

وأريد أن أحدثك اليوم عن بعض ملامح القاهرة التي شهدتها في
صباى ثم اختفت الآن ، لا تقليدا للأجانب بل لأن هذه الملامح لا تفارق
ذكرياتي في اليقظة والنام . سأخلص من إلحاحها بالإفشاء بها إليك .

كنت أذهب إليها لا للبيع أو الشراء بل للفرجة . أشعر بلذة كبيرة
حين أجدني ضائعا وسط عالم غريب لا تجده إلا فيها ، يتجمع عندها
ساعة ، ثم يذوب وتبتلعه المدينة ، لو لم تره فيها لما أدركت قط أنه يعيش
بجانبك دون أن تحس به . لكل منها مكانه وميقاته وبضاعته وزبائنه
وضجته ونداءاته ، هي بعض أسواق القاهرة كما رأيته في صباى .

سوق العصر

أولها وأهمها هو سوق العصر ، وكان يقام على أرض فضاء أصل إليها بعد مروي على الجدار الشرقى لسجن قرة ميدان في حي القلعة . أقرأ على بابه لافتة تقول بخط ثلث لا يناسب جماله جهامة البناء « السجن تأديب وتهذيب وإصلاح » . كان العهد مغرماً بلطع الحكم على مقاعد طقم الصالون العربي . ولكن من بين سجون مصر كلها كان سجن قرة ميدان « كان » لأنه انهدم الآن — ينفرد وحده ، ولا أدري لماذا بلطع هذه الحكمة على بابه ، صدقني أنني لم أكن أصدقها . على طول جدار السجن رجال ونساء من أولاد البلد يصرخون من نافوخهم بأسماء أقاربهم وعيونهم معلقة بالنوافذ الصغيرة ذات القضبان : الرؤية حرام فلم يبق إلا سماع الصوت الحبيب ولو أتى من بعيد . . قلبي ينقبض لهذه الصرخات المحتدمة وأحس بفجاعة السجن ولوعة الفراق وفجأة يلفني سوق العصر بجوه الغريب . الهواء مثقل بالتراب ، زحام يكاد يلتصق فيه اللحم باللحم ، لا يمكن أن تمشي في خط مستقيم أكثر من خطوتين . إنه سوق الفقر المدقع والفقراء المهلهلين ، ومع ذلك يغشاه أناس لوقستهم بمقياس هذا الحضيض فلا بد أن تقول عليهم إنهم من الموسرين ، ولو لم يكن في جيوبهم إلا فكة ريال ، دفعتهم هواية لهم إلى هذا السوق كما سترى . لم أدرك إلا في سوق العصر مآل كوز أعقاب السجاير التي يلمحها بعين النسر في شوارع القاهرة وفي أرض مقاهيها صبي هو مثال مجسم للتشرد والضياع . في سوق العصر رأيت هذا الصبي يأتي ببضاعته موضوعة في كيس فيشتريها منه رجل يجلس على الأرض يفرش أمامه قطعة قذرة من الخيش يفرط عليها هذه الأعقاب

المتهرثة التي سقط منها آخر نفس هي ورق فيه شبهة من تبغ ، فيخرج منها خليط يغلب عليه لون السواد . لهذه البضاعة زبائن يأتون إليها من أقصى المدينة ، أذكر منهم رجلاً شيخاً مكحكاً يتعمم ويتكىء على عصا غليظة يمشى بخطوة ثقيلة جلس أمام التاجر جلسة القرفصاء ، وتلبث لحظة يسند رأسه المائل إلى كتفه ويبلع ريقه ، ثم أخرج من عبه علبة من الصفيح واشترى من التاجر عبوتها من هذا التبغ المفرط بكم ؟ لست أدري لكن الثمن لا شك يبهظ المشتري فإنى أرى أصابعه تدعك العملة دعكاً شديداً وهي تدفعها إلى يد البائع ، وما الثمن إلا ملاليم قليلة . أعاد العلبة المملوءة هذه المرة إلى عبه ، وقام وربت عليها بكفه مرتين من قبل أن يستدير ويمضى. إلى أين ؟ سيارة مهككة وقفت أمام محطة بنزين لتزود بالوقود .

على مقربة امرأة كأنها من لونها وملاعها واحدة من سرب الحدآت التي تحلق فوق السوق بلا انقطاع وضعت. هي الأخرى فوق قطعة من الخيش كوما هائلا من نفاية مطابخ المستشفيات ومعسكرات الإنجليز حيثئذ ، إذ كنا إبان الحرب العالمية الأولى ، مهما دقت النظر لن تدري أى طعام هو ، لقم وهبر من شغت ومواسير عظام مفتتة مختلطة بعضها ببعض . البيع منها بالحفنة لا بالكيل أو الميزان . بجانبها امرأة أخرى تباع من حلة غارقة في الهباب محشى الكرنب ، ولا شك أن الحشو أرز بلا لحم ، بدليل شدة الزحام على بائعة النفايات . .

وهذا رجل لا ندري من أين التقط بضاعته لا شك أنه على صلة وثيقة بجامعى القمامة ، إنه رتبّ في صفوف منتظمة على قطعة من قماش فردها أمامه ، أشياء لا علاقة لواحد منها بالآخر من قريب أو بعيد ،

صامولة زنبرك فونوغراف مكسور ، علبة صفيح ، منفضة سجائر عليها اسم « بيرة الأهرام » قصرية مخروقة ، مبرد بدون قرص ، مقبض جنزير بسكليت ، ملاعق من الصفيح إلخ إلخ أشياء رماها أناس لبيعوها إلى أناس . . وأعجب العجب أن كل شيء من هذه الأشياء سيجد له مشتريا يسعى إليه من أقصى المدينة . .

أما الموسرون فهم هواة الحمام وكان لا يخلو حي بلدى فى القاهرة حينئذ من غية حمام يتلذذ صاحبها برؤيته وهو يطير فوق منزله ثم يعود إليها بعد أن يصطاد حمامة أو حمامتين من غية منافس له . إلى سوق العصر يذهب أيضا هواة الحمام ليشتروا اليماني والهزازى والشقلىباظ الذى يدور مرتين على نفسه إذا سقط من كفك إلى الأرض ، ويشترون أيضا الحمام الزاجل ، وكان هؤلاء الهواة أشرق زبائن سوق العصر وجوها وأنطقها بالسعادة لأنهم من الموسرين إذا قيسوا بحضيض هذا السوق ، بل لأن الهواية حب وهيام .

وسأحدثك فيما بعد عن بقية أسواق القاهرة كما شهدتها فى حياتى .

(« المساء » ، ٣٠/٥/١٩٦٦ ، ص ٦)

* * *

كان سوق العصر ، مطروحا على هامش المدينة بين السجن والجبل لأنه سوق أناس يعيشون فى مسغبة على هامش الحياة تهش بخرهم وجربهم إليه عصا التأفف والبطر فى يد رعاة التخمّة والترف كنفخ المغربل العفى للقشور والحب الأجوف . نفايات تتساقط كالذباب على نفايات السبارس وكناسة المطابخ فى المستشفيات والثكنات وحلة الكرب المحشو غارقة فى الهباب .

سوق الكانتو

تعال الآن معى ننحدر من القلعة إلى ميدان العتبة الخضراء لنشهد سوقا آخر ، إنه مقام كما ترى فى قلب العاصمة ما بين مدخل الموسيقى وحردة الميدان من ناحيته البحرية اسمة سوق الكانتو ، الذى أعرفه أن « الكانتو » كلمة إيطالية تعنى الغناء ، وأعترف بأننى لا أدرى إلى اليوم لماذا أطلقت هذه الكلمة الإيطالية اسما لهذا السوق . وفى لغتنا العامية كلمات إيطالية كثيرة جمعها صديقى الدكتور مراد كامل وألقى عنها أخيرا محاضرة طريفة . أياكون السبب أن نداءات الباعة نوع من الغناء ، غير أنى موقن بأنى لم أسمع وأنا أزور هذا السوق فى صباى نداءات للباعة ، بل تصر ذاكرتى على تقديمى لى الآن فى صورة سوق يتم فيه البيع والشراء بمفاوضات تجرى همسا بوشوشة فى الأذن مع انفراد البائع بالمشتري فى خلوة وسط الزحمة . كل الباعة فى « سوق العصر » جلوس على الأرض أما فى سوق الكانتو فكلهم وقوف . وتصر ذاكرتى أيضا على أنه سوق يقام فى عتمة المساء ، ما أحقة أن يسمى « سوق العشاء » . سوق العصر وسوق العشاء كأن أسماء أسواق القاهرة حينئذ كانت من مواقيت الصلاة .

وشوشة وعتمة . هذا دهليز مقبض يفضى إلى ساحة الرهبة . نعم صدفتى كنت أحس فى هذا السوق وأنا صبى بشىء من الرهبة ، إذ كان يقال لنا إن البوليس يرسل إليه من رجاله بصاصين يحومون متنكرين حوله ، ومع ذلك تفضحهم أحذيتهم ، يتأملون المبيعات ويتفرسون فى وجوه الباعة وكنا نعلم أن البضائع المعروضة فى هذا السوق تأتى من

مصدرين رئيسيين : اللصوص والحانوتية ، وأنه سوق مقام على الغش والمقالب ، لا فرق بين غشيم وأجعص جعيص ، هما وحظهما قد يخرج الأول فائزاً والثاني خاسراً . ما أعجب هذا السوق سوق الوشوشة والعتمة والجريمة والموت والغش واللوترية . كان سوق الكانتو سوق الملابس القديمة المستعملة ، بالأخص البدل الإفرنجية ، بديل الأفندية ، وأحياناً بديل البكوات والباشوات ، فلا يزال على بعضها امضاء أشهر مشاهير التريزية في ذلك العهد ديليا وفيستا (لاحظ أنهما من الطليان أيضاً) . ولكن إياك أن تظن أنك ستجد البدلة كاملة . هذا لا يحدث إلا نادراً ، إنما تباع جاكته بلا بنطلونها ، أو بنطلون بلا جاكته ، أو صديري يتيم فقد الأب والأم ، هذا التفتيت هو سر رواج سوق الكانتو فأنت لا تعلم كم كانت حينئذ زنقة هذا العدد الغفير من الناس الذين يلبسون فوق الجلابية جاكته يشترونها بلا بنطلون وصديري ، لا يجدون في القاهرة كلها حينئذ متجزاً واحداً يبيعها لهم ولو ذهبوا إلى ترزى لتفصيلها لهم لقال لهم : عليكم وعلى سوق الكانتو . .

هذه الجاكته وحدها يعرضها بائع له عيون النسر ودحلبة النمس وفصاحة سحبان وريق حلو ، لو وقعت في قبضته أشرف الفتيات لقادها مختارة إلى درب طياب ، الجاكته مسبطة على يده ، ولكنه يشد حيلها بالتربيت عليها بيده الأخرى . لقط نظرة مترددة بين نعم ولا يصوبها إليها فتى نحيل مصفر الوجه (البلهارسيا يافندم) يلبس جلابية مقلمة من فوقها جاكته زيتي تقول : « من الهوا دبنا » ، لعله كاتب حسابات في وكالة ، فأخذه واختلى به وسط الزحمة ووشوش في أذنه : « هي خرج بيت

واحد باشا لم يلبسها إلا شهورا قليلة ثم خلعها على طباخه فباعها في ساعة عوزة ، حقا انك مبخت أن جئت هذا المساء » .

خلع الفتى جاكته الزيتي ولبس جاكته الباشا فإذا الكم أطول من ذراعه وإذا بها تكاد تصل إلى ركبته . قال له البائع وهو يشد كتفها : تقصير الكم أمر سهل أما الطول فنافع في الشتاء ، إنها سترم بدنه وخلعها عنه برفق كأنه شماشرجى الخديو اسماعيل وقلبها له ليريه بطانتها الحريرية وهو يمسح بكفه خيوطها النافرة من طول البلى . . وبعد فصال شديد ثبت الفتى على رقم لا يتزحزح عنه فتركه البائع متحسرا على سذاجته ومضى يتصيد غيره وهو يرمق الفتى بطرف عينه ليرى هل يتبعه أم لا ؟ نعم ، إنها حقيقة ، فوقف عند رجل رضى بعد فصال شديد أن يدفع فيها مبلغا يزيد على الثمن الذى أصر عليه الفتى ، فاندب وزاد عليه ، واشتراها ، وفي البيت انتبه لأول مرة أن الجيب الأعلى موجود ناحية اليمين لا اليسار وأدرك أن الجاكته مقلوبة ، ولو كان أكثر فطنة لأدرك أيضا أن المشتري الثانى كان من أعوان هذا البائع . وكنت إذا عدت للبيت أحس بسعادة كبيرة لأن بيتنا كله ليس من زباين سوق الكانتو . . إنه سوق رهيب .

ومن الغريب أنه كان على مقربة من سوق الكانتو دكاكين تباع الكتب القديمة المستعملة تشتري منها شاكسبير وجييون وديكنز بقرش أو قرشين ، هى أجداد سور الأزيكية أيامنا هذه وكثير من الكتب مكشوط عن صفحاتها الأولى اختتام المكتبات العامة التى لا تباع ذخائرها .

* * *

سوق الخيل

وتصر ذاكرتي على أنه كان يقام في الطراوة ولكن في وضح النهار لا ريب أن مواعده كان ما بين العصر والغروب ، فالجلسة فيه تطول كثيرا ، والبائع والمشتري جالسان على قهوة هذه المرة ، هذا هو سوق الخيل في ميدان باب الخلق ، والقهوة على الرصيف المواجه لدار الآثار العربية .

وكان للخيل حينئذ دولة . . ثم زالت . لا يباع في سوق باب الخلق خيل السباق ولا عربات الكوبيل والفيتون والكارثة في اصطبلات السادة الأغنياء أو المعلمين الكبار ، بل هي خيول الشغيلة من أولاد البلد لجر عربات الدبش أو عربات الحنطور . والخيل كما ترى مقامات كالناس تماما بتمام . لا أدري إذا كنت حينئذ أقسم خيل هذا السوق إلى نوعين : النوع الفلاحى ، وهى خيل عربات الدبش لا ينقصها إلا أن تلف على وسطها حزاما من الليف وتنادى من تحت قناطير القفة : منفلوطى يارمان : جسد لا ينهد رغم الشقا وجلد لا يأبه للسعة الشمس والخدوش التى لا تبلغ مبلغ الجروح الغائرة المكتومة بمسحوق الحناء ورأس عنيد وصبر لا ينفد واستعصاء على التطيع بطبع أهل المدينة ، خليط مدهش من السذاجة والمكر .

والنوع الثانى نوع الأفندية من الموظفين خارج الهيئة ، وهى خيل عربات الحنطور ، وبخاصة الفرده الشمال فإنها دائما أضال من الفرده اليمين ، غلابة ومساكين وذئل مقيم . . فإذا استراحت في الموقف وجدت رجلا جالسا عنده يفتل للسائق سوطه القديم ليجدد قدرته على اللسع . . نعم كان قتل هذه السياط مهنة يرتزق منها بعض الناس حينئذ .

ها أنذا جالس مع المشتري والبائع في قهوة باب الخلق وقد أمر البائع صبييا له أن يقود الحصان جريا أمامنا مرة ثانية وثالثة إذا قلت لك إنه كان يجرى كل مرة كالغزال فلا تستعجب . فكما قيل لنا إن سوق الكانتومرد لصوص وحانوتية قيل لنا أيضا إن مسجوق الشطة (وهي أخت بودرة العفريت وكانت تقوم مقام حقنة فيتامين « أ » و « ب » و « ج » إلخ . . يحقن بها الحصان في مكان ما من جسده . . أمر الله بالستر . . وإذا امتنعت عليه الوحوشة من حلقه أطلقها من سيقانه وحوافره .

(المساء ، ١٩٦٦/٦/٦ ، ص ٦)

دهليز بعد دهليز . .

نشأت فوجدت اسم « ميدان باب اللوق » ، على ضلعه القبلى واجهة خشبية رثة متداعية لمحطة سكة حديد حلوان ، لم أدخلها إلا مرارا قليلة ، فى زيارات سنوية ، أيام شم النسيم . والقطار ينفث دخانا كثيفا على الجانبين ، فأحمد الله أننى لا أسكن فى المنازل المظلة عليها ، وعلى ضلعه البحرى منزل نمر أمامه بتوقير شديد ، لأننا نعلم أنه منزل صالح باشا الفلكى وإن لم نكن قد رأينا صاحبه رأى العين ، بتوقير شديد لأنه باشا - طظ فى الباشوات - بل لأنه عالم جليل شهدت له أوربا ذاتها بالتفوق . كم أتمنى أن لا تنقطع الإشادة به وببقية علمائنا الأفاضال الراحلين ، كم أتمنى أن ننشر من جديد أعمالهم القابعة تحت التراب فى مخازن المكتبات ، طواها النسيان وطواهم جميعا مع الأسف .

ووسط الميدان موقف مهم لعربات الحنطور ، أمر أمامها فأشتاق أن أركبها فى نزهة على كوبرى قصر النيل ، صبرا صبرا ، قد يتحقق الأمل فى يوم قريب ، يأتى فيه الفرع مع الفرع ، فلم يبق لى إلا أن تعلق عيني برأس

الحصان وقد خلع عنها اللجام والشكيمة وهى محنية مندسة فى كيس التبن ، هى ذليلة فى الحرية ، ذليلة فى الأسر ، هكذا كانت تقول لى نظرتها وهى تشكو إلى هوانها . رائحة التبن أيضا تلتقطها أنفى بلذة وضيق معا ، ولكن الحذر الحذر من أن ينفث الحصان وأنا أمر بجانبه فيسقط شىء من الرذاذ على يدى . فمن معلومات الطبية الأكيدة بالتوارث أن هذا الرذاذ يكون بذرة ينبت منها فى يدى شىء كجذع الشجرة اسمه « قوبة » — لا بد من قطعها بالمقص . وتعلق عيني أيضا — فى شىء من العجب — برجل يقتعد الرصيف ، جعل مهنته قتل الشياطين لسائقى العربات بين مشوار وآخر — الرزق ضئيل ولكنه أيضا سرساب من يد ليد . تعود لذهنى صورته من متاهات النسيان حين كبرت كلما قرأت عن هذه الطيور الدنية التى لا تعرف الأكل إلا بالتقاط الطفيليات التى تضايق جلد التمساح فيتركها تسرح وتمرح على ظهره دون أن يطبق عليها فكها الفظيع . ومثلها تلك الأسماك الصغيرة التى تعيش بتأدية الخدمة ذاتها لوحش البحر ، سمك القرش المخيف ، حقا : كل فولة ولها كيال . . .

لم يخطر ببالى حينئذ أن أبحث عن معنى كلمة « اللوق » — ما أكثر الكلمات التى ننطق بها ولا نعرف معناها ، وبقيت أردد هذه الكلمة كالبيغاء ، يحاول ذهنى — فى غفلة منى — أن يربط بينها وبين كلمات أخرى تبدو كأنها مشتقة من نفس المصدر ، من ذلك ما أسمع من أهل البلد : « خذ قلم على وشه اتلوق منه » . ولا أدري لماذا وسوس لى وهم خفى أن « اتلوق » بالعامية هى كلمة متعلقة بالفم . فالذى صفع على وجهه سيقوم من الضربة وقد تورمت شفته وتلجلج لسانه ، وربط ذهنى بين هذه الكلمة وحركة تلقيمنا بملعة ملأى بحلاوة « على لوز » التى كنا نشترىها من فتيات

صغيرات بجحات يتجولن فى الشوارع أول أيام العيد الصغير ، وحلاوة « على لوز » كثيفة لزجة مطاطة تتعب الشفتان واللسان والشدقان والحلق فى تناولها « وتلويقها » فى الفم ، ها هى . وفى كلمة « اتلوق » وجدت استعمالا آخر لها ، مرتبطا بالفم ، ومع ذلك أبت هذه الكلمة إلا أن توحى لى أيضا بأنها تعنى كذلك إصابة الجسم كله بخلل فى اتزانه واعتداله وتطابق شقيه ، فيزحف الخد من مكانه ليدخل مكان الخد الآخر ، أو يستدير الكتف وينحنى على الصدر ولا يعود لموضعه . أو أن تتخالف القدمان فتصبح اليمنى كأنها اليسرى واليسرى كأنها اليمنى . فمن أخوات كلمة « اتلوق » . فى العامية كلمة « اتلوح » . والكلمة الأولى تفيد أن الجسم أصبح كأنه رخو بعد أن كان متينا ففقد رباطه واختل توازنه واعتداله وتطابق شقيه .

وبقيت كلمة « اللوق » لا معنى لها عندى ، أكررها كالبيغاء إلى أن رحلت فى مطلع شبابه إلى الصعيد ، فوجدت لها لأول مرة معنى واضحا ، هى كلمة شائعة على ألسن الفلاحين ، وتعنى هذا الطين الرائب فى الأحواض فور أن ينحسر عنها ماء الفيضان . حينئذ وقبل أن يجف الطين لابد للزارع أن ينثر بذور البرسيم أو الفول ثم لا يفعل من بعد شيئا إلا أن يسوى الأرض ويترك النبت ينضج دون أن يسقيه . هذا هو الفول البعلى وهو بخلاف الفول المسقاوى الذى يشرب من ٤ إلى ٦ مرات . ولل فول البعلى صيت أيما صيت ، فهو فى الاعتقاد السائد أسهل نضجا فى الطبخ وأجود طعما من الفول المسقاوى وتطلق كلمة « لوق » بالتبعية على أرض الحوض كله ، بلا نظر إلى الطين هل هو رائب أم جامد .

والآن وأنا أكتب هذا المقال أكشف لأول مرة فى « القاموس الوسيط »

على كلمة « لوق » فأجده يقول : لاق الشيء لوقا لينه ، والألوق هو الأحق الذى لا يحسن الكلام ، واللوق كل شيء لين من طعام ونحوه .
فأنت ترى أن الكلمة فى الفصحى تستمد معناها من مصدرين : الأول هو الليونة . والثانى مرتبط بالفم أى لجلجة اللسان بدليل أن كلمة « ألوق » معناها الأحق الذى لا يحسن الكلام . والكلمة العامية كما فى الفصحى تستمد من المصدرين أيضا ، فاللوق هو الطين الرائب ، اللين ، ثم اتلوق بمعنى أن الجسد كله أصبح رخوا فاختلف نظامه واعتداله واتزانه . وبقي بعد ذلك المصدر الثانى المتعلق بالفم . . « اتلوق » بمعنى تلجلج لسانه ، وبمعنى الشقاء فى تناول حلوى « على لوز » وهى أيضا مادة رخوة لينه . . لست أدري هل سبب تسميه الميدان بباب اللوق أنه كان أيام القاهرة المعزية اخد الفاصل بين العمران والأراضى الزراعية ؟ . ربما . . ومرت الأيام فإذا ميدان باب اللوق أصبح يعرف باسم ميدان الأزهار ، ثم بميدان الفلكى .
وتراجعت محطة سكة حديد حلوان إلى الورا ليشأ شارع يقام فيه سوق دائم هو من أشد شوارع القاهرة زحاما . وانهدم منزل الفلكى وقامت مكانه عمارة عسيرة الولادة ، فلم تنفك عنها السقالات منذ سنين . ولم يبق فى موقف العربات إلا عربة فرد جربانة كحيانة ، لا أمر بها إلا عادت لذهنى صورة الماضى كله . رائحة التبن ، والبوابة الخشبية الرثة ، وتلفتت عيني تبحث عن فاتل السياط فلا أجده .

(التعاون ، العدد ٢٢١ ، ١٤/٥/١٩٦٧ ، ص ١٠ ، ٩) .

المتبوع واحد

طلع علينا الدكتور محمد يوسف نجم أستاذ الأدب العربى بالجامعة الأمريكية ببيروت فى محاضرة ألقاها أخيراً هناك برأى جديد عن إصلاحات محمد على فهو يراها لم تقتبس نماذجها الأولى من الحملة الفرنسية أو من إصلاحات نابليون فى مصر كما قال أكثر المؤرخين : بل إن محمد على كان يضع النموذج التركى نصب عينيه . . فالحملة فى سنواتها القليلة التى قضتها فى مصر كانت منصرفة إلى تنظيم وجودها وتوطيد حكمها فى تلك الأرض الغربية المعادية ولم يتح لها الوقت لكى تقدم للمصريين نماذج حضارية فعالة جدرة بأن يحتذىها الحكام الذين سيتولون أمر مصر بعد خروج الحملة . ولقد كان عنصر الزمن ضد هذه الإصلاحات . . كما كان الشعب من الناحيتين النفسية والثقافية غير مستعد لتقبلها . ومن هنا لم تكن الحملة الفرنسية أكثر من هزة حركت شعور محمد على ودفعته إلى اقتباس النماذج المألوفة لديه المعروفة عنده ، أى أنه اتجه ببصره إلى تركيا لا إلى فرنسا . فقد بدأت حركة الإصلاح فى تركيا منذ عهد السلطان أحمد

التركية والفرنسية من الأستاذة للتعليم في مدارسها الأولى . وحين أنشأ المدرسة الحربية في فرشوط سنة ١٨٢٢ اتفق مع ناظرها « محمد بك » على أن يجرى تنظيمها على الأسس التي وضعها سليم الثالث لمدارسه الحربية . فالنتيجة التي وصل إليها يوسف نجم هي أن محمد علي تطلع إلى إصلاحات سليم الثالث حين كان يضع الخطط الأولى لإصلاحاته العسكرية والتعليمية في مصر .

ليكن كل ما قاله الأستاذ يوسف نجم صحيحا ولكنه لا يثبت إلا أن محمد علي لم يتجه أول الأمر إلى الحضارة الغربية التي كانت فرنسا قبل إنجلترا هي المثلة لها في نظره إلا عن طريق واسطة هي تركيا فلا فضيلة لهذه الإصلاحات التركية في نظر محمد علي لا أنها مقتبسة من الحضارة الغربية فكل الذي فصله المؤرخون الذين ظن يوسف نجم أنه طلع عليهم وعلمنا برأى جديد يخالف رأيهم . . هو أنهم أسقطوا الواسطة من الاعتبار واستبقوا الأهمية للمصدر الذي جعله محمد علي نصب عينيه ، وهو اقتباس أنظمة الحضارة الغربية وأين رآها إلا بفضل حملة فرنسا وإنجلترا على مصر . لا شك أن معركة الهرم كانت درسا هيات لمحمد علي أن ينسأه .

أما استعانة محمد علي بالأساتذة الأتراك فهو لا يدل على شيء . . دع عنك أن أكثر من ثلث اللغة التركية ألفاظ عربية فلا تعد مفارقة للغة التلاميذ مفارقة كبيرة فإن هذه اللغة التركية كانت أيضا لغة الدولة في مصر ، وكلا اللغتين تظللها راية الإسلام . لم يكن لمحمد علي إذن مناص من الالتجاء إلى الأتراك الذين حاولوا اقتباس أنظمة الحضارة الغربية في بلادهم وإلا لما لجأ اليهم هذا الشعب الماكر ، ثم لا تنس أن محمد علي كان قد أرسل

البعوث إلى أوروبا وكان محتاجا إلى أن يملأ الفراغ قبل عودتها . وفوق هذا فإن بعض الحجج ينقض آخرها أولها ، فهو حين يتكلم عن استقدام محمد على للأساتذة من تركيا لا يلبث أن يضيف أنه اشترط أن يكون لهم اتقان للغة الفرنسية ، أى أنه لجأ إلى التركي المتفرنس ، إن لم نقل إلى الفرنسى المتترك لا حبا فى سواد عيون الأتراك ، بل حبا فى سواد عيون الفرنسيين .

وأخيرا يغتبط يوسف نجم حين يقرر لنا أن محمد على عين ضابطين تركيين ممن درسوا فى الآستانة لمعاونة البعثة الفرنسية التى استقدمها سنة ١٨٢٤ فى تنظيم جيشه ، وكان من أهم أعمالها تنظيم المشاة برئاسة الكولونيل رى .
فيا يوسف يا نجم من الأهم ؟ . . الأستاذ أم مساعده ؟

والغريب أن المحاضرة تستطرد بعد ذلك لإثبات أن تركيا عادت واقتبست لنفسها كثيرا من أساليب محمد على فى الإصلاح ، أى جرى تبادل مستمر بين النموذج المصرى والنموذج التركى ، وكلاهما يقتبسان من مصدر واحد هو الحضارة الغربية .

إن المناخ الذى ساد مصر فى أعقاب الحملة الفرنسية هو أن لا سبيل لمحاربة الأعداء الغزاة القادمين عبر البحر إلا باصطناع أسلحتهم ، ولا وسيلة لاصطناع أسلحتهم إلا باقتباس حضارتهم . ولا أعرف أحدا عبّر عن هذا المناخ أصدق تعبير مثل الجبرى . ولعلك تذكر أننى حدثتك ذات يوم عن وقفته فاغر الفم مندهشا أمام عربة جيب صغيرة لنقل الأتربة جاء بها الفرنسيون معهم فلأن لها من الأمام عجلة واحدة صغيرة أصبح من المستطاع برفع العجلتين الخلفيتين عن الأرض دفع العربة بسهولة . هذه العجلة الصغيرة فى عربة يد لنقل الأتربة كانت كافية لأن يلطم الجبرى

خديه حسرة على تخلف الحضارة في بلده المحبوب - مصر التي لا يعرف
أهلها نقل الأتربة إلا على عربات ذات أربع عجلات يحتاج دفعها إلى جهد
شديد . ما أشبه رأى يوسف نجم بالمثل البلدى القائل ! «يا جمحا ودنك
منين ؟» .

(«المساء» ، ١٩٦٦/١٠/٣٠ ، ص ٤)

قفائك من ذكرى حبيب ومنزل !

يُصر الميدان — كما يُصر الكيس — على منزل يشغل وحده قمته الغربية ، منزل غير كبير لأنه مسكن لأسرة واحدة لا تجهر بثناء فاحش ، فهو لا يتراجع عن الطريق ليحتفى من العالم وواغشه وراء خديقة تختبئ داخل جدار مرتفع ، لرب الدار حكر زهورها اليانعة ، وللمارة من عباد الله إحسان يُلقى إليهم من فوق السور ، يشمون فيه عطر نجوم مبعثرة من الياسمين الهندى ، وإنما ينم عن بحبوحة محتشمة فى رزق غير موروث بل مكتسب بشرف وعرق الجبين ، وعن كرم وحب للناس ، فرصيف الميدان هو عتبة الدار ، وعن ذكريات إقامة فى أوربا ، لأنه من طراز عمارتها .

هو من طابقين ، ويعرض الطابق الثانى شرفة مكشوفة فسيحة ترسل إليها الشمس أول ما تطلع من الشرق باكورة أشعتها لتحى وتقدم فروض الطاعة لصاحب المنزل ، الفلكى النابغة الذى يرصد حركتها ويجلو أسرارها .

أعرف هذا المنزل منذ صباى — أى منذ نصف قرن — وإن كنت لم أعرف أهله ، أوليه — قبل إجلال — حبا خالصا سعد به قلبى . ما مررت بالميدان إلا تطلعت إليه ، ورأيت رأسى يرتفع بحركة غير إرادية ، لأنه يهينى إيمانا بأن الله سبحانه لا يضيع أجر من أحسن عملا ، ولأنه يملأنى ثقة فى خصوبة تربة هذا الوادى ، ومواهب أبنائه من الفلاحين الغلابة ، وذكرت ولا مفر على مبارك ومحمد عبده وترحمت على الجميع .

وكان المنزل حينئذ عامرا ، وحتى لو طفت به ذات يوم فوجدت الصمت مخيما على نوافذه المغلقة فإنى أحس مع ذلك بدفء أنفاس أهله . قطرة الدار لا شك تتشاءب بجلل ولكن بدون يأس لأنها تعلم أن أعزاءها عن قريب عائدون . أما المنزل المهجور ، ولو أحيطت به زينة الأفراح ، فله إطراقة حزينة لا يخطئها القلب .

لم أنتبه وقتئذ أن موقع المنزل يجعله بمثابة المرصد للميدان ، وكان خليقا بى أن أدرك هذا الشبه ، إذ يكفى أن صاحب المنزل اسمه «الفلكى» . وما أكثر ما شاهد هذا المرصد ، تحول الاسم من «ميدان باب اللوق» إلى «ميدان الأزهار» . تراجعت محطة سكة حديد حلوان إلى الوراء ، وشُق لها شارع قصير جديد . ذهبت القاطرة التى تصطك وتنفث الدخان وتزحر زحير الحبلى ، فتفتتنا نحن الأطفال وتخيفنا . وجاء بدلها من وراء البحار ديزل مبرقش بالأحمر والأصفر . اختفى حارس المزلقان الذى يصرخ ويُلوح فى وجوهنا بعلم أحمر ممزق ويمسك بلجام الخيل والبغال بعد أن شدّت قوائمها فوق القضيب ، فتهز رؤوسها حيرة واستنكارا ، ثم تلم نفسها بجهد ، وحل محله جرس مزدوج فى حجم الطبله كأنه ناكرونكير ،

ثقل الدم لأنه مزعج ولحوج ، ونور أحمر يتوالب كالعفريت يمّنة ويسرة
فيضني زنبرك المزلقان والرقبة . ومع ذلك فحوادث المزلقان لم تنقص بل
زادت لأن الصدمة لم تعد تدهس فردا ، بل أوتوييسا مزدحما جوفاً وسليماً .
والعذر ؟ .. الفرملة خسرانة !

اختفى شيئا فشيئا جيل «بقال باشا» الذي كان يحتل جوانب الميدان ،
أسماء من قبرص واليونان ، وكبر صاحب قفة الفول واللب فوق الرصيف
وفتح له في الميدان (دكان مقلّي) طار صيتها عند كافة هواة التسالي . لم
يتخل عن عمامته وجلبابه فخلفه أبناء أفندية في قمصان من الحرير فتضاءل
صيت الدكان قليلا قليلا حين توكل به صبي أجير في جلباب غير نظيف .
الفول لم يتغير ، بل لعله تحسن ولكنه فقد لذته حين فقد شهرته ، والوهم
سلعة تباع وتشتري .

اختفى دكان الشربتلى وجف ينبوع العرقسوس الخمير والتمر هندي
شفا والشعير والسوبيا والبنزهير ، وظهر فتى من الصعيد الغميق يلبس
صيفا وشتاء عمامة على لفة خرطوم من القماش يتهدل طرفاه فوق صدره
وتحت كاكولة من الصوف فائلة من الصوف يمتد الكمان منها إلى الرسغين
(هل هو يعيش في سيبريا ؟) ، ولكنه مشمر دائما عن ساعديه ، وفتح له في
طريق محطة حلوان أول دكان في الحى لعصير القصب ، وتحولت العصارة
من يدوية إلى كهربائية ، ثم مسايرة لدكاكين قلب العاصمة - ضم
للقصب عصير البرتقال والجزر والمانجو . . ولكن لا فائدة . . الرائحة هي
هي رائحة عصير القصب .

* * *

وتقدم المنزل الأغر في العمر ، هو أيضا يودع دور الشباب ولكن
الشيخوخة لا تزال بعيدة ، غير أنى كنت أحس والسنون تمر أنه بدأ يرخى
جفنيه قليلا قليلا .

وظهر في الميدان سنة ١٩١٩ أجناس جديدة من المارة ، هم المشتغلون
بالسياسة ، فمزل الشيخ الوقور وابنه محمد محمود على مرمى حجر من
المنزل الأغر ، تنعقد فيه اجتماعات وحلقات ، ثم أصبح الميدان معبرا
لأعضاء البرلمان . ويحدثنا «العقاد» أنه كان يجتاز هذا الميدان هو أيضا في
طريقه إلى منزل الشيخ الوقور ، أو إلى البرلمان ، أو إلى صحيفة «البلاغ» .
لا شك أن «العقاد» حين مروره بالميدان كان يلقي تحية الاعتزاز والإكبار
على المنزل الأغر لأنه هو أيضا من عشاق صاحبه .

هذا عن الأحياء . فماذا عن الأموات ؟

لم يكن يمر بالميدان إلا جنازات قليلة ، الموق هم ولا ريب من
سكانه ، أو سكان الأحياء المجاورة ، فإذا بالجامع القريب منه - جامع
جركس - يصبح محطة وصول لركاب ليس في أيديهم تذكرة للعودة . يبدأ
الخط من جامع السيد عمر مكرم . «ولو كنت من السيد عمر مكرم أو من
جركس هذا - وأعترف أنى لا أعرف من هو هذا الولي - لثرت في قبري
احتجاجا على الوظيفة البغيضة التى أسندت إلى رغبم أنفى الذى أكله
الدود» .

ونخط «عمر مكرم - جامع جرکس» كثير الزبائن ، أغلبهم من عليّة
القوم ، فشهد الميدان عن كثب كيف بدأت تشيع مودة تشييع جنازات
المسلمين بكورونات من الزهور . . ترى هل أحس المنزل الأغر أن

الموت ، كما هو قدر محتوم للأحياء ، هو أيضا نهاية لا بد منها للمنازل ،
نحيل إلى أنه يبدأ مع إرخاء جفنيه يطرق برأسه قليلا ويحوطه جو مبهم من
الوحشة .

لا شك أنه كان يماثل ، أو لا يقل إلا قليلا عن ارتفاع منازل الميدان ،
ثم إذا بالمعول يقضى على معظمها واحدا بعد الآخر ، وتظهر آلة كأنها برج
بابل تدق الأرض فترجها رجا . وتقوم على جوانب الميدان من الأسمنت
المسلح عمارات شاهقة . . . ويل على المنزل الأغر . . . إنه أصبح كالقزم
الضائع وسط العمالقة ، وما أشق أن يولى الصحاب قبل أن يولى العمر ،
وأحسست وأنا أطوف به مسحة من الحزن تخيم عليه .

واحتل العمارات أشكال وألوان من الأطباء ، يعلن اختصاص كل
منهم سفور أمراض كانت محجبة من قبل .

وتحت العيادات لبد الصيادلة ، وصار في الميدان بين كل صيدلية
وصيدلية . . . صيدلية ! والمنزل الأغر أصبح يوحى بأنه غير باق على قيد
الحياة إلا بفضل حقن مقوية .

* * *

كنت أطوف به في السنين الأخيرة فأجده غارقا في صمت عميق ،
أصبحت له إطراقة المنزل المهجور ، كأنه غطى رأسه بلحاف وانسحب من
الحياة ، واستغرق في سبات طويل .

كان من قبل في شجرة الميدان بمثابة ثمرة تزينها . كبرت الشجرة
وتضخمت فتضاءلت الثمرة وذبلت ، ولم يعد يربطها بالغصن المتفرعن إلا
صلة أوهى من خيط العنكبوت ، ستقع ستقع . وماذا يهم أن نسأل متى ؟

هو لا يزال موجودا ، ولكن ما أظن أن أحدا من المارة يشعر به ، أو حتى يراه وهو ماثل أمامه ، ومن انسحب من الحياة ينبغي له ألا يلوم إلا نفسه . .

لا أدري لماذا كان يذكرني صمته ببقرة وديعة رأيتها في حظيرة المذبح ، هيهات أن أنساها ، كانت هي الأخرى صامته تحس أنها تنتظر دورها ، واختلط في نظرتها التوجس واليأس بفقدان الحيلة والاستسلام ، ومع ذلك لم تنقص ذرة من وداعتها .

ومع ذلك كنت أقول للمنزل الأغر وأنا أمر به ما يقوله الأهل لأب عزيز مشلول لا يغادر الفراش : يكفيننا أنك معنا . . وكنت أحس أن المنزل ينتظر هو الآخر دوره .

وحدث الذي كان لابد من حدوثه . لا تسل عن الطعنة التي أصابت قلبي حين مررت منذ أسبوع على المنزل الأغر ، المنزل العزيز ، رفيق العمر ، الذي وهبته إجلالي ومحبتى ، فإذا بي أراه قد سقط تحت المعول . اختفت الشرفة ، تهدمت الجدران ، ضاع منه كل أثر ، تكشفت أرض سداح مداح .

لقي حتفه في صمت ، على غفلة من ضجة الميدان ، ومضى كأنه لم يغن بالأمس . وقفت حزينا ذاهلا موجع القلب ، أتأمل ما بقى من أنقاضه ، وأقسم لك أنني لم أر من قبل بياضا أنصع من بياض هذه الحجارة القليلة التي بقيت من قلبه ، كأنها ترمز لبياض قلب صاحبها .

أتعرف من هو ؟

إنه ابن الفلاح ، «الفلكى» النابغة ، مفخرة مصر ، وابنها البار
المرحوم «محمود حمدي الفلكي» الذي يسمى الميدان الآن باسمه .
وسأحدثك عن طرف من سيرته العاطرة في المقال التالي .

(«المساء» ، ٢٢/٤/١٩٦٣ ، ص ٨)

كنز تافه . .

سارعت إلى شراء الكتاب حين رأيته على سور الأزبكية — حماء الله من عين البلدية . ظننت أنني وقعت على كنز ثمين لم أدفع فيه إلا قروشاً قليلة بعد فصال طويل ، لا عن شح ولا عنت بالبائع ، بل لأن هذا الفصال له لذة لا يعرفها إلا هواة الكتب القديمة . . دلال وإعراض واستخفاف لإخفاء الفرحة . ولكن لهفتهم مفضوحة دائماً ، شأن كل عاشق متيم .

لأسباب ثلاثة ، فهو من قبيل المذكرات ، فهذا النوع من الكتب وكذلك التراجم ، ذاتية وعن الغير — هو الذي وجدت فيه متنفساً لي بعد أن أتخمتني قراءة القصص من نسج الخيال ، وواقع الحياة قد يكون أعجب وأغرب ، التاريخ يتحول فيه من نص جاف إلى دفء قاعة محكمة يتوالى عليها الشهود في قضية مثيرة .

وهو عن فترة من حياة بلدي أعدها أقرب فتراته إلى روعة الدراما ، ما قولك في مسرح تتحرك عليه وتتصادم شخصيات مثل : عباس الثاني ،

مصطفى كامل ، محمد عبده ، سعد زغلول ، لطفى السيد ، على يوسف ، المويلحي ، قاسم أمين ، ومعهم كرومر ، غورست ، كتشتر ، رونالد ستورز ، برونبات ، وراسل الكبير صاحب المذكرات التى يسخر فيها بالمصريين .

وهو لرجل عاش وسطهم . دخل قصر الخليفة فى استانبول ، شهد علاقات التابع والمتبوع ، ودخل قصر الخديو فى مصر ، ودار المعتمد البريطانى ، وبيوت الباشوات والبكوات ، وأطل على حياتهم الخاصة ، وتكشفت له أسرارهم ومباذلهم .

وتناولت بشغف مذكرات كومانوس باشا ، الطبيب اليونانى المشهور فى ذلك العهد ، وقبل أن أقرأها عاد ذهنى إلى مطلع صباى .

بعثات محمد على أغنت مصر بأسماء لامعة فى عالم الطب ، أولاد الفلاحين عادوا من باريس وعلى رؤوسهم تيجان شرف وفخار : سالم ، حمدى ، البقل ، ومعهم الدرى تركى الأصل ، هم الذين جعلوا من قصر العينى (لا القصر العينى) المعهد العتيد الذى تخرج فيه فيما بعد على إبراهيم ورفقاؤه أطباؤنا العظام الذين لا أشبع من قراءة تاريخ حياتهم ، ومع ذلك فإن الامتيازات الأجنبية كانت قد فتحت باب مصر على مصراعيه لكل من هب ودب ، صدق من قال : بوابة من غير بواب ، فوفد عليها نفر من المغامرين فى زى أطباء ، يستغلون طيبة الشعب ، لم يكن يطلب منهم الحصول على ترخيص بمزاولة المهنة ولا أداء امتحان ، وأعلم علم اليقين أن أحد هؤلاء الأطباء كان يشتغل بشهادة فى الطب حصل عليها أخوه . . . وامتلات مصر بأطباء أجانب من كل جنس ولون .

وعمل الاحتلال البريطاني على اضعاف ثقة المصريين في أنفسهم ،
فارتفعت سمعة الأطباء الأجانب على حساب سمعة الأطباء أولاد البلد .
لا أنسى إلى اليوم تلك اللافتة العجيبة التي كنت أراها سنة ١٩٢٧ في أحد
شوارع منفلووط غير مكتوب عليها إلا كلمتان «حكيم فرنساوى» ، لا يهمه
أن يذكر اسمه ولا فرع تخصصه ، فكلمة «فرنساوى» تغنى عن كل شهادة
وكل تزكية .

إذا كان رب البيت . . . هذا هو الملك فؤاد لا يلجأ لتوليد الملكة
ناظلة (هذا هو النطق المصرى لاسم نازلى) إلا لطبيب أجنبى هو
كاسولارى ، ولا يسلم أسنانه التي نجت من الرصاص إلا للمستتر براى
داى الإنجليزى ، أو إلى استانكوفتش ، ولعله مجرى ، ولا يسلم روحه إلا
أمام أطباء وفدوا من إيطاليا .

وبلغ من شهرة بعض الأطباء الأجانب في ذلك العهد أن كان اسمهم
يجرى مجرى الأمثال . من هؤلاء الدكتور وارنوك - مدير السرايا الصفرا -
مستشفى الأمراض العقلية بالعباسية . فمكثت أسمع في صباى حين يراد
وصف إنسان بالخبيل إما قولهم « ده عباسية خالص » أو « ده وارنوك
خالص » :

وكان أبى يتندر بأخبار طبيب أجنبى اسمه فوكيه (لعله فرنسى) كان
مشهورا بعدائه للتدخين ، فيروى لنا أنه كان في عربة حنطور مرت به على
قهوة فرأى أحد زبائنه يدخن الشيثة غير مبال بنصائح ، فأوقف العربة
ونزل وهجم على الشيثة وخطفها وحطمها على الأرض ، ثم تابع
سيره . .

وكان من الأطباء أصحاب الشهرة الواسعة الدكتور هيس النمى (قريى هيس نائب هتلر) والدكتور جوب طبيب الجلد ، والدكتور هرون ! والدكتور كيتنج ناظر مدرسة الطب الذى اشتهرت قسوته على الطلبة وخاصة أيام المظاهرات .

ولكن ينبغى الاعتراف أن وسط الحشد الهائل من المغامرين عرفت مصر نخبة من أعلام الأطباء الأجانب ، منهم فورونوف الذى ذاع صيته فى أوروبا فيما بعد حين ابتدع زرع غدد القروء فى أفخاذ الشيوخ استرجاعا لشبابهم ، والدكتور فيشر طبيب العيون والمستشرق الكبير . (ولا أدرى هل هو يهودى أم لا) .

وكان كومانوس باشا صاحب المذكرات التى أحدثك عنها طبيباً مشهوراً فى أوساط الطبقة الأرستقراطية ، وهو يرجع أسباب شهرته فى مصر إلى ابتداعه لعلاج جديد للحمى التيفودية ، اتركه يحدثك هو بنفسه ، وتعال ندخل معه إلى قصر أحد عظماء تاريخ مصر الحديث لنرى كيف كانت الحياة فى هذا القصر . .

« يا لعظم الحظ الذى صادفنى فى مطلع عملى ، فقد عهد إلى بعلاج بنت رئيس الوزراء - شريف باشا - من الحمى التيفودية ، فكان علاجى لها بلف بدنفا فى ملايات مبلولة . . ووضعها فى حوض الحمام وهو ممتلىء بماء بارد ، ووضع كيس من الثلج على رأسها ، وهو علاج كان غير معروف فى مصر : أثار دهشة بل حنق الأطباء الذين كانوا يعالجونها قبلى .

« وكان شريف باشا من بين أفراد الطبقة الحاكمة فى مصر أكثرهم مجداً وتمدناً وثقافة ، وكان يسمى «شريف باشا الفرنساوى» . إنه رجل كريم

تتم ملاحظته على فرط الذكاء ، وكان إذا ظهر إلى جانب الخديو في الحفلات الهامة ظن من لم يعرفها أنه هو صاحب العرش . وكان يتكلم الفرنسية كالفرنسيين .

« ولما شرفني بدعوتك للاشتراك مع ثلاثة من الأطباء الشيوخ في معالجة ابنته طلب مني راجيا أن أعود إليه وحدي لأجتمع به في حجرة مكتبه لأخبره بنتيجة الفحص .

« وفي هذه الخلوة التزمت الصراحة ، ودون أن أخفي شيئا - وفقا لعادة الأوروبي! - فقلت له إن ابنته المسكينة معرضة لخطر بليغ . وبدأ لي أنه كان جاهلا بمدى خطورة مرض ابنته ، ذلك لأن الأطباء الثلاثة ، مع اشتباههم في أنها مريضة بحمى التيفود رفضوا التصريح بالحقيقة جريا على أخلاق أهل البلد ، وذكروا أنها مريضة بمرض آخر ، كذبا منهم (ملحوظة للقارئ : هذا هو أول سب من كومانوس لبلدنا) ، بل إنهم حذروني وأنا أفارقهم قائلين : ياإياك أن تعلن الحقيقة للباشا فإنه سيفضبك منك ويقضى على مستقبلك ..

« لم أخضع لهذا التحذير بطبيعة الحال . استمع إلى الباشا وبدأ عليه قلق شديد ، ثم انخرط في البكاء دون أن يلفظ كلمة واحدة . ولبث أمامي فترة طويلة مضعضعا ملتزما للصمت ، ثم وقف فجأة وتركني دون أن يمد لي يده ، أو يسلم على بحركة من رأسه .

سأقفز نصف صفحة أطب فيها كومانوس باشا في وصف قلقه ومخاوفه من هذه المعاملة الجافة حتى خيل إليه أن الدنيا قد هدمت فوق رأسه ..

« لم يبق أمامي إلا أن أغادر القصر فمشيت مترنحا إلى الباب ،

فاستوقفني الباشا أغا : « إلى أين ؟ » ، فقلت له : « سأعود إلى بيتي إذ لم يبق لي هنا ما أعمله » ، فاعترض قائلاً : « ينبغي أن تبقى ، فقد أمر الباشا بأن تعالج أنت وحدك سيدتنا المريضة وطرده الأطباء الثلاثة . . » .

زال عني القلق ، وصباحا الجو ، وانقشعت الغيوم عن نفسي ، فقادني الباشا أغا إلى حجرة المريضة ، وسارع بإصدار أمره إلى عشر من الجوارى — بين بيض وسود — لتلبية طلباتي . فاخترت من بينهن من توسمت فيهن شيئا من المقدرة ، ووضعت لهن نظام العلاج .

وبقيت في حجرة المريضة لم أفارقها الليلة الأولى ، بل تناولت بها عشايتي . وقد لقيت أكبر عون من المربية الألمانية التي كانت ترعى تلميذتها رعاية الأم الحنون .

وشفيت المريضة ، واعتذر لي شريف باشا عن جفافه .
ويستطرد كومانوس باشا قائلاً :

« ومنذ ذلك اليوم لم ينقطع الباشا عن السؤال عني ، وعن دعوتي على مائدته ، وعيني طبيباً خاصاً له ولأسرته . وظللت أتمتع بهذه الرعاية إلى آخر يوم في حياته . إنه خصني بصداقته ، ووضع في ثقته ، وهو الذي أذاع صيتي حتى أستطيع أن أعترف بأنه هو الذي بنى دعائم مستقبل في مصر » .

ثم يندم كومانوس باشا على هذا الاعتراف فيضيف من فوره :

« ولكن الفضل راجع إليّ أنا أيضاً فقد داومت على متابعة آخر الأبحاث الطبية في أوروبا . . إلخ » .

* * *

أوهمنى كومانوس باشا بعد هذه المقدمة عن نفسه أنه سيكشف عن أسرار الثورة العرابية ، وهل كان لبعض الدول الأجنبية ضلع فيها ، وحقيقة موقف ديلسيبس من عرابي باشا . . وعن علاقة الخديو عباس بكرومر . ولكنى لم أجد شيئاً من هذا .

لا أعرف رجلاً أتيح له ما أتيح لكومانوس باشا من الاطلاع على دخائل من بيدهم خيوط الدمى ثم حمل القلم وكتب مثل هذا الهراء والثروة وبمثل هذه التفاهة ، بل بمثل هذا الغرور ، فقد زعم أنه كان مرشحاً لعرش ألبانيا . . ومع ذلك ففى صدر الكتاب صور غير قليلة ، إن تكن تافهة ، فهى تستحق مع ذلك أن أترجمها لك لأنها تعطيك صورة من قريب لهذه الفترة العجيبة من تاريخ بلدنا .

((المساء ، ٢٤/٥/١٩٦٥ ، ص ٨)

* * *

سطحية . . وغرور !!

مذكرات الدكتور كومانوس باشا ، الذى عاصر إسماعيل وتوفيق وعباس الثانى ، مر على الحوادث الجسام مر الكرام رغم تأكيديه بأنه كان شاهد عيان أو ناقلاً من مصدر موثوق به . وإليك بعض الأمثلة :

١ - نكبة إسماعيل باشا المفتش :

تقول المذكرات : قبل وصول اللجنة الفرنسية - الإنجليزية المكلفة بالتحقيق فى الوضع المالى فى مصر أحس الخديو إسماعيل بأنها ستمسك بتلابيبه باعتباره المسئول الأول عن الإسراف الذى أدى إلى تبديد أموال

الخزانة العامة ، وخشى أن يقدم صديقه الحميم وزير ماليته على الإدلاء
باعتراقات تفضحه ، لذلك اعتزم التخلص منه ، فدعاه ذات يوم إلى
تناول الشاي معه في قصر الجزيرة ، وزيادة في إكرامه مر بنفسه على داره
ليكون الضيف في صحبته أثناء الطريق أيضا . ولم يكد الخديو إسماعيل
يدخل القصر حتى اعتذر إلى ضيفه بأنه سيغيب عنه قليلا في الحريم ،
وطلب إليه أن ينتظره في صالون الاستقبال .

لم يكد الوزير يستقر في مجلسه فإذا بأحد أنجال الخديو يدخل عليه
ويقول إنه جاءه ليصاحبه إلى اليخت الراسي في النيل أمام القصر وأن مائدة
العشاء معدة به ، فلما نزل اليخت أدرك أخيرا أنه وقع في الأسر ، وأرسل
إليه الخديو ياورا يأمره بالسفر إلى أعالي النيل ، حيث تضعضعت قواه من
الغم والوحدة وسوء الجو ، فلم يلبث طويلا حتى لقي حتفه .

ويستطرد كومانوس باشا قائلا :

وقد سمعت بأذن تفاصيل هذه الحادثة من الياور الذي أشرف على
تنفيذ أمر الخديو . . انتهى كلامه .

فأنت ترى أنه لم يقل لنا أى أبناء إسماعيل شارك في هذه المؤامرة . إنه
في بعض الروايات الأمير حسين كامل الذي تولى العرش فيما بعد . ولم
يذكر لنا اسم الياور ، ولم يشأ أيضا أن يشير إلى الإشاعات التي راجت بأن
إسماعيل باشا المفتش مات مخنوقا وألقيت جثته في النيل ، وأنه استطاع أن
يعض خانقه قبل أن يلفظ الروح ، وأن القتل حدث في محضر من الأمير ،
لكنه آثر السلامة ، لأنه كان على صلة بالخديو عباس الثاني ، فهو لا شك
يخشى من غضبه .

ولكنه مع الأسف لم يلق أقل ضوء على أسباب مصرع إسماعيل باشا المفتش ليكشف لنا الغموض الشديد الذى يكتنفه . فمسألة الخوف من الاعترافات غير مقنعة . ما هى الوقائع التى كان الخديو إسماعيل قادرا على إخفائها بعد اختفاء وزيره ؟ هل اكتشف أن صديقه الوزير كان يخونه ويغترف من المال السائب بالأردب والكيله ؟

يقول كومانوس باشا إن إسماعيل باشا المفتش ترك ثروة طائلة ، ثلاثة قصور فخمة ومئات من الجوارى « وقد صادر الخديو هذه الثروة » ومع ذلك فلا نجد ذكرا لأطيان وأبعاديات وشفالك ، وكانت الثروات الطائلة حينئذ هى حيازة الأراضى لآبناء ثلاثة قصور . . . هل كان إسماعيل باشا المفتش كبش ضحية ، أراد الخديو بذبحه أن يثبت للجنة عزمه على تطهير الأداة الحكومية ؟! . لا أحد يدري ، فلا يرقى سبب واحد . بل الأسباب مجتمعة - إلى مرتبة الإقناع .

إذا ذهبت لشرب الشاي يوما فى فندق عمر الخيام بعد كوبرى بولاق ، فعندى أن تعود بذهنك إلى أحداث هذه المأساة الأليمة فإنك ستكون واقفا على مسرحها ، ربما جلست على المقعد الذى كان يجلس عليه إسماعيل باشا المفتش .

وفى بعض الأقاويل أن الخديو إسماعيل كان لإسماعيل المفتش أخا فى الرضاعة من أجل هذا سمى باسمه ، وأيا كان الأمر فلم يخص إسماعيل الخديو أحدا بصداقته ومودته كما خص سمييه . ترى كيف كان الحديث فى العربية وهما ذاهبان إلى القصر ؟ هل منحه الخديو وجها ينطق بالبشر والود كالعهد به ؟ هل لمست يده يد فريسته أو كتفه بحنان وود ؟ هل تثبتت

نظرتة على عين رفيقه ولو برهة خاطفة ؟ أم تراه كان يشيح وجهه عنه ،
ويدارى الحديث ، فإذا سئل أجاب فى غير الذى سئل عنه ؟ هل أحس
إسماعيل الخديو بحقارة مسلكه . . أن يتولى هو بنفسه اصطيات ضحيته
بالغدر والخيانة ؟ ما الذى منعه من أن يأمر ياوره بالقبض عليه ؟ دليل
إشفاقه بصديقه أن « لاتأق الطعنة إلا من يده ، لا من يد غريب » .. هل
رضى إسماعيل الخديو عن نفسه وأعجب بها لأنه أتقن تمثيل دوره ؟ وهل
نام ليلته غير مؤرق . . أم ظل شبح صديقه يطوف به ؟

ما أشبه عناء إسماعيل بعناء هارون الرشيد يوم مصرع البرمكى ،
وعناء سليمان القانونى يوم أن وقف على باب الخيمة التى يقتل فيها أعز
أبنائه بأمره ، يسمع نداءه إليه مستغيثا : انقذنى يابى ! بل ما أشبه الموقف
بموقف فيكتور عما نويل حين دبر القبض على موسولينى وهو يزوره فى
قصره .

حين زرت الأستاذ ثروت عكاشة فى قصر سامونا ، إذ هو سفيرنا فى
روما ، خيل إلى أننى أعيش ذلك اليوم وأننى أحضر مشاهدته فى هذا
المكتب . كان اللقاء الأخير بين الملك والدوتشى ، إن كان الملك قد كلمه
بشئ من الحزم المختلط بالجفاف فإنه لم يكشف له عما ينتظره ، ثم تركه
وأخذ يحببه مودعا وهو يصعد الدرج . . وظن موسولينى أنه سيعود سليما كما
دخل ، فإذا به - لشدة دهشته - لا يكاد يخرج من القصر حتى يرى نفسه
وقد زج فى عربة إسعاف لتحمله إلى المنفى . . من شدة الدهشة دخلها
مستسلما لم تبد منه أقل مقاومة . . كان يحمل وساما يخول لصاحبه أن يقول
له الملك : يا ابن عمى العزيز . .

* * *

٢ - هل لقي عرابي تأييداً من بعض الدول الأجنبية ؟

لا أذكر أنني قرأت في المراجع العديدة عن الثورة العرابية إشارة إلى تأييد تلقاه عرابي باشا من إحدى الدول الأجنبية ، أما موقف - تركيا فامر آخر ، لأن الذهن لا ينصرف إليها حين يكون الحديث عن الدول الأجنبية أيام عرابي ، لذلك ثار اهتمامي كله حين بدأت إحدى الفقرات في مذكرات كومانوس باشا بالقول بأن عرابي باشا قد لقي مثل هذا التأييد ، ثم لم أكد أمضي في القراءة حتى وجدت الكلام كله فاشوش في فاشوش ، إذ قال ، غفر الله له :

« وعرابي باشا رجل من عامة الشعب ، جاهل كل الجهل ، لم ينل أي قسط من التعليم ، أسكره نجاح خطواته الأولى ، فظن أنه أصبح زعيماً جليلاً ، يستطيع أن يرهب حتى الدول الأوروبية ، وقد لقي عوناً من تركيا ، إذ كانت تعلن استيائها منه ثم تؤيده في الخفاء تحقيقاً لمصالحها الذاتية الرامية إلى عزل أسرة محمد علي عن ولاية مصر - وكانت تركيا تكره هذه الأسرة - وإلى القضاء على الإشراف الثنائي على مصر (الإنجليزى - الفرنسى) لأنه كان يخشى سيادتها على وادى النيل ، كما أن الخليفة كان ينقم على الخديو توفيق أنه لم يقدم له فرائض الخضوع في استانبول وامتنع عن السفر إليها .

« وإلى جانب تركيا كانت هناك دول أوروبية تؤيد عرابي سرا وتوافق على سياسته ، منها الولايات المتحدة مثلاً ، فإن ممثليها في القاهرة اجتمع بعرابي باشا وقمت أنا بدور المترجم بينهما ، فسمعتة يصف الرجل من باب المداهنة بأنه واشنجتون مصر .

« وكذلك كان شأن فرديناند دي ليسبس الكبير ، خشى أن يسد
عراي القناة كوسيلة للدفاع عن مصر ، فأخذ يتملقه ويمدحه ، وأكد له
حيادة قناة السويس وامتناع أن يجيء الغزو عن طريقها . وحصل بذلك
على تعهد من عراي بأن لا يمسه بضرر ، واحتفالا بهذا الاتفاق أقام دي
ليسبس مأدبة في فندق الكونتتال تكريما لعراي باشا ، حضرها أكثر من
١٥٠ عضوا ، وكنت أنا من بينهم .

« غير أن الحفلة لن تسلم من أزمة بروتوكولية صغيرة ، فإن عراي
ووزرائه رفضوا أن يمدوا أذرعهم للسيدات الأوروبيات للاعتماد عليها في
الطريق إلى المائدة ، وقد أثار هذا المسلك كثيرا من ابتسامات السخرية . . »

انظر إلى الحوادث الجسام كيف أصبحت في هذه المذكرات نواذر
تروى للتسلية . دع عنك سخفه في وصف مأدبة دي ليسبس ، واقتضابه
المخل وسطحيته المعيبة في وصف سياسة تركيا من عراي ، فإن مقابلة ممثل
الولايات المتحدة لعراي في المذكرات لا نفهم منها أكثر من أنها مقابلة
للتعارف ، فمن واجب الممثل الدبلوماسي أن يعرف زعماء البلد الذي
يقيم فيه . ليس في هذه المقابلة أي ذكر لتأييد ، ومع أن كومانوس كان هو
المرجم بين الرجلين فإنه لم يذكر لنا اسم الممثل الأمريكي ، ووصفه خطأ
بأنه وزير مفوض مع أن جميع الممثلين الأجانب في ذلك الحين كانوا من
القناصل . ولم يذكر لنا من الحديث الذي جرى بين الرجلين سوى عبارة
« أنت واشنجتون مصر » من قبيل السخرية بعراي .

* * *

وقد جمع كومانوس باشا إلى هذه السطحية غرورا لا حد له يبعث

ولا شك على الضحك . وفي مذكراته أمثلة كثيرة سأكتفي بأن أنقل إليك أول ما صادفني منها :

« كان لي الشرف أن أكون الطبيب الخاص للسير دزموند ولف المعتمد البريطاني أثناء إقامته في مصر ، وكان من عاداته أن يستقبل طبيبه الخاص كل صباح تفاديا للأمراض وحفاظا على صحته . وقد أتاحت لي هذه الزيارات اليومية أن يجرى بيني وبينه أحاديث ظريفه تدور حول الموقف في مصر .

« سألني ذات يوم عما ينبغي له عمله من أجل أن يكسب ثقة مصر به وتقديرها له ، فضربت له المثل ببسمارك بعد احتلال ألمانيا للألزاس واللورين ، فإنه اختار أبرع رجال ألمانيا وأشدهم كفاءة ومقدرة لتولي مناصب الحكومة في الولايتين بحيث انتزعوا إعجاب الأهالي بهم رغم كرههم لهؤلاء الغاصبين .

« وقد لحظت أن كلامي وقع لدى المعتمد البريطاني موقعا حسنا ، فلم يمض وقت طويل حتى أوفدت إنجلترا نخبة من خيرة رجالها مثل سكوت ولونكريف ، وجارستن ، وفيتزجيرالد ، وجراهام . . . » .

ياسلام ياسلام . . لم تكن ندرى أن كومانوس باشا كانت له اليد الطولى في توجيه سياسة إنجلترا في مصر !

(« المساء » ، ٣١/٥/١٩٦٥ ، ص ٨)

* * *

كيف يتزوج الخديو . . !

لا تزال مذكرات الطبيب اليوناني كومانوس باشا - رغم ثرائها - تغريني بأن أقتبس لك منها مالا نجده في غيرها من رؤية عن قرب لدخائل عباس الثاني وعصره ، فقد رسم لنا في هذه المذكرات صورة لسموزبونه المعظم وقد اعتلى العرش في سن الثامنة عشرة فوجد نفسه أسيرا في قصر كبير يقضى الليل وحده في غرفة نومه ، تحت مراقبة شديدة من أمه . لم يكذ يبحث عن مخرج حتى وجد أن زواج الخديو - أوسر محته - أعقد من زواج أى شاب آخر من رعاياه أوسر محته ، وكاد يقع في مأزق حرج رغم أنه ، ثم آب في نهاية الأمر بأسهل الحلول ، وإن لم يكن هذا الحل السهل محققا لكل ما تصبو إليه أطماعه وشهواته - فكان له بعد ذلك أثره .

وقد تقول : وماذا يهمنا الآن من نسائيات عباس ؟

إن عذرى في التحدث عنها هو أملى في أن يفتح الباب لأحد الباحثين ليدرس لنا دور المرأة المخفية وراء ستار العرش في تاريخ مصر الحديث ، فمثلا قد كشفت لنا أوراق « إدريس أفندى » المؤرخ الفرنسى - بريس دافين - وقد نشرت في مجلة « المجلة » - وجها جديدا للخديو عباس الأول كان الأوروبيون قد طمسوه وأخفوه تحت قناع قبيح ، أعنى إعراضه عن الخراجات النصابين والمرتزة ليتجه إلى اعتناق القومية العربية فيحب العرب والبدو وسكنى الصحراء ، وامتلاك الخيول الأصيلة - فنحن نعلم من هذه الأوراق أنه تزوج من سيدة بدوية هى في نظرى الرمز إن لم يكن

المنبع لسياسته . وهل ينكر أحد الدور الكبير الذى لعبته الملكة نازلى فى حياة فاروق ، ومن ثم فى تاريخ مصر ؟

لا شك أن عباس الثانى كان يحسب ألف حساب لأمه أمينة إلهامى - أم المحسنين ، هى التى جنبته الفضائح النسائية وهى التى أرادت أن تنفرد باختيار زوجة له تليق بمقامه ، لم أدرك ذكاءها إلا حين نشر ابنها محمد على ترجمة لبعض رسائلها إلى ابنها عباس وهو يدرس فى سويسرا . تقول له فى إحدى هذه الرسائل :

« وصلتني صورتك ، وقد لاحظت أن سمانة رجلك غليظة ، وهذا لا يليق بشاب سيتبوأ عرش مصر ، فعليك بممارسة الألعاب الرياضية ليستقيم لك قد رشيق . »

لم يكد يعتلى العرش حتى رمى بنصيحة أمه عرض الحائط ، وأوغل فى النهم عن طبع فى أسرة محمد على ، ولأنه كان يشتكى أيضا من الوحدة فمال إلى البدانة ، وافترسه الصرع .

يقول كومانوس باشا : فى السنة الثالثة من حكم عباس أقيمت فى قصر القبة مأدبة تكريم لمسيوفيليكس فور رئيس مجلس نواب فرنسا ، وكان قد قدم مصر ليقضى الشتاء بها ، وكان لى شرف مرافقته فى نزوله من القصر إلى المدينة فإذا به يوجه إلى لوما شديدا لأنى أترك عباس يتمادى فى النهم ويصل إلى البدانة مما يضر بصحته ، فقلت له معذراً : لقد بذلت غاية جهدى لحثه على الاعتدال ولكنى فشلت وكيف لى أن أجبر سيد البلاد على خطة لا يريد لها ؟ فقال لى إنه سيحاول نصحه حين يستضيفه مرة أخرى ، وطلب منى أن أشد أزره . ولما خرج من المأدبة الثانية قال لى إننى

صعبت عليه لأنه رأى الخديو لا يأبه لنصح ويأكل بنهم لا يعرف الشبع . »

أمينه إلهامى حريصة على مجد ابنها من أجل أن تختار له زوجة نظرت إلى فوق ، لا إلى جنب أو تحت . فمن جنب ومن تحت تزوج كل خديو قبل ابنها ، إما فتاة من الأسرة لأنها في أغلب الأمر جارية بيضاء ، أو من جارية بيضاء . أمينة هانم وحدها من أب وأم من الأسرة ، ولكن مطاعمها كادت توقع ابنها في أزمة نجاه منها حسن حظه . سنجد ذكر هذه الأزمة في رواية كومانوس باشا لزيارة عباس وأمه للخليفة في استانبول للمرة الثانية سنة ١٨٩٤ ، ولكن ينبغي أن نرجع إلى الوراء قليلا لنمسك بأول الخيط ونشهد عباس الشاب الصغير - خديو مصر - يقضى ليله وحيدا في حجرة نومه تحت رعاية أمه .

« كان عباس قبل مغادرته القاهرة لاستانبول يعلن لمن حوله ويشكولى شخصيا أنه ضاق ذرعا بوحده ، فأبواب الحريم تغلق عليه كل ليلة النسوة الخدم نائمات في جناح أمه ، وهى لا تأذن لرجل أن يقتحم مأوى ابنها بالليل . إنه لا يجد من يحسن القيام على خدمته . وكان يخرج كل صباح من جناح القصر المخصص له وهو متجهم الوجه محقق متذمر ، وكان يطلب منى أن أتوسط له لدى أمه من أجل أن توفر له طقما من الخدم يتمتع بقسط من الذكاء والحنكة ، وكان يهدد بمغادرة القصر ليسكن في مكان غيره .

« وكانت أمه تخشى أن تخصص لخدمته بعض الجوارى البيض . إنها لا تريد له أن يهبط - كغيره من أفراد الأسرة إلى هذا المستوى ، ولكنها رضخت أخيرا لغضبه وإلحاحه وعينت لخدمته ثلاثا من الجوارى البيض ،

أراد القدر أن يكون بينهم فتاة مهيبة حسنة. الأدب حتى تحسب أنها من
سلالة كريمة .

« نال الخديو بغيته ، وامتألت عينه ، ولكنه أبدى لى مع ذلك رغبته
فى أن أرفع له أميرة من الأسرة تكون فتاة جميلة ليتزوجها ، فرشحت له
الأميرة عزيزة بنت الأمير حسن وهى مستوفية لكل الشروط التى يطلبها ،
وتزيد عليها بأنها على قسط كبير من العلم والثقافة ، ولكن أمه كانت تغار
منها ولا تطيق رؤيتها ، فرفضت زواجه منها .

« لم تكذ أمينه هانم تصل إلى استانبول حتى طلبت الإذن من الخليفة
لتخطب لابنها فتاة من أسرة بنى عثمان هى بنت السلطان عبد العزيز فهمى
تمت بصلة القرابة للخليفة .

« وقد سر الخليفة لهذا الطلب ولم يتوان فى لحظة نشوته من الإذن بهذا
الزواج . ففرحت الأم بهذا النصر فرحا شديدا وطارت مسرعة إلى ابنها
لتخبره بالنبا السعيد ، وأمرت بتزيين قصرها وإضاءته ثلاثة أيام متتالية .

« ولكن الخديو أسر إلى أنه اغتم غما شديدا لما فعلته أمه بدون علمه
وإذنه . ولكنه حرصا على رضا الخليفة لم ير بدا من التظاهر بالقبول
والسرور وهو يكتف فى نفسه أشد الضيق .

« وبعد قليل طلب منى أن أزور الجارية البيضاء الأثيرة عنده لأنها
تعانى مرضا شديدا . فلما فحصتها لم أجدها إلا حبيبتها قد انهارت آمالها
وأكلت الغيرة قلبها فلحقها السقم والهزال ، وأصبحت تمنى الموت ،
وتهدد بالانتحار . »

أقطع كلام كومانوس باشا لأقول لك إن أمينة هانم نظرت إلى فوق
الفوق لا إلى فوق فحسب . فإن أسرة محمد على على رغم أبهتها وأمجادها في
مصر كانت تقبل أن تعامل معاملة النابغ في استانبول . لم يحظ الخديو
عباس بشرف الجلوس على يمين الخليفة في المآدب المقامة تكريما له إلا بعد
معارك سياسية طويلة من أجل أن يتزحزح الصدر الأعظم عن مقعد
الضيف الأول إلى مقعد الضيف الثاني ، إذ كان الصدر الأعظم أكبر قدرا
في استانبول من الخديو ، وكان هذا الخديو لا يوجه إلى الخليفة كلاما أثناء
المآدبة ، بل ينتظر أن يبدأ الخليفة في الكلام ويقتصد هو في الرد عليه
بأدب ، ولا يجسر أن يرد عليه جالسا ، بل ينبغي له أن يتخلى عن
جلسته ، ويقف ، ويحنى رأسه ، فإذا فرغ من إجابته عاد وجلس .

وقبل الخديو عباس الأمر الواقع ، وأخذ يعد العدة لزواجه من أميرة
بنى عثمان ، فأخذ يفكر في اختيار حاشية لها من الجوارى البيض من سوق
النخاسة في استانبول ، وبعث بطبيعة الحال كومانوس باشا ليتولى بنفسه
فحص البضاعة قبل الشراء . وكان عباس لا يحب لبائع أن يغشه .

ذهب كومانوس باشا بصحبة مندوب من الخديو عباس لزيارة قصور
آل عثمان لاختيار البضاعة ، فوجد فتيات يطمعن في الزواج لا في النزول
إلى مرتبة الخدم . وكان سعر الجارية يتراوح بين ٢٠ و ٣٠ ألف فرنك .
(أى من ألف إلى ألف وخمسمائة جنيه) . وأخيرا استنجد كومانوس بقصر
الخليفة فأوفد معه مندوبا لزيارة سوق النخاسة البيضاء .

استعرض كومانوس باشا خلال ٣ ساعات أكثر من ٨٥ جارية في هذا
السوق ، يدخلن إليه ثلاثا ثلاثا للفحص على الفرازة ، وكانت كل واحدة
منهن ترجوه أن يقع اختياره عليها .

زواج من أميرة عثمانى ، وشراء جوار بيض تكون لها حاشية تليق بالمقام . . . حقا يا عباس قد وقع الفاس فى الراس . ولكن ربك كريم . بعد أيام قدم إلى قصر بيك موكب الغازى مختار باشا بخيله وهيلمانه ، وطلب الزائر العظيم أن يختل بكومانوس باشا ، وأبلغه أن الخليفة قد سحب أذنه بزواج عباس من قريبته ، وأنه يريد منه أن يتوسط لدى الخديو ليعدل من جانبه عن المضى فى اتمام مراسم الخطبة تمهيدا للزواج . المسألة كلها ينبغى وضعها تحت ماجور ، وإذا طلب عباس الإذن بالسفر من استانبول فلن يسأله الخليفة : متى يكون الزواج إن شاء الله ؟

لم يذكر كومانوس باشا السبب فى عدول الخليفة عن إذنه . قد يكون العدول لأسباب سياسية ، وربما كان لإنجلترا ضلع فى إفساد هذه الزيجة ، ولكن عباس سافر من استانبول وحيدا وهو يقول فى سره : « بركة ياجامع . . » .

ولما عاد إلى مصر أعلن زواجه بالجارية البيضاء التى أضناها مرض الحب فى استانبول . هذه هى إقبال هانم أم أولاده .

ويشهد كومانوس باشا أن أمينة هانم إلهامى قبلت الأمر الواقع وهى مرغمة حزينة ، لأن آمالها فى مجد ابنها كانت أكبر بكثير من حبيبته .

لا شك أن عباس كان يحس فيما بعد أن زوجته جاءتته عن طريق الصدفة لا الاختيار ، فأراد أن يتزوج مرة ثانية بإرادته وحده ووفق مزاجه ، ولكنه لم يقع لسوء الحظ إلا على فتاة غمساوية عبرت حياته عبورا سريعا غامضا . من أجل أن يترضى شعبه وينال صفحه عن هذه الزيجة قرر أن يحج إلى بيت الله الحرام .

ولما طُلّق هذه الفتاة النمساوية أصدرت كتابا يتضمن مذكراتها روت فيه أشياء عجيبة وأخرى صبيانية عن عباس ، لعلّي أقدم لك في يوم مقتطفات منه .

(« المساء » ، ١٩٦٥/٦/٧ ، ص ٨)

نور أحمر من مصباح صغير

جعل الحبة قبة ، الرفض على طول الخط ، المسارعة إلى اليأس ،
الكلام بلهجة المتعالي البريء وحده من التقصير الذى ينسبه لغيره - أذنأى
تضجان من سماع هذه النعمة فى كل حديث يدور عن حياتنا العامة ، ومن
ضمنها إنتاجنا الأدبى الذى يعينى هنا فهل ترانى عجزت عن التحرر من
هذه النعمة ، إذا قلت لك إننى أخشى أن إنتاجنا الأدبى يبدو الآن كأنه
مهدد بموجة من الاستهتار لا بد من التصدى لها .

ليس فى يدي مفرعة بل مصباح صغير يضئ بنور أحمر ، لاقضاء بمنع
المرور ، بل إشارة إلى أن الطريق يتطلب التنبيه والحذر ، الحذر هنا من
التخلي عن الصدق والأمانة ، من غلبة الزيف . . . من تسمية الأشياء
ووصفها بغير أسمائها وأوصافها .

لا يخلو عصر من إنتاج أدبى زائف ، وأناس أقحموا أنفسهم غرورا
على ميدان ليسوا من أهله ، ولكن هذا كله تيار جانبي لا قدرة له على

الجذب والابتلاع ، الاستثناء لا القاعدة . التحذير هنا من أن نراه طاميا عندنا ، يجذب ويبتلع ، أن يكون هو القاعدة لا الاستثناء .

كانت في أيدينا في صباى كتب غير قليلة عليها أسماء لمؤلفين نعلم حق العلم أنهم لم يكتبوا فيها حرفا ، بل لعلمهم لا يحسنون قراءتها . كتبها لهم غيرهم وكتبوا هم أسماءهم عليها ، للمرحوم مصطفى صادق الرافعي كتاب قرأته على أنه من تأليف رجل آخر ، والمصيبة أنه كان قاضيا ، ثم ارتقى الزيف وتهذب وتحول في شبابه إلى اكتفاء الناهب بوضع اسمه جنب اسم المنهوب منه — لا بعده ، بل قبله ! وقرأنا أيضا صفحات عديدة في قصص يقال إنها مؤلفة مع أنها مترجمة .

انتهى هذا العبث والحمد لله ، ولكن الزيف اتخذ له صورا أخرى : كاتب يقتصر عمله على تلخيص كتاب أو كتابين ، ويزعم لك أن الكتاب من وحي فكره ، لأنه لم يترجمه حرفا بحرف . كاتب يتصدى للترجمة وهو لا يملك لغته فما بالك باللغة التي ينقل عنها .

كاتب يزعم لك أنه بحث ودرس وحقق واستخلص . . فإذا بك تتبين أن الذى فعل ذلك كله رجل غيره ، وسطا هو على ثمرة جهده ونسبها لنفسه . الأمثلة جاهزة عندي ، لا أذكرها فلست أقصد التشهير . . بل إلى التحذير من غلبة الزيف .

جالت هذه الأفكار في رأسى وبين يدي كتاب أصدرته لجنة نشر المؤلفات التيمورية والاسم الذى يحمله هو « أعلام الفكر في العصر

الحديث « — تلقيته بلهفة وتوقير شديد لأنى لا أعرف رجلا أحبه كما أحب أحمد تيمور . إنه عندى مثل فذ فى عشقه للعلم وجدده وإخلاصه لعمله ، وإيمانه بفضائل قومه ، وتحليه بكرم الخلق والتواضع وعفة اللسان .

فمن الزيف الذى أحمل عليه اختيار اللجنة هذا الاسم الخادع لهذا الكتاب الأمين . ولا بد لشرح خداع العنوان من الرجوع للوراء ربع قرن ، حين أصدرت الأسرة التيمورية لعميدها كتابا لطيفا صغير الحجم بعنوان «تراجم أعيان القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر» ، نقلا عن خط المؤلف فى دفتر كبير ناحل الورق من أثر السنين . أربع وعشرون ترجمة لأعيان من مصر ، بعضها جد قصير وواضح أن المؤلف عليه رحمة الله تعالى كان فى سبيل الإعداد والتجميع لكتاب يقتدى فيه بسنة أجداده فى التأريخ فى كل عصر لأعلام العصر ، فليس فى الدفتر ذكر لمنهج الكتاب ولا الاسم الذى سيحمله — انظر مقدمة الأستاذ الصديق العزيز محمد شوقى أمين للكتاب الجديد — ومع ذلك فإن القدر الذى نشر كان أشهى شىء عندى ، لأنه عرفنى لأول مرة بأناس كنت أسمع عنهم ولا أدرى قدرهم فإذا بهم أهل للإجلال والإعزاز كالشيخ حسن الطويل .

ألقى الكتاب بالأعلام من جيل الآباء والأجداد ، وانتفعت به كل النفع فى كتابة سيرة محمد تيمور فى « فجر القصة المصرية » . ولولا هذا الكتاب لما فهمت محمد تيمور ، بل لما فهمت أيضا محمود تيمور .

ثم تألفت لجنة لنشر بقية مخطوطات أحمد تيمور ، وعثرت على تراجم أخرى لنخبة من أعلام العرب فى الشرق والغرب ، هى قطعاً أضال قدرا من الجزء الذى نشرته الأسرة التيمورية إن لم تكن أضال عددا . وواضح

أنها كانت من قبيل المسودات وتجميع المراجع إعدادا للكتاب الذى كان أحمد تيمور ينتوى تأليفه . فماذا فعلت اللجنة ؟

تناولت الكتاب الصغير اللطيف الذى صدق له اسمه وحذفت منه فصولا ، ثم جعلت الباقي صلب الكتاب الجديد ، وأضافت إليه ما عثرت عليه من التراجم ، واختارت للكتاب اسما خادعا هو « أعلام الفكر الإسلامى فى العصر الحديث » .

وكان خليقا باللجنة إن أرادت الصدق أن تعد الكتاب الجديد إعادة طبع للكتاب القديم ، وتضم إليه ملحقا بما جد لها يكون ذيلًا للكتاب ، إذ كان من جراء مسلكها أنها حذفت من الكتاب القديم عدة تراجم مثل ترجمة « سلطان باشا » ، و « مصطفى باشا الخازندار » ، و « المغازى أحمد مختار باشا » ، ولا أدرى من الذى أعطاها هذا الحق .

إذا تعللت بأن اسم كتابها الجديد - وهو اسم خادع - يقتضى هذا الحذف إذ يستعصى وصف المحذوفين بأنهم من أعلام الفكر الإسلامى ، فإن أسألها من الذى أجبرها على اختيار الاسم الجديد الذى حملها على هذا الحذف .

عنوان خادع مرة أخرى لأننا نستطيع أن نهضم دخول الشيخ أحمد أبى الفرج الدمهورى فى زمرة أعيان القرن ، ولكن من العسير أن نهضم دخوله فى زمرة « أعلام الفكر الإسلامى » - وصفه أحمد تيمور بأنه شاعر وروى لنا نتفا مضحكة من حياته وشعره ، وواضح كل الوضوح أنه من الندماء ، يحتضنه بعض أعيان العصر طلبا للضحك والتسلية ، وهو بعد

ذلك غير معدود في العير ولا في النفير ، فكيف نعه من أعلام الفكر الإسلامي ؟

إننا نشكر اللجنة ولاريب على الإضافات التي قدمتها لنا . ولكن هذا الجهد الذي بذلته في تجميع الشتات المتفرق كان خليقا بها أن تبذله في إصدار عمل كبير لا يزال ينتظر النشور ، نترقبه بفارغ الصبر ، هو «معجم الألفاظ العامة» .

أعود فأقول إن العنوان خادع لأننا حين نقرأ عبارة «أعلام الفكر الإسلامي» نتوقع أن يكون للمترجم له أثر في توجيه هذا الفكر الإسلامي أو قيادته ولكن أغلب من جاء ذكره في الكتاب هم من شيوخ الأزهر كل عملهم أنهم جلسوا إلى تلاميذهم وقروا عليهم كتباً في العلوم الإسلامية . . يتكرر ذكر هذه الكتب بعينها في كل ترجمة جيلاً بعد جيل . بعضهم ليس له مؤلفات ، وبعضهم مؤلفاته لا تخرج عن إعادة عرض للقديم ، يلتزم الحدود الموروثة ولا يتعداها .

عنوان خادع مرة أخرى لأن عبارة «العصر الحديث» مطاطة ، وكان ينبغي تحديد الفترة كما فعلت أسرة تيمور في الكتاب الصغير اللطيف ، فإنها حددته بأنه عن القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر .

لشيوخ الأزهر السوارد ذكرهم في هذا الكتاب كل إجلال مني واحترام . لاننكر فضلهم على تلاميذهم ولكن كيف أصفهم بأنهم من أعلام الفكر الإسلامي وأنا أقرأ مثلاً عن الشيخ أحمد أبو الفتح (١٢١٧ - ١٢٩٤هـ) أنه لم يؤلف إلا كتاباً بتبويب الأشباه والنظائر لابن نجيم ، وعن الشيخ محمد الأشموني (١٢١٨ - ١٣٢٠هـ) الذي قرأ المطول وجمع

الجوامع وكتب التفسير والحديث والعقائد لأنه لم يؤلف كتابا ، وإنما كتب عنه بعض تلاميذه تعليقات من قراءاته للعقائد النسفية ومختصر السعد ، وعن الشيخ أحمد الرفاعي (١٢٥٠ - ١٣٢٥ هـ) أن مؤلفه الوحيد هو شرح لامية الأفعال لابن مالك ، وهكذا وهكذا . .

فعنوان الكتاب فيه إذن شبهة من هذا الاستهتار الذي أشرت إليه إذ يعني أن يضاء أمامه مصباح صغير بنور أحمر . . ومع ذلك فإننا نشكر للجنة نشر المؤلفات التيمورية إمطة للثام عن هذا الكتاب المدفون ، فإنه جدير بأن يقرأه كل شاب مثقف ليعلم آباءه وأجداده . . ماذا فعلوا وماذا ينبغي له أن يفعل .

((المساء ، ١٩٦٨/٢/٥ ، ص ٤)

* * *

استخلاص الفوائد

من تحت مائة سيرة منفردة متباينة ضمها كتاب « أعلام الفكر الإسلامى فى العصر الحديث » الذى أصدرته لجنة نشر المؤلفات التيمورية ولها جزيل الشكر - تندس فوائد كبيرة تستدعى التنبه لها والوقوف عندها منها :

١ - نزعة التحرر عند علماء الدين كانت تصدر من منبعين الأول هو الاتصال بالثقافة الغربية كما هو الحال مع الشيخ العطار (١١٨٠ - ١٢٥٠ هـ) فى مخالطته للفرنسيين فى مصر ، والشيخ محمد عياد الطنطاوى (١٢٢٧ - ١٢٨٠) فى رحلته إلى روسيا (وكان أول من اهتم باللغة العامية والأغانى الشعبية) .

والنبع الثاني هو التصوف لفضله في فك أغلال الروح وتلطيف الحس وتغليب الفهم على الحفظ ، كما هو الحال مع الشيخ محمد عبده (١٢٦٦ - ١٣٢٣) والشيخ حسن الطويل (١٢٥١ - ١٣٤٥) . وقد وصف الشيخ محمد عبده أجمل وصف أثر التصوف عليه ، قال (ص ١٤٦) رأيتني أطيّر بنفسي في عالم غير العالم الذي كنت أعهده ، واتسع لي ما كان ضيقا ، وصغر عندي من الدنيا ما كان كبيرا ، وعظم عندي من أمر العرفان والنزوع بالنفس إلى جانب القدس ما كان صغيرا ، وتفرقت عني هموم النفس إلا هما واحدا هو أن أكون كامل المعرفة ، كامل أدب النفس .

هذا هو الجانب الروحي في التصوف وهناك جانب آخر أسميه بالجانب الدعائي أي الميل إلى الشهرة بين العامة بالزهد في خيرات الدنيا ، وقد أوقع هذا الميل ببعض أصحابه في مواقف أعترف أنني لا أرضاها لهم ، نخذ مثلا الشيخ أحمد الحجار الحلبي من أعلام الشام (١١٩٠ - ١٢٧٠) روي عنه « ص ٢٢٥ » أن شيخه نصحه بالسفر إلى دمشق وقال له لا تأكل فيها إلا البصل ، ربما ظن أنه سيقوم فيها أسبوعا أو أسبوعين ، أو على الأكثر شهرا أو شهرين . ولكن إقامته بها امتدت عشرين سنة . . ومع ذلك يقال لنا إنه ظل طول هذه المدة معتكفا على أكل البصل ولم يتناول غيره إداما سوى مرة انتهى الدسم فأذاب شحما وقل به بصلا فاعترتة الحمى المثلثة ثمانية أشهر ، فأحسن التوبة ، وعاد إلى البصل بقية إقامته بدمشق ، وكان إذا اتفق له حضور وليمة في تلك المدة يقول لصاحب الدعوة « احضر لي بصلا فإني لا أكل غيره ، بهذا أمرني شيخى » .

عفوا إننى كما لا أحب رائحة البصل لا أحب أيضا رائحة هذه الحكاية ، لا أستطيع تصديقها ولا أرضى بنسبتها إلى شيخنا ، ينبغى حذف هذا

العبث حين نكتب اليوم سير العاسرين من شيوخنا فإنه يضر بهم ولا ينفعهم .

٢ - من لم يكن مصرياً حقاً من أساتذة الأزهر فهو في الأعم من نسل جدد الأزهر من المغرب ، « المدد الشامي اختل » كالشيخ حسن العطار والشيخ محمد الأشموني (١٢١٨ - ١٣٢١) وحاشاي أن أسند إلى اشتهاار المغرب حيثند بفنون السحر وفتح الكتاب رغبة في تتبع شجرة الأسرة للعثور على جد - ولو سابع جد - هاجر من المغرب ونجد الدليل على شهرة المغرب بالسحر - وإن كان دليلاً مؤلماً - في سيرة الشيخ على الليثي - أمير الندماء كما يصفه أحمد تيمور ، فقد اتهم بسبب سفره إلى المغرب بمعرفة الزايرجة والأرقاق ، ولعل هذا كان من أسباب حظوته لدى أم عباس الأول والأمير أحمد باشا رفعت بن إبراهيم باشا الكبير وماذا كسب الشيخ على الليثي من هذه الشهرة ؟ لما تولى سعيد باشا أمر ضابط مصر عبده باشا بجمع من يأكلون أموال الناس بالباطل بهذه الخزعبلات ونفيهم إلى السودان فسيق الشيخ على الليثي معهم لما علق به من هذه التهمة وبقي في السودان إلى أن جاءه العفو .

٣ - هل شيخ الأزهر قابل للعزل ؟ لأول مرة أقرأ أنه كان غير قابل للعزل . ففي الفصل المخصص للشيخ محمد العباسي المهدي (١٢٤٣ - ١٣١٥ هـ) نجد النص التالي (ص ٦٥) : وفي سنة ١٢٨٧ أراد الخديوي إسماعيل عزل الشيخ مصطفى العروسي شيخ الأزهر ، ولكنه خشى الفتنة لأن العزل لم يقع من قبل لأحد من مشايخ الأزهر .

لا أعلم متى تقرر هذا الحق ومتى عدل عنه ، نحن نعلم أن الخديوي

عباس عزل الشيخ حسونة النواوى سنة ١٢١٧ وقد كان الخديو دائما فى غنى عن إصدار أمره بعزل شيخ الأزهر ، يكفيه أن يتجههم له وجهه حتى يبادر هو بالاستقالة ، اقرأ هذه القصة الطريفة فى سيرة الشيخ محمد العباسى المهدي الذى كان يجمع بين منصبى مشيخة الأزهر والإفتاء :

« بلغ الخديو أن جماعة من الأعيان والتجار مثل محمد باشا السيوفى وأخيه أحمد باشا يجتمعون للسمر بدار الشيخ فى أغلب الليالى فيتكلمون فى الأمور السياسية ويظهرون أسفهم من وجود الإنجليز بمصر وموافقة الحكومة لهم ، فحنق الخديو وتجههم وجهه للشيخ فى إحدى المقابلات الاعتيادية وقال له وقت الانصراف : يا حضرة الأستاذ ، الأجدر بالإنسان أن يشتغل بأمور نفسه ولا يتدخل فيما لا يعنيه ، فما كان جواب الشيخ إلا أن قال له : إننى ضعفت عن حمل أثقال الأزهر وأرجو أن تعفونى منه ، فقال الخديو : ومن الإفتاء أيضا ؟ فأجاب نعم ومن الإفتاء أيضا . »

ثم يمضى أحمد تيمور فى شرح أسباب أخرى للاستقالة ، كنت لولا ضيق المقام أود نقلها إليك ، لأنها من أصدق ملامح العصر ، فأرجوك أن ترجع إليها أنت بنفسك .

٤ - تعقد شخصية الخديو عباس الأول ، هذا القزم المستبد الطاغية ، الهدام الرجعى المدلل كان يجرؤ وحده على الجلوس وهو صبي فى حضرة جده محمد على وواضعا ساقا فوق ساق ، نعلم عنه مع ذلك من الكتاب (ص ٦٤) أنه يمتلك جميع ما بيد ذرية جده محمد على لأن جده هذا ورد مصر وهو لا يمتلك شيئا ، فكل ما خلفه لذريته أما هو من مال الأمة يجب رده إليها ووضعها بيد أمينها المتولى شئونها .

ما شاء الله ؛ جعل عباس شرعية أمانته مساوية لشرعية التأميم ، ولكن من كان ينتظر صدور هذا الكلام منه ، الكلام عن الأمة وحقوقها في استرداد ما غصب منها ونهب ، أحقا أن هذا التركي القح أول من فكر في القومية العربية والدولة العربية الموحدة في مواجهة تركيا ؟ حبه للخيل العربية والمرأة البدوية وسكناه الخيام في الصحراء . هل الحملة عليه مصدرها الأجانب الأفاكين الذين طردهم بعد أن رأى فرط جده في الحفاوة بهم وفتح جميع الأبواب لنهبهم وسلبهم وخداعهم ؟

هذا هو الشأن أيضا مع الخليفة عبد الحميد فالذين أطلقوا عليه لقب « السلطان الأحمر » ونسبوا إليه أبشع الجرائم هم الصهاينة الذين رفض مطالبهم في الاستيلاء على فلسطين ولا يقل سعيد باشا تعقدا عن عباس الأول ، فهو أيضا أول من قال : أنا مصري واحتضن الفلاحين ، وهو المستبد السفیه الذي أسلم ذقنه لديلسنبرس . لا يزال في تاريخنا الحديث جوانب كثيرة تنتظر الدراسة .

٥ - في الكتاب ذكر لمؤلفات عديدة قيمة ، مدفونة إلى اليوم ، وما أحق الدار القومية للنشر بتوجيه الاهتمام إليها لنشرها ، فمن غيرها يتولى بعث ذخائر تراثنا . أكتفى بذكر مؤلفات عبد الحميد نافع . فنحن نعلم من الكتاب أنه ترك رسالة عن دراسة الموسيقى (لم يذكر أحمد تيمور أين مآلها) وكتابا بعنوان « تاريخ أعيان القرن الثالث عشر وبعض الثاني عشر » بيع لما بيعت كتبه ، وهو موجود الآن في ليدن بهولندا ، كما جمع ديوان صاحبه صفوت أفندي الساعاتي مختصرا . كم أتمنى أن تعثر الدار القومية على هذه الكتب لتفحصها وإن رأتها ذات قيمة نشرتها .

وبعد فلا بد من الاعتراف - مع الأسف - بأن صورة الفكر الإسلامي في ذلك العهد كما يعكسها كتاب أحمد تيمور هي صورة قائمة محزنة ، هي صورة الجمود والتخلف ودعوة الشيخ حسن العطار لإصلاح الأزهر ، بدت كأنها صرخة في واد ، حتى إلى عهد الشيخ حسونة النواوي فقد ثار عليه قرناؤه لأنه يؤيد تدريس الجغرافيا والحساب والجبر والهندسة بدعوى أنها علوم مستحدثة فيقول أحمد تيمور «وما هي إلا علوم اشتغل بها المسلمون وألفوا فيها» .

كم أتمنى أن يعكف كل مثقف على قراءة هذا الكتاب ، سيشم فيه رائحة مصر وشقيقاتها من البلاد العربية جزى الله لجنة نشر المؤلفات خير الجزاء .

(«المساء» ، ١٢/٢/١٩٦٨ ، ص ٤)

أطالب بعودة مغترب عزيز

الأرض - كل الأرض - بطنها سواء ؛ هنا أو هناك : ما الفرق ؟ التراب هو هو ، طاهر أينما كان ، ورعية محمد أمة واحدة ، والإسلام يكره قلقلة الميت عن لحده ، ومع ذلك لا أخشى أن يكون مطلبى بدعة معانقة للضلالة ؛ ماذا أفعل وأنا وريث حضارة تحتضن فيها كل قرية قبورها قبل أن تحتضن منازلها ، لا بد أن يكون الدفن حيث مسقط الرأس ، أشق الغربية غربّة الرفات لا غربّة الأحياء ، بل القبر أكثر دواما وأعلى قدرا من المسكن ؛ أغنى أثاثا وبهاء ، ماذا أفعل وأنا هذه الفلاحة التي كان قبر أعزائها في القرافة في أرض خلاء يتيا منفردا بارزا للعيون ، ثم تكدست القبور من حوله حتى ضاع بينها ؛ لا علامة له تميزه ، وما من درب يؤدي إليه . ومع ذلك إذا غممت بعصابة عينيها وهي مشرقة على القرافة مع الصبح في كل عيد ، قادمة من قرية البساتين على ظهر حمارها ، لسارت وهي عمياء إلى القبر ، بلا تفحص من قدم أويده ؛ غير مترددة ولا حائرة أتراها تشم رائحته من بعيد فقادت أنفها بدل عيناها ؟ ثم تنزل وتجلس وتفرش منديلها الأحمر وتخرج خوصها وريحانها

وتضعهما على القبر ، وخبزها وتمرها وتوزعهما على المساكين ، حيثئذ صبح
عندها العيد وتحايا المباركين . ماذا أفعل وأنا أحب من كل قلبى هذا الرجل
الذى أجيء اليوم مطالبا بقلقلته عن مثواه وإن كان فى دار شقيقة من دور
الإسلام ، لتؤوب إلينا وإلى أرض الوطن رفاتة . لا أذكره إلا تصورته
متمللا فى قبره ، يثن من لواعج الغربية أنين الثكلى ، هواء البسفور يتراوح
على مرقده ، ولكن هيهات ! إنما شوقه لهواء البحر عند رأس التين فى
الاسكندرية ، مسقط رأسه ، قبره قطعة من أرض الأناضول إن انفرد منها
لواء الإسلام على شعوب كثيرة فى آسيا وأوروبا فهى سلاسل جبال متجهمة
من حمم بركان وفعل زلازل ، واللسان فيها رطانة وبربرة . إنه يريد - كما كان
ظنه وأمله - قطعة من أرض الوطن، أرض الوداعة وبناء الحضارة راقا فوق راق
متمثلا فى طمى دلتا النيل التى ذرعها طولاً وعرضاً ، خالط فيها الفلاحين
والأعيان ، أدباء المندرة وأدبائية السامر والموالد ظهر فيها وتخفى ؛ أمرد
وبعمامة خضراء مرة ، ملتج ويعمامة سوداء مرة ، امتلأت فيها أذناه بلغة
الشعب الساحرة ، بحكمتها ودعابتها ، خبر فيها مروعة هذا الشعب الذى
وهبه هوكل حبه وإعزازه ، وشارك وقاد جهاده من أجل التحرر ؛ فى ميدان
السلم وميدان الحرب ، أرقه ظلم الأيام لهذا الشعب ، فأراد أن يأخذ بيده ،
وضع له الخطط الكفيلة برقيه وسعادته ، وحلم له أجمل الأحلام .

إننى أطالب بعودة رفات عبد الله نديم من مقبرة يحى أفندى فى حى
بشكطاش باستانبول إلى ضريح يقام له فى أجمل عمارة فى حى رأس التين
بالإسكندرية أطالب بأن يعود إلينا هذا المغترب العزيز ، لقد سبق لنا أن
استرجعنا رفات محمد فريد ؛ ورفات مصطفى الوكيل ، فلماذا نقعد عن
استرداد رفات عبد الله النديم ؟ لقد استرجعت أفغانستان رفات جمال

الدين ، فهل نحن أقل منها عرفانا بالجميل وأكثر منها تفريطا في حق المجاهدين ؟

لست أدري لمن أتقدم بهذا الطلب . لعل الدكتور ثروت عكاشه وزير الثقافة هو أول من أو مل فيه احتضان هذه الفكرة ، فهو قادر على أن يجعل الاحتفال بعودة المغترب مصحوبا بإعادة طبع مؤلفات عبد الله النديم ليكون نشرها نشورا لصاحبها سابقا لنشوره بين يدي ربه ، لقد تكفل فرد واحد من تجار طنطا بنفقة استرجاع رفات محمد فريد ولم تزد عن ٢٠٠ جنيه فيما أذكر فهل أطمع في جهود المثقفين من أبناء الاسكندرية أن يؤلفوا جمعية تساند الدكتور ثروت عكاشه ببذل الجهد والدعاية - وبذل بعض المال أيضا - للترويج لهذه الفكرة وإخراجها إلى حيز التنفيذ ؟ نريد أن يقام في مدينتهم لعبد الله النديم ضريح في أجمل عمارة ينتهى عنده مطاف هذا المغترب العزيز. ومن حسن الحظ أن علاقاتنا قد تحسنت أخيرا مع تركيا ولا أظنها إلا مساعدة في تحقيق هذه الرغبة .

لا تزال مدافن أعلام الشعب مبعثرة عندنا ، لا يضمها ضريح واحد كما هو الحال في بعض البلاد المتحضرة فيكون مزارا يقود الأب إليه ابنه الصبى ليقرأ معه الأسماء ويتذكر الأجداد ويهتدى بالمثل ؛ ولكن لا بأس ، لعلنا نحسن صنعا ، فمن الصعب قياس الزمن الذى ينفلت بعده الراحل عن تضارب الآراء حوله ، عن تصارع المودات والحزازات ، كما هو شأن الدنيا وعالم الأحياء ، ولا تزال في ذاكرتي قصة طريفة بطلها قزم ضئيل هو « دلفوس » مستشار حكومة النمسا قبيل الحرب العالمية الثانية ، فقد اغتالته شيعة النازية وهو في مبنى المستشارية وتركته ينزف حتى مات . وأحببت المؤامرة وأعدم القتلة . فدفن دلفوس في الكنيسة الكبرى وأقيم له فوق قبره تمثال . أما جثث القتلة فألقى بها في الحفرة العامة التى تخصص للمجرمين ، وما هى إلا أيام

قلائل حتى سقطت النمسا كلها في قبضة النازية ، وإذا بتمثال « دلفوس »
تحطمه المعاول وينقل رفاته إلى مقبرة المجرمين وإذا بجثث المجرمين تنقل
لتدفن في الكنيسة ، ويقام لهم فوق القبور تماثيل ، عليها أسماءهم مكتوبة
بالذهب !

لست أدري اليوم أين قبر « دلفوس » وأين قبر قتله !

(« التعاون » ، العدد ٣٦٠ ، ١١/٢/١٩٦٨ ، ص ٩ ، ١٠)

في مثل هذه الأيام . . منذ ستين عاما !

وبالتحديد في ٨ إبريل سنة ١٩٠٤ كان لورد لاندسون وزير خارجية إنجلترا يستقبل في مكتبه مسيوبول كاميون سفير فرنسا في لندن . النار مشتعلة في المدفأة لأن الجو عاصف ، ترتج النوافذ المغلقة بهدير الرعد فيخيل إليهما أنه قادم من برلين . هذا هو صوت الأخ القاصر المحروم قد بلغ رشده وكشف عن عضلاته وقتل شاربا وقف عليه نسر جاء يطالب بحقه في الميراث من يد أخويه الكبيرين اللذين نهبا التركة وأكلا خيراتها إلى حد التخممة . وقلما يستطيع لصان الاتفاق على تقسيم المسروقات كل لشدة طمعه ودهائه يود أن يكوّش على اللحم ويرمى بالعظم والشفت ليلتهى بها زميله . ما دام الغدر شيمته وسلاحه فكيف لا يغدر بشريكه . كل منهما يزعم أنه عادل في القسمة ، بل إنه خرج منها بصفقة المغبون ، فما بالك إذا كان بين اللصين - إنجلترا وفرنسا - عدااء قديم نرف فيه كل منهما دمه ، بل كان التاريخ يشهد ألا عدو لفرنسا إلا إنجلترا

آخر معركة حين حاول نابليون خنق رقبة إنجلترا فسحقت له رأسه في أبو قير وواترلو ، ثم تسابق الاثنان في نهب خيرات آسيا وإفريقيا دون أن تنقطع

بينها ملاحاة في تبادل المقالب والترضيات . إذا كانت إنجلترا قد طردت فرنسا بالأمس من الهند وكندا ، فإنها هي التي أصبحت تحثها على غزو تونس بعد الجزائر ، ثم على غزو مراكش ، ثم تلف من وراء ظهرها لتلتهم وحدها وادى النيل كله لتصل بين القاهرة والكاب . ولكن فرنسا تعتقد أن مصر هي غرس يدها فلا تغتفر لإنجلترا أنها سرقت هذه الدرة الثمينة من جيبيها .

وكان نهب إنجلترا وفرنسا لمعظم خيرات آسيا وإفريقيا قد أوشك أن يتم والشعب الألماني لا يزال مشتتا يجاهد في تكوين وحدته ، إلى جانب قدرته الهائلة على النظام والطاعة والإنتاج ، إلى جانب نبوغه في العلوم والفلسفة والموسيقى ، فإنه لسوء الحظ مصاب بعقد نفسية جعلت قدره أكبر مأساة خيمت على العالم المتحضر في العصر الحديث ، فهو مفتون بخطوة الأوزة والزى العسكرى ، مجنون بعظمته ، ألمانيا فوق الجميع .

لم يكن من فلتات التاريخ أن يصطدم الشعب الألماني باليهود ، لأنهم مثله مصابون بجنون العظمة . من سوء حظه أنه كان لابد له أن ينتزع بالقوة حقه في الوحدة من الذين يخشونها من جيرانه ، ولكن أين يكون الاحتفال ؟

ليس في برلين كما كان ينبغي ، بل في قصر فرساي في باريس التي جثت على ركبتيها . الاعتراف بالوحدة لا يكفي ، بل لا بد لبسمر ك أن يقطع من فرنسا إقليم الألزاس . لا بأس ، ولكن معه أيضا إقليم اللورين تأمينا لسلامة ألمانيا

أناس كثيرون تتبدل بين عشية وضحاها جنسيتهم وأعلامهم ولغتهم وقوانينهم دون أن يؤخذ رأيهم ، كأنهم قطيع من الأغنام .

وارتكب بسمرك غلطة أخرى ، ظن أنه سيصرف فرنسا عن رغبتها في

الانتقام بحته لها على التوسع الإستعماري في شمال إفريقيا . لم أر أحدا
كفرنسا يأكل بدعوة من خصميه اللدودين ، لو وقف الطعام في زورها لخبطت
إنجلترا أو ألمانيا على ظهرها ليسهل لها الابتلاع ، ومع ذلك فإن فرنسا تشكو
لطوب الأرض أنها مظلومة . .

ولعل هذه الغلطة من بسمارك ثم رفضه رؤية نشوء أحزاب اليسار في
ألمانيا من أهم الأسباب التي حدث بالشاب المتعافي غليوم الثاني بمجرد أن تولى
العرش إلى عزل مستشاره الشيخ الأمين ، فكانت آخر وصية لهذا السياسي
المجرب هي قوله لامبراطوره أن لا تحارب ألمانيا أبدا في جبهتين ، أي مع فرنسا
وروسيا في وقت واحد . نصيحة لقيت من غليوم إغفالا أودى به وباللأزاس
واللورين وكل مستعمرات ألمانيا ، وأحالتها إلى خرائب وأطلال .

هذه هي مأساة قدر شعب ألمانيا ، أن يتلقى في فترة وجيزة وعلى أم رأسه
خبطتين مدمرتين وفي ظنه أنه لم يكن يطالب إلا بحقه في الوحدة ونقاء العنصر
واحتلال المكانة الجديرة به في العالم ، وستظل ألمانيا بؤرة التوتر الدولي لأن
مشكلتها باقية دون حل يكون فيه شفاؤها من جنون العظمة وشفاء جيرانها
من خوفهم منها .

وبعد أن تخلى غليوم الثاني عن بسمارك أراد أن يدخل في السباق
الاستعماري لأنه يريد هو أيضا بلادا ينهب موادها الأولية ويبيعها وحده فائض
إنتاجه المتزايد . إنه لا يصدق قول إنجلترا وفرنسا إن التجارة حرة والأسواق
مفتوحة لأنه يعلم أن تجارته ستظل مرهونة بمشيئتهما لا بمشيئته . إنه يريد تطبيق
المبدأ الذي يسيران هما عليه : لا تجارة إلا في ظل العلم المحتل . وأخذ يخطط
مشروعه « برلين - بغداد » ، ويعاكس فرنسا في مراكش ، وإنجلترا في
الترنسفال . وقف لها كالعفريت في كل خرابة ، وعلم أنه لن ينال شيئا إلا إذا

كانت له قوة يهدد على الأقل باستخدامها ، إن لم يكن ينوى الاعتداء حقا .
ولو أنه ركز اهتمامه على تقوية جيشه لما أسرع خطوه إلى الهاوية ، ولكنه
ارتكب غلطة جسيمة ببناء أسطول ضخم يهدد سيطرة إنجلترا على البحار .
تقبل إنجلترا كل شيء إلا هذا . إنها سيدة المحيطات والبحار ، في يدها
البواغيز والمضايق ، لها الإشراف على كل الأساطيل التجارية ، من أكبر
مواردها غير المنظورة دخلها من التأمين البحري . إذا انكسر أسطولها تساقطت
مستعمراتها من يدها ، بل جاءت الجزيرة البريطانية ذاتها .

إنها تترك كل أسد في أوروبا يكسر قفصه لأنه سيخرج منه إلى قفص
أكبر ، أما الطامة الكبرى فهي أن يهدد سيطرتها على البحار ، فبفضل هذه
السيطرة تهزم كل عدو . وهي لا تدخل أبدا في حرب إلا إذا وجدت لها حليفا
في أوروبا يكون له جيش كبير يتلقى الصدمة ، وأن تجمع بدهائها بين عون
الصهيونية العالمية والكنيسة الكاثوليكية ، وأن تضمن أيضا أن الترسانة
الأمريكية لن تتخلى عنها .

أما فرنسا فكانت لا تزال تبكى على الألزاس واللورين ، وتريد أن تغسل
عار هزيمتها في حرب سنة ١٨٧٠ .

وهكذا التقت مصلحة الخصمين . اللدودين : فرنسا وإنجلترا .
وسعت فرنسا أيضا أن تمهد للتفاهم بين إنجلترا وروسيا - وهما أيضا
عدوان قديمان - من أجل أن تحارب ألمانيا في جبهتين إذا وقع الاصطدام .
وكان لابد لفرنسا وإنجلترا أن يتم بينهما الاتفاق على تسوية الخلافات
الثانوية الناجمة عن تنازعهما على المستعمرات .

من أجل هذا اجتمع اللورد لاندسون ومسيو كاميون في لندن يوم ١٨
إبريل سنة ١٩٠٤ ، في يد كل منهما قلم أحمر لرسم دوائر النفوذ ، نشرها بين

أيديهما خريطتي آسيا وإفريقيا ، سبحانها ما لكى الملك ، وقال أحدهما
للآخر : هذه لك وهذه لى . . . صافى يا لبن .

وهكذا تم التوقيع على الاتفاق الودى بين انجلترا وفرنسا - وكان من
شروطه أن تبارك فرنسا لانجلترا احتلالها لمصر ، وتبارك إنجلترا لفرنسا
احتلالها لمراكش .

وإذا انتزعنا هذه الفقرة من بقية الاتفاق وأردنا أن نعرف لمن رجحت
الكفة فيها لما جاوزنا الصواب إذا حكمنا بأن فرنسا كانت هى الرابحة .
فمراكش بلاد شاسعة ثمينة الموارد جبلية تسمح باعتصام الثائرين فى مواقع
منيعه ، شواطئها ممتدة تتيح للأسطول البريطانى تهريب الأسلحة بسهولة .
نظام وراثة العرش غير مستتب ، فمن السير أحداث القلاقل بتأليب أمير على
صاحب العرش . الثارات بين القبائل لا تنقطع . وهناك أيضا أسبانيا التى
تحتل جزءا من مراكش قد تدفعها بريطانيا للمشاكسة بالتنازع على الحدود .
كل هذه الأخطار زالت عن فرنسا وبلعت مراكش لقمة سائغة وجندت من
أهلها جيشا كبيرا .

ومع ذلك فلم أقرأ كتابا إنجليزيا واحدا يتحسر فيه المؤلف على تسليم
إنجلترا بسيطرة فرنسا على مراكش . ولم أقرأ كتابا فرنسيا واحدا - حتى ولو
كان صادرا اليوم - إلا وجدته يلطم الحدود ويقيم مناحة لأن فرنسا اعترفت
سنة ١٩٠٤ بسيطرة إنجلترا على مصر .

لم تكف فرنسا إلى اليوم عن البكاء على ضياع مصر من يدها كما تزعم .
إنها لا تنسى أن محمد على هو رضيعها ، وأن مصر الحديثة هى غرس يديها ،
وأنها حكمت مصر حكما ثنائيا فى فترة أيام الخديو إسماعيل ، وأن احتلال

مدارسها منتشرة لا يتعلم فيها التلاميذ إلا تاريخ فرنسا وجغرافيتها ، ليس لوزارة المعارف أى إشراف عليها . بعثاتها التبشيرية متغلغلة حتى أقصى الصعيد ، بل احتفظت فرنسا فى اتفاق سنة ١٩٠٤ باحتكار بعض الوظائف الرئيسية فى الحكومة المصرية مثل منصب مدير الآثار . . . فعلى أى شىء تبكى فرنسا ؟

إذا دققنا النظر فى الاحتلال البريطانى وجدناه فى حقيقة الأمر يخفى تدويلا لمصر ، لأن موقعها الجغرافى من الخطر وشدة التأثير على التوازن الدولى بحيث منع انجلترا من ضمها لأملاكها وإخضاعها للنظم والقوانين الإنجليزية ، وقد ظهر هذا الميل إلى التدويل فى مشروع مستر برونيات قبيل ثورة سنة ١٩١٩ ، فقد كان يقضى بإنشاء مجلس للشيخوخ يدخله ممثلون للأجانب المقيمين فى مصر . هذا هو النظام الذى تريد أوربا أن تفرضه اليوم على بعض المستعمرات الإفريقية حين تعترف لها اسما باستقلالها .

وهنا يعود ذهنى إلى مشروع التدويل الذى قدمه الجنرال يعقوب لدول أوربا بعد انتهاء حملة نابليون ، لعله هو الذى رسم سياسة انجلترا فى مصر . وإذا رجعنا إلى المجلات الأدبية التى ظهرت فى شهر إبريل سنة ١٩٠٤ وجدناها منشغلة بالاحتفاء بظهور ترجمة البستانى شعرا لإلياذة هوميروس . ومع ذلك فإن رأى العام فى مصر استفاق يوم توقيع هذا الاتفاق الودى فى حلم كان يجد فيه بعض الأمل فى الخلاص من ربة الاحتلال البريطانى . وسأحدثك عن هذه النقطة فى المقال التالى .

(« المساء » ١٣٥٨/٤ / ١٩٦٤ ، ص ٨)

مصر كان مدبراً على أن يكون احتلالاً ثنائياً أيضاً لولا تردد مسيو فريزييه وزير خارجيتها عندئذ . . فرنسا تتردد وتترك الفرصة تفلت من يدها ثم تلطم الحدود وتتهم انجلترا بأنها مكرت وغدرت بها .

لقد سبق لفرنسا أن ترددت فضاعت من يدها صفقة عظيمة . فحين فكر اسماعيل في بيع حصة مصر في شركة قناة السويس اتجه أول الأمر إلى فرنسا ، ولكنها ترددت فإذا بالصفقة العظيمة يخطفها دزرائيلي بعون من روتشيلد عميد الصهيونية العالمية وأحد مؤسسي إسرائيل . ولم تنس فرنسا أيضاً أنها وصلت إلى ما توده .

والحقيقة أن فرنسا لم تتنازل عن شيء في مصر سنة ١٩٠٤ إلا طمعاً في أن يرتفع عليها العلم المثلث الألوان إلى جانب العلم البريطاني . أما دون ذلك فإن الإتفاق لم يمس بحقوقها أقل مساس . فمصر سداح مداح لا تحت أقدام فرنسا وحدها بل تحت أقدام كل الدول صاحبة الامتيازات الأجنبية .

دخول مباح بلا شروط أو قيد ، حتى لكل بلطجي وقواد وتاجر مخدرات ورقيق أبيض . كلهم يجدون في مصر نعم الملجأ والمأمن . استثمار للأموال تحت ظل المحاكم المختلطة دون دفع مليم واحد لخزانة البلد الذي ينهبون خيراته ، بل إن تصدير الأرباح مباح ومتبع . لا عجب أن تولى الرأسمال الأجنبي خنق أنفاس الرأسمال الوطنى . الفلاح غارق لذقنه في ديون أرباح الربا ، وأرض مصر تكاد أن تكون مرهونة في البنوك الأجنبية .

كانت فرنسا تشارك في هذا النهب ، يكاد يكون لها نصيب الأسد . هذا هو مسيوليون يحتكر الكهرباء ، وفرنسا دون بقية الدول سلطان في المحاكم المختلطة وفي صندوق الدين . لغتها هي الغالبة وثقافتها هي المتسلطة ،

ذكریات . . بین حلوة ومرة

فی مثل هذه الأيام منذ ستین عاما (وبالتحديد فی ۸ إبریل سنة ۱۹۰۴) تم القبول والتراضی بین إنجلترا وفرنسا علی عقد « الاتفاق الودی » الذی یوحی ظاهره بأنه مقاصدة تجارية تفض ما بینهما من حزازات بسبب تنافسهما علی نهب آسیا وإفريقيا ، أما باطنه فیضمر تألیف جبهه واحدة من الدولتین لمواجهة ألمانيا فی أوربا . . . فسیاسة إنجلترا تهدف دائما إلى إقامة توازن بین القوی فی أوروبا للحیلولة دون أن تنفرد دولة فیها . . ولو كانت صدیقة . . بفرض سیطرتها ، ففی هذا التوازن ضمان ببقاء الجزر البريطانیة فی معزل ومأمن من القارة (لعل دول السوق الأوروبية الیوم لاتنسى لإنجلترا هذه السیاسة) فلا بأس لدى إنجلترا أن یصبح عدوها بالأمس حبیبا لها بعد هزیمته لیحد من نفوذ حلیفها الذی خرج معها من الحرب منتصرا . وهكذا جمعت إنجلترا بمهارة بین متناقضین فی قولها عن أوربا — أنا فیها وأنا لست فیها .

هذا التوازن في القوى ، فهي ترمى إلى بسط نفوذها جنوبا (النمسا - البلقان - إلى تركيا حتى بغداد) ثم شرقا فهي من قديم تحلم بحقول أوكرانيا ، وزاد الطين بلة على رأس إنجلترا أن ألمانيا جاهرت أيضا برغبتها في أن تكون لديها مستعمرات في إفريقيا - بحميها أسطول ضخمة . .

كان لابد لإنجلترا أن تقول لها : « قفى عند حدك » ، وكان هذا ما تريده فرنسا أيضا ، وتزيد عليه رغبتها في استرداد الألزاس واللورين . والتقاء المصلحتين بين فرنسا وإنجلترا جعل خلافاتها على بعض الفتايت المتساقطة من مائدة الاستعمار تبدو نافهة وسخيفة ، يتعارك عليها كلاب الأسبياد ، لا الأسبياد أنفسهم : فلم يكن من العسير عليها فض هذه الخلافات لتفرغ كل منها إلى مواجهة تفاقم الخطر في أوروبا.

لم تهتم مصر يومئذ - وهي معذورة - بتقصي الدوافع الحقيقية لهذا الاتفاق ، إنما هاها أن ترى فقرة من فقراته العديدة تقضى بأن تبارك إنجلترا لفرنسا احتلالها لمراكش مقابل أن تبارك فرنسا لإنجلترا احتلالها لوادى النيل كله . وقد حسبت مصر حينئذ أن الاتفاق لم يعقد إلا لغرض واحد هو تثبيت الاحتلال البريطاني وهدم كل أمل في الجلاء والاستقلال . (وإغفال الإحاطة بالموقف ودراسته كان يعيب في بعض الأحيان سياسة مصر في الماضي ولم تبرأ منه إلا بعد ثورة ١٩٥٢ كما سآين لك فيما بعد) .

والسبب في أن مصر قد هاها هذا الاتفاق هو أن قادتها حينئذ كانوا يتطلعون إلى باريس لتقف معهم ضد لندن . فالاحتلال قد جثم على صدر مصر ، يوهما هو وأنصاره أنها لا تستطيع الخلاص منه بمجهودها وحده . وصحيفة « المقطم » تلح في إفهام المصريين أن صفة « العظمى » اللاحقة

بكلمة بريطانيا لا تعنى تفريقها فى الحجم عن مقاطعة بريطانيا الفرنسية ، بل تعنى أنها أعظم دولة فى العالم ، وربما كانت كذلك حينئذ ولكن لا بدالة الاسم .

انبعث صوت مصر يطلب النجدة ، تلفتت حولها تبحث عن معين ، الباب العالى حيلة مائلة . ليس فى أوروبا دولة تعنى بمصر أو ترضى من أجلها بمعادة إنجلترا . أما فرنسا فانفردت بأنها لم تغتفر قط لإنجلترا أنها سرقت مصر من جيبها ، لأنها تؤمن أن محمد على هو رضيعها ، وأن مصر - المدينة غرس يديها - لذلك بصبغت لمصر على مرأى من إنجلترا أو من وراء ظهرها ، فظن قادة مصر أن فرنسا مستعدة لأن تعارك هذا البلطجى الذى يستحوذ على بلدهم ، أو أنها على الأقل قادرة على أن تقض مضجعه بإلقاء الطوب على النوافذ ، فيظل بقاؤه مقلقلا .

وغرق قادة مصر فى أحلام اليقظة ، وبالغوا فى تقدير أهمية سياسة وخز الإبر التى اتبعتها فرنسا مع إنجلترا فى مصر ، وفتحوا قلوبهم وبيوتهم لبعض الفرسان الهلافيت من أبناء فرنسا الذين وجدوا فى الدفاع عن مصر بالكلام وسيلة سهلة لإشباع رغبتهم فى إلقاء الخطب الرنانة فى المآدب الحافلة التى تقام تكريما لهم .

النائب الفرنسى دونكل (شىء فى صدرى يهمس لى بأنه يهودى - والله أعلم) زار مصر سنة ١٨٩٥ ، فاستقبلته بالأحضان كأنه الغيث بعد الجذب .

بلغ أمل مصر فى فرنسا ذروته فى تلك السنة حينما أعد « اللواء » مصطفى كامل صورة كارت بوستال تمثل مصر فتاة مقيدة بالأغلال ،

بجانبيها الأسد البريطاني وجندى إنجليزي يعتمد على سيفه ، وفرنسا - في
هيئة الفتاة ماريان - جالسة على عرش ، جميلة حلوة ، تستقبل وفدا من
المصريين على رأسه « اللواء » نفسه ، وتحت الصورة بالعربية والفرنسية
شعر من نظم مصطفى كامل يقول . .

« أفرنسا يامن رفعت البلايا
عن شعوب تهزها ذكراك
انصرى مصر إن مصر بسوء
واحفظى من مهاوى الهلاك
وانشرى فى الورى الحقائق حتى
تجتلى الخير أمة تهواك »

وذهب اللواء ومعه ستة من المصريين المقيمين بباريس . لم يذكر لنا
أستاذنا عبد الرحمن الرافعى من هم - مع الأسف - وقدم هذه الصورة
لمسيو بريسون رئيس مجلس النواب الفرنسى ، فأبدى عطفه على الأمانى
القومية المصرية . ووزعت من هذه الصورة آلاف من النسخ ، وعلى جميع
صحف العالم .

ولعلك تسأل - ما هى البلاد التى حررتها فرنسا ؟ لا شك أن اللواء
كان يقصد معاونتها لليونان وبلجيكا على نيل استقلالهما ، وعونها من قبل
على تحريك الوحدة الإيطالية أيام نابوليون ، ولكن اللواء نسى أن هذه
البلاد تقع فى أوروبا، أما مصر فتقع فى إفريقيا . وفرق بين أوروبا وإفريقيا ،
حتى فى نظر القانون الدولى الذى يوهم بأنه يسرى على الجميع . (وبيان
الخلاف سيأتى فيما بعد) ، ونسى أيضا احتلال فرنسا للجزائر سنة
١٨٣٠ ، وإعداد العدة لاحتلال مراكش من بعدها .

أبعد شيء عن ذهني أن أتهم اللواء بالسذاجة أو الغفلة . أرجو من كل من يتعرض لسيرته أن لا ينسى أنه مات في سن الرابعة والثلاثين ، بل إنى أعتقد أن اللواء كان أكثر قادة مصر حينئذ إدراكا للموقف الدولي . لما عاد من فرنسا بعد إتمام دراسته حمل معه عدة مؤلفات عن القانون الدولي والمسألة الشرقية وتاريخ القضية المصرية . وعكف في بيته يدرسها إلى أن فرغ منها .

كان يعتبر نفسه محاميا موكلا في قضية فلا بد من الاطلاع على كافة المستندات ليحسن مرافعته . وهو وحده الذي ألف الكتب عن المسألة الشرقية . هو أكثر قادة مصر تجوالا في أوروبا وزيارة لعواصمها ومقابلة لزعمائها واتصالا بصحافتها ، بل قد يقال إن إقامته في أوروبا أيام الجهاد زادت عن إقامته في مصر .

من الحماسة والظلم أن نطالبه بأكثر مما فعل ، أن نطالبه مثلا بالانتباه إلى أن أغلب مؤيديه كانوا من أحزاب اليسار (كما حدث في إيطاليا) فكان من الخير لو أنه ركز بعض اهتمامه على هذه الأحزاب ، وعرف أهل بلده بكيانها ونموها ، ووثق صلته بها ، أو الانتباه إلى أن بعض مؤيديه (كما حدث له في زيارة ألمانيا) كانوا يرمون لا إلى استقلال مصر بل إلى تدويلها تحت وصاية الدول الأوروبية مجتمعة ، أو أن نطالبه وهو يشيد لأبناء أمته بجهاد أيرلندا أن يحاول إيجاد صلة بين حركة التحرر في البلدين .

لم يكن اللواء إذن غافلا عن أن فرنسا لن تحارب إنجلترا من أجل مصر . إنه كان على علم بعناصر الموقف الدولي وتوازن القوى في أوروبا . لم يكن غرضه من تقديم هذه الصورة لرئيس مجلس نواب فرنسا إلا محاولة

لإخراج النزاع من ثنائية (مصر - إنجلترا) ليصبح قضية دولية تقيد في جدول أعمال كل مؤتمر دولي يعقد لغرض من الأغراض من أجل هذا قال كلمته الشهيرة « كرماء لضيوفنا » ورضى ببقاء الامتيازات الأجنبية وإن طالب بأن يشمل اختصاصها الحكم في القضايا الجنائية .

اللواء إذن غير مخدوع . هل تريد الدليل ؟ انظر إليه يكتب من برلين إلى محمد فريد (في ٤ - ٩ - ١٨٩٨) : « كلما زرت عواصم أوروبا ازددت اعتقادا بأن الأمر بيدنا . . وإنى لأحس بكآبة . . » وانظر إليه يقول لمحرر صحيفة « لاكثير » الفرنسية (في ٢٩ - ٧ - ١٩٠١) : « كلا إننا لم نياس ، ولن نياس أبدا من مستقبل الوطن العزيز فإننا نعلم علم اليقين أن مصر مقبرة للأمم الطاغية . ولكننا إذا كنا غير يائسين من مستقبل بلادنا فإننا يائسون كل اليأس من أى تعضيد يأتينا من أوروبا » .

وغير مخدوع أيضا الداهية الماكر الأرقم عباس حلمى الثانى . إنه يؤيد مصطفى كامل فى طريقه لأبواب فرنسا ، وغرضه الأول - ولو على فرض نوال مصر استقلالها - هو بسط نفوذه وانفراذه بالحكم فى مصر ، وتخلصه من بعبع « كرومر » الذى يسقيه من الإهانات ما لا تحتمله نفس رجل من عامة الشعب ، فما بالك بالأمير ؟!

استقبل فى قصره الصحفى الفرنسى « روجيه لامبلان » والنائب الفرنسى « مسيو كليرى » ، فحدثهما فى الأدب والفنون والمسرح ، ثم بدأ يتكلم فى السياسة ، فإذا بمسيو كليرى يهاجم إنجلترا ويمنى عباس بمساعدة فرنسا له ضدها ، فاستمع له دون أن تظهر على وجهه علامة تدل على المخالفة أو الموافقة . ومضى المحامى يقول :

– « آه يا سمو الأمير ! لو أنك ثرت على الظلم لوجدت أنصارا
كثيرين لمساعدتك على الخلاص منه » .
فنظر إليهما عباس طويلا ثم قال :

– « هل تضمنون لى أن فرنسا ترسل لمساعدتى ولو فرقة واحدة ؟ »
فلم يفتح أحدهما فمه بكلمة . . فقام عباس معلنا انتهاء الزيارة .
وشاء ربك أن تبرأ مصر من أوهامها . . استيقظت سنة ١٨٩٨ على
صفعة أصابتها بعد انهزام فرنسا فى حادثة فاشودة وتراجعها وذيلها بين
الساقين ، تاركة مصر وأعالى النيل كله لإنجلترا .

لقد كان فى هذه الصدمة الأولى خير لمصر ، لأن الخديو عباس بدأ
بعدها يرمى فى أحضان إنجلترا ، وزارها لأول مرة سنة ١٩٠٠ ، فمهد
بذلك الطريق لانفصال الحزب الوطنى عن القصر . وبدأت الأمة تدرك أن
التنظيم الداخلى هو أساس المقاومة الشعبية ، وهى ملاذ مصر الأول
والأخير .

ومع ذلك فإن صدمة فاشودة لم تقض كل القضاء على الأمل فى معونة
فرنسا – البقية الباقية فى هذا الأمل قضت عليها صدمة شديدة يوم توقيع
الاتفاق الودى سنة ١٩٠٤ .

وكان فى هذه الصدمة الخير والبركة ، فإن مصطفى كامل بذل كل
جهد بعدها لإعداد المقاومة الشعبية داخل مصر . ولأول مرة نشهد زعيما
وطنيا يفتح مدرسة ويتولى إدارتها ليلقن تلاميذها حب وطنهم ولغته .

(« المساء » ، ٢٠ / ٤ / ١٩٦٤ ، ص ٨)

وجهة نظر قابلة للتصحيح !

السؤال الذى يتردد فى خاطرى وأنا أقرأ تاريخ مصر الحديث هو عن مدى إلمام قادتها بالموقف الدولى ، فإن الجهل به كان - فيما أعتقد - سبب وقوعهم فى أخطاء كثيرة وإصابتهم بخيبة أمل من جنس واحد ، مرة بعد مرة دون أن يتعظوا .

لم يتمثل الجهل المطبق بالموقف الدولى كما تمثل فى إبراهيم بك ومراد بك حينما ظهر أسطول نلسون أمام الشواطىء المصرية ، وأرسل إليهما يقول إنه يطارد أسطول نابليون الذى أبحر لغزو مصر . لم يسأل أحد من هو نابليون ؟ . . ولماذا يريد غزو مصر ؟ . . ولماذا تطارده حضرتك ؟

قالا له إن مصر كنانة الله فى أرضه ، وهى منيعة لأنها من بلاد الدولة العلية . حسبها زعقة أو كرشة بين اثنين من العصبجية لا شأن لمصر بهما . ومع أن مصلحة الممالك توحدت ومصلحة إنجلترا فى صد عدوان فرنسا على مصر ، فإن مراد بك وزميله لم يحاولا أن يلعبا ورقة نلسون ضد نابليون . كانا يجهلان كل الجهل الصراع القائم بين إنجلترا وفرنسا .

وعاد نلسون من حيث أتى دون أن يظفر بإنسان يفهم عنه . ليس في الجبرق أى دليل على أن مصر أدركت أن سبب غزو نابليون لأرضها هو — قبل كل شيء — لكسر شكيمة إنجلترا في أوروبا والمحيطات . كذلك لم ينطق نابليون للمصريين بكلمة واحدة تعينهم على فهم الموقف الدولى ودور مصر فيه . لعله وجدهم دون مستوى الفهم !

هناك كتب في التاريخ عنوانها « لو أن . . . » ، فمن الجائز أن يكون من بين فصولها محاولة الإجابة على السؤال الآتى : « ماذا كان سيحدث لو أن مراد بك وزميله سمحا لنلسون بانتظار نابليون أمام شواطئ مصر بحيث يتم تحطيم أسطول نابليون في موقعه « أبوقير » قبل الغزو لا بعده ؟ لك أن تتخيل ما تشاء — فإنى لا أحب هذه التخمينات لأنها سفسطة فارغة — ولك أن تقول إن نهضة مصر الحديثة ربما كانت تتأخر قرنا من الزمان .

كان أكثر المصريين فهما للموقف الدولى حينئذ هو الجنرال يعقوب الذى قدّم — وهو هارب على ظهر سفينة إنجليزية — مشروعا بتدويل مصر تحت وصاية الدول الأوروبية . هذا المشروع الذى يصفه بعض المؤرخين عندنا خطأ بأنه كان يرمى إلى الاستقلال .

من الخطأ إطلاق وصف « القادة » على إبراهيم بك ومراد بك . لم يكن كل منهما فى حقيقة الأمر إلا « شيخ منصر » همه السلب والنهب وامتلاء جوفه وخزائنه . فليس بعجيب عليهما هذا الجهل المطبق بالموقف الدولى ودور مصر فيه .

نتقل الآن إلى محمد على . لا يمكن لعصامى مثله الجمع بين طغيان

الشخصية وشدة الدهاء إلا أن يكون — رغم أميته — « رجل دولة » بالمعنى الحديث لهذا التعبير . أراد من أول يوم أن يستأثر هو وأبناؤه بحكم مصر لأنه أحبها كما يحب الأكل البطنى أكلة شهية . هي جنته في الأرض ينعم بها قبل أن يأذن له سيدنا رضوان بدخول جنة السماء ، علمى علمك . فكان لابد له أن يفهم سياسة الباب العالي في استانبول ، وهي في ذاتها عقدة العقد ، وأن يظل متسمعا لكل همس يدور في سراى « خولة باغجة » أو « يلديز » . وعن طريق سياسة الباب العالي نفذ محمد على إلى فهم الموقف الدولى فى أوربا .

من الممكن الدفاع عن رأى القائل بأن محمد على لم يفهم هذا الموقف الدولى حق الفهم ، وأنه ظل حبيس أفقه المحلى الدائر حول محور (رأس التين — خولة باغجة) ، لعل السبب أن أطماعه كانت أقوى من ذكائه ، والطمع يعمى ويصم .

فقد أخطأ فى تقدير أن أوروبا ستقف مكتوفة الأيدى تشهده ينشئ امبراطورية عربية تغير على الدولة العثمانية ، فإما أن تحتلها وإما أن تقص جناحها على الأقل وتتزع منها الخلافة ، فامبراطور العرب وصاحب مكة والمدينة أولى بها من التركى المقيم باستانبول .

وأخطأ فى تقدير مدى مساعدة فرنسالة . حسبها أنها — وهي مرضعته — ستقف إلى جانبه على طول الخط . لم يفهم أن تركة « الرجل المريض » معدة للتوزيع على دول أوروبا لا على بلاد آسيا وإفريقيا ، كلها فى نظر أوروبا بلاد نيام نيام ، وأن أوروبا، وإن اختلفت ، فهي متفقة على منع إقامة دولة عظيمة

في هذا الموقع الذي تحتله مصر ، وأنه إذا لمس سكين محمد على رقة الخليفة التركي فإن فرنسا ستنسى حتما صداقتها لوالى مصر .

فلما توغل إبراهيم باشا فى الأناضول ، وأصبح قاب قوسين أو أدنى من استانبول اشتركت أوروبا - فى مقدمتها فرنسا - فى توجيه إنذارها لمحمد على بالرجوع إلى جحره والانكماش فيه . وكان تحطيم أسطول مصر غدرا فى موقعة نافارين مثلا آخر على اتحاد أوروبا وفى مقدمتها فرنسا - على كبح جماح مصر .

من السهل ربط خيبة أمل محمد على ببوادر إصابته بالجنون . لا شك أن الإنذار الأوروبي كان صدمة شديدة له . والجاهل ، لا العالم ! هو الذى يصاب بمثل هذه الصدمة حين يستيقظ على الحقيقة المرة التى كانت خافية عليه .

ومن الجائز الدفاع عن رأى المضاد القائل بأن محمد على لم يكن غرا حتى يتصور أنه يستطيع إقامة أمبراطورية وخطف الخلافة بمشهد من أوروبا ، التفسير المحقول لسياسته هو أنه أراد أن تكثر فى يده أوراق اللعب ولوضحي فى سبيل ذلك بالجيش والأساطيل . كل هذه الأوراق - إلا ورقة واحدة - لا تلزمه . ولا يطمع فى الربح منها - وإنما لأبد له أن يجتال لامتلاكها ليساوم بها فيتنازل عنها جميعا من أجل استبقاء هذه الورقة الواحدة فى يده . إنها ورقة استيلائه على عرش مصر حقا له ولذريته من بعده ، وتمتعه ، لا بالاستقلال التام عن الدولة العثمانية ، بل بأكبر قسط ممكن من الاستقلال .

إذا كان محمد على قد انسحب من الحجاز واليمن وسوريا

والأناضول ، وإذا كان أسطوله قد تحطم ، فإن هذا كله كان الثمن الذي لابد من دفعه لحصوله على عرش مصر . كان محمد علي يعلم هذا الثمن ، وكان مستعداً لدفعه . ومما يؤيد هذا الرأي أن مودته ومودة خلفائه من بعده لفرنسا لم تتغير رغم كل الذي فعلته .

وإذا جئنا لعراي وجدناه هو أيضاً - لسوء الحظ - غير ملم بالموقف الدولي الإمام الواجب لرجل مثله يقود أمته وسط الأعاصير . ليس هناك دليل قاطع على أنه فهم سياسة إنجلترا نحو قناة السويس ، وكيف تحولت من معارضتها إلى الطمع فيها ، ثم إلى اتخاذ العدة للاستيلاء عليها . لم يمد بصره إلى أوروبا ليعرف كيف تقف من إنجلترا إذا أزمعت غزو مصر منفردة . لم يحاول البحث عن نصير ، حتى ولو حكم من أول الأمر أن لا نصير له .

كان لابد له مع ذلك أن يقوم باستكشاف يفتح له عينيه ، ويزيح عنها كل شبهة . كان ينبغي أن يكون ملماً كل الإمام بالموقف الداخلي في فرنسا ، ليزن ، بميزان صحيح قيمة وعد دي ليسبس له بأن إنجلترا لن تحرق حياد القناة . من أجل ذلك وقع في خطأ عسكري جسيم هو عدوله عن ردمها .

لم تجد إنجلترا في عراي خصماً ذا دهاء يجيد المناورة ، بل رجلاً طيباً يؤمن بأن الاعتداء جريمة وبأن الشجاعة تغلب المدفع . فلما وقعت النكبة فسرّها بأنها من تصاريّف القدر ، وأحال عليه كل الذنب ، وبقي هو مستريحاً مطمئناً لا ينضم ضميره إلى خصومه في توجيه اللوم ولم يتزلزل اعتقاده في أنه قام بواجبه في الدفاع عن كرامة شعبه وحقوق بلاده . وإذا كانت حكمته موضع درس فإن إخلاصه فوق الشبهات .

وفي السنوات الأولى للاحتلال البريطاني نسيت مصر الدرس الذي تلقاه محمد علي ، ثم عرابي ، على يد فرنسا ، وتعلقت آمال بعض قادتها من جديد بهذه الصديقة التي تعد ، ثم تخلف ، بل قد تنحاز للعدو .

حسب هؤلاء القادة أن الوعود المعسولة في الخطب الرنانة والاجتماعات الخاصة لها قيمة المعاهدات الرسمية . وكان هذا الخطأ في التقدير سبب إصابتهم بخيبة أمل كبيرة بعد انسحاب فرنسا من فاشودة سنة ١٨٩٨ . ومع ذلك فإن الفرنسيين يقولون إن الكابتن باراتيه الذي أوفده مارشان قائد الحملة إلى باريس بعد الانسحاب قد قوبل في مصر بحفاوة كبيرة . فكتب قصيدة ثرية يقول فيها :

« قد يراخى شعب همته لفترة من الوقت . . ولكن هيهات له أن ينحون قدره . لا تنس يا ابن فرنسا أنك تمثل في نظر سكان ضفاف النيل شمس الدنيا وعدالة الشعوب . لقد تبينت مصر أنك جئت تخوض المستنقعات من أجل الدفاع عن الحرية . . . »

صدمة كانت هي الأولى ، ومع ذلك لم تمنع إصابة مصر بالصدمة الثانية على أثر توقيع الاتفاق الودى بين فرنسا وإنجلترا في شهر إبريل سنة ١٩٠٤ ، أى في مثل هذه الأيام منذ ستين عاما .

أما الوفد المصرى فقد أدرك من الموقف الدولى القدر الضئيل الذى يلزمه ، فلم يتلصقا فى تحويل قضية مصر عن النطاق الدولى المأمول إلى علاقة ثنائية بينها وبين إنجلترا ، فشد الرحال إلى لندن للمفاوضة ، بعد أن وجد جميع أبواب مؤتمر الصلح مغلقة فى وجهه ، بعض رسائله أعيدت إليه دون أن تفتح .

وقد أصيبت مصر حينئذ بخيبة أمل قاسية جاءت هذه المرة من أمريكا لا من فرنسا . هتفنا في المظاهرات إلى أن بحت الأصوات بحياة ويلسون وميثاقه المؤلف من ١٤ نقطة ، من بينها نقطة تعترف بحق كل شعب في تقرير مصيره . فإذا بنا نعلم ذات يوم أن أمريكا اعترفت بالحماية البريطانية . إنني لا أنسى إلى اليوم سخونة وجهنا في ذلك اليوم من أثر تلك الصفعة !

وقد كنا نكون في منجى من الإحساس بهذه الصفعة المؤلمة لو أن أحدا بصرنا بحقيقة هامة كثيرا ما غابت عن قادة إفريقيا وآسيا ، وهي أن القانون الدولي موضوع لمصلحة دول حضارة أوروبا الغربية وحدها . كأن المساواة في نظر القانون تتطلب مساواة في الحضارة . لا يوصف الغزو الاستعماري بأنه حرب فتطبق عليه أحكام باب الحرب في القانون الدولي ، بل يوصف بأنه نزهة عسكرية .

نقض معاهدة مع حاكم في إفريقيا أو آسيا غير مساو في الخطر والقبح نقض معاهدة بين دولتين في أوروبا ، إن بلاد حضارة أوروبا الغربية جماعة تتركب قاربا يعوم بهم فلا تأذن لغريب أن يزاحمها فيه ، حتى ولو كان له مشاركة في الدين ، فغزو إيطاليا المسيحية للحبشة المسيحية هو أيضا نزهة عسكرية ، يباح فيها استخدام الغازات السامة ، حتى ولو كان الغريب له قدم في أوروبا جغرافيا ، وما محاولات بطرس الأكبر ثم مصطفى كمال لفرنجة بلادهما إلا لغرض واحد هو نوال حق ركوب هذا القارب .

إن أزمة الكومنولث والأمم المتحدة هي من آثار هذا الربط في الماضي بين المساواة في الحقوق والمساواة في الحضارة . والأمم المتحدة تعاني الآن

آلام مخاض فكرة جديدة هي التي تليق بهذا العصر الذي نعيش فيه ، فكرة المساواة بين الشعوب .

إن ويلسون حين نادى بحق كل شعب في تقرير مصيره كان لا يقصد شعوب آسيا وإفريقيا ، بل شعوب أوروبا مثل بولندا وتشيكوسلوفاكيا . إنه لم يحن مصر ، بل مصر هي التي أساءت فهمه .

(النساء ، ٢٧ / ٤ / ١٩٦٤ ، ص ٨)

عيد الجلاء وذكرى دنشواى !

وقفت مرارا على الرصيف وأنا صبي صغير وسط سيقان بعض أولاد البلد من رجال ونساء نشهد - قبل الحرب العالمية الأولى - مرور طابور إنجليزى وهو نازل من القلعة أو طالع إليها . صدقنى إذا قلت لك إننى لا أزال إلى اليوم أجد على طرف لسانى طعم السخريه التى كنت ألتذ بها فى تلك الوقفات تسرى إلى بالعدوى من التيار من حولى ، سخريه - على بساطتها - كانت ترج نفسى رجاً شديداً . أرفع لجيراني نظرة منلهفة متطلبة للمعرفة والمشاركة فى الفهم وجدارة الزمالة ، فتقع على أعين يشع منها الهزء والاستخفاف ، وشفاه يعابثها مرح ذكى وتعايئه ، كأنها تقول لى : « اضحك معنا أنت أيضا ، إنها وليمة للجميع وبالمجان . . » .

لا ينعقد جمع إلا إذا سعى - بغير شعور منه - إلى أن توحد بين شتات أفراده عاطفة واحدة ، حتى ولو كانت غير طيبة ، تنحو وتطفو وتشجب بقية أوجه التماثل فى ميولهم .

تمد إليهم نظرتى وهى تبتسم أيضا ، فكأنها تلقى مزيدا من الحطب على النار . أخذا وعطاء . ما أبلغ حديث النظرات فى صدقه وعمقه وإيجازه ، فلا لغة ولا نحو ولا صرف ، ولا عامية ولا فصحي .

هذا طابور عساكر غير خارجين لحرب ، ولا لتدريب ، بل فى مشوار أشبه بنزهة ساعة صبحية . سالم غانم فى ذهابه وإيابه . مشوار من القلعة لقشلاق قصر النيل ، ليس حكاية تحتاج إلى تكتيك واستراتيجية . لو وضع أحدهم ذراعه فى ذراع أخيه أو على كتفه وساروا لأنصفوا أنفسهم والمنطق معا . فكانوا إذا بالغوا فى المشية العسكرية مع رفع الرأس وهز الذراعين إلى مستوى الكتفين ، سخرنا من هذا الجهد المبذول فى غير طائل ، من النفخة الكذابة ، من الحاملين لأبى طوق فوق رؤوسهم وهم غلابة .

على ذقن من يضحكون ؟ وإذا تهاونوا فى المشية العسكرية وتراخت الأكتاف وانشفطت الصدور وتدللت الأذرع سخرنا من هذا الجند الذى لا يعرف كيف يمشى مشية الجند . وخيل إلينا أن دحديرة القلعة والمحجر كفيلة بأن تفك لهم كل نظام .

نسخر من القفا الأحمر كأنه خلفية قرد ، مسحتها له أمه برغيف فلم ينج طيلة عمره من وصمة الكفر بالنعمة . نسخر من المعزة التى تسير فى مقدمة الطابور ، ونحكم بأن هؤلاء الإنجليز عقلهم فارغ ، وأن المولى — سبحانه — يتمتعهم الآن ، ولكن يمهلهم رويدا .

أكثر ما يثير دهشتنا وسخريتنا هو لبس الإسكتلنديين : نريد جميعا أن نعرف هل تحت هذه الجونلا لباس أم لا ؟ هل هم عرى السيقان أم لا ؟

وكنا نهزأ برجال لهم مثل هذه الأجساد البغالى كيف يرضون لأنفسهم بلبس العيال أو البنات ، ولماذا يتركون أنفسهم موضع شبهة ؟ حقا إن الحياء شيء لا يتعلمه الإنسان من الكتب .

قال الرجل الواقف على يميني لزميله : أصل الحكاية أن الملكة فاكثوريا لما أحبت أن تغزو بلادهم تعبت كثيراً لأنهم حاربوها طويلاً ، فأقسمت أنها يوم تحتل بلادهم ستحكم على جميع الرجال أن يلبسوا زى النساء . . . إذلالاً لهم ووضعاً لأنوفهم فى التراب ، ومن شاء منهم بعد ذلك أن يرى شاربهُ فهو حر . .

فزادت سخريتنا من هؤلاء الرجال الذين يرسفون فى أغلال ذليلة بحكم امرأة ! فى اعتقادنا أن كل واحد منهم طرطور فى بيته ، لا يحكم زوجته ، بل هى التى تحكمه ، فما دام قد نخ لامرأة من قبل فسيطول نخيخه . .

هذا هو الظاهر ، وفى باطن قلوبنا غفلة شديدة ، لا يدركون أنهم ضحايا نصاب كبير الدهاء وأن كل حركة منهم بعد ذلك مهما صدقت فيها النية ووضح الإيمان ، ما هى إلا مشاركة منهم فى هذا النصب ، لا على أنفسهم هذه المرة ، بل على الغير .

أنتم أناس لا شغلة لكم ولا مشغلة ، يجبسكم هذا النصاب فى قشلاقات كأنها الحواصل ، يطعمكم ويسقيكم كأنكم عجول للتربية ، ثم يطلقكم بين الحين والحين لتلين سيقانكم وركبكم ، فترضون أن تمشوا فى الشوارع مشى القطيع من الغنم . . ما الفرق بينكم وبين المعزة التى

تتقدمكم ؟ أى دخل لكم فى بلدنا ؟ ما شأنكم به ؟ لماذا أنتم هنا ؟ أليس لكم بيت يلصكم ؟ .

لم يكن ينفذ إنجلترا أن يكون لها جيش احتلال كبير فى مصر ، فهى أولا بلد يكره الخدمة العسكرية زمن السلم ، يصدر فى ذلك عن عقلية التاجر صاحب الدكان ، ثم لا تدخل الحرب إلا بجانب حليف يكون له جيش كبير يدافع عن الاثنين ، مكتفية هى بالدلال عليه بأنها هى التى تفتح له البحار ، وتجيى له المال ، وتحشد الأنصار ، وأن دهاء سياستها كفى بكسر كل سلاح فى يد العدو .

وإن إنجلترا تخسر جميع المعارك إلا الأخيرة ، ثم إنها منذ دخلت مصر حرصت على أن تمسك العصا من الوسط فتزعم للدول الأجنبية فى الظاهر أنها لا تنوى ضم مصر لأملك التاج البريطانى بل ستبقيها للدول الأجنبية كلها كأنها بوابة بلا بواب . وتسعى فى الباطن لأن تكون السلطة الفعلية فى يدها وحدها ، فكان اتخاذها لجيش صغير فى مصر مظهرا لهذه السياسة ، ولكنها مع ذلك حرصت على أن تجعل هذا الجيش الضئيل سلاح إرهاب فى وجه المصريين ، تخفيه فى كفه ولكنها تشهره إذا اقتضى الأمر وسوء وفضاظة كما فعلت فى حادثة دنشواى .

ومع ذلك فالأثر المتخلف فى قلبى من وقفاتى مع أولاد البلد نتفرج على مرور الطابور الإنجليزى هو أن الجيش البريطانى لم يكن الشعب المصرى يرهبه ، بل كان يسخر منه سخيرة شديدة .

كان يقال : لو بصق كل واحد منا بصقة واحدة لأغرقنا هذا الجيش وكسحناه من بلادنا ، إنما جيش الاحتلال الحقيقى كان شيئا آخر ، كان

جيشا من الإنجليز والأجانب احتلوا المناصب الرئيسية في الدولة ، وضعوا يدهم على نظام التعليم ، في حمايتهم جيش آخر أكبر من المغامرين والأفاقيين ، اغتالوا الرأسمالي الوطني في حماية الامتيازات الأجنبية والمحاكم المختلطة .

كنا ندرك أن الحرب بيننا وبين الإنجليز تدور في ميادين كثيرة ، إن إنشاء الجمعية الخيرية الإسلامية ، وإنشاء الجامعة المصرية الأهلية ، ثم من بعد ذلك قيام بنك مصر . . لم تكن في نظر الشعب إلا انتصارات في معارك عسكرية . إنه جيش يواجه العدو في جميع الميادين .

وكان كرومر يحب أن يمشى في الأسواق مشية السائح المضيق ، وكان من أناقة كثير من موظفي داره أن يخرجوا للناس في ملابس مهلهلة ، تركوا الفخفخة والعربات المظهمة والحرس المزركش لجناب الخديو والسادة وزرائه . لماذا ؟ لأنهم كانوا يقبضون في يدهم على السلطة الفعلية في البلد ، ومن كانت في يده السلطة لا يعبأ بالمظهر ، إنما يعبأ به الأغوات والخدم والعبيد .

وفي سنة ١٩١٤ عرفت مصر الوجه الحقيقي لما يسمى بالجيش البريطاني . هبطت علينا جيوش من كافة أرجاء الامبراطورية ، عاثوا فيها كأنها مزرعة مورثة من أبيهم . عرفت مصر الجيش النيوزيلاندي والأسترالي .

باعة الفول السوداني وضعوا حول بضاعتهم سياجا من السلك لحمايتها من الخطف والنهب . باعة التين الشوكي رأوه يؤكل بقشره خطفا ونهبا . .

كمية « اللكميات » التي نزلت على السائرين الأمنيين كانت تفوق في ليلة واحدة كل ما وقع منها في تاريخ الملاكمة من أقدم العصور .

وكانت أشنع حادثة لازلت أذكرها هجوما هؤلاء الجنود على منزل في وجه البركة ، وإلقاؤهم لجميع الساكنات فيه من النوافذ العليا فلم تبق واحدة منهن إلا لقيت حتفها .

ومع ذلك فإن أهل مصر لم يرهبوا هذا الجيش حين شبت الثورة سنة ١٩١٩ ، وتصدى شعب أعزل من السلاح لمحاربة جيش مدجج بالسلاح ..

(« النساء » ، ٢١/٦/١٩٦٥ ، ص ٨)

١١ نوفمبر . . . !

عادت أول أمس ذكرى هدنة الحرب العالمية الأولى « ١٩١٤ - ١٩١٨ » فردتني بقوة إلى أيام طفولتي ، ولكنى لا أظن أنها تعنى شيئا كثيرا للجيل الحاضر ، وليست هذه الحال حالنا وحده . كنت منذ عشر سنوات في باريس وهى التى عانت الحصار فى هذه الحرب ، وحلقت فوقها مناطيد زبلين التى تشبه السيجار الفخم الذى كان يدخنه تشرشل فى الحرب العالمية الثانية ، وهى التى ضربتها من بعيد مدافع برتا (اسم ابنة صاحب مصانع كروب الألمانية) وصفرت فيها الرياح بعد أن هجرتها الحكومة إلى مدينة بوردو ، فاشتكى لى أحد الفرنسيين من جيلى أن الشبان فى بلده أصبحوا إذا ذكر لهم اسم كليمنصو سألوا من يكون ؟ مع أنه كان يلقب بالنمر ، وهو الذى قاد بلاده إلى النصر فى هذه الحرب الضروس وكتب عنه عشرات المؤلفات ، لا أحب أن أقول إن للشعوب قدرة هائلة على النسيان بل أعزو هذه الظاهرة إلى أن العصر الذى نعيش فيه يفوق كل عصر سابق فى عمق تطوراتهِ وسرعتها سرعة خاطفة مذهلة ، وإذا كان الماضى السحيق الذى

طواه النسيان يقاس من قبل بالقرون ثم بالسنين فإنه اليوم يقاس بالأيام ،
ولعله غدا سيقاس بالساعات .

* * *

لم تعرف مصر حينئذ إطفاء الأنوار ، لأن الطيران كان لا يزال في
مهده ، ومع ذلك فقد زارتنا — كالذبابة الدائخة — طيارة المانية وألقت
علينا بعض القنابل ، سقطت إحداها في شارع محمد علي قريبا من داري ،
فوقعت على حوذى يسوق عربة حنطور فنفق حصان من الاثنين ونجا
صاحبها ولا أزال أذكر إلى اليوم تجمعنا حول هذه العربة لنشهد الجواد
الصريع ، إنه أول حى فى بلدنا يسقط عليه الموت من السماء . قنبلة واحدة
فسافيسى ، كأنها بيضة الديك — فلم نعرف حينئذ رغم سقوطها الخوف
من الغارات الجوية .

لم نطفئ الأنوار ولكن العهد كان عهد ظلم وظلام ، فهل كان من
قبيل الرمز أن أول شيء عاناه شعبنا كان لطلب النور ، لم تكن الكهرباء قد
شاعت ودخلت القصور علنا وبعض البيوت خلصة ، كحالتها اليوم ،
الصوص وقتئذ غشم ولو سرقوا الكحل من العين ، هيهات لهم أن
يختلسوا سحر شيطان ماهر ، إذا مد له أحدهم يده — ولو كان أسطى فى
النشل — صعقة على الفور ، حد الله بينهم وبينه . فكان للناس حينئذ
اعتماد وحفاوة بعروس جميلة رغم هبابها ، منبعجة البطن « الحال من
بعضه » طويلة الرقبة ، اسمها « اللبة نمره خمسة » تقف وهى فى زهرة
العمر أمام مرآة مستديرة ، ثم سرعان ما تشيخ فلا يهتمها أن مرآة شبابها
هشة قد خلقت للكسر السريع . ولكن حياة هذه العروس تتوقف على

بترول وزجاجة . أما البترول فقد اختفى وأصبح أندر من الكبريت الأحمر . كنا لا نعرف منه إلا ماركة واحدة ، ماركة رأس الخروف ، بترول روسى اسمه ننتشوف ، والغريب أن الباعة الجوالين كانوا لا ينادون عليه فى الأزقة باسم « أبو خروف » بل كان صوتهم يلعلع باسم منتشوف ، لعلهم حسبوها تحريفا من « ما أنت شايف » أو استسهلوها لأنها تقبل السجع مع عبارة « على قدر الشوف » ، لا يزال أذكر إلى اليوم واقعة رهيبة فى شارع السيوفية شهدتها بعينى . هجم الناس من رجال ونساء وصبيان على دكان يبيع البترول بالقرب من مدرسة أم عباس باشا الأول ، وهو دكان ضيق لا يتسع إلا لبرميل راقد على جنبه . ولو كانوا جياعا أشرفوا على الموت من السغب فهجموا على مخبز لما كانت لهم مثل هذه الضراوة والقسوة . كفأوا امرأة عجوزا فماتت وسط الزحام تحت أقدامهم . ولا يزال أذكر إلى اليوم وجه صاحب الدكان بعد انفضاض الهجوم وهو يجفف عرقه بمنديله المحلاوى ويحمد ربه على نجاته ونجاة ملابسه وطاقيته . فقد كان ينتظر أن يكون هو الصريع . أما الزجاجة فقد كان باقيا منها فى مصر قدر مخزون ولكن ثمن الواحدة ارتفع من مليمين إلى خمسين مليما . ولا يزال أذكر أن أكثر أمثلة الغلاء ترددا على الألسن بالتندر كان ثمن هذه الزجاجة وشح الزجاج فعمد بعض الشطار إلى قص زجاجات البيرة وباعوا لنا نصفها الأسفل لتحل محل الكبايات وأذكر أننا بقينا فى البيت زمنا نشرب الماء فيه من هذه الأكواب الدبش .

ومع ارتفاع الأسعار عرف الموظفون لأول مرة علاوة الغلاء وبلغت ١٠٠٪ فرضوا بها أول الأمر ثم سرعان ما تبينوا أن الماهية المضاعفة لا تكفى استجراهم من البقال والجزار وحدهما .

وظهر في الأسواق جنس غريب من الناس ، واحد أفندى غلبان ،
مستخدم بدائرة طلعت باشا أو كاتب طابونة الحاج شحاته ، لا أخاف
منه ، أجده بين عشية وضحاها قد أصبح ضابطا في الجيش البريطاني في
يده عصا ، وفي قدميه طوزلوك وعلى كتفيه شرائط ، فكنت أنظر إليه
بدهشة عجيبة وأتحاشاه .



وكان العهد عهد ظلم وظلام ، فكان المطلب الثاني هو النور أيضا ،
نور المعرفة . . كل إنسان يتلهف على معرفة الأخبار ، لم يكن الراديو
معروفا حيثئذ ، بمحطاته الرسمية والسرية ، فلم يبق لنا اعتماد إلا على
الصحف وحدها ، وفرض الإنجليز عليها رقابة شديدة . ولكنهم كانوا
غشما كلصوص ذلك العهد . إذا حذفوا من صحيفة خبرا أبقوا مكانه
فارغا ، والغريب أننا كنا نجد في هذا الفراغ شفاء لقلوبنا المتعطشة ،
لو خيرنا بين أن تتركه الصحيفة على حاله وبين أن تملأه بأحب الأخبار إلينا
ترويا بكلام صريح لا لبس فيه لفضلنا أن تترك الفراغ كما هو ، لأنه –
أولا – صادق ، أما الأخبار فتحتمل الصدق والكذب ، ولأنه – ثانيا –
يجعلنا نفرح بذكائنا ونحن نفهم دلالة .

لا أزال أذكر إلى اليوم اهتزاز أعصابنا جميعا في البيت ونحن نترقب
نداء الباعة في المساء على ملحق جريدة « الشعب » التي كان يصدرها
المرحوم أمين الرافعي من ورقة واحدة فإذا سمعنا الصوت لم يهرول واحد
منا بل هرولنا جميعا وأحيانا بالقبقاب لنشتري العدد . . كنا نراه في يد البائع
رأى العين أبيض من أوله إلى آخره ، ليس فيه إلا العنوان وتوقيع أمين

الرافعى بأسفل الصحيفة الأولى ، ومع ذلك كنا ندفع القرش ونشتري العدد ونظّل نقلبه بين أيدينا ونحن فرحين زائطين ، فإن حذف الأخبار دليل على أن حالة الإنجليز أصبحت مهيبة . أما إذا وجدنا فيه شيئا فنقرأه بصوت مرتفع مرتعش تحت ضوء مصباح الشارع قبل أن نصعد للبيت .

ولا أزال أذكر اليوم الذى فرض فيه الإنجليز الحماية على مصر وأعلنوا الأحكام العرفية وبدأوا يلصقون على الجدران الأوامر العسكرية التى يصدرها القائد العام البريطانى ، مكتوبة بالعربية والإنجليزية ، ولم الإنجليزية ؟ حين يكون الإنجليزى وقحا فلا حد لوقاحتة . لا أزال أذكر هذا اليوم ، لأنه كان يوم حداد عام ، شهدت بعينى فيه رجالا يكون كالنساء من شدة حسرتهم على بلدهم . أحست مصر كلها أن قلبها قد أصيب بطعنة خنجر ، وهبط عليها الغم وعاشت فى وجوم ، ارتفع عنها فجأة حين سمعنا أن الرئيس ويلسون أعلن للهدنة برنامجا من ١٤ نقطة ، من بينها مبدأ الاعتراف للشعوب بحق تقرير المصير ، فرحنا فرحا عظيما ، ورفعنا ويلسون إلى مصاف الأنبياء ثم لم تدم فرحتنا طويلا فما هى إلا أيام قلائل حتى فوجئنا بأن أمريكا اعترفت بالحماية ، فكانت نكسة فظيعة ، ويلسون يلحس كلامه ، السياسة نصب وتهويش ، وعاد للأذهان ذكرى اعتماد مصطفى كامل زمنا على فرنسا فخذلته فرنسا ، ومن قبل على تركيا فخذلته تركيا ، ولكن اعتراف أمريكا لم يكن نكبة ، بل كان نعمة وبركة ففي ذلك اليوم آمنت مصر واقتنعت أن لا سبيل للاستقلال إلا بمجهودها هى أولا ، وبالثورة على الإنجليز مهما كان الثمن .

ووفد على أرضنا الطيبة لأول مرة أشتات مختلفة من جنود بيض وسود

وحمروصفى ، عند إنجلترا منجم من اللحم البشرى تسوقه كالغنم لتسد به أفواه مدافع الأعداء . عطفت قلوبنا على الهنود ، اسمع قول الناس عنهم « دول مسلمين زينا » وعطفت كذلك على الأيرلنديين لأننا رأيناهم يسبون الإنجليز علنا ، التقت على أرضنا بذور ثلاث ثورات على إنجلترا : الهند وأيرلندا ومصر ، وحين خرج الزعماء لقيادة الثورة حسبنا أن الصلة ستوثق بينهم . وبذلت محاولات لم تنجح كثيرا لإيجاد صلة بين الثورة العربية والثورة الهندية ، وبقيت علاقة الثورة المصرية بالثورة الأيرلندية علاقة تعاطف من بعيد لبعيد ، كان تفكير زعمائها فى ذلك الوقت محليا لا يتعدى حدود بلادهم ، وحتى لو أرادوا لم تكن لديهم الخبرة ولا الوسائل ، ومع ذلك فإننى أفخر ببلادى لأن على أرضها تلاقت بذور ثورات وطنية ثلاث .

أما الجنس الذى أخافنا وكرهناه أشد الكره فهو الجنس الأسترالى . جنود كالوحوش . يخطفون من الباعة تجارتهم الضئيلة ، باعة الفول السودانى بنوا سياجا من السلك حول أقفاصهم ، فيه فتحة صغيرة لا تتسع إلا لمرور يد بصعوبة . . ولا أزال أذكر إلى الآن يوم ضحكت حين رأيت جنديا أستراليا يخطف من فوق عربة ملء يده من التين الشوكى ، وسكر جماعة من هؤلاء الجنود ذات ليلة وذهبوا إلى ماخور فى شارع وش البركة ، وبعد أن عبثوا فيه ما شاء لهم العبث لم يكتفوا بتحطيم أثاثه بل ألغوا جميع نسائه من النوافذ فتهشمن ومتن أشنع ميتة . . لا أزال أذكر هذه الواقعة لأنها كانت حديث القاهرة كلها ، وأذكر أننى ذهبت مع أخوت الكبار لهذا الشارع لنرى موقع البيت . وكتمنا الخبر عن أمى وأبى لئلا يثور فى قلبهما الشك بأن أقدامنا قد عرفت سبيلها إلى أقدر طريق .

* * *

بسبب أربع معارك وليس غير هي با - دي - كاليه ، فردان ،
تانبريج، الدردنيل ، ارتفع عدد ضحايا الحرب إلى عشرات الملايين من
زهرة الشباب، كانت أول حرب عالمية ، وأول حرب تسفك فيها الدماء بهذه
الغزارة ، ولدت فيها الطائفة والدبابة والغواصة والغازات السامة ، وظن
الناس من فرط بشاعتها أنها ستكون آخر حرب ، وأنهم سينعمون بسلام
لا يزول ، وإلا فيم كان سفك هذه الدماء كلها ولكن الحرب العالمية الثانية
ولدت يوم توقيع هدنة الحرب العالمية الأولى في عربة سكة حديد في غابة
كومبيين بفرنسا في ١١ نوفمبر سنة ١٩١٨ كانت نهاية الحرب بداية حرب
جديدة .

واليوم تعود إلى ذهني ذكرى هذه الحرب الضروس القاسية التي خلفت
مدنا من المقابر وملايين من الأرمال والأيتام والعميان والمشوهين فإذا بي
لشدة دهشتي وارتعابي لا أتمثلها على ضوء مخاوف اليوم إلا فقاعة كبيرة من
الهواء كان لانفجارها دوى كبير ولكنه فشوش في فشوش ، ومع ذلك
فشفتاي تهمسان لي : فيم كان سفك هذه الدماء كلها ؟ .

(المساء ١٣١/١١/١٩٦١ ، ص ٨)

هذا الجيل . .

ما أعجب قدر الجيل الذى ولد حول مطلع هذا القرن . إنه ينحدر هذه الأيام ويوشك أن يندثر . ما أحق وداعه أن يكون بالتأمل والدراسة والتأريخ . إنه الجيل الذى ينفرد بأن رحلته لم تبت . هو الذى حضر البذرة وشهد براعم الثمرة ، وكأنه عانى فى روحه وبدنه وأعصابه جميع التقلصات التى كان لابد من تحمل عذابها من أجل التحرر من القيود والسعى للوصول إلى بدء مرحلة الانطلاق . لعل كلامه كان أكثر من فعله ، وآماله أكبر من طاقته ، ولكنه آمن وثابر وشق طريقه ، يعى ما يفعله أحيانا ، ولا يعيه أحيانا ، وكأنما تسوقه قوى خفية . .

* * *

نشأت فى جو مطلبه الأول هو البحث عن النفس . هذه هى القضية الأساسية التى صرف إليها هذا الجيل كل جهده وسعيه لأنه كان يدرك تمام الإدراك أن من حقه أن يعتز بنفسه ، باقيا مع ذلك بريئا من الغرور ومن السقوط فى مركب الشعور بالنقص كما كان يراد له .

أن يعتز بتاريخ بلده وحضارته ، بموقعه الجغرافي ، بوحدة شعبه ، بحبه للسلم والعدالة وكرهيته للعدوان . يدرك تمام الإدراك خبث والمحاولات الجبارة المبدولة لقتل هذه النفس أو طمسها أو تمويهها وبث الشك فيها والزراية بها والتهوين من فضائلها والمبالغة في تصوير نقائصها . وكان يعلم في قرارة ضميره أنه قبل الاهتداء إلى النفس لا يستطيع أن ينقلت من أسر التخلف في جميع وجوهه : جهل وفقر ومرض ، لينى له كيانا يساير ركب الزمن ويدخل عصر العلم والصناعة والعدالة الاجتماعية .

فالقضية الملحة الثانية التى ولدت تحت جناحها هى كيف نوفق بين القديم والحديث . ما هو الأصل فى هذا القديم الذى نستطيع التخلى عنه إذا أردنا الاحتفاظ بملاحنا وما هو العارض الثانوى الذى نستطيع أن نخلعه عنا ، ثم ما هو النافع فى الحديث الذى ينبغى اقتباسه وما هو العارض الثانوى الذى ينبغى الإعراض عنه رغم بريقه وفتنته .

البحث عن النفس والتوفيق بين القديم والحديث هما فى الحقيقة قضية واحدة ، وإن بدت لها صور مختلفة فى ميادين عديدة يظن لأول وهلة أنها متباعدة منفصلة . واختلفت الحلول المقترحة باختلاف الطبائع ، وأصدق وصف لهذا الخلاف بأنه تردد بين قبول للمصالحة وبين رفضها ، ولكن هدف الجميع كان واحدا .

من أجل البحث عن النفس رفض هذا الجيل كل الرفض محاولات إنجلترا وحلفائها فى تثبيت الاعتقاد بأن الاحتلال ضرورة لا بد منها ، وأنه أبدى ، وأن مصر أضعف من أن تقاومه بالقوة ، فلا بد من التسليم بالأمر

الواقع . كان وصف بلدنا بأنه واد منبسط سبة لنا تحمر لها وجوهنا في المدرسة الابتدائية .

ووقعت حادثة دنشواى سنة ١٩٠٦ فتشكل وجدان أبناء الجيل فى ظل طعتها ، لم يعرف لرحها التثاما طيلة حياته وانغرزت فى قلبه كراهية الإنجليز وتصميم على الجهاد من أجل إجلائهم عن أرض الوطن . وكان توالى الحوادث رسم عن عمد لتكون بمثابة التجارب التى يسرع معها نضوج الوعى القومى ، ففى أول الأمر تعلقت الآمال بحاكم شاب أعلن نفوره من العدو المحتل ، ولكن سرعان ما تكشف للأمة أن الاعتماد على الحاكم سراب خادع ، فها هوذا عباس يعقد الصلح مع غورست المعتمد البريطانى ، ويعرض عن مصطفى كامل . حينئذ أعلن اللواء أن لا جهاد إلا جهاد الأمة وحدها وأن البناء ينبغى أن يبدأ من القاعدة الشعبية . وفتح الحزب الوطنى مدارس لأبناء الشعب ، وكان مصطفى كامل يذهب ليلقى بنفسه دروسه بها ، بل كان إنشاء الجمعية الخيرية فى القاهرة والعروة الوثقى فى الإسكندرية جهادا سياسيا فى واقع الأمر ، القصد منه تثبيت ثقة الشعب بنفسه وقدرته على الاتحاد والتنظيم والعمل النافع من أجل العدالة الإجتماعية ولو فى أبسط مظاهرها . كذلك كان جهاد عمر لطفى لإنشاء النقابات .

وصحب هذا كله حركة المطالبة بالدستور لتتولى الأمة مقاليدها بنفسها وكان واضحا أن المطالبة بالدستور ليست قضية سياسية فحسب أساسها البحث عن النفس ، بل إنها متصلة أشد الاتصال بالقضية الأخرى ، قضية التوفيق بين القديم والحديث ، إذ كان السؤال هو : أى شكل ينبغى

للدولة المسلمة الحديثة أن تتخذة ؟ وهل النظام البرلماني مما يقره الدين الإسلامي أم مما لا يقره ؟ وكنا ندور وندور ونعود للقضية الثانية .

* * *

والتاريخ الحديث لجميع الأمم الإسلامية يمكن تلخيصه في مشكلة واحدة هي من جانب : حاكم يؤمن أنه صورة أخرى لخلفاء رسول الله ﷺ ، وإن لم يكن له لقب الخليفة ، وأن في تمسكه بهذا الاعتقاد إحياء لمجد الإسلام وإعمالاً لشريعته . ونظام الخلافة ، وإن أوصى بالمشاورة ، يقوم على انفراد الخليفة بالحكم .

ولو اقتصر على ذلك لكان الأمر ، ولكنه يؤمن أيضا — رغم أنه وصل عن طريق الوراثة وتمثلت فيه الفروع المنحلة السقيمة للجدور القوية التي أسست حكم الأسرة في الماضي — أنه خير من يقود أمته ، لا أحد يغار عليها مثله . . إذ أنه وقد جرى لسانه بقوله : « بلدي ، شعبي ، جيشي » حسب في وهمه أن النسبة معناها التملك الفعلي . ومالك الشيء أشد الناس غيرة عليه .

ولأنه — ثانيا — ولد في حوض دسائس القصر فهو أبرع فرد في أمته تدربا على السياسة منذ نعومة أظفاره ، رضعها مع اللبن . إنه سيد من يتقن التكتل والتدبر والتوقيت ، ويبدى ابتسامة لا تنم عن النية ويحار الناس في تفسيرها ، وأنه — ثالثا — أعلم أبناء أمته بزعماء أمته . . يبدوون للناس وجها جميلا وكلاما بنم عن الإخلاص وحب الوطن والتجرد عن الهوى ، ويبدون له في خلوتهم به وجها دميما : أنانية ومصصلحة ذاتية وطعن كل واحد في الآخر وتعلق ذليل . . نجاج بين يديه ، أسود أمام الشعب .

وهذه العقائد تمهد له الانحدار إلى فقدان القدرة على التفريق بين الخزانة الخاصة والعامة . نهبه للأموال العامة وأموال الأوقاف الخيرية ليس سرقة بل هو عمل مشروع من أجل مصلحة الوطن .

كان عباس عندنا يغتنى بالحرام وبيع الرتب ويقول : من أجل مصاريفى فى محاربة الإنجليز . إن يدى طاهرة .

مثل هذا الحاكم يرى كل محاولة للانتفاص من سلطته أو لمحاسبتة هى طعن فى الإسلام ، طعن فى وطنيته ، طعن فى طهارة يده ، فهو يكره زعماء الشعب وممثليه كرها يحاول عبثا إخفاءه . يدبر لهم المقابل نكاية بهم . إخفاقهم يسره ، نجاحهم يغمه . ومن جانب شعب أصبح يؤمن أن نظام الدولة الحديثة هو حكم الشعب بالشعب للشعب ، تقرر بدستور يحترمه الجميع .

تاريخ كل الأمم الإسلامية فى العصر الحديث هو سلسلة من المصادمات بين الجانبين ، وقد استفاد المستعمر من هذا الوضع . وأصبح فى هذه الأمم جميعا قوة ثالثة يرجح مؤقتا كفة المغلوب لئلا يطغى الغالب ويتصدى له بقوته .

* * *

الجيل الذى أتحدث عنه هو الذى تناول هاتين القضيتين فى عز اتقادها فعمل أول الأمر بغير أن يحدث صدعا لا يجبر على أن يصل بهما إلى حلولهما المأمولة ، فأسفر وجه مصر ، وواءم باعتدال بين القديم والحديث ، هو الذى أخذ حموة الموسيقى كما يقولون . .

وجاءت ثورة ١٩١٩ وكان هذا الجيل قد بلغ مرحلة الشباب فثار وهو أعزل في وجه دولة منتصرة مدججة بالسلاح . وحدث الالتحام المرتقب بين مختلف طبقات الشعب وطوائفه . إن وجداني تشكل أيضا في جنازة ابن القباقيبى الذى صرعه رصاص الإنجليز فى حى الركبية ، وسار الشعب وراء نعشه . .

ولكنه لم يعرف كيف يصون هذه الثورة ، لعل الإعياء كان قد لحقه . وظلت الأمة تتطلع إلى فجر جديد ، فبزغت شمس سنة ١٩٥٢ ، وواجه الجيل الجديد قضايا من نوع آخر . .

(«المساء» . ٣١/١/١٩٦٦ ، ص ٦)

هذا العام . .

ما أجمل تصادف جمع هذا العام بين التذكير بمرور ألف سنة على مدينة القاهرة المعزية ، وبين التذكير بمرور خمسين سنة على ثورة سنة ١٩١٩ ، كأنه رمز — ما أبدعه — لطبيعة بلدنا ، القدرة على الدوام والاستقرار معانقة للقدرة على التجديد والنمو ، اسمحوا لي أن أفتخر بأننى من مصر ، أن أقول بأننى سعيد لأننى من أبنائها وما أحوجنا أن نشيع بيننا هذا الشعور ، إننا لانقدر النعم التى فى أيدينا حق قدرها ، فلا يعرف الناس أمة كأمتنا حافظت على الصميم من شخصيتها وعلى اتصال تاريخها عبر القرون ، تقوم من حولها جماعات وتفننى وهى باقية . بل إن الألف سنة ، ما هى إلا امتداد لألوف أخرى من السنين . إن هذه العيون الفرعونية التى تتطلع فى تماثيل تجللها السكينة والجلال معانحو الأفق البعيد ، تعبيرا عن إحساسها بالموقع والكون ، باليوم والدهر ، انسجام قوانين الإنسان وقوانين الطبيعة ، الاعتراف بعظمة الخالق وطاقة الإنسان ، الجمع العجيب بين المادة والروح . إنما هى عيون مصرى لم تنطفىء قط .

وقد تبدو سنة ١٩١٩ كأنها مكنسة أزاحت في خبطة واحدة كل ما على المسرح من ديكور رث بال . لم يعد يشغل الناس أمر الخديو عباس مع أنه كان خلال سنى الحرب يمثل المعادل للسخط على الحماية ، ولأمر الحزب الوطنى على جلال قدره وطويل جهاده ، ألحان مصطفى كامل طواها سجل التراث ، ولا أمر حزب الأمة وفلسفة لطفى السيد ، لم يعد يشغل الناس الإجابة على أسئلة كانت تلح عليهم من قبل : ما هى صلتنا بالخلافة ؟ ماذا نفعل بأسرة محمد على ، هل هو شرعى جلوس فؤاد على العرش ؟ الشغل الشاغل الوحيد هو طلب الاستقلال ، طلب جلاء إنجلترا عن أراضينا ، هذا هو المظهر الخارجى لثورة سنة ١٩١٩ ، أما قبلها فهو طلب الاعتراف بالشعب ووجوب احتلاله للمسرح ، الاعتراف بوجوده أولا ، بأصالته ، بحقوقه ، الاعتراف أخيرا بأنه صاحب البلد ولا صاحب له سواه .

ثورة سنة ١٩١٩ هى ثورة شعب ، الفلاحون وقودها ، لولاهم لما اشتعلت هذا الاشتعال ، وحين كان يهتف هؤلاء الفلاحون بالحرية والاستقلال فإنما كانوا يهتفون : نحن هنا ، طال نسيانكم لنا ، نسيان أشبه شىء بالاحتقار ، لنضع جميعا أيدينا معا ليكون مرد الحكم إلى الشعب ، لا لشهوة الحكم ، بل لإقامة العدل ، لتحقيق التكافل الإجتماعى ، ولأنها ثورة شعب فقد كان لزاما أن يتحد فى عنصر واحد ، ينتمى إلى الوطن ويتجمع فيه دين محمد ودين عيسى ، زالت الفرقة واختفى الشقاق . أصبح نشازا مضحكا وحماقة كبرى وكذبا سخيفا وصف هذا الشعب بكلمة « غوغاء » أو « رعاع » . . . احتل أخيرا مكانه فى الميزان .

عن هذا الشعب وإلى هذا الشعب كتبت المدرسة الحديثة ، وغنى سيد درويش ، ونظم بيرم ، ونحت مختار ، وجدوا جميعا الأرض الصلبة التى يقفون عليها ، المجتمع الذى يستقون منه ، النعم الذى يترنمون به ، الوحي الذى يسترشدون به ، كلهم من دعاة التجديد المعبر فى الوقت ذاته عن الأصالة .

لم يفهم الساسة الذين فاجأتهم ثورة ١٩١٩ وركبوا موجتها من هذه الثورة إلا وجهها الخارجى ، اشتغلوا بالبحث عن الحل المتاح ولو كان الثمن قبولهم للتنازلات ، لأن السياسة أخذ وعطاء ، ولعلمهم أخفوا عن الأمة حقيقة موقفهم ، وانتهى أمرهم سريعا بقبول التفاوض مع إنجلترا ، وقال سعد زغلول مع الأسف : كيف تطلبون منى ترتيب الأثاث والبيت يحترق ، ظن أن تحقيق العدل الاجتماعى عمل حكومى ، يأتى من فوق فهو بالتالى رهن بتشكيل حكومة وطنية بعد الجلاء . ولكن متى ؟ الله اعلم .

لا أقول إن هؤلاء الساسة قد خانوا وطنهم أو خانوا الثورة بل أقول إنها فاجأتهم ولم يفهموها . كان المنتظر منهم أن يتنهزوا فرصة يقظة الشعب واشتعال الشعور الوطنى فيبدأوا تنظيم تجمع الشعب فى مؤسسات شعبية لاعلاقة لها بالحكومة ، كإعادة الجامعة الأهلية ، وفتح مدارس شعبية تهدم أسلوب « دنلوب » وتعلم أبناء الشعب حقيقة تاريخهم وأصالتهم وتبصرهم بحقوقهم ، بإنشاء نقابات شعبية للعمال والفلاحين .

لم يحدث شئ من هذا مع الأسف ، والعجيب أن المؤسسة الشعبية الوحيدة التى تمخضت عنها الثورة ورأى فيها الشعب قرب تحقيق أمله فى

اللاحق بعصر الصناعة والاقتصاد الحديث هي من عمل رجل كان يعد من أقطاب الرجعية في مصر : طلعت حرب مؤسس بنك مصر وشركاته .

وسرعان ما انقسم الساسة بعضهم على بعض ، و تراشقوا بالتهم كأنهم أطفال يتعاركون على لعبة هي فوق البيعة مكسورة . . حيثذ تراجع الشعب إلى صدفته المحارية ، وظل سنين يقف موقف المتفرج .

هذه هي خصلة هذا الشعب ، لايعبر عن معارضته بالعنف أو الهجوم ، بل الوقوف موقف المتفرج . . الضد من المقاومة السلبية هو هذا القبول السلبي ، وأخيرا جاءه الفرج وأشرق عليه عصر الاشتراكية المصرية ، وكل الشهود المنصفين لا يكتمون الآن إحساسهم بأن مصر تدخل مرحلة تطور خطير ، وأن إنجازاتها في المستقبل قد تفوق كل توقع - حتى من الأصدقاء !

((المساء ، ٣/٣/١٩٦٩ ، ص ٦)

دوران حول ثورة ١٩١٩

حين نتحدث عن ثورة ١٩١٩ تتبادر للذهن أولا صورة معركة بين جيش بريطاني مدجج بالسلاح وشعب أعزل لم يرهب الرصاص والمشائق وعذاب السجون وانقطاع الرزق . صورة قتلى وجرحى ، ودم مراق ، وقضبان مخلوعة ، وترام محروق ، ومصاييح مكسورة ، ومدارس معطلة ، ومكاتب خاوية ، وصحف مكممة ، وأحكام عرفية . صورة ساحة يتناثر فيها الحطام ويولول فوقها الموت والدمار .

هذا هو ما يعلق به التصور أولا وتدور حوله الأحاديث . العمل بالعنف المشروع لدحر عنف اعتداء إجرامى ، لا وسيلة غيره للتصدي لجبروت إنجلترا وإرغامها على الجلاء من أجل أن تتحقق لمصر حريتها واستقلالها ، ولكى يستعيد الشعب كرامته من تحت أقدام الغاصب .

ولكن هذا العنف هو المظهر الخارجى ، فثورة سنة ١٩١٩ – قبل هذا كله وأهم من هذا كله – هى فى المحل الأول قلب صفحة جديدة كل الجدة

فى حياة مصر ، لا علاقة بينها وبين الصفحة السابقة،مناخ مبتكر مختلف كل الاختلاف عن المناخ المألوف ، إنها مولد جديد للأمة ، هى أشبه شىء بالميتامورفوز .

عوامل هامة فعالة كانت تسيطر من قبل ، يخال أنها أبدية ، فإذا هى تتلاشى كأن لم تكن أو تتضاءل إلى حد فقدانها القدرة على التأثير ، تحل محلها عوامل أخرى لم تكن فى الحسبان . حق لها أن تكون مذهلة ، لاتدرى أهى طارئة أم انبعاث فى صورة جديدة لتقديم مقبور ظن به أنه مات بلا رجعة .

وقبل أن أضرب الأمثلة أحب أن أقف قليلا عند مشروع برونيات الذى تمثل فيه وجدان الأمة خطرا يفوق خطر الاحتلال والحماية والتبعية ، لأنى مندهش كيف ينكشف لنا الآن أن الاستعمار الأوروبى كان قد بدأ منذ سنة ١٩١٩ يتدبر ابتداء نظام يصلح للتطبيق فى إفريقيا إذا حل يوم يقظتها ولوفى المستقبل البعيد . ولم يغفل الاستعمار عن تأثير هذه الحرب العالمية الأولى على بنيانه ، ولعله توقع أن تتلوها هزة أشد ، كأنما شم رائحة الحرب العالمية الثانية .

هذا مثل بارع فذ للدراسة واستباق الحوادث والتخطيط للمدى البعيد ، وأنت تعلم أن صلب مشروع برونيات هو إشراك الجالية الأجنبية البيضاء المستوطنة فى بلادنا فى حكم مصر ، فإذا أرادت أن يكون لها مجلس نيابى فلا بد لها من الاعتراف بحق هؤلاء الأجانب فى اقتسام مقاعد هذا المجلس معها ، باعتبار أنهم يمثلون مصالح حقيقية فى البلد ، إن لم يقولوا إنهم وحدهم أصحاب المصلحة ، وإنهم هم الذين صنعوها من العدم ، الرأسمال المستثمر هو ما لهم .

وهكذا يهدد المشروع فكرة القومية ، والحدود الوطنية ، وحق تصرف الشعب في أموره وتقرير مصيره لرسم سياسته . تفقد الجنسية المصرية صفة الخصوص ، ويكتسب الأجانب جنسية مزدوجة . وتسلسل هذا المنطق يقضى بأن يكون هناك وزراء من بين الأجانب أعضاء المجلس النيابي .

مشروع يفضى في النهاية إلى تدويل مصر ، وإخراجها من المعترك الدولي ، لا بالحياد بل بالانعزال . تتقاسم فيه دول الاستعمار نهب ثروات البلد لتفرض ما بينها من نزاع حول تقسيم المستعمرات أيضا فيما بينهم ، لعلها تعيش في سلام بغير حروب .

وبعد مشروع بورنيات بثلاثين عاما تقريرا وجدنا مستر بيفان في محادثاته مع صدقي يتكلم عن قيام علاقة بين إنجلترا ومصر على أراضى مصر تشبه علاقة ما بين الشركاء أصحاب الحقوق المتماثلة . هذا تفكير يسير على عین الطريق الذى بدأه بورنيات وهذا هو هدف سياسة الدول الاستعمارية في إفريقيا ، مثل رودس وجنوب أفريقيا ، كما نراها اليوم .

نعود الآن إلى ثورة ١٩١٩ وكيف كانت قبل كل شيء صفحة جديدة في حياة الأمة لاعلاقة لها بالصفحة السابقة . خذ مثلا ماذا فعلت الثورة بأسرة محمد على ، بشخص الجالس على العرش ، السلطان فؤاد .

كانت أسرة محمد على — ككل الحكام الشرقيين — ترى من العار عليها أن لا تكون صاحبة الكلمة الوحيدة في حكم البلد أو على الأقل صاحبة الكلمة الأكبر في الأوقات التى يتزع فيها الشعب لنفسه نصيبا من السلطة ، الإرهاب والبطش والانتهاى إلى دولة الخلافة — هذه هى جُغَوط

أسرة محمد على على الشعب ليقبل حكمها صاغرا ، وهي من جانبها كأنما أخذها شيء من التحشم في مواجهة هذا الشعب العريق الجامع بين التجديد والثبات فأبدت له - على خلاف أسر حاكمة شرقية عديدة - ما يرضاه من واجهة تدل على التماسك والبعد عن التمزق والاضغاث داخل أحشائها حول وراثة العرش ، حتى قبل تعديل إسماعيل لنظامها من العضو الأكبر إلى الابن البكر ، إن كان إبراهيم قد خلع محمد على ومات ، ومات عباس الأول قتلا فوثب سعيد مكانه ، وغرق أحمد فتولى إسماعيل ، فهذه حوادث لم تتكشف أسرارها للشعب ، أو قل إنه لم يبال بها أقل مبالاة ، لم يحدث إلا أواخر حكم إسماعيل أن بدأ يعقوب صنوع يخادع رواد مسرحه ليجذبهم إليه باللعب على كلمة « حلیم » إشارته إلى منافس لإسماعيل في حكم مصر ، ضحك الشعب لهذه التورية ولكنه لم يأخذها مأخذ الجد .

القضايا السياسية تعود في ثنائية : الشعب وأسرة محمد على ، أصبحت ثلاثية بعد الاحتلال ، فقدت أسرة محمد على احتكارها للكلمة الأولى ، أو للكلمة الأكبر ولكنها ظلت مع ذلك قوة يحاول كل من الطرفين - الإنجليز والشعب - استغلالها في مواجهة الطرف الآخر ، وتحاول أسرة محمد على اللعب بهذه الورقة لتبقى طافية على السطح ، أما مظهر صاحب السلطة ، عباس الثاني مع مصطفى كامل ضد الإنجليز ، مع الإنجليز - بعد الوفاق - ضد الحركة الوطنية ، ورغم هذا الموقف الثلاثي ، وزهو الإنجليز أنهم الغوا السخرة والكرباج والجور في توزيع المياه ، وأن الفلاح المصري وأصحاب الأتبان لم ينسوا قط غوائل أسرة محمد على - وبالأخص

إسماعيل - عليهم ، ليس فيهم واحد يطمش إلى أن أرضه لن تستولى عليها الخاصة الخديوية ، هذا هو المناخ الذى نبت فيه حزب الأمة .

لم ينتبه المصريون بشدة إلى العرش ووراثته العرش إلا وقت أن خلع عباس الثانى ، ونصبت إنجلترا عمه السلطان حسين مكانه ، ولأن السلطان حسين أصبح رمزا للحماية والاعتصاب فقد أضفى الشعب هالة على عباس الثانى لا يستحقها ، وكان من بين المصريين من يتمم أثناء الحرب العالمية الأولى ، « الله حى ، عباس جاى » بل زعم أناس أن الأغنية الشعبية « قولوا لعين الشمس ما تحماشى » قيلت لوداع عباس فى حين أنها قيلت لوداع إبراهيم الوردانى يوم شنقه ، ولعلها أغنية شعبية قديمة تتكرر عند كل استشهاد ، وزادت كراهية الشعب الغاضب للعرش أضعافا مضاعفة ، حين رأى البرنس فؤاد الذى تحوط حياته الخاصة شبها لا يبددها انبراؤه للخدمة العامة - كإنشاء الجامعة الأهلية . . هو صاحب فضيحة كلوب محمد على ، المفلس الذى يقترض من سائقى عربات الحنطور . هكذا تقول الإشاعات. رآه الشعب يخرج فى عربة مكشوفة إلى مبنى المعتمد البريطانى من قصر البستان ، ويمر بين صفين من الجنود الإنجليز إلى أن يبلغ قصر عابدين .

كل هذه العواطف والاهتمامات التى يثيرها العرش ، سواء بالتلف على الراحل عباس ، أو بالازدراء للجالس فؤاد قد تبخرت فجأة مع الثورة ، كأنها لم تكن ، عادت الثلاثية إلى ثنائية صرفا ، الإنجليز والشعب ، وحدهما هذه المرة ، وجها لوجه .

(المساء ، ، ٣١/٣/١٩٦٩ ، ص ٦ ، ٥)

المناخ الجديد لثورة ١٩

فتحت ثورة سنة ١٩١٩ في حياة مصر صفحة جديدة لا علاقة لها بالصفحة السابقة . إبدال مناخ بمناخ مخالف كل الاختلاف ، هذا هو معنى الثورة أما العنف فمظهرها الخارجى . فبعد أن كان المعتبرك السياسى ثلاثيا [العرش - الشعب - الإنجليز] أصبح ثنائيا (الشعب والإنجليز - وجهها لوجه) . إننى لا أقوم هنا بدور المؤرخ وإنما بدور الشاهد على وجدان الشعب . دعنى إذن أشهد لك أننا فهمنا جميعا عند اندلاع الثورة أن حكم أسرة محمد على قد انتهى لأن الثورة أهملت السلطان فؤاد إهمالا تاما . لم تنتظر منه أقل مساعدة ، بل كانت تتوقع منه أن يكون من العوامل المعوقة أو المشبطة ، إن لم يقف من هذه الثورة موقف العداء السافر . لم تتوجه إليه المظاهرات ، ولم ترفع إليه العرائض بدعوة للانضمام إلى الكفاح الشعبى .

شعرنا أن الحكم الصادر أيام عرابى بخلع أسرة محمد على لم يمزق ، بل تأجل تنفيذه . فكرة التأجيل هى الكافية أيضا فى تقديرات الثورة وتريد

أولا أن تصفى الحساب مع الإنجليز قبل أن تلتفت إلى حكاية العرش ،
سيأتي يومها ولا ريب لا تريد الثورة أن تحارب في جبهتين في وقت واحد :
الإنجليز والقصر . إنها تخشى أن يضر بقضيتها تصوير إنجلترا لهذه الثورة
(كما فعلت سنة ١٨٨٢) بأنها نزاع داخلي بين الشعب والقصر وليست
ثورة ضد الاحتلال ، ضد إنجلترا من أجل الحرية والاستقلال .

وإذا كان الشعب لم يصدر إليه توجيه واضح فإنه فهم الموقف
بغريزته . مزقت المظاهرات صحيفة « المقطم » ربيعة إنجلترا ، ولكنها لم
تهتف بسقوط فؤاد رغم كراهية الشعب له ، رغم تلفقه لأزجال بيرم
التونسي الناطقة بأفحش سب لفؤاد . كذلك لم يبال الشعب كثيرا
بتحركات البرنس عمر طوسون ، ولم يسأل هل هو مخلص أم راغب في
اعتلاء العرش أم غاية قصده إغاية السلطان فؤاد وتنكيد عيشه . لم تبال
أيضا بتحركات البرنس عزيز حسن لأنه شخصية هزيلة ، وحين أعلن
الأمراء وعلى رأسهم البرنس يوسف كمال تأييدهم للحركة الوطنية فهم
الشعب أنهم فعلوا ذلك اضطرارا لأنهم أدركوا من أين ستهب الرياح .

إنهم يريدون إذا جاء يوم الفصل أن تكون صفحتهم خالية من الوزر . لم
تندد أسرة محمد علي بالسلطان فؤاد لأنه تسبب في تهديد نفوذها كما نددت
بفاروق واعتبرته المسئول الأول عن كل ما جرى لها .

تأجيل أيضا للإجابة على سؤال لا بد من ترتيبه : من يحل محل فؤاد ؟
طرح الشعب تماما فكرة إبدال أمير بدل أمير من أسرة محمد علي حتى عباس
الثاني الذي كان يمثل للشعب شرعية الحكم التي اعتدت عليها إنجلترا فقد
كل تأثير له . لم يعد يذكره أحد . إذن ماذا ؟ جمهورية ؟ دعني أشعر أن

الشعب كان يتوجس حينئذ من هذا النظام لأنه يراه مدعاة للتنازع وعدم الاستقرار . الشعب كان حينئذ يريد لنظام الحكم ثباتا واستمرارا . إنه يبغى الأمل في حاكم من أبناء مصر ينعت بأنه مستبد عادل دون أن يسأل كيف يجتمع النقيضان العدل والاستبداد ، وبين الاعتراف بفضل لطفي السيد والأحرار الدستوريين في تقليل توجس الشعب من نظام الحكم النيابي .

ماذا فعل السلطان فؤاد حين أهمله الشعب تمام الإهمال . إنه رجل شديد الذكاء ، ورغم فقره ، شديد الاعتزاز بنفسه وبثقافته الأوروبية التي نالها أثناء إقامته في إيطاليا مع أبيه إسماعيل بعد نفيه . إنني أتصوره يوم كان ياورا للخديوي عباس الثاني واقفا زنهرا إلى جانب العرش ، يقول في سره : إنني أقدر على الحكم وأولى به من هذا الألعبان .

هداه ذكاؤه إلى أن أفضل سياسة يتبعها هو أن يتوقع ، أن يدخل جحره ، أن يلبد في قصر عابدين يتخفى به ، وماذا يضيره ؟ إنه يعيش طول الوقت في نعيم من حوله حاشية تنحني وتركع أمامه . يعلم أكيدا أنه لن يغيب اليوم الذي سيلجأ إليه الطرفان ، أو على الأقل أحد الطرفين :

الصبر . وحين يمد إليه الشعب يده سيعرف كيف يصفحها أولا باحتقار ثم يقبض عليها بقوة ثم يلويها بشدة . أما يد الإنجليز فيقابلها دائما بالحذر والخشوع لأنها أقوى من يد الشعب ، بل لأن الخواجات مقامات وأولاد الفلاحين مقامات .

كان فؤاد دائما ذليلا أمام الإنجليز فرعوننا إذا عامل الشعب . إذا جاءه المعتمد البريطاني بطلب لا يرضيه فقد يصرخ ويثور ولكنه ينتهى دائما بالإذعان .

وحينما لجأ سعد زغلول إلى السلطان فؤاد شاكيا بحزن شديد وغم كبير وخيبة أمل فظيعة ، وحين قرأنا قوله فى بدء تلغرافه أو عريضته (يا عظمة السلطان) أدركنا أن هذا هو أول مسمار يدق فى نعش الثورة .

فمنذ ذلك اليوم النحس تزايدت قدرة السلطان فؤاد ونفوذه . سيلعب بالدستور فيعطله وبالبرلمان فيحله وينشئ حزباً يتمى إليه ثم يقول لجورج لويد : « لا أسمع لوزير أن يستقيل ، بل أنا الذى أقيله » وكما نما نفوذه نمت ثروته فإذا بهذا المفلس الذى رقى العرش يموت بعد سنوات غير طويلة وهو مليونير ، هذا إلى جانب ما أنفقته الخزانة العامة على قصوره ، على يخته البحرى « المحروسة » على يخته النهري « قاصد خير » . إنه مشى فى الطريق الذى شقه عباس الثانى ، طريق اللهفة على الثراء ولو بالتهب والسلب ، لأنها من أبناء إسماعيل الذى صودرت أملاكه ، فنفا فقيرين رغم اعتلائهما العرش على حين لم تمس ثروة باقى فروع أسرة محمد على من أمثال سيف الدين ويوسف كمال والأخوين إبراهيم ، فكان المنطق السليم يقضى بأن يكون أفندينا الذى تنحنى له جباه أسرة محمد على ولا تستطيع أن تتزوج أو تطلق أو تسافر إلا بإذنه هو أغنى فرد فيها فلا مظهر للنفوذ إلا المال .

(« المساء » ، ١٩٦٩/٤/٧ ، ص ٦)

ثورة ١٩١٩

حين فتحت ثورة سنة ١٩١٩ صفحة جديدة في حياة مصر طوت مع الصفحة السابقة أشياء فرحنا باختفائها « كالنزاع الطائفي » وأشياء عز علينا طيها وحز في قلوبنا ، ولكننا قبلنا هذا الطي بغير مناقشة بدافع من شعور بأن المناخ الجديد من شأنه أن يجب المناخ القديم بعجره وبجره ، وأن الصفحة إذا طويت فلنما تطوى بكل سطورها ولا وقت عند الثورة ولا استعداد لأن تنتقى ، إن لها نظرة جديدة مصوبة إلى الأمام لا إلى الخلف ، حجتها أن المقتضيات قد تبدلت . أريد أن أضرب المثل بما جرى لمحمد فريد ، وعبارة « ماجرى » ستجدها في كل البكائيات الشعبية ، ولن أتحدث هنا بلسان المؤرخ بل بلسان إنسان يشوقه تأمل مسلك الفرد والجماعة ، اهتمامه الأول بالجوانب الإنسانية في الأحداث التاريخية ، فإن اليوم يستهويني تأمل مسلك الثورة الوطنية مع الزعيم الوطني الذي تنازل عن الجاه والثراء وقبل الفقر وتحمل السجن والنفي من أجل وطنه ، دافع عن قضيته خير دفاع ، تمسك بالحقوق جميعها ، رفض أن تكون محل

مساومة ، لا مساس ولو ببذرة منها ، إنه يعيش في الغربه يحلم ويأمل في أن
يجيء اليوم الذى تهب فيه مصر نائرة تطالب بحقوقها - أخيرا جاء هذا
اليوم ، فإذا بأمله ينهدم ساعة أن يتجسد ، هاهى الثورة تتجاهله كل
التجاهل ، بل الأعجب من ذلك والأدهى عليه أنه مد لها يده فتركته
معلقة في الهواء ولم تأخذها . يحدث هذا في الوقت الذى قبلت فيه الثورة
بعض أعضاء الحزب الوطنى فدخلوا الوفد ، حرام على الزعيم ما كان
حللا للأنصار ، هل بعد هذا عقوق ، مرحبا بالمتراذفات هنا لأن لها إيقاع
أكف الندابات ، هل بعد هذا جحود ؟ هل بعد هذا نكران للجميل ؟

إن كان العقوق ، إذا جاء من الصديق الذى خدمته مؤلما ، فلا شك
أنه إذا جاء من الوطن الذى ضحيت من أجله أشد إيلا ما . إلى اليوم
أتصور مرارة محمد فريد في الغربه بعد الثورة ، إذا ارتجف عيانا من ركه
البرد فلا شك أنه كان يرتجف كتيمة من الشعور بالوحدة ، بوقوفه - العامة
تقول كاللوح - كالمفرج وموكب الثورة يمر أمامه ، لا أحد يلتفت إليه
ويقول له : تعال معنا ، نحن في حاجة إليك ، بل لا أحد يلقي عليه
السلام ، إذا كان انضمامه إلى ركب الثورة غير متاح فعلى الأقل يطلب منه
الرأى والنصيحة ، إن له خبرة كبيرة بالقضية ، وبالموقف الدولى ، وله
اتصالات كثيرة بالأحزاب وأقطاب السياسة في أوروبا ، حتى هذا لم
يحدث . أتصوره يسأل نفسه : ما ذنبى ؟ أين تقصيرى ؟ ماذا تأخذونه
على ؟ ألم تبق عندي ذرة من نفع ؟ هل مت وأنا حى ؟ لو كنت مكانه
لتحطمت ، ولكن قدر له أن يعيش أياما ليتجرع كأس المرارة حتى
الشمالة ، في استانبول (١٩٣٠-١٩٣٤) .

حرصت على أن أزور حجرته الصغيرة في « خان سوريا » ، كنت أريد أن أتشمم جو الوحدة والفقر الذي كان يعيش فيه ، إلى اليوم أتصور بألم مشهد وفاته في الغربة ، وحيدا ، منقطعا ، فقيرا ، مهملا ، منبوذا ، ليس بجانبه أحد من أهله ، وقبل أن أتركه أقول إنه حتى بعد وفاته لم يكن نقل جثمانه إلى مصر من عمل الشعب بل من تبرع تاجر في طنطا ، كأنما لابد للعقوق أن يمضى إلى غايته ، أن يلاحقه حيا وميتا . .

مرة أخرى أقول إننى لا أتحدث بلسان المؤرخ بل أحاول هنا تصوير وجدان صبي كان يمشى في المظاهرات سنة ١٩١٩ ، شمله المناخ الجديد .

وبغير توجيه من أحد فهم لماذا ترحب الثورة بتمزيق صحيفة « المقطم » ربيبة الإنجليز ولا ترحب بالهتاف بسقوط السلطان فؤاد ، إن كان هذا الصبي في قرارة نفسه متألما لما جرى لمحمد فريد ، متمللا من انصاف الثورة والوطن بالعقوق ، فقد فهم بغريزته أن أوراق اللعب تبدلت ، كانت في يد الحزب الوطني بالأمس تشمل : « تركيا + دولية قضية مصر + لا مفاوضة إلا بعد الجلاء + المطالبة لا بالسودان وحده بل بالملحقات أيضا ! زيلع وهرر ومصوع ولا أدري ماذا أيضا » أحسنا ونحن نمشى في المظاهرات أن هذا كله ضرب من الأحلام أو من المعوقات ، وأن ثورة سنة ١٩١٩ لها نظرية جديدة عملية ، مختلفة كل الاختلاف ، لذلك قبلنا -

ولو على مضض - ركنة محمد فريد وإن ظل في قلوبنا صوت يوسوس : لا محل في الثورة لزعيمين ، ومحمد فريد إما أن يكون زعيما وإما أن يكون لا شيء ، ولا وسط ، ولكننا لم نتصور حينئذ أن النظرة العملية التي

نسبناها للثورة قد تهبط إلى حد قبول المساومة على حقوق الوطن ، وتمام
استقلاله ، ولم نعلم إلا فيما بعد وبأسف شديد أن المساومة كانت في
حساب زعماء هذه الثورة من أول يوم لهم .

(د المساء ، ٢١ / ٤ / ١٩٦٩ ، ص ٨)

ابن القبايبي

كانت ثورة لأن الناس بدأت تألف لأول مرة كلمة الشعب ، تنطقها بكسر الشين ، لا بأس ، لم تكن ثورة مثقفين وحدهم أو فلاحين وحدهم أو عمال وحدهم ، بل ثورة الشعب كله اتحد في عجيبة واحدة ، زالت الفروق . لم تعد كلمة « فلاح » سبة ، مع أنها كانت كذلك منذ قليل ، كتاب « هز القحوف في شرح قصيدة أبي شادوف » يحتوي على أفحش سب للفلاح ، وكاتبه ابن فلاح .

لذلك كان حنقنا شديدا ونحن نسير في المظاهرات أن نجد الصحف الأوروبية ، وبالأخص الإنجليزية ، تصف هذا الشعب الثائر بأنه من الغوغاء ، إلى هنا ولا ضير ، ولكن الحق بلغ ذروته لأنها وصفته بأنها طغمة من الرعاع ، هكذا بلا حياة إلى اليوم لا أزال أذكر الوقع الأليم لهذه الكلمة في قلبي وأنا صبي ، كأن الصفعة رنت على خدي ، تمنيت أن نعرف كيف نثار لكرامتنا ونرد على هذا السب ، لا شك أن كل إنسان كان حاله كحالي ، شعور عام متقد يطلب الشفاء ، يطلب بطلا يخرج من صفوف

الشعب ، أخشى أن أقول ! يطلب جثة شهيد يخرج من صفوف الشعب ، نريد موقفا دراميا يختلط فيه الشفاء بالفداء ، فالشعور العام في اتقاده ارتد إلى وثنية البداوة ، أصبحت الكرامة كالصنم الذي لا بد أن تقدم له الضحايا ويراق على جوانبه الدم . حين يتقد الشعور العام تنطلق قوى خفية لا ضابط لمنطقها ولا شهواتها ، أحيانا لا تكون لها شهوة إلا التدمير ، ضع قطعة وكلبا وقردا في حجرة مرتبة الأثاث ، القرد وحده هو الذي سيبعثره ويحطمه في غمضة عين ، هو من أبناء عمومة أجدادنا الأوائل .

لم يكن يدور بخلدى أن اختيار هذه القوى للضحية ، للشهيد ، سيقع على صبي يقيم بالقرب من دارى ، كان فى مثل عمرى ، الفارق أننى ببدلة فوق قميص وهو بجلابية على اللحم ، أننى متعل وهو حاف رغم أن مهنة أبيه هى صنع القباقيب ، وقديما قالوا : زامر الحى لا يرقص . من صفوف الرعاع فى نظر الصحف البريطانية خرج البطل الشهيد الذى ثار لكرامتنا ورد الصفعة ، ردها أيضا عن خدى أنا .

تعال نصل من منزلنا إلى دكانه ، كنت أعرفه وأمر به كلما ذهبت للقرافة أو زيارة السيدة سكيئة والسيدة نفيسة ، عن يمينى « سبيل أم عباس » بزخارفه النحاسية البديعة وساعته الدقاقة « الزخارف الآن صدئت والساعة خرس » . على الناصية دكان المراهب الأرمنى كركور كيمكيجيان - نصف متر فى نصف متر - لا يتسع إلا لكرسى صغير أمام خزانة كبيرة ، احتفى هو وأسرته بمنزلنا ، فعاش أياما معنا : اعتديتم ولكننا لا نعتدى . . صفحات سود مطوية هى الآن لأن من طبع هذه الأمة

أن تعفو عما سلف ، لندخل بعد ذلك شارع الركبية ، ونمشي قليلا ، على اليسار دكان مظلم طويل عريض عميق ، ولكنه خلاء بعد إعصار ، نثر فيه نشارة الخشب وفتاتا من خشب غض له تعاريج ويزاز - هكذا تسمى مع أنها غائرة لا نافرة - ، وشرائط ملعبكة من الصفيح ، وقطعا مشرذمة من الجلد السختيان ، لا أدوات إلا منشار « وقدم » له طرف حاد ينحت وطرف غليظ يضرب ، والعمل يتم على منصدة صغيرة واطئة عند مدخل الدكان ، هذا هو مصنع قباقيب الحى ، وسيلة طائفة من فقراء المدينة لمقاومة الحفاء ، وبعض متيسريها لدخول الحمام ، ولكن لا تشهر بهذا القباقيب ، إذا لبسته فتاة معجبانية أصبح في قدميها كالصاجات في يديها ، إذا مشيت به كان لوقعه على الأرض نغمة كلها دلال ، إنه ايضا يكشف عن الكعب المحنى ، ربانى لا اصطناعى ، ولصاحب الدكان ولد وحيد ، هو كل أمله واعتماده إذا أعجزته الشيخوخة ، ولد تجمع نظرتة بين الخوف والفرعنة ، بين الذل وحب المعابثة ، إنه يتزع لهوه الفارغ من بين براثن وحوش مفترسة ، هى أبوه وحياة الشقاء والعناء .

وقع الاختيار على هذا الولد الوحيد ، سقط قتيلًا برصاص الإنجليز في مظاهرات مرت أمام الدكان فُسار معها ، يردد هتافاتها ، فخرجت له جنازة مشهورة في تاريخ الثورة ، بأنها « جنازة ابن القباقيبى » سار فيها الشعب كله ، من مستشارين وقضاة ومحامين ، إلى الطلبة والتلاميذ ، إلى صفوف غفيرة من أبناء الشعب ، كنا نريد بهذه الجنازة أن نقول لصحافة إنجلترا : انظروا الرعاع يشيعون بطل الرعاع . لم تشبهها جنازة أخرى طوال الثورة .

ماذا كان اسمه ؟ أين قبره ؟ لا أحد يدري . كم عدد شهداء ثورة
سنة ١٩١٩ ؟ لم يجر إلى اليوم إحصاؤهم مع الأسف ، ولا تخليد أسمائهم
في « سجل شرف » دع عنك إقامة نصب تذكاري يفى بحقهم علينا ،
تمنيت – لو أقيم – أن يكون التمثال المنصوب هو تمثال صبي بجلاية ،
يمسك في يده المرتفعة فردة قبقاب . .

(« المساء » ، ٢٨/٤/١٩٦٩ ، ص ٦)

تعليقات عن هواية لا عن احتراف

ما أشبه الدكتور محمد أنيس بدينامو عفى يرجع إليه فضل كبير في تحريك دراسات تاريخ مصر الحديث من سباتها ، ودفعها إلى الأمام على ضوء مصابيح الكشافه ، من حقه هو وبقية الأساتذة زملائه في « مركز تاريخ مصر المعاصر – بالجيزة » والجمعية المصرية للدراسات التاريخية (وكنت أود أن أذكرهم واحدا واحدا اعترافا بجميلهم علينا) أن تقابل جهودهم بالإعجاب والثناء . إن عملهم منبعث أولا من حبهم لوطنهم ، ولا شك أن باب العصر الحديث في كتاب تاريخ مصر منذ الفراعنة أو حتى ما قبل التاريخ ، هو عندنا أشد الأبواب خطرا ، لأنه يمدنا بأنجح تفسير للحاضر وأكثره تشويقا حتى للقارئ غير المهوم به ، لأنه يرى فيه نفسه ويسترجع به ذكر أبيه ، ومن منا لا يحب أن يرى صورته في المرآة ، لا يجب أن يقلب الألبوم

لا جرم أن هذه الدراسات في سعيها للاهتمام لمنهج علمي تتميز به بعد أن تحقق تمصير التاريخ المصري وكسر احتكار الأجانب له قد تعرضت

لمازق غير قليلة ، فهي حين أرادت تطوير الدراسات من النظرة التقليدية إلى النظرة العصرية مالت إلى استيراد المدرسة المادية من أوروبا، بكل ما تحويه من مفاهيم ومصطلحات مثل : اقطاع ، بورجوازية ، أرستقراطية ، . . . الخ . . وكل هذه أشياء خاصة بمجتمعات بينها وبين المجتمع المصرى فروق كبيرة ، فكان ينبغى لأساتذتنا أن يصوغوا لنا - معنا للخلط - مصطلحات مستمدة من مفاهيم واقعنا نحن ، فهل لدينا اقطاع وبورجوازية وأرستقراطية بمفهوم المدرسة المادية ؟ . . كان ينبغى الإجابة على هذا السؤال قبل أن نستورد هذه المصطلحات ونجعلها محاور لدراستنا التاريخية ، من أجل هذا قال أصحاب النظرة التقليدية عن المدرسة المصرية الحديثة ذات النظرة العصرية إنها بدعة من البدع ، لا لشيء آخر قد يدور فى خلد الدكتور أنيس .

ومن المآزق أيضا أن بعض الوثائق المكتشفة حديثا الميزة لجوانب من تاريخنا المعاصر كانت مجهولة لدينا تغرى لا بتعديل الرأى فحسب ، بل بالقفز إلى تعميم الحكم ، مع أن اللوحة لم تكتمل بين أيدينا حتى يسوغ لنا تعميم الحكم ، فظهور الوثائق الجديدة لاينفى ، بل يقطع بوجود وثائق أخرى تنتظر منا اكتشافها . وأسلم طريق أن تبدأ هذه الدراسات بمرحلة تقود لما بعدها . . أولها مرحلة تجميع الوثائق ، فلا تاريخ بلا وثائق ، وهو ما لم نفرغ منه بعد ، حتى داخل البلد لا خارجه فحسب - ياللعيب ! . . ونحن لا نزال ننتظر مولد دار الوثائق القومية ، متى ؟ . . الله أعلم ؟ ! .

وأود هنا أن أقترح توسيع مجال البحث فلا نسترشد بالمؤرخين وحدهم بل أيضا بمن نجده من أساتذة الأدب مشغولا بالبحث عن الخلفية التاريخية

للحركة الأدبية ، ففي علمى مثلاً أن الأستاذ أنور لوقا الذى هاجر إلى أوربا وخسرته الجامعة عندنا مع الأسف . . قد اهتدى إلى وثائق خلفها رجل فرنسى (غاب عن ذاكرتى اسمه) ، كان أحمد عرابى قد اتخذ بمثابه سكرتير له ، كذلك لا ينبغي للمؤرخ أن يسقط من حسابه وتقديره مؤلفات الأدباء عندنا فى سيرة بعض أعلام عصرنا الحديث باعتبار أنها من عمل هواة لا تخصص لهم فى التاريخ .

بعد استكمال المرحلة الأولى نتقل إلى المرحلة الثانية ، مرحلة الترتيب والتستيف ، بإنشاء سجلات ترصد الأحداث بتتابعها الزمنى ، وسجلات متخصصة فيكون لكل علم من أعلام مصر سجل خاص به يتضمن كل أخباره وأعماله وكذلك كل المراجع التى جاء فيها ذكره ، فإذا استكملنا هذه المرحلة الثانية انتقلنا إلى مرحلة الدراسة ، حيثئذ يصح لنا أن نصدر الحكم . وحبذا لو بقينا مع ذلك فى حذر من تعميمه .

وقبل أن آتى لك بمثل على القفز إلى تعميم الحكم ونحن لا نزال فى المرحلة الأولى أخبرك أن الصدفة وحدها شاءت أن تستنقذ لنا من الإهمال والضياع والتلف ووثائق (يبلغ وزنها ٢٥ طناً) عن تاريخنا منذ محمد على إلى آخر أيام فاروق ، كانت ملقاة كالقمامة فى ركن بقصر عابدين ، من بينها تقرير سرى وضعه الدكتور (لقب مهنته) أحمد فؤاد « عضو الحزب الوطنى » بعد أن استجاب لطلب الدكتور « فى القانون لا فى الطب » حسن نشأت رئيس الديوان الملكى بالسفر إلى أوروبا لرصد النشاط السياسى الذى كان لا يكف عنه الخديوى عباس الثانى المخلوع عن العرش ، وقد جاء فى هذا التقرير المؤرخ فى ٢٢ يوليو سنة ١٩٢٤ أخبار

عديدة عن بعض رجال الحزب الوطنى ، فلما اطلع الدكتور أنيس على هذا التقرير المرفوع من أحمد فؤاد إلى أحمد فؤاد (ما أعجب تشابه الاسم بين الملك ورسوله) قفز إلى تعميم الحكم ، وقال لنا بالحرف الواحد : (روز اليوسف ، ١٧ يناير الجارى) .

« يكاد يكون من المقطوع به استنتاجا من هذا التقرير أن الحزب الوطنى بعد ثورة سنة ١٩١٩ لعب دورا سيئا بل مخربا فى الحركة الوطنية المصرية » انتهى كلامه .

لست منحازاً للحزب الوطنى ولا أنبرى للدفاع عنه ، ولكنى لو كنت مكان الدكتور أنيس لما أبديت هذا الحكم للقارىء إلا وسط دراسة شاملة عن حقيقة العلاقة بين الحزب الوطنى والوفد المصرى. إن كان قد ساء الدكتور أنيس تصرف بعض أعضاء الحزب الوطنى ، فقد بقى أعضاء آخرون نزل بهم الظلم من جراء تعميم الحكم . .

ونشر الوثائق المكتشفة مقطعة بغير تعليق أو دراسة قد يحمل القارىء على إصدار حكم على أشخاص مذكورين فى هذه الوثائق ، هو خلىق أن يعدل عنه لضده إذا ألم ببقيّة سيرتهم ، فقد ينقلب هؤلاء الأشخاص من حال إلى حال . مثال ذلك : جاء فى تقرير الدكتور أحمد فؤاد أخبار عن رجل تتطلب من القارىء أن يحكم عليه بأنه كان من أصدق أبناء مصر حبا وإخلاصا وخدمة لها ، ولو تابع سيرته لوجده كالنجم إذا هوى . . تزعم الجهاد وباع نفسه للقصر وللإنجليز بيع السماح لقاء وظيفة عالية . . وقد يكون العكس صحيحا أيضا ، فتحسن خاتمة رجل لم تحسن بدايته . .

وهناك مأزق آخر ناجم هذه المرة من الدخول فورا في دراسة تاريخنا الحديث دون أن نبدأ أولا بوضع التقاليد التي ينبغي أن يلتزمها الجميع (أقول هذا وذهني متجه إلى الصحافة) . مثلا ما هي الفترة الزمنية التي ينبغي مرورها قبل أن يسوغ لنا ذكر الرجل باسمه صراحة ؟ إذا حددنا هذه الفترة جعلناها عدتنا في مطالبة وزارة الخارجية عندنا بأن تفتح لنا ملفاتها السرية التي يسبق تاريخها هذه الفترة ، هل هي ٥٠ سنة ؟ إن كان هذا فقد قاربت وزارة الخارجية في عهدها الحديث أن تبلغ هذا العمر ، فلو فعلت لكشفت لنا وثائق عن حادثة ضرب المحمل في أول عهد الوهابيين بحكم الحجاز ، عن حادثة الطربوش التي جرت للمرحوم عبد الملك حمزة مع أتاتورك . إلخ ..

وقد نجم عن التأخر في وضع هذه التقاليد شيء من التخبط والوقوع في تناقض بلا مبرر ، فنحن نرى في تلخيص «روز اليوسف» لمستندات عابدين ورود ذكر لرجل كان في وقت مضى زعيما سياسيا ، وعرفنا لأول مرة أنه كان يقدم تقارير سرية إلى « كلايتون » عميد المخابرات البريطانية في مصر ، وقد كتم التلخيص اسمه وأدركنا أن السبب هو دخول هذا الرجل في الفترة التاريخية التي توجب كتم الأسماء . على حين أتى في هذا التلخيص ذكر لرجل آخر في عين الفترة ، وفهمنا منه أنه كان أيضا على صلة بالبوليس السياسى ، ومع ذلك فقد جاء ذكر هذا الرجل بالاسم ، والتهمة واحدة .. فلو كانت تقاليد البحث قد استتبت ودان الجميع (حتى الصحافة) باحترامها لكان من العدل أن يعامل الرجلان معاملة واحدة ..

(«المساء» ، ٢٤/١/١٩٧٢ ، ص ٤)

احتكام غريب

إننى أجد متعة كبيرة فى أن ألتمس قبسا من تاريخ مصر الحديث من قراءة مؤلفات الرحالة الأجانب الذين زاروا بلادنا والمذكرات التى خلفها رجال رأوا هذا التاريخ يصنع بأيديهم أو على أعينهم ، هى بمثابة شهادة الشهود تنبض بحياة لا تجدوها فى أسفار المؤرخين الذين يبيعون لنا أحداثا لم يشهدوها وغالبا بعد عصرها بزمان طويل . ولكن كتب الرحالة لا تخلو عادة من سطحية النظرة والتعجل فى الحكم ، وشهادة الشهود لا تخلو عادة أيضا من الهوى والتحيز وبخاصة حين لا يقتصر الشاهد على رواية ما حدث منه ، بل يهدف أن يدافع عن نفسه ولوبيين السطور ، أحيانا بالكتمان وأحيانا بالتعسف فى التفسير إن كان دوره فى صنع التاريخ قابلا لتناوله على أوجه مختلفة طيبة وغير طيبة .

وقد قرأت أخيرا بمتعة وأسى (وقد يجتمع الضدان) كتابا صدر سنة ١٩٣٣ من تأليف البارون فيرمين فان دن بوش ، وهو بلجيكي كان يشغل

عندنا منصب النائب العام فى المحاكم المختلطة وعنوان الكتاب « عشرون عاما فى مصر » ، أتمنى أن أقدم لك فى يوم خلاصته لتعلم كيف كان يحكم علينا وعلى بلادنا ، وأكتفى هنا الآن بأن أترجم لك فصلا روى فيه حدثا هاما فى تاريخ مصر الحديث يتعلق بالنزاع الدستورى بين الملك فؤاد وسعد زغلول وكان للمؤلف دور كبير فيه . . سترى رأى العين مسلك الرجلين وملاحظهما إبان الأزمة . ولعلك ستعجب بعد قراءة هذا الفصل كيف أن مصالح الدولة العليا كان بيت فيها حينئذ بتحكيم الأجانب :

فى يوم سبت من شهر ابريل سنة ١٩٢٤ والوقت ظهر وأنا فى مكتبى فإذا بالقاهرة « تدق التليفون » المتحدث هو سعد باشا زغلول رئيس الوزراء يطلب منى أن أزوره فى مكتبه غدا فى الساعة الرابعة بعد الظهر فاعترضت بأننى رتبت أمورى على السفر للعاصمة يوم الخميس وأقول له إننى مشغول بأعمال قضائية ينبغى إنجازها وأسأله إن كان فى الإمكان تأجيل موعد الزيارة فىكون جوابه ، لا يمكن إن الأمر عاجل وهام وأدرك من نبرة صوته أن الأمر خطير ، ويدق تليفون القاهرة بعد عشر دقائق مرة أخرى . إنه نشأت باشا الرجل الذى يعتمد عليه الملك فؤاد ويثق فيه كل الثقة يسألنى إذا كان الاتفاق قد تم على الوفاء بالموعود الذى حددده رئيس الوزراء ويضيف هو الآخر : لا غنى عن حضورك فى غد .

يوم الأحد أسافر للقاهرة بقطار الصباح وحين أبلغ محطة بنها إذا بمواطنى المحامى جورج موزياخ يدخل مقصورتى دخول عاصفة هوجاء . إنه جاء بالسيارة ليدركنى قبل الوصول ليحذرنى بما علمه من أحد الوزراء من أننى دعيت من أجل تسوية نزاع دستورى خطير بين الملك فؤاد وسعد

باشا زغلول وأن الحل الذى سيسفر عنه هذا النزاع سيتوقف عليه مصير الحكومة وأمن البلاد . أبديت له وجهها يزعم أن الأمر لا يهولنى ولكنى أدرك فى قرارة نفسى ما لهذا الأمر من خطورة بالغة نظرا لعلمى بخلق الرجلين المتنازعين .

فى الساعة الرابعة أصل إلى رئاسة الوزراء . الحديقة غاصة بوفود ترفرف عليها الأعلام الملونة بالأخضر والأحمر وترتفع منها هتافات مجنونة : « يحيا سعد » .

حجرة الانتظار مزدحمة بالزاور ولكن السكرتير لم يكد يرانى حتى يهرول نحوى ويدخلنى إلى مكتب الرئيس . سعد زغلول جالس وراء مكتبه ناصبا قامته ويمد لى يده ويقول : « مرحبا بك ، إننا فى حاجة إليك » ثم يمضى من فوره يشرح لى النزاع الذى نشب بين الملك والوزارة بشأن تفسير مادة فى الدستور، وإذ كان هذا الدستور مستمدا فى كثير من نصوصه من الدستور البلجيكى فقد دعت للإدلاء بالرأى فى هذا النزاع ، فالمادة ٧٤ من الدستور المصرى تنص على أن الملك يعين خمس أعضاء مجلس الشيوخ بلا حاجة إلى انتخابه . فهل هذا النص يمنح الملك حقا مرتبطا بشخصه وحده له أن يياشره دون دخل من وزرائه ، أم أن هذا الحق مرتبط بالقاعدة العامة المنصوص عليها فى المادة ٤٨ التى تقرر أن الملك يياشر سلطاته عن طريق وزرائه ؟ وينحتم رئيس الوزراء حديثه وهويدق بيد عنيفة على مكتبه : هذه هى المسألة وينبغى أن تحل فى ٢٤ ساعة .

أبدأ بالتراجع وراء العذر بأن مواد الدستور ليست حاضرة كلها فى ذهنى وأطلب أن أراجعها وأن يتاح لى الوقت للتدبر فلا بد لى من تأجيل

قرارى ، وإلى أن يحين حينه نتابع بيننا الأخذ والرد . ما أعجب أن تجد فى رجل بلغ السبعين وأضناه النفى والمرض مثل هذا التوقد الذهنى المدهش ، بل الأعجب أن تجد فيه مثل هذه الإرادة القوية الطاغية الشמוש .

لا ينقطع هتاف الوفود مطالبة بأن يطل عليهم . يذهب مرة وأخرى وثالثة إلى الشرفة ويشكرهم بلطف وإيجاز . لم يرهقه الإلحاح ويفقده ضبط أعصابه فتقوس قامته على الشرفة ويصرخ بلهجة أمرة : « طيب ، طيب ، دعونى أعمل بهدوء من أجلكم » ، ثم يغلق الشرفة بحركة خاطفة وتنتهى الزيارة . يقول الباشا لى : « إلى غد فى الساعة العاشرة بقصر عابدين » .

تحل عتمة المساء وأشق بصعوبة طريقى وسط حشود المتظاهرين فى بحر من أثواب متعددة الألوان . الأعلام ترفرف كأجنحة الطير المذعور ، الأيدى كلها مضمومة مرتفعة فوق الرؤوس وهدير صاخب يؤم هذا الشيخ العظيم ، إنه واقف فى الشرفة العالية فى غمرة الضوء ، ذراعه المفتوحان كأنما زاد طولهما ليضم بحنان إلى صدره العريض هذا الخلق جميعا . وحين دخلت فى صباح الغد على الملك فى مكتبه وجدته بادى الاضطراب يعالج قلقه بلعب يده بقاطع للورق وزغلول باشا قبالة مسيطر كل السيطرة على نفسه يتكلم ببطء هادىء .

ودار النقاش بينهما أمامى فأدركت من فورى أهمية النزاع وخطورة نتائجه . ففى جانب ملك نشأ فى أحضان التقاليد الشرقية التى تسند السلطة إلى شخصه ، وهو اليوم يحاول أن يستبقى لنفسه آخر رمق فيها . وفى جانب رئيس الوزراء معتد كل الاعتداد بالحقوق التى منحها له

الدستور . الكلام بينهما مهذب ولكنى أحسست تحته خصومة تتهيا
للانفجار المؤدى إلى كارثة ، وأنه ينبغى فضها بغير تمهل .

فى أثناء الجلسة حين اشتدت حدة النقاش نطق زغلول باشا بهذه
الكلمات « لو أننا استشرنا الشعب . . » ومن خلال زجاج النافذة
العريضة امتدت نظرق إلى ساحة عابدين يغطيها رمل ذهبى ويغمرها ضوء
شمس ساطعة . الناس منصرفون فى هدوء إلى أعمالهم . الأولاد
يلعبون . وقلت فى سرى « كلمة واحدة من فم هذا الرجل السياسى الذى
يملك فى يده مصر كلها ، أرواحها وأجسادها ، فإذا صورة هذه الحياة
الوديعة خالية البال تنقلب إلى مشهد مخيف لغضب الشعب » وارتفع
صوت زغلول وقال : « هل تقبل جلالتك أن يفصل النائب العام فى
النزاع وأن يكون قراره حاسماً ؟ فكر الملك برهه قصيرة ثم خضع
وقال : « فليكن » .

أستأذنت أن أخلو بنفسى قليلا ، فقادنى أحد الأمناء إلى صالون يطل
على حدائق القصر . ياله من مشهد ساخر . تلال المقطم ملتفة بغلالة من
ضباب وردى . قباب مساجد ومآذن رشيقة تشب إلى زرقة السماء . وفى
مهبط نظرى حديقة تحكم النظام فى دلال أهوائها المنطلقة، فى ظلال نخيلها
زهور يانعة تمازج بإبداع لذيذ نضرة العشب السندسى :

فى هذا الإطار الفريد خلوت إلى نفسى أفكر ، وكتبت على عجل
بالقلم الرصاص بضعة أسطر . ولما عدت إلى الرجلين وجدتهما فى عين
الوضع الذى كنت تركتهما فيه ، أحسست بالتأثر يغلبنى بشدة وأنا أقرأ

عليها التصريح التالى « لا حق لى أن أصدر حكما فيه تقييم للدستور الذى ترسم البلاد على هديه طريقها ، ولكن إعفاء الملك من المسئولية هو أساس هذا الدستور ، فليس له أن يباشر سلطاته إلا عن طريق وزرائه ، وهذا المبدأ لا يقبل فى نظر القانون أى استثناء ويسرى على كل أعمال الملك فإذا أبحنا فيها له استثناء واحداً نكون قد هدمنا الدستور من أساسه . ولذلك أرى أن تعيين أعضاء مجلس الشيوخ ينبغى أن يصدر من الملك بناء على عرض من مجلس الوزراء » .

ثم أضفت : لقد نلت شرف اختيارى للتحكيم لأننى بلجيكى وبسبب التشابه فى الدستور بين بلدينا . فأرجو من جلالتك أن تسمحوا لى بتذكيره باحترام أن بلجيكا عرفت فى ظل الدستور ثلاثة ملوك . أما الأول فقد أرسى استقلالنا المزعزع على قواعد ثابتة . واستطاع الثانى رغم القيود المفروضة على سلطته أن يكون صاحب تأثير قوى رائع على حياة أمته ، وأما الثالث فجلالتكم تعلمون أن الدستور لم يمنعه من أن يكون جنديا يدافع عن وطنه وأن يكون أكثر أهل بلده محبة له .

مد الملك فؤاد لى يده فجأة وقال : قبلت الرأى الذى صمغته على هذا النحو ، أشكرك . وأضاف زغلول باشا : وأنا أيضا . انتهت المقابلة وحين جلست فى السيارة إلى جانب رئيس الوزراء أمسك بيدى وعبر لى عن امتنانه وعرفانه بالجميل قائلاً لى : لقد جنبت مصر أزمة خطيرة ، خطيرة جدا . (انتهى الفصل) .

ترى ماذا كان يكون موقف سعد زغلول وقراره إذا انحاز البارون فيرمين فان دن بوش إلى الملك ضده ؟ لا سبيل إلى الجزم بشيء إلا بأن

صاحبنا البلجيكي قد خرج من قصر عابدين مزهوا منتعشا بجوس خلال
القاهرة وهو يقول لها في سره ؟ أقدارك كانت رهن إشارتي ولكن إن خيل
إليه أنه حرق أوراق اللعب في يد الملك فؤاد فإنه لا يعلم أن « أبو
شوارب » يخفي في كمينه أوراقا أخرى عديدة يأنف منها الشرفاء .

(ر. المساء ، ٢١ / ١٢ / ١٩٦٤ ، ص ٨)

الإنسان أولاً . .

إذا أردت أن تعرف في بلدنا مثلاً على ما يفهمه الإنجليز من وصف رجل منهم بأنه « جتلمان » فلن تجد خيراً من عبد الله حمزة ، وكان هذا النعت شائعاً - حتى بنطقه الإنجليزى عندنا - حتى مطالع هذا القرن ، ثم اختفى ، حلت مقاييس ومصطلحات جديدة في تصنيف الرجال ، لذلك كنت أحس أن عبد الملك حمزة - في أواخر أيامه التي طالت - ينتمى إلى عالم قد انقضى بخيره وشره ، كان له مظهر صفحة قديمة منمقة بخط اليد وضعت خطأ في كتاب مصفوف باللينوتيب ، تزيينه ، ولكنها مستوحشة ، لا بد من تجاوزها لمتابعة القراءة .

ومن عجب أن هذه الأسرة التي نزلت من الصعيد إلى بور سعيد - مدينة العمل والتجارة وأخلاقيات السوق المفترس - ينشأ فيها ابن مختلف الطبع والسمت - كأنه الشحرور الأبيض المائل إلى الروحانيات لا إلى المادة ، نظيف الملبس والسريرة ، ممشوق القامة كالفتاة ، صلب ولدن معا ، جاوز الثمانين دون أن يميل عموده الفقري شعرة إلى الأمام ، والبدلة

التي لبسها أيام شبابه لا تزال تصلح له ، بشوش ، خفيف الوقع على الناس جميعا ، همه الأول أن يريح محدثه ، أن يرفعه منذ أول لحظة من دنيا المصالح والشكوك والمخاوف ومقارنة الأسلحة المخبأة وراء الظهور والضحك على الذقون إلى عالم الأخوة والود والصفاء والجمال ، يؤمن أن

كل إنسان فيه نواة هي قبس من نور الله . لا شيء من هذا كله كان يجديه لولا أنه استترف من أجيال الأجداد والآباء كل معينهم القابل للتوارث من الذكاء والفسطنة ، لا شك أنه كان وفيرا ، فاحتكره لنفسه ، ولولا اختصاصه بصوت ناضج فكأنه أجش ، مخملي ، منغم ، لا ينبعث من

أوتار حنجرتة بل تحسبه تنفس في كهوف سحيقة ، لم أسمعه قط - على طول صحبتي له - يرتفع في غضب أو حدة ، كل نطق له في جميع أحواله أشبه بالنجوى ، من يدري ؟ لعله كان وهو يتحدث إلى الناس يناجي نفسه ، وبوجه دقيق الملامح ، مسمم ، لا يعرف الجمود ، أكثر شيء حركة فيه عيناه ، لا تنفك نظراتها إما تجوب ما حولها ، تقيس بإحكام وفي

سرعة البرق مكانها من العالم والمنطق - نفاذا من فوضى التشبيه إلى أفضل مراصدها ، فلا شيء مطلق ونهائي ، وهذا هو سر التسامح ، وقد يحسبه الغافل حينئذ أنه مطبوع على التردد ، يجري وراء ألف أرنب فلا يصيد واحدا ، ولكني لم أر إنسانا مثله يعرف ما يريد ، عن بينة ووثوق - ثم يمضي إليه ، هيهات أن يعدله حائل ، أو ناصح ، لعله يجد في اللف والدوران معه بأبعد متعة وتسلية . ومن رجال الفكر من يستشيرك ،

لا للأخذ برأيك بل للتلذذ بمقارعة الحجة بالحجة ، دون التزحزح عن النية ، وإما مصوبة إلى عينيك ، وأحيانا كثيرة إلى صدرك ، كأنها آتية من

وراء الغيب ، كنظرة الأعمى وإن تكن مبصرة ، هي السنة كاشفة تتغلغل في أعماقك ، ليس مقصدها الفضيحة ، بل التكاشف - من أجل التعارف والتآلف ، بعيدا عن الهموم والصغائر .

فكان وهو فتى غريب يسعى ويسعى إليه في محافل الرجال المحنكين ، ذكاؤه وبشاشته - لا عمره وتجاربه - هما شفيعاه ، قال لي صديقي عبد الحميد فهمي : إن أباه الشيخ الوقور المتخير بشح جلسائه كان لا تنعقد له حلقة منهم في بيته إلا إذا ضمت جاره الطارئ العابر ، الفتى الصغير عبد الملك حمزه ، الذي نزل أبوه بحلوان طلبا للاستشفاء فلم يصحب من أسرته أحدا غيره .

في مدرسة الحياة لا على مقاعد التحصيل نمت وزكت مداركه ، فلم يكن يتكلم كالبيغاء ، أو عليا بالنظريات ، جاهلا بما لها عند التطبيق ، واستقى لغته حية من أفواه الناس في عز المعاناة لامنبئة في بطون القواميس والمراجع ، فكنت لا تجد إنسانا يماثله في تزايد عدد أصدقائه الحميمين ، لا يوما بعد يوم ، بل كأنما ساعة بعد ساعة ، فلو شجر إنسان ليتشكل برهة عدوا له لضاع وسط هذا الزحام أو لانقضى بسببه سحره ، فارتد سوبا وانضم إلى صفوف الأصدقاء .

كان يعوم كالسمكة وسط المجتمعات ، تحت كل الأجواء ، في بلده وخارج بلده ، غير قادر على الوحدة ، لو فرضت عليه لأودت به ، كأنما هو والنحلة - لولا إبرتها - ينحدران من أصل واحد ، لذلك كان يجد نفسه - بلا سعى منه أو مطمع - في وسط الأحداث ، لا يريد أن يمسك بالزمام ، لا عن عجز فيه ، بل عن تجمل وإيثار ، لا تمتد يده لتزيح يداعنه ، فأكره

شئء عنده هو التزامه والتكالب والزعيم زهوا أنه مبعوث العناية الإلهية لموقف ليس له غيره ، وإنما كان يفرض أن هذا الموقف مهما بدا معقدا وعسيرا لا بد أن يقيض الله له قوى هي كفاء له ، جديرة بمعالجته ، ولكن قد تقعد لها العلل ، كقصور الهمة والتشتت أو غموض الرؤية ، فكانت وظيفة عبد الملك حمزة في حياته السياسية الطويلة هي تجميع هذه القوى الصالحة وبث الثقة بقدرتها في ضميرها ، إنارة الطريق لها ، شق ثغرات تصب فيها إلى غاياتها .

ولم يحدث بسبب هذا الفيض الغريب من الود المتدفق من قلبه — أن جلب عليه مسلكه هذا مسارعة بعض أئمة الغافلين ، أو غلاة المتحمسين ، أو شطار العائمين على الشط ، إلى حسابانه بين رجال السياسة من الهواة ، له الفرح عند التوفيق والنجاة عند التعثر ، تاركا للمحترفين مسئوليتهم في السراء والضراء معا ، أو حسابانه من هذا الصنف الذى يتألق إذا دفعته قدراته إلى الوقوف على رأس الصف الثانى ، فإذا تقدم إلى الصف الأول شحب ولم تنفعه أو تسعفه ميزات المشهود بها من قبل ، وقليل جدا من أحسن العكازات ما يصلح أن يكون دفة فى سفينة .

هذا هو عبد الملك حمزة — الإنسان — حضرت مأتمه وأنا أتأهب للسفر إلى بعيد ، وكان أول شئء يلتحم به خاطرى ووجدانى عند العودة هو ذكراه ، وحقه على ، أما جهاده الوطنى ، وكيف عرفته ، وما حكاية الطربوش التى ارتبطت باسمه فسأحدثك عنها من قادم .

لحظة

أعود في حديثي عن المرحوم عبد الملك حمزة إلى اليوم الذي سافرت فيه بحرا من استانبول إلى أثينا ، لا لشيء إلا لأرسل منها بالبريد المسجل إلى وزارة الخارجية بالقاهرة مظروفا مبرقشا بأختام مشرذمة غليظة من الشمع الأحمر أجعله نصب عيني طول الرحلة وأحمل همه ثم أكر راجعا من فوري إلى حيث أتيت . لم يكن تمثيلنا الخارجي في ذلك العهد يعرف « حامل الحقيبة الدبلوماسية » الطواف بين المراكز والفروع ليستبقى السر في يد أصحابه وحدهم . وجرت مفوضيتنا في أنقرة على إرسال تقاريرها السرية إلى القاهرة بالبريد التركي : كبقية خلق الله هل يتحایل الأتراك على فتح المظاريف « وهي مسألة سهلة » فيطلعون على هذه التقارير ؟ لا يستبعد منهم التجسس علينا ولكني لا أظن أنهم لجأوا إليه أو لعلهم جربوا مرة أو مرتين ثم عدلوا لأنهم وجدوا ولا ريب أن تقاريرنا السرية قائمة على معلومات شائعة ، أو لا خطر لها . لم تكن لمصر حينئذ سياسة خارجية وإن كانت فليس لها وزن . وما كان التمثيل الدبلوماسي إلا حلية على صدر

الملك فؤاد لو فحصتها لوجدتها من النحاس بقشرة من الذهب يكفيه بريقها .

ولكن المظروف الذى كنت أحمله شذعن بقية السلسلة إنه كان يتضمن التقرير السرى الذى يروى فيه عبد الملك حمزة حكاية الطربوش التى وقعت بينه وبين الغازى مصطفى كمال ، وقدر أن الأتراك يترقبون هذا التقرير ويحرصون على الإلمام به وأنهم لن يتورعوا عن فتح بريدنا ، فرأى أن يتفاداهم من قبيل التحرز فكلفنى ، وأنا أصغر مرؤسيه منصبا وعمرا وأكثرهم قدرة على التنقل واحتمالا له ، أن أسافر بتقريره إلى أثينا لأرسله منها : فالمسألة لا تزيد عن رمية حجر . وخلصنا أننا أبقينا أمر رحلتى سرا متكتما ومع ذلك قال لى الضابط التركى الواقف بأسفل السلم وأنا أصعد الى السفينة وشفته تغمزان لى بابتسامة :

— صحبتك السلامة ، أنت ومظروفك !

جفلت — وعادت لذهنى فصدقتها كل روايات الأجانب المغرضين عن جواسيس السلطان عبد الحميد وخناجرهم المفضية بالضحايا إلى قعر البسفور وماؤه كليلة القتل كحل ، فسارعت أصعد السلم قفزا . .

وقد سمعت من عبد الملك حمزة تفاصيل واقعة الطربوش لأنى لم أحضرها وقرأت تقريره أيضا . وإلى اليوم أذكر البراعة الفائقة التى كتب بها وأسلوبه الجميل وعباراته المشرقة . وكنت فى سرى لفرط حماقتى وتسرعى واعتدائى زهوا باطلا بنعمة أستبعد وقد أضيق أن يملكها أحد غيرى. أحكم على عبد الملك حمزة لكثرة ما لاحظت من قلقه وقلة صبره على المعاناة وحبه للحركة وكرهه للحبسة على مقعد أمام مكتب، إنه رجل لا يتألق ذهنه إلا فى

صالون يزيد فيه عدد حسان الفتيات على عدد الرجال الخناشير وعبر
أحاديث طيارى أشبه شىء بمبارزة سلمية بين أقران فى الذكاء اللامع
والظرف وحضور البديهة وسعة الاطلاع والعلم بكل جديد ، وإذن
ستجده الفارس الذى لا يغلبه أحد ، سيكون أينما حل وأيا كان من
اجتمعوا وإياه واسطة العقد وإليه الانجذاب . تعلم وأنت على الباب وقبل
أن تخوض الزحام وتبين الوجوه هل هو موجود أم غير موجود ، فله إشعاع
يكسو الحفل الذى يحضره . يفرز إحساسك بريقه حتى من بعيد ولا
يخطئه . كان أكثر من عرفت سخاء وقدرة على نشر الانبساط حوله نثر أم
العروس للبدره فوق رأسها فينتهبها المعازيم بنهم وفرح . لو أردت أن
أرسم له صورة رمزية لما جعلته إلا رجلا يهز مبخرة دخانها نور يشع من
وجهه وعينه ليطرد بها الاختناق وخبث الروائح وشرور الشياطين .

فلما قرأت التقرير الذى كتبه ندمت على ما فرط منى وغلوت فى تقريرى
لنفسى وأدركت كم أنا مخطىء فى حقه ، كم أنا ظالم له ، لماذا لا نصبر قبل
أن نحكم ، وهل ترانى عقلت الدرس ؟

لا وصف عندى لهذا التقرير إلا أنه نبت على أناة وتحريط برعاية
مشفقة وعناية قاسية لرصيد ضخمة من الحكمة والتجارب ، وسلامة
المنطق ، وتملك لأسرار اللغة وبلاغة الأسلوب ، وحصيلة عمر مديد ،
لاشغلة علق الفكر بها وحدها فى ساعة طارئة ، ونتاج جهد ومعاونة وتدبر
وتقليب طويل للرأى واللفظ على الجنين . ومع ذلك يبدو لك ككل نبت
من الأرض أن كلامه خرج تلقائيا سهلا غابت من كماله تعثرات التحاليل
على صنعته كأنما لا عمل لصاحبه إلا أنه اهتدى إلى شىء قد استقامت

خلقته سوية من قبل فنقله لك كما هو ، لا ندرى أيها يحمل رفيقه . تحررت فيه المعاني فطغت فوق رسم حروفه ، فهي وحدها التي يعلق بها ذهنك وربما بصرك أيضا . فلو كان عازف عود لسمعت ألحانه دون أن تسمع وقع ريشته على أوتاره ولقلت في نهاية الأمر اقرأ ولا أحس أننى أقرأ .

من التقرير الذى قرأته ومن الحديث الذى سمعته من عبد الملك حمزة لا يزال يتوهج في ذاكرتي الموضع الذى وصف فيه شعوره لحظة أن طلب منه الغازي مصطفى كمال فجأة وسط حفل رسمى كبير أن يخلع طربوشه . كان عليه في سرعة البرق أن يدير بصره على وجوه الحاضرين وقد خيم عليهم الصمت والدهشة والتوجس والالتذاذ بالتفرج على كرب الآخرين وامتحان مسلكهم وقت الشدة ليرى كيف يرقبونه وماذا يتوقعون منه وإلا ماذا يتوقعون له . فمن منهم يدعو له ومن منهم يدعو عليه ؛ أن يصوبه أيضا إلى البريق الحاد في عيني الغازي مصطفى كمال ليرى مقدار عناده وانفعاله ومن أين يكون اصطیاد بواخه وكيف يكون رد فعله إزاء العصيان .

كان عليه في سرعة البرق أن يجمع كل الاحتمالات وأن يوازن بينها وأن يختار الأصلح والأحكم . في الذروة توتر أعصابه ، أصبح بدنه كالقوس المشدود يكاد يسمع له أزيز ينبىء بقرب التمزق . في الذروة اتقاد ذهنه ، جمجمته أتون لا يملؤها إلا دم يغلى . يجفف حلقه ويكاد ينز من أذنيه وفمه وعينه وأنفه ووجهه شاحب أصفر ولسانه منعقد ، ولكن كلامه لنفسه يهدر كالسيل يلتمس منه صفوة الزبد ، فإذا به يستشير من القاع عكارة تتألب عليه . أين يضع فمه ليشرب ؟

أحسُّ كأن الأقدار ألهته وهى تسوقه بمكر لتفضى به إلى هذا الموقف الصعب ليكون امتحان عمره ، وأن الأرض خلت ساعتئذ من الأزمات إلا أزمته ، وأنه مكلف من عالم المعانى المجردة ليجسد للناس مثلاً بارزاً على الحرج يظل دائماً مرجع التشبيه والقياس إليه . اختلط السؤالان فى ضميره ، واحد بآنين : لماذا وقع عليه الاختيار ؟ وواحد بتجلد : ماذا يتبقى له أن يفعل ؟

ولكن ألا يحسن بى أن أبدأ الحديث من أوله ؟

(المساء ، ١٩/٥/١٩٦٩ ، ص ٦)

الطربوش

تلقى مدير أحد مصانع القبعات في أوروبادات يوم برقية من استانبول
تطلب إليه أن يشحن لها فوراً نصف مليون كاسكيت ، فرك المدير عينيه ،
لابد أن الرقم مغلوط ، فلم يحدث قط أن زادت صادرات القبعات لتركيا
من جميع أنحاء العالم عن عدة مئات كل سنة ، الناس هناك يلبسون
الطربوش ، فما الذي جرى ؟

جرى شيء مذهل لم يعرف التاريخ مثيلاً له ، رجل واحد ، قبل أن
يتذرع بالسلطة التي في يده ، يتذرع بمجده الذي حققه بفضل نبوغه
وعبقريته ، وبمحببة الشعب له ، ورفع له إلى مصاف الأبطال لكي يفرض
على أمته أن تتحول بين عشية وضحاها من دولة شرقية تعتنق حكومتها
الدين الإسلامي إلى دولة غربية ، علمانية ، تنفصل فيها الدولة عن
الدين ، تلغى الخلافة ، تطرد أسرة آل عثمان ، تغلق التكايا ، يقال
للمفتي مع السلامة ، تتحول السلطنة إلى جمهورية ، بدل الشريعة يكون

القانون السائد هو القانون المدني السويسري ، مترجماً إلى التركية بلا تعديل ولو في مادة واحدة . خبط لرق ، زال تعدد الزوجات وتحريم زواج المسلمة من غير المسلم ، الزواج عقد مدني في البلدية .

لماذا كان هذا كله ؟ لأن الغازي مصطفى كمال محرر تركيا من جيوش الأعداء ، ومن احتلال استيطاني كاد يبلغ ثلثي البلد ، ويبلغ مشارف أنقرة ، صخرة الأناضول ، قلب الأمة التركية . كان يؤمن إيماناً راسخاً لا يتزعزع ، بسبب مزاجه ، وربما عرق وراثته ، وبسبب تجاربه في الحرب العالمية الأولى وقبلها ، حين سافر إلى ليبيا ، وحارب في الجبهة السورية ،

أن كلمة « الإسلام » وكلمة « العرب » هما عنوانان للتخلف ، وأسوأ من ذلك ، عنوانان على العجز عن التقدم ، وما من بلاء حاق بتركيا إلا كان سببه عند مصطفى كمال أنها كانت تشارك العرب في الاندماج تحت ظل الخلافة في مجتمع إسلامي ، هؤلاء المسلمون — من عرب وغير عرب — فتحت تركيا لهم باسم الإسلام نصف أوروبا ، فماذا كان جزاؤها ؟

انضموا إلى أعدائها وطعنوها في ظهرها في الحرب العالمية الأولى ، هذا عهد ينبغي أن يولى ، إنه ثوب لا يقبل الإصلاح ، كل إصلاح يزيده رقعا ، لا بد من تمزيقه وطرحه ، ولبس ثوب جديد ، مستورد من الغرب ، كما هو ، بلا تعديل ، فالحضارة الغربية كل لا يتجزأ ، إما أن ترفضها كلها أو تأخذها كلها ، أما أخذ شيء وترك شيء فهذا هو تمحك العاجز ، المتردد ، الذي يريد أن يغش نفسه ، ويكتم الجرح التئمت بخرق من ضماد نظيف ، لا بد من إعمال المشروط واقتلاع أم القبيح ، لا وقت للترقيع ،

وللتجارب ، لأن الزمن يمر ، وركب الحضارة ، يجري ، لابد من اللحاق به . . .

هكذا كان إيمان مصطفى كمال ، ومضى كالمثلث في الشوط إلى نهايته ، لا يقبل نصيحة ولا يطبق اعتراضا . إحلال الأحرف اللاتينية محل الأحرف العربية في كتابة اللغة التركية ، القرآن يترجم إلى التركية ولا يتلى إلا بها في المساجد ، الأذان بالتركية ، ولكن عجبا ، إن هذه اللغة التركية أكثر من ثلث كلماتها عربية . . فما العمل ؟

إذن هيا نفلي اللغة التركية - تفلية رأس مملوءة بالقمل - من الكلمات العربية لتحل محلها كلمات طورانية ، منبعثة من القبور ، غريبة الوقع على الأسماع ، بل الأسماء العربية الإسلامية التي يتسمى بها الأتراك لا بد من إلغائها وأن تستبدل بها أسماء طورانية ، ولا يكون التحول مطبقا على جيل المواليد من قادم ، بل له أثر رجعي ، فالشيخ الذي بينه وبين الآخرة خطوة لا بد له أن يطرح اسمه العربى الذى كان يؤمن أن الملكين سيناديانه به فى قبره ليتخذ له اسما طورانيا .

وطبع مصطفى كمال قائمة بهذه الأسماء الطورانية ، مرتبة ترتيبا أبجديا ، فما على هذا الشيخ إلا أن يفتح القائمة حسبها تتفق له ، وأن يضع إصبعه وهو مغمض العينين على اسم ، فيتلقاه كأنما ارتد طفلا بلحية طويلة خارجا من بطن أمه ، وربما احتفظ بالقائمة فى جيبه ، والصفحة مشنية الطرف ، وأمام الاسم علامة حتى إذا سئل عن اسمه فتلعثمت ذاكرته كما يتلعثم لسانه فى نطقه سارع إلى فتح القائمة والتهجى به كما يتهجى الصبى كلمة عويصة .

وبقى شىء واحد هو المظهر البادى للعيان لتخلف الشرق والإسلام عند مصطفى كمال ، وهو الطربوش ، ثم ما هذا القمع السخيف الذى يضعه الأتراك على رؤسهم ، لا يقى عيونهم من وهج ، ولا وجوههم من بلل ، وما معنى الزر ؟ لماذا ولبلادهم شرفة تطل على أوروبا يظلون بسبب الطربوش مسخة بين أهل أوروبا ؟

فرض مصطفى كمال على الأتراك بين عشية وضحاها أن يخلعوا الطربوش وأن يلبسوا بدله القبعة ، شنع رجلا لأنه عصى أمره وظل يرتدى الطربوش ، وسافر يجوب الأناضول وعلى رأسه « توب هات » لأنها أكبر قبعة فى السوق . هذا هو سر البرقية التى تطلب فجأة نصف مليون كاسكيت ، لك أن تسأل : لماذا الكاسكيت ؟ لا لأنها رخيصة وتحتملها طاقة الأتراك الفقراء ، بل لأنها أصلح قبعة تظل على الرأس داخل المسجد ، فالصلاة والرأس عار مكروهة ، فمن السهل زحزحة رفرقها من أمام إلى خلف « يا فرحة بيكاسو » أما بقية القبعات فتعوق لمس الجبهة للأرض عند السجود .

فبالرغم من كل الأوامر والنواهى ظلت المساجد مزدحمة ، والمثل الأعلى للخلق القويم عند الأتراك هو ما أتى به القرآن وسنة الرسول .

لم يقبل مصطفى كمال إلا استثناء واحد ، أن يلبس إمام المسجد عمامة على رأسه ، فهذا زى دينى ، وإنما بشرط ألا يخرج بها إلى الطريق . حتم عليه أن يلبس بدلها قبعة .

إن كان مصطفى كمال لم يتوقع أن يشير إلغاء الطربوش شعبية فإنه لم يتوقع أكيدا أن يشير أزمة سياسية بين تركيا ومصر . . حين طلب فى حفل

رسمى كبير من عبد الملك حمزة وزير مصر المفوض أن يخلع طربوشه عن رأسه . . . وكان لا بد أن تعود هذه الواقعة لداكرى وأنا أرثى عبد الملك حمزة الذى اختطفه الموت من بيننا حديثا ، وكنت أعمل وقتئذ تحت رياسته فى تركيا وسأزيد هذا الأمر تفصيلا .

(المساء ، ٢٦ / ٥ / ١٩٦٩ ، ص ٦)

* * *

٢٩ أكتوبر ١٩٣٢

احتفال تركيا السنوى بعيد النصر ، فى الصباح فى أنقرة - عرض
عسكرى يبدأ بالنشيد القومى « الشعر من نظم محمد عاكف » تهتف به مع
الموسيقى النحاسية آلاف الحناجر - ذروته صرخة مدوية يهتز لها قلبى ،
يتمثل فيها إجماع شعب على الغضب لشرفه ، على إبائه أن يطاء ترابه الطاهر
قدم معتد نجس ، على فدائه بالأرواح ، لا تدرى أى الطرفين يضىف
كرامته على الآخر : الوطن أم أبنائه . ومصطفى كمال واقف على منصة
عالية فى حلته المدنية التى التزمها منذ توليه رئاسة الجمهورية. إنه ليس
بالخطيب المفوه ، يقرأ من ورقة كلمته ، يشيد فيها بقداسة الوطن وأنه
وديعة فى يد أبنائه ، وأن أمل الأمة هو فى شبابها ، قد يتعرض الوطن
للغزو ، وقد تتساقط القلاع واحدة بعد أخرى ، بل قد تسفر الخيانة عن
وجهها ، ولكن لا استسلام ما دامت تجرى فى عروق هذا الشباب قطرة
واحدة من دماء آبائهم وأجدادهم ، هى الكفيلة بدحر العدو وتحرير
الوطن .

وفي المساء يقيم حزب الشعب « الوطن فرقة سى » فى فندق لوزان بالاس حفل عشاء جالس لا يحضره مع مصطفى كمال من رجال السلك الدبلوماسى إلا السفراء بزيهم الرسمى ، يعقبه حفل استقبال راقص يتسع لبقية أعضاء هذا السلك .

فى هذا العام - ١٩٣٢ - شمل حفل العشاء الجالس - على خلاف العادة - جومكهرب ، لم يكن النذير زجاجة « العرقى » أو « الدوزيكو » - عبوة لتر - الموضوع أمام مصطفى كمال ، له وحده ، وتسربها بسرعة إلى جوفه ، شربه أكثر من أكله ، فقد عهد هذه الناس معلنا بلا تخرج عن إفراطه فى احتساء الخمر ، دون أن يسكر أو يترنح أو يختل اتزانه وحضور بديته ، ولا حتى شياكة ملبسه ، رباط العنق عند ندمائه تراه فى ضوء الفجر قد تراخى وانحرف - إلا هو ، كأنما عقده لتوه ، تسمم دمه بالكحول . شىء واحد رفض اقتباسه من الغرب ، هو خمره ، إنه لا يطيق الشمبانيا والنبيذ والويسكى ، لا شرب عنده أفضل من « العرقى » الذى يهيم به الشعب التركى لا فرق بين الصفوة والعامة ، بين الأغنياء والفقراء ، أبى الطبع إلا أن يبرز من تحت القطيع ولو خلال خرم صغير .

ولأنما كان النذير هو تلك اللهجة المحتدة التى بدت فى صوت مصطفى كمال وهو يخاطب سفير إيطاليا الجالس قبالة ، البارون ألويلى الذى أصبح فيما بعد وكيلا لوزارة الخارجية فى بلده ، فقد كان العهد عهد حديث عن مشروع دار فى رأس موسولينى لإنشاء نوع من الحلف بين الدول الغربية حامية الحضارة الأوروبية للوقوف فى وجه البربرية الجرمانية المتمثلة فى النازية الطالعة بتصميمها على العبث بخريطة أوروبا ، كأنما أراد

أن يجدد الحلف المقدس الذى أنشأه مترنيخ بعد هزيمة نابليون لمقاومة كل محاولة للمساس بالنظام القائم فى ظل هذا الحلف . وكان واضحاً أن موسولينى يريد من حلفائه — وقد ضمن لهم الحلف ممتلكاتهم — أن يتركوا لإيطاليا مجالاً للتوسع فى إفريقيا أولاً ، ثم لا بأس أن يكون أيضاً على حساب الدول الشرقية التى لا تنتمى للحضارة الغربية ولو كانت لصيقة بأوروبا — مثل ألبانيا

قبضت نظرة مصطفى كمال على البارون « ألويزى » وتوجه بريقها إليه كأنه نصل سهم محمر فى النار ، لابد أن يصب عليه غضبه من مشروع هذا الحلف . خيم الصمت على الحاضرين وشدت أعصابهم من فرط التوجس ، لا يرضى منها تلذذهم بمشاهدة مبارزة سياسية فذة لن يعلم الناس خبرها ، قال مصطفى كمال بحدة للبارون ألويزى :

— ماذا يظن بنا موسولينى ، لو طمع فى احتلال شبر من الأناضول فإننى سأجند الأتراك جميعاً وأحاربه إلى آخر رجل .

تجنب البارون ألويزى مجادلة مصطفى كمال آملاً أن تهدأ العاصفة ، دارت النظرة المتقدة حتى وقعت على سفير فرنسا — الكونت دى شامبران — من كبار ساسة بلاده — وخاطبه لائئاً حكومته أشد اللوم على وضع يدها فى يد موسولينى . هنا وجد عصمت باشا رئيس الوزراء — الأصم الذى يسمع همس الكائدين له — كما يقول شوقى — أنه لابد أن يتدخل فى الحديث ليصرفه إلى موضوع آخر . .

كان هذا هو مضمون القسم الأول من التقرير الذى أرسله عبد الملك حمزة إلى مصر ليمهد به لما حدث من بعد ويلتمس له تعليلاً .

قام مصطفى كمال هو وضيوفه عن مائدة العشاء وانضموا إلى بقية معازيم حفل الاستقبال الراقص ، عددهم لا يقل عن الخمسمائة ، كلهم رؤوسهم عارية إلا رأسا واحدة ، يلفت النظر بطربوشه الأحمر ، إنه رأس عبد الملك حمزة ، وزير مصر المفوض ، لأن الطربوش شعارنا القومي تكملة لازمة للزى الرسمي الموشى بالقصب ، ولم يكن هذا الطربوش منزويا في ركن ، أو ثابتا في مكان ، بل كان متجولا في القاعة الفسيحة ، ولعل زره يهتز ، لأن لابسَه لا يكف عن الرقص مع واحدة إثر أخرى من صديقاته العديديات ، بطلب منهن لا منه هو . وشاء له سوء حظه أن يمر بالقرب من مصطفى كمال الذى بقيت أعصابه تتلمظ على نزال جديد بعد المباراة السياسية في حفل العشاء الجالس ، ولكن لا أحد يستطيع أن يجزم بحقيقة السبب الذى دعاه إلى ما بدر منه من تصرف شاذ عجيب . أنت تعلم مبلغ مقتته للطربوش ، فهل ارتد فيه فجأة الثور الهائج الذى لوحته له بغلالة حمراء ، وهل ثار لأن الخصم الذى ظن أنه صرعه يبرز له حيا كأنما يريد أن يتحداه ، هل أشفق على عبد الملك حمزة - وهو صديق حميم له - من أن يكون بدعة بين الحاضرين ولا أقول مسخرة ، هل قدر أن صديقه يكرهه في هذا الحفل لبس الطربوش ، يود لو خلعَه إن استطاع فأراد أن يهون عليه التحلل من فرائض زيه الرسمي ، لا أحد يدرى .

قطع مصطفى كمال طريق عبد الملك حمزة حين مر أمامه واستوقفه ، اختل دوران الراقصين ، والتفتت الرؤوس نحو الرجلين ، كأنهم نظارة أمام مسرح يقف عليه اثنان من كبار الممثلين ، لا بد من رؤية كل حركة تصدر منها وسماع كل لفظ ينطقان به ، قال مصطفى كمال لعبد الملك

حمزة بصوت مرتفع : « يا أخى ، اخلع طربوشك » لعل الذى أحدث الأزمة كلها أن مصطفى كمال - حتى ولو أراد التلطف مع صديقه - كأن لم ينفذ عنه بعد آثار الهياج الذى غلبه أثناء حفل العشاء الجالس ، فبدت فى صوته لهجة الأمر لا الرجاء ، رغبة فرض الإرادة لا الاقتراح المحتمل للقبول أو الرفض بلا حرج للطرفين ، وربما تعجل تنفيذ أمره بمناداة أحد الخدم ليأخذ الطوبوش من قبل أن يخلعه لابس .

ومرت بعبد الملك حمزة لحظة رهيبة سبق لى أن وصفتها لك ، لا أراك الله مثلها ، وانتهى تدبره السريع للموقف إلى الاقتناع بأن الحكمة تقتضيه إلا أن يجابه رئيس الدولة أمام الحاضرين بإرادة تفوق إرادته ، فخلع طربوشه عن رأسه بيده ، وتسلمه الخادم الذى وقف بجانبه كالديدبان ، وسار به إلى حيث تحفظ المعاطف والقبعات ، اقتضته الحكمة أيضا ألا يتصرف من فوره احتجاجا على ما حدث له ، فهذه مسارعة بتفجير على لقبلة زمنية ، مكث دقائق معدودات متظاهرا بتجاهل غرابة ما حدث ، بأنه لا يحس أن العيون ترقبه ، ثم أشار إلى توحيد السلحدار « السكرتير الثانى » وإلى أحمد رمزى « الملحق » وخرج ثلاثتهم من الحفل بغير توديع لأحد ، بغير استئذان من مصطفى كمال ، ولاحق أسماعهم دوى خلية نحل بالهمسات عن هذه الأزمة الطارئة .

بعد قليل هرع توفيق رشدى أراس وزير خارجية تركيا إلى المفوضية المصرية ليؤكد أن رئيسه لم يقصد إهانة الوزير المفوض أو السخرية بشعاره القومى ، وإنما أراد التلطف مع صديق له ، وإراحته من كرب ثقل لا معنى له . ولكن عبد الملك حمزة احتجب عنه فى غرفة نوم وعكف على

كتابة تقريره إلى حكومته . التقطت بعض الصحف الأوروبية هذا الحادث وأضفت عليه تهاويل كثيرة فأصبح مثار أزمة سياسية بين مصر وتركيا .

وفي يوم ١٥ مارس سنة ١٩٢٣ « عيد جلوس الملك فؤاد » أقامت المفوضية المصرية بأنقرة حفلة كبيرة فخرج مصطفى كمال عن عادته وقصد الذهاب إليها ليبر بلسانه أيضا عن وده للشعب المصرى ، ويمحو بذلك ذكرى حادثة الطربوش ، وكان توحيد السلحدار هو الذى يرأس المفوضية بعد أن سحبت مصر عبد الملك حمزة تعبيرا عن استيائها لما حدث . وهنا لا أتمالك نفسى من الابتسام ، فكأن قدرا عجيبا أراد أن يكون رأس ممثل مصر فى تركيا متميزا دائما بعلامة تفرقه عن بقية الرؤوس فى الحفلات الرسمية ، إذ كان توحيد السلحدار (عليه رحمة الله) قد خرج فى الصباح ليقص شعره - هكذا تقتضيه القيافة - فوقع لسيارته حادث أصاب رأسه بجرح بليغ ، فلما وقف على باب المفوضية لاستقبال مصطفى كمال كان رأسه ملفوفا بضماد متراكم يحجب كل شعره ، وكأنى بمصطفى كمال قال فى سره : ما هذا ؟ مرة طربوش ، ومرة عمامة !

(« المساء » ١٩٢٩/٦/٢ ، ص ٦)

تاتا . . تاتا . . خطى العتبة

هل رأيت الأم البكرية حين تجلس وتفتح ذراعين يشع منها تيار من حنان مغناطيسى جاذب ، على بعد منها الصمت ضناها إثر جهد في وقفة متأرجحة ، ثم ابتعدت عنه مسافة يقيسها صلح بين غلو أملها وغلو خشيتها ، تعلمه أول مرة كيف يصلب عوده ويعتمد على نفسه لاعلى الجدران وحافة المقاعد ويمشى وحده رافع الرأس ناظرا إلى الأمام معلنا استعلاءه على بقية المخلوقات ، ساقاه كرات من عجين فوق قبقاب باتيناج له مقالب ، إن يكن من لحم وعظم طزى فهو في نظر الأم من لؤلؤ وعقيق ، في عين الطفل ابتسامة تجمع بين اللوم والشكر ؛ بين اطمئنان المقامر بفلوس غيره ، وأول شك من إنسان في إنسان ولو كان أمه ، ثم تناغيه بأغنية هي ذوب قلبها ، ما ألذها على سمعه وسمعها : تاتا ، تاتا ،

خطى العتبة ، فيتوكل على الله ويندفع إليها ، سابقا عثراته ، جريا لامشيا لأنه لا يريد أن يقع إلا على صدر أمه فترشقه بقبالاتها وتحضنه حتى تكاد تخنقه .

هكذا كانت مصر ، وهكذا كان ابنها محمد صدقي يوم أن جاءها طائرا من برلين .

لا تفسير لاستقبالها الحماسي له إلا تلك اللهفة المتقدة في قلوب أهل الشرق على إبطال استعلاء الغرب عليهم ، ينبغي أن نخلص من ذهول « الجبرقي » أمام عربة نقل أتربة ذات عجلة واحدة حملها خمسة مقاطف ، ومن انعقاد لسان « شوقي » أمام طائرة فتحي بك ونوري بك وطائرة الفرنسي فيدرين .

من أجل هذه الدلالة سأروى لك قصة مقدم أول طيار مصرى لأرض الوطن ، وهي أيضا تعينك على أن تقيس مدى تقدمنا في برهة وجيزة هي بمثابة غمضة عين ، أصبح لنا اليوم أسطول من طائرات حربية ، وطائرات مدنية تجوب بقاع الأرض يقودها مصريون ، هم في نظري من أفضل سفرائنا ، وحين يسافر الرئيس جمال عبد الناصر لبلد أجنبي لا ينزل إلا من طائرة مصرية من أحدث طراز يقودها مصريون وترفع علم مصر ، هكذا ينبغي لزعيمها ورئيس جمهوريتها ، ونقيس أيضا مدى تقدم لغتنا في غمضة عين من أسلوب زخرفي إلى أسلوب متزن يأنف من البهرجة الرخيصة السخيفة .

في شهر ديسمبر سنة ١٩٢٩ قرر شاب مصرى اسمه محمد صدقي أن يقود طائرة صغيرة من برلين إلى القاهرة ، مسافة هي الآن فرقة كعب ولكنها مهولة في ذلك الوقت . فتألفت على الفور في نادي التجارة العليا لجنة اتخذت لها اسم « لجنة استقبال الطيار المصرى » ووجه سكرتيرها الأستاذ عبد الحليم محمود النداء التالى فى الصحف يوم ١١ ديسمبر :

« أيها المواطنون الأعزاء

بعد هذا النداء دبت الحركة ، فكتب قسم الطيران بوزارة المواصلات إلى مصلحة التلغرافات طالبا منها مخابرة البواخر التي تسير في البحر الأبيض المتوسط لمساعدة الطيار عند الحاجة ومراقبة طائرته ، وكتب كذلك إلى مصلحة الحدود ومصلحة الجمارك لتسهيل السبل له .

وعلقت بعض الصحف على هذا النشاط وقالت إنه لا يكفي ، واقترحت الاتصال بوزارة الخارجية لتكليف وزرائنا المفوضين وقناصلنا بالسعى لدى الحكومات لتقديم المساعدات والتسهيلات للطيار المصري ، واجتمع نفر من طلبة المدارس العالية والخصوصية والأزهر الشريف ، وقرروا إقامة حفلة تكريم للطيار المصري وألفوا من بينهم لجنة ادراية (رئيس ، ووكيل ، وأمين صندوق ، وسكرتير ، ومساعد سكرتير ، وثلاثون عضوا) .

وتألفت لجنة ممثلة في الإسكندرية ، فقررت أن توجه دعوة للمساهمة في الترحيب بالطيار المصري إلى قضاة المحاكم الأهلية والمختلطة والشرعية ، ووكلاء النيابة ، والأطباء ، والمهندسين ، والموظفين الملكيين من الدرجة الرابعة فما فوق ، والعسكريين من درجة البكباشي فما فوق ، ورجال الصحافة . . . ولكن أين الطيار المصري ؟ في العدد الذي امتلأ بأخبار لجان الترحيب خبر صغير يقول إنه كان من المقرر أن يقوم الطيار المصري بطائرته الأمس ، ولكن المراقصد الفلكية أثبتت أن الحالة الجوية في ألمانيا لا تساعد على الطيران ولا بد من تأجيل قيامه من ألمانيا بضعة أيام أخرى وانقطعت أخبار الطيار المصري بضعة أيام ، لأحد يدرى عنه شيئا ، وفجأة قطعت الصحف أخبار أشد حملة انتخابية عرفتها مصر

اليوم تفخر مصر بقادم عزيز من أبنائها يجوب متن الهواء قاصدا إلى
كنانتها ، أجل إنه الطيار محمد أفندى صدقى الذى تسجل مصر ذكره
الخالد فى سجل فخارها وتسطر مجده فى أعلى منارها لأنه أول طيار مصرى
يقوم بهذه الرحلة التى تعلو سمعة مصر بأسرها وترفع رأس الشرق بأكمله
وجدير بكم أيها المواطنون الأعزاء أن يكون استقبالكم لهذا القادم العزيز
عليكم استقبالا تشهد مصر جلاله ويظهر الإخلاص بهجته وجماله ، وإذا
كان لأمرىكا أن تستقبل لندنبرج الطيار الأمريكى بتلك الحفاوة التى
اشتركت فيها الخلائق زرافات ووحدانا مما لم يتسع لوصفه البيان فإن مصر
العريقة فى مجدها لهى أجدر بأن تعرف المجد لبانيه وتحفظ الفضل لذويه .
إن العالم بأسره يرتقب من بعيد ومن قريب ما يظهره المصريون نحو المصرى
الذى رفع فى سمع التاريخ لواءهم وأعلى فى ذرا العظمة بناءهم .

لاتنسوا أيها المصريون نصيبيكم من شعوركم فى أول يوم يقدم فيه أول
طيار مصرى عليكم ، ففى الساعة التى يهبط فيها من ذروة الهواء ستبلغ
حفاوتكم عنان السماء ويرتفع صوت مصر عاليا فى الأرجاء بما أنجبت من
خير الأبناء . أيها المصريون : اثبتوا لممالك الأرض وشعوبها وفى مسمع
الدنيا وبصرها أنكم تقدرון المجاهدين منكم والعالمين فيكم ، فليس هذا
التكريم خاصا بصدقى وحده بل هو تكريم النبوغ والعبقرية ، وتمجيد
لروح النهضة الفنية ودليل على شعوركم بالكرامة القومية والسمعة
المصرية ، فعلى الطائر الميمون أيها القادم المحبوب ، ستستقبلك منا
الأرواح والقلوب وستشهد مصر فى استقبالك يوما يكون عيداً تعرفه لها
الأمم والشعوب » .

وتطاحت فيها الأحزاب ونشرت بأكبر مانشيت يوم ١٥ ديسمبر (قيام
الطيار المصرى من برلين الساعة ١٥ر١١ صباحا يوم ١٤ ديسمبر ووجهته
براغ فبرنديزى » وأعلنت الصحف بدء الاكتاب فى حفلات التكريم
ووعدت بنشر أسماء المشتركين .

وفى يوم ١٦ ديسمبر نشرت الصحف أن أخبار الطيار تدل على أنه
وصل الى درسدن فى الساعة الأولى بعد ظهر يوم ١٤ ديسمبر ووجد أن حالة
الجو تقضى عليه بالنزول فنزل ، وهناك نصحه العارفون بأن يترىث حتى
يصبح الجو ملائما فترىث .

وبعد هذا الخبر عمودان عن استعدادات الاستقبال فى القاهرة
والاسكندرية .

يوم ١٧ ديسمبر : كانت رداءة الجو سببا فى أن يؤجل الطيار المصرى
طيرانه من درسدن ولم ترد حتى أمس أنباء عن قيامه منها .

وجاءنا من مراسلنا بالإسكندرية أن الاستعدادات قائمة على قدم
وساق لاستقباله .

ونشرت الصحف أول قائمة للمتبرعين يوم ١٨ ديسمبر . هدأت
العواصف قليلا ، وأخذت سحب الضباب تتبدد شيئا فشيئا ، وغادر
الطيار المصرى درسدن أول أمس فى الساعة العاشرة صباحا ووصل الى
براغ بعد ساعة حيث استقبله المصريون هناك استقبالا حافلا ، ثم غادرها
إلى فينا ، وينتظر أن يصل الى مصر يوم الخميس ١٩ ديسمبر لو ساعدت
الأحوال الجوية ، ويمكث فى القاهرة أسبوعا ، ثم يغادرها إلى

الإسكندرية ، ومنها الى بنى غازى وتونس والجزائر وبرشلونة ومرسيليا وليون وباريس وروتردام وبرلين (لاشك أن هذا البرنامج من وضع لجنة الاستقبال لامن وضع الطيار)
عمود كامل فى وصف الاستعدادات لاستقباله .

يوم ١٩ ديسمبر : تمكن الطيار بعد هدوء العواصف قليلا من استئناف طيرانه من فينا إلى بودابست وسيسافر منها إلى أثينا .

وعهد الى شركة مصر للتمثيل والسينما أخذ مناظر استقبال الطيار عند وصوله فى شوارع العاصمة . ونشرت القائمة الثانية للتبرعات .

يوم ٢٠ ديسمبر : لاتزال الأحوال الجوية فى أوروبا سيئة فاضطر الطيار المصرى الى النزول فى بلدة بيلجرام الواقعة على بعد ٩٠ كيلومترا من براغ - بقية العمود فى وصف نشاط لجنة الاستقبال .

يوم ٢١ ديسمبر : فى الساعة الواحدة والربع بعد ظهر أول أمس غادر الطيار مدينة بيلجرام ووصل إلى فينا فى الساعة الثانية والدقيقة ٥٥ وبقي بها ينتظر تحسن الجو .

لم يحدد موعد وصول الطيار لمصر وسيعلن عن ذلك فى الصحف فى حينه .

يوم ٢٢ ديسمبر : ورد من الطيار صدق التلغراف الآلى للجنة التكريم بنادى التجارة « أوافق كل الموافقة على ترتيبات لجنة النادى بخصوص استقبالى فى القاهرة ، وتمنعنى العواصف الشديدة فوق جبال الألب من القيام اليوم وربما تمكنت من القيام غدا . »

يوم ٢٤ ديسمبر : ظهرت أوائل نتائج الانتخابات ولم تشر الصحف بكلمة الى الطيار المصرى .

يوم ٢٥ ديسمبر : جاءنا من لجنة استقبال الطيار المصرى أنها حين علمت اعتزامه الاستمرار فى الطيران على الرغم من اشتداد العواصف أرسلت إليه البرقية التالية « الطيار صدقى - فينا : انتظروا تحسن الجو ولا داعى للعجلة نريدكم سالمين ولو طال الأجل » وبدأ فى ذلك اليوم توزيع تذاكر الدعوة

يوم ٢٦ ديسمبر : ليس فى صحيفة «كوكب الشرق » خبر واحد عن رحلة الطيار والظاهر أنها كانت مخصصة لها مكانا فملأته بالخبر التالى « وكيل كوكب الشرق فى الغربية ، قد اعتمدنا الشيخ عبد الفتاح زوين السرسناوى وكيلا عاما ومراسلا فى مديرية الغربية فنرجو من حضرات مشتركينا الكرام اعتماده فى جميع شئون الجريدة »

يوم ٢٧ ديسمبر : لاخبر عن الطيار

يوم ٢٨ ديسمبر : شرحه

يوم ٢٩ ديسمبر : شرحه

يوم ٣٠ ديسمبر : شرحه

يوم ٣١ ديسمبر : شرحه

ينبغى أن نقفز ليوم ٢٤ يناير ، ابتدأت تظهر أخبار لرحلة بالطائرة يقوم بها أحمد حسنين من باريس لمصر ولكننا نتركها جانبا . .

إننى أجل ذكرى صدقى ولا أنسى فضله ، لذلك سأعفيك أيها القارىء من تتبع أخبار هذه الطائرة العجيبة وما جرى لها بالتمام والكمال

في البحر والأرض . يكفي أن تعلم أن الصحف والناس معها كادت تنسى أخباره ، ثم إذا به يظهر فجأة . بشرتنا صحيفة « كوكب الشرق » يوم ٢٥ يناير بأن الطيار صدقي سيصل الى مطار هليوبوليس في الساعة الثالثة من بعد ظهر يوم ٢٦ يناير . . يلي ذلك وصف من مراسم الاستقبال .

ولكن صدقي لم يهبط في هليوبوليس بل هبط في الإسكندرية ، أول شبر بدا له من أرض الوطن ، إنه أمسك بذراع أمه الممتد إليه قبل أن يضمه صدرها في القاهرة .

وظهرت صحيفة « كوكب الشرق » يوم ٢٦ يناير وعلى صفحتها الأولى « مانشيت » كبير يعلن « وصول أول طيار مصري لأرض مصر - الشعب السكندري وبهجتته ، الوزراء يستقبلون اليوم الطيار في مطار هليوبوليس »

وقال الأستاذ عبد الغنى حسن تحية الشباب للطيار الشاب - قصيدة طويلة مطلعها :

« تخذ السماء إلى علاه مطارا
ورمى بأجواز الفضاء وطارا »

ثم بعد ذلك صفحة كاملة في وصف استقباله في الإسكندرية .

وفي يوم ٢٧ يناير نشرت الصحف وصف وصوله للقاهرة ، وكيف حمله الناس على الأكتاف وفي أعينهم دموع الفرح . لقد تعلم الابن كيف يمشى في السماء أول مرة . .

وقال خليل مطران قصيدة مطلعها :

« عائدا برعاية الرحمن النيل راض عنك والهرمان

أما شوقي ، فقد عاد إلى العقاب والحوت والنحلة وبساط الريح
(ارتباط هذه المخلوقات في ذهن شوقي بالطائفة ظاهرة عجيبة) فقال :

أعقاب في عنان الجولاح	أم سحب فر من هوج الرياح
أم بساط الريح ردتته النوى	بعد ما طوف في الدهر وساح
أو كان البرج ألقى حوته	فترامى في السماوات الفساح
أقبلت من بعد نحسبها	نحلة عنت وطنت في البراح

ولكنه قال بعد ذلك كلاماً جميلاً في حفرة الشباب كما عبر عن قلق

مصر لغياب الطائر :

ولقد ابطأت حتى لم ينم	للحمى ليل ولم ينعم صباح
فابتغى العذر كرام وانبرت	ألسن في الثلم والهدم فصاح

يسعدني أيها القارئ العزيز أن طمأنتك على مدى التقدم الذي
أحرزناه في أقل من ٣٠ سنة ، وهي غمضة عين في عمر الأمم ، ولكن
لا تنس أن الحديث هو عن لهفة الشرق على إبطال استعلاء الغرب فكما
لا يمكن بغيرها تفسير هذه الحفاوة البالغة بالطيار صدق فكذلك هي
وحدها التي تفسر المشاعر التي ملأت قلوبنا ونحن نشهد في مطلع القرن
حروباً متتالية بين الشرق والغرب . وهذا ما سأرويهِ لك في مقالتي القادم .

(المساء ، ١٥/١/١٩٦٢ ، ص ٨)

منادمة الحروب

ليس هذا المقال يبحث في التاريخ ، لا يهمنى تحديد أزمان الوقائع بل قد أخطىء في ترتيبها . إنما أتحدث عن الأثر المتخلف في نفسى عن الحروب العديدة التى عاصرتها منذ مولدى فى مطلع القرن — والنفس آلة عجيبة تجمع بين عمل الخلاطة والمصفاة والثلاجة وفرن حريق الأوراق المالية القديمة . وأزعم أن هذا الأثر لم يكن إلا صدى لإحساس شعبنا كله ، لذلك لا أجد من البجاجة أن أتقدم بشهادتى مطالبا بتصديقها دون حلف يمين . ولولا وثوقى بأن الكلام فيه عظة للجيل الحاضر وتبصير له بماضيه وحث له على قراءة تاريخه الحديث لما ناجيته به .

أقول له إن إحساس الشعب بهذه الحروب كان مسيرا بعاطفتين قويتين الأولى : لهفة على كسر استعلاء الغرب على الشرق ، والثانية عداؤنا للإنجليز ، ومن وراء هذا كله تكشف بطىء للقومية العربية ، وانتقالها من فكرة غامضة مثالية إلى عقيدة ثابتة عملية ، وانتباه متأخر للخطط الاستعمارية التى استهدفت أولا هدم « البعبع » الذى كان يسمى

« الخلافة » . ولم يكن هذا « البعبع » إلا « شخص مقاة » أشد خوفا من الخائفين منه ، ثم تقسيم البلاد العربية وفصل بعضها عن بعض ورسم دوائر صغيرة بالبرجل حول آبار الزيت تسمى الدائرة دولة أو إمارة أو مشيخة ، ليعيش الشرق العربي كله محروما من ثرواته مقطوع الأوصال ، ثم أقاموا إسرائيل لتحز رقبة الجمل الممتد من الأطلس إلى الخليج العربي لتفصلها عن جسده .

خذ مثلا : في سنة ١٩١٢ وقعت حربان ؛ الأولى : هجوم على تركيا في شمال إفريقيا ، غزو إيطاليا لطرابلس الغرب ، والثانية : هجوم على تركيا في البلقان لطردها من أوروبا وإرجاع شعبها إلى آسيا موطنه الأصلي . أوروبا حضارة وقبعات لا مكان فيها لشعب آسيوى متأخر يلبس الطربوش وآسيا كلها في نظر أهل أوروبا نهب لهم لأنها أخط منهم .

وكنت حينئذ في المدرسة الابتدائية «أم عباس» نسمع عن بعثات الهلال الأحمر لليبيا ، ونتعلق بأخبار الشريف السنوسى المجاهد الكبير ، وأنور باشا ، وعزيز المصرى . وأجد اليوم من أعجب العجب في الغفلة والحماسة أن قلوبنا آنئذ اهتزت لحرب البلقان — كما سترى — وهى بعيدة عنا أكثر من اهتزازها لحرب طرابلس وهى أختنا وجارتنا اللصيقة بنا ، كأننا كنا — أولا — قد وثقنا أن شمال إفريقيا كله ضاع منا ، اسم عبد القادر الجزائرى يمثل آخر حصن يقع فى يد الأعداء . كل أرض بعده سداح مداح . وكأننا لم نحس بالحزن على ليبيا (وسمعتها عندنا أنها جرداء) وسط أحزان أشد على مراکش والجزائر وتونس ، وسمعتها عندنا أنها من جنان الأرض .

وفوق ذلك فإن مشاغلنا بالاحتلال البريطاني وفتنتنا ببعض مظاهر المدنية المستوردة لبلادنا جعل فكرتنا عن أختنا جارتنا الغربية مغلخلة غامضة . لما كبرت وقرأت مذكرات الداهية سيررونالد ستورس السكرتير الشرقى سنين طويلة لدار الحماية فى مصر رأيت يروى حديثا له مع السلطان حسين جاء فيه ذكر السنوسى ، فإذا بالسلطان يشيح بذراعه مستهونا ويحجب «ومن يكون هذا المرابط الفقير؟» لم أجد فى ديوان «شوقى» قصيدة تمجد الجهاد فى طرابلس وتبكى ضياعها . ينبغى أن تمر أعوام عديدة لتستيقظ فكرة القومية العربية وينطلق لسان «شوقى» برثاء البطل عمر المختار حين قتله الطليان شرقتة سنة ١٩٣١ ، ولم يرحموا سنه التى ضعفت على السبعين :

«ركزوا رفاتك فى الرمال لواء يستنهض الوادى صباح مساء»

وكنت أجوس خلال ليبيا حين ذهبت إليها سنة ١٩٥٣ وأنا أرفع كفى ووجهى للسماء شكرا لله على خلاصها من حكم موسولبنى ، لو طال أمدده بها قليلا لأفنى شعبها الباسل كله . وإذا كانت مصر قد ظنت حيثذ أنها بمنجى من ميدان المعركة فقد استيقظت سنة ١٩٣٩ لتجد نفسها وسط كماشة إيطالية تضغط عليها من الغرب ومن الجنوب الشرقى . فالخطر على ليبيا كان خطرا على مصر والسودان .

والغريب أننا لم نتعظ بهذا الدرس . وكما أغفلنا جارتنا الغربية زمنا أغفلنا جارتنا الشرقية كذلك إننى لا ولن أغتفر أبدا لسااستنا القدماء من أولهم لآخرهم لأنهم لم ينبهونا إلى خطر إسرائيل القادم . لما قرأت مذكرات الأديب فالح رفقى عن اشتراكه فى حرب القناة سنة ١٩١٥ هالنى أننى

وجدته يذكر أنه رأى أرضاً في فلسطين تقوم فيها إدارة يهودية لها بريدها الخاص . لم يذكر لنا ساستنا شيئاً عن مغزى وجود حاييم وايزمان في مؤتمر الصلح بباريس سنة ١٩١٩ واتصالاته ببعض المرشحين لعروش في الشرق العربي . كان لابد أن نتلقى درساً قاسياً لنستيقظ . كنا مخدوعين فكانت يقظتنا عنيفة مؤلمة .

ولكن قلوبنا اهتزت اهتزازاً شديداً لسقوط مدينة أدرنة في يد الأعداء في حرب البلقان لأننا أحسنا بغريزتنا أن المقصود هو طرد شعب شرقي من أوروبا إتماماً لا ستعلائها علينا وأنفة منها أن تعاشرنا إلا معاشرة السيد للعبد لا الند للند . انطلق لسان «شوقي» يرثي أدرنة :

« يا أخت أندلس عليك سلام

هوت الخلفة عنك والإسلام »

وكنا في المدرسة الابتدائية نردد هذا البيت الحزين ونتتبع أخبار الحرب ، وتجري على ألسنتنا أسماء « أنور » و « نيازى » . قال التلميذ شاعر الفصل قصيدة ومطلعها : « أين سيوفك يا أنور ؟ أين المدافع يا نيازى ؟ » ، ثم نجتمع ويسأل بعضنا بعضاً : ألم يقولوا لنا بلهجة التأكيد إن الخليفة يحتفظ في خزائنه لوقت الزنقة بالبندق النبوى ، وإنه لو خرج به للقتال ونشره فوق رأسه محق أقوى الجيوش محققاً ؟ فهل الخليفة مغفل لا يرى أن هذا هو وقت الزنقة ؟ لماذا يوقعنا في الذل وفي يده هذا السلاح ؟ كان لومنا له لا ينتهى .

ورجعت إلى البيت فهالني أن عمى محمود طاهر حقى صاحب « الجريدة الأسبوعية » يدخل علينا وعلى رأسه طربوش أبيض لا أحمر ، إذ

كنا نستورد الطرابيش الحمر من النمسا التي انتزعت غدرا من يد تركيا
مقاطعتي البوسنة والهرسك ، فامتنع بعض المصريين عن لبس طرابيشها .
لا أدري إلى اليوم من أين أتى عمى بهذا الطربوش الأبيض . أم هل تراه
صبغ طربوشه القديم ؟ مهما يكن من أمر فإنى رفعتة فى ذلك اليوم إلى
مصاف الأبطال ، ونظرت إليه بخشوع وإكبار وتمنيت أن أكون مثله فى
الوطنية .

خيم ظلام اليأس على قلوبنا سقطت حصوننا جميعا وجردنا من كل
سلاح وصاح شاعر إنجلترا : «الشرق شرق والغرب غرب» . أفندرى إلى
أين اتجهنا بقلوبنا نلتمس العزاء ؟ لم نتجه إلى «استانبول» أو «اسلامبول» أو
دار السعادة ، لأنها كان ينطبق عليها المثل القائل «جبتك يا عبد المعين
تعينى لقيتك يا عبد المعين تنعان» . هذا مبدأ انصراف شعورنا عن دولة
الخلافة واهتمامنا بمنطقتنا .

ألقيت فى ذلك العهد بذرة القومية العربية . لم نتجه للباب العالى وهو
واطى ، ولا إلى الصدر الأعظم وهو الصدر الأضال ، بل اتجهنا إلى بلاد
بعيدة عنا آلاف الأميال تختلف عنا كل الاختلاف ، حتى دينها يحتاج إلى
عمر طويل لفهمه ، لا نعرف عنها إلا القليل . اتجهنا إلى اليابان . كان
اسمها عزيزا لدينا موحيا لنا بالثقة فى أنفسنا وبإمكان كسر استعلاء
الغرب . ذلك لأن اليابان وهى دولة شرقية استطاعت فى سنة ١٩٠٥ هزم
امبراطورية أوروبية ضخمة مخيفة اسمها روسيا القيصرية . هزمتها أشنع
هزيمة . قال المؤرخون حينئذ إنه لم يحدث منذ ثلاثة قرون ونصف قرن أن
انتصرت أمة آسيوية على دولة أوروبية ، فجاءت اليابان وكسرت هذا

الوهم . ولقد نشأت في جيل متأثر بالحرب اليابانية الروسية أشد التأثر ، لا شيء إلا لأنها رمز القضاء على استعلاء الغرب علينا وعلى قدرتنا بلوغ مستواه في العلم والصناعة والحرب .

لا أزال أذكر كتاباً صغيراً وقع في يدي وأنا صبي اسمه «الشمس المشرقة» ، على غلافه صورة رجل قزم صارم كأنما خلقه الله قبل أن يخلق الإنسان ، يلبس بدلة طقم موسيقى حسب الله تهبط إلى ما تحت الركبة ، على رأسه قبعة بيضاء حربية . هذا هو الأميرال توجو الذي وقف بأسطوله في مياه بلاده ينتظر تشريف الأسطول الروسى بجلالة قدره . إنه قادم من بحر البلطيق . ينبغي أن يدور حول الكرة الأرضية كلها ليصل إلى خصمه . وكان أمام الأسطول الروسى طريقان لدخول مياه اليابان : طريق يقضى به المنطق السليم ، وطريق آخر يستهوى من يريد الخداع والبلف . وكان لابد للأميرال توجو أن يجيب على هذا السؤال : من أى طريق سيأتى من الطريق الأول اعتماداً منهم على أن اليابانيين ماكرون فسيظنون فيهم المكر أيضاً ويحكمون بأنهم سيأتون من الطريق الثانى . ولكن توجو كان أمكر منهم فعدل عن مكره .

كنت أتأمل صورة توجو بخوف شديد ولكن بانبهار وإعجاب . وقد عاش توجو ٨٥ سنة ومات سنة ١٩٣٤ . ولعلك تضحك إذا قلت لك إن الأسطول الروسى المتهوس خايب الرجا لم يكد يجبر خطوتين ويدخل بحر الشمال بضبابه حتى فقد صوابه وظن أن مدمرة يابانية قد خطفت رجلها وجاءت لمنازلته فأطلق عليها كل مدافعه . لم تكن المدمرة إلا قارب صيد لدولة صديقة . وكانت فضيحة تنذر بالمصير المشؤوم الذى يتظره .

سمعنا حينئذ عن شجاعة الجندي الياباني وتفضيله الموت على الأسر ، وإقباله على فداء وطنه بروحه . قيل لنا إن الجنود اليابانيين أقاموا أمام حصن بورآرثر جسرا من جثثهم ليرقى عليه إخوانهم الأحياء . سمعنا بعد ذلك عن الهاراكيري والجيشا والحمالة الياباني .

ولم يكن انتصار اليابان على روسيا قاصرا في نظرنا على ضرب المثل لهزيمة الغرب أمام الشرق ، بل كانت له دلالة أخرى بالغة الأهمية تعلقت بها قلوبنا بفرح شديد وظننا أننا وجدنا فيها مخرجا من حيرة عظيمة فقد علمنا أن اليابان انتصرت لأنها اقتبست من الغرب علمه وصناعته وفنون حربه وآلاته ، مدافعه وأساطيله ، ولكنها وهى تقبست هذا كله وتجارى الغرب فى ملبسه الخارجى لم تتخل قط عن تقاليدها وشعائرها القديمة واستطاعت أن توفق بين القديم والجديد فهذا الضابط أو العامل أو رئيس الوزراء يلبسون كأهل الغرب فى مكاتبهم ، فإذا فرغوا من عملهم عادوا إلى بيوت من البامبو ولبسوا الكيمونو وجلسوا على الأرض يأكلون بزوج من العصى الرفيعة . لم تمس تقاليد الحكم ولا تقاليد الأسرة . وكنا حينئذ نحن فى الشرق العربى نعانى حيرة شديدة وخوفا عظيما من أن يكون شرط اقتباسنا لعلوم الغرب وأدواته أن نتنازل عن كل تقاليدنا ؛ بل كان يقال لنا بإصرار إن لا مفر لنا من ذلك إن أردنا أن نكون شعبا متحضرا فجاءت اليابان وكذبت هذه المزاعم كلها .

شهد أبناء الجيل الذى سبقنى كما شهدت أنا فيما بعد فى أوروبا تلاميذ صفير الوجوه أقرب إلى الأقزام يجوسون خلال ممرات الجامعات كالفيران ، مسرعين لا يلوون على شىء صامتين صمت القبور ، فى عيونهم عزم شديد

وصبر أشد ، يقتلون أنفسهم في الدراسة وجمع المعلومات . إنهم أبناء اليابان ، ليس همهم حفظ العلم من الكتب ، بل نقل أساليب الصناعة الحديثة . كل منهم كأنه ملسوع يتحرق للعودة إلى وطنه ليقوم بواجبه : فليسمع هذا الكلام علماؤنا الأجلاء المتخلفون في أوروبا الآن مرتبهم في مصر سيكون ٥٠ جنيهاً فقط .

ثم ما لبثت اليابان أن أغرقت الأسواق بساعات تباع بالرطل ، ولعب أطفال بالقنطار ، والحرير بسعر التراب . فكادت أوروبا تشد شعر رأسها من الغيظ . وتزعّم غليوم الثاني امبراطور ألمانيا حملة تبصر بالخطر الأصفر . لما زرت قصره في برلين سنة ١٩٣٩ وجدت أغلب الكتب في مكتبته تدور حول هذا الموضوع . هذا هو شأن ألمانيا تزعم أنها القلعة التي تحمي المدنية الأوروبية من الشعوب الآسيوية وهذا هو الذي يفسر موقفها الحالي من الاتحاد السوفيتي .

ولكن اهتمامنا باليابان تضاعف سريعا لم نتبع خطواتها التالية ، لعل السبب أنها بعيدة جداً ومختلفة جدا عنا . ولعل السبب أيضا أننا أصبنا بخيبة أمل حين رأيناها كما تقتبس من الغرب علمه وصناعته تقتبس أيضا تفكيره العدواني ، فراحت تغزو أرض جارتها الصين زاعمة أن لها مصالح حيوية ، نفس الكلام الذي يقوله الاستعمار الغربي حتى كدنا نصدق الجغرافيين الذين يرون أن اليابان صورة طبق الأصل لإنجلترا في أقصى الشرق .

(« المساء » ، ٨/١/١٩٦٢ ، ص ٨)

كَبْش نطاح !

كانت اليابان أول دولة شرقية كسرت احتكار الغرب زمنا طويلا للغلبة والسلطان والعلوم الحديثة . هللنا في مصر لهذا الانتصار وفرحنا به بالرغم من أن اليابان كانت حليفة لإنجلترا ، وبالرغم من البعد الشاسع بيننا وبينها في المكان والألوان والتاريخ والعادات . وأشهد أن لم يكن في قلوبنا كثيرا أو قليلا من التشفى في روسيا القيصرية ، وقد أصبح أنفها في الرغام مع أن أسبابا عديدة كانت تشفع لنا لو أننا تشفينا . ذلك أن اهتمامنا تركز على بلاد الشمس المشرقة التي بددت ولو قليلا من اليأس المخيم على قلوبنا ، أشعلت لنا مصباحا رأيناه - وإن خفت ضوءه - في نهاية طريق طويل طويل .

ولم يكن سبب فرحنا قاصرا على أن دولة شرقية نجحت في اقتباس علوم الغرب وسلاحه ، وانتصرت عليه ، ووقفت منه موقف الند للند لا العبد للسيد ، بل - قبل كل شيء - لأنها وهى تفعل ذلك لم تتحرر من تقاليدها ، ولم يكن الثمن الذى دفعته هو ذبحها لقوميتها وانمحاءها في

الغرب . ذلك أن أصواتا كانت قد بدأت ترتفع في مصر تزعم أن لا مناص لنا من التحرر من ماضيها كله بحسنه وورديته إن أردنا اقتباس حضارة الغرب ، بل تضيف أن لا مفر لنا ونحن نقتبس هذه الحضارة من أن نقتبسها بحسنها وورديتها لأنها كل لا يتجزأ .

وكنا في أشد الخوف من دفع هذا الثمن ، وطال بحثنا عن حلول تتيح لنا التوفيق بين قوميتنا وحضارة الغرب . إن هذا البحث هو سمة مطلع القرن العشرين في بلادنا ومحور تاريخه الوجداني .

ولكن اهتمامنا باليابان ذاب سريعا . (أقول هذا وأنا رافض اتهام المتنبي لبلدنا بأن كل شيء فيه ينسى بعد حين) فقد كانت هناك أسباب قوية عديدة تحملنا على نسيان اليابان ، وأول الأسباب أننا وقفنا إزاء انتصارها عند حد الهزة العاطفية ولم نتجاوزها . لم تكن لنا حينئذ قدرة أو يقظة وعى ، تمكننا من متابعة أخبار اليابان ودراسة الوسائل التي حققت بها الجمع بين انتصارها واحتفاظها بتقاليدها ، ومن شأن الهزة العاطفية — إذا لم يسندها الفكر — أن تزول سريعا .

ولأننا — ثانيا — رأيناها لا تكاد تنتصر حتى أمعنت في السطو على الصين — جارتها وقريبتها — وغزو أراضيها . قلنا : هل خرجنا من عهد استعمار غربي لنقع في عهد استعمار شرقي ؟

بدأت اليابان تتكلم بلغة الاستعمار الغربي وتقول إن لها مصالح حيوية في الصين . أفلا تنتهى حكاية المصالح الحيوية ؟!

وأخذنا - في امتعاضنا - ننصت قليلا لاتهمم الغرب بأن سر رخص بضائع اليابان هو استعبادها للعامل استعبادا وحشيا .

ثم لأننا - أخيرا - كنا مشغولين بمعركتنا ، وكان مسرح هذه المعركة محليا وضيقا جدا ، وازدحم عليه رغم ضيقه رجال كان يكفى واحد منهم لأن يشغل أمتنا ، فما بالك بصراع بعضهم لبعض : كرومر الداهية ، قنصل يقوم بدور الملك المتوج ، وعباس الداهية ، الأمير المتوج ، يجمع بين دور رئيس أكبر جهاز للمخابرات ودور البهلوان ، ودور « الفتوة » المستعار من حى آخر ، يهيمه أن يكون الغنم له قبل غيره من أهل « الحقة » . فإذا تعرض هو للأذى خضع واستكان .

ومصطفى كامل يتكلم من فم السياسى بلسان الشاعر ، والداهية الشيخ محمد عبده ، هو سياسى بطبعه يَخْتَنق مكرها فى دور يقتضيه أن يلبس جبة دينية وعمامة أزهرية ، والداهية الشيخ على يوسف الصحفى الصعيدى يقوم بدور ساحر كيميائى فيخلط للشعب بين لذة الأحلام وحرارة الواقع فى كأس يسهل شربها .

نسينا اليابان والشرق الأقصى كله . لم يفلح فى إثارة اهتمامنا من جديد حروب أهلية عديدة فى الصين ، بل كنا نقرأ أخبارها بابتسام لأنها كانت على مر السنين الطوال لا تخرج عن الصورة التالية « تؤكد الأنباء انتصار الجنرال (شو - صان - لى) على الجنرال (لو - سى - وان) ولكن الجنرال (فو - شان - سى) قد قام بثورة فى الشمال » . كيف تتطلب منا بعد ذلك أن نفهم شيئا ؟

ولكننا كنا ندرك بإحساس خفى أن الدماء الغزيرة التى تراق فى هذه الحروب إنما هى زيق رفيع من الدمبقى تحت ظفر عملاق يحك جلده وهو يتقلب فى نومه على فراش ملء بالبقر والبراغيث . سيستيقظ يوما ، وحينئذ لن يعلم إلا الله وحده ماذا سيكون من شأنه ، وماذا سيكون من شأن الدنيا معه .

* * *

كان ينبغى أن نقفز عشرين سنة لنشهد مرة أخرى كيف تنتصر على الغرب أمة شرقية ، هى هذه المرة قرية منا وتعد من منطقتنا ، حقا لنا منها ذكريات مريرة ، ولكن يقينا لا ننسى لها أنها دولة الخلافة وأن ديننا واحد . . . خرجت تركيا من الحرب العالمية الأولى وهى محطمة جاثية على الأرض ، ارتفع فى عاصمتها أعلام ثلاث دول كبرى (كانت بروفة لبرلين اليوم) . احتلت اليونان أعنى مناطق الأناضول وأوغلت فيه حتى كادت تبلغ قلبه فتطعنه طعنة مميتة . لم يكن احتلال أرض فحسب ، بل إبدال سكان بسكان .

وتقاسمت إيطاليا وفرنسا بقية من أراضيها . الخزانة مفلسة ، والجيش التركى مهزوم مبدد ليس عنده سلاح ، والأسطول صفر . والأدهى من ذلك كله أن الساسة القدماء وأغلب المثقفين الذين يعيشون فى ظلال الأجانب فى الصالونات وحفلات السفارات بدأوا يفقدون الثقة فى أمتهم ، وآمنوا جميعا أن لا مفر من قبول حماية دولة كبيرة ، ثم اختلفوا فيما بينهم أيها الأفضل ؛ إنجلتر أم أمريكا .

ولو كانت الأرض المتزعة هى من ولاياتها العربية السابقة لقاتل تركيا

«مع السلامة ، فى ستين داهية» ، ولكنها أرض الأناضول ، موطن الأتراك ، ليس لهم من بيت غيرها . ويا لها من أرض تحس حين تراها أن زلازل وبراكين العصور الجيولوجية الأولى لم تكن قد خمدت إلا بالأمس .

فإذا بنا نرى قائدا تركيا اسمه مصطفى كمال ، أعزب ، مشدودا كالقوس ، عنيدا كالنيس ، ماكرا كالثعلب ، يعيش لا صديق له ولا نوم . . . ينجح بفضل مجهود شعبى رائع اشترك فيه الفلاح المعلم مع الجندى ، والمرأة العجوز مع الفتى الشاب ، فى إنزال أعلام الدول الكبرى وإجلاء الفرنسيين والإيطاليين ، وفى دحر جيوش اليونان (ومن ورائهم إنجلترا) ومطاردتها جريا فى قلب الأناضول حتى أغرقها فى البحر ، وظهر بلاده كلها من جميع الأجانب الدخلاء . لم يتورع أن يكون سلاحه أشد أنواع العنف .

ورأيناه — كما ينتصر فى ميدان الحرب — ينتصر فى ميدان السياسة ، ويعرف كيف يضرب الدول الكبرى بعضها ببعض .

وقفت مصر كلها على قدم واحدة تهلل لمصطفى كمال من أجل انتصار الشرق ، من أجل انتصار الإسلام هذه المرة .

كنت حينئذ فى مدينة الإسكندرية ، وكانت تصدر بها صحيفة اسمها «وادی النيل» تهتم بنشر أنباء الحرب فى تركيا ، فرأيت بعينى كيف يتخاطف الجمهور أعدادها وحبورها لا يزال طازجا اختطاف الناس لألواح الثلج فى يوم من شهر أغسطس .

أين «شوقى» الشاعر؟ ها هو ذا - كعادته - يخرج علينا بقصيدة
تسجل اهتزاز قلوبنا عنوانها «انتصار الترك في الحرب والسياسة» ،
ومطلعها :

«الله أكبر كم في الفتح من عجب
يا خالد الترك جدد خالد العرب» .

ولكن إذا كانت هزتنا العاطفية لانتصار اليابان قد ماتت ميتة طبيعية
على فراش النسيان ، فإن هزتنا العاطفية لانتصار تركيا ماتت غيلة وبطعنة
خنجر من يد هذا الذى كنا نهلل له . لم يكد مصطفى كمال ينتصر حتى
تنكر لجميع وعوده ، وأصبح كالثور الهائج فى مصنع الخزف . حطم كل
شيء وجده فى طريق أمته ، دينها ، لغتها ، خطها ، عاداتها ،
تقاليدها . . ألغى الخلافة ، وطرد الخليفة وكل أسرته شر طردة .

فهمنا حينئذ - ونحن فى شدة الحزن - أن الثمن الذى دفعه هو
ارتماؤه فى أحضان الغرب ، فأسقطناه من حسابنا وولينا له ظهورنا . طالما
رأيت صورته أثناء المعركة وهو جالس بين مشايخ الإسلام فى الأناضول ،
على رأسه القبعة ، وعلى رؤوسهم العمام ، يده فى يدهم يحلفون على
القرآن . فلما انتصر مزق القرآن ولبس البرنيطة وشنقهم جميعا دون أن
تطرف له عين .

لا تسل عن حزننا فى مصر . بكينا مع «شوقى» على مطلع قصيدته
النائحة التى يرثى بها الخلافة :

«عادت أغاني العرس رجع نواح
ونعيت بين معالم الأفراح»

ثم يقول لمصطفى كمال :

«مالي أطوقه الملام وطالما
قلدته المأثور من أمداحي
هو ركن مملكة وحائط دولة
وقريع شهباء وكبش نطاح
الحق أولى من وليك حرمة
وأحق منه نصرة وكفاح

وكنت في مدينة جدة بالحجاز يوم إلغاء الخلافة ، فرأيت جميع قناصل
الدول الاستعمارية (وكلهم من رجال وزارة المستعمرات لا الخارجية)
يقيمون الحفلات ويسكرون ابتهاجا بهذا الإلغاء .

ما تفسير مسلك مصطفى كمال . إن تاريخه السياسي لا يزال
غامضا . لا بد أن أسرارا كثيرة دفنت معه . لا مرشد لنا للانضمام إلى قول
المعجبين به بأن كل الذي فعله هو من إرادته وحده ، أو إلى قول خصومه
بأن مؤامرة دبرت بليل بينه وبين دول أجنبية يهملها هدم الخلافة وفصل
تركيا عن الشرق ، ولو ضححت من أجل ذلك باليونان .

الله أعلم . . ولكن ما انكشف من سيرته الخاصة بعد ذلك قد يعيننا
على فهم مزاجه ، إن فاتنا الإمام بسر سياسته ، فقد روت أخته «مقبولة
هانم» بعد موته أنه كان — كبقية الأطفال — يدرس اللغة العربية في
المدارس ، وكان معلم الفصل رجلا معهما بدينا فظا غليظ القلب قاسيا ،
طلب إلى مصطفى كمال ذات يوم أن يخرج إلى التختة ، ويردد أشكال

تصريف الفعل العربي الثلاثي المسند للمتكلم والغائب والمخاطب ، مذكرا ومؤنثا ، مفردا وجمعا ، ماضيا ومضارعا ومستقبلا . ما أشق حروف القاف والضاد والعين على الأتراك ! تلعثم الصبى لأنه كان بليدا جدا في اللغة العربية ، فصفعه أستاذه وضربه أمام رفقاءه ، وهو المغرور منذ طفولته بنفسه ، المعتد بكبريائه إلى حد الهوس والجنون .

فمنذ ذلك اليوم البعيد قرر مصطفى كمال إعدام اللغة العربية وكل لابس عمامة .

وروت أخته أيضا كيف حضر وهو ضابط مطربش مناورات الجيش الألماني في برلين قبل الحرب ، وجلس بين ضباط ألمان كل منهم يحسب نفسه المارشال مولتكه الكبير ، فأبدى مصطفى كمال رأيه . . نظر إليه رفقاؤه شزرا ، ولم يعنوا بالرد عليه . مثلك يقف موقف المتفرج ولا يتكلم . وفي اليوم التالي تبين أن مصطفى كمال وحده هو الذي أدلى وحده بالرأى الصواب . فجاءوا إليه يعتذرون قائلين : لم نحسب أن رأسا عليه مثل هذا الطربوش المضحك قادرة على أن تنبت منها فكرة ذكية .

فمنذ ذلك اليوم البعيد قرر إعدام الطربوش وكل شخص يلبسه .

ونخب مصطفى كمال البلاد العربية مرتين : الأولى وهو في طريقه إلى ليبيا للاشتراك في الحرب ضد إيطاليا سنة ١٩١٢ . جلس في قهوة جراسيمو متاتيا (قهوة الشيخ محمد عبده) ، ودخن النرجيلة ، والثانية وهو على رأس جيش تركى في سوريا في الحرب العالمية الأولى . وإلى هاتين الرحلتين يرجع عزمه على نفض يديه من كل من هو ، بل من كل ما هو عربى .

كان عهد الهزات العاطفية وتسجيلها في قصائد عاطفية قد انتهى . لا نعيش الآن على العواطف وحدها . أنظارنا المتلهفة للخارج – تعود تارة بفرح وتارة بحسرة – بدأنا نصوبها للداخل . خلصنا من هذه التجارب ونحن نتلمس قدرتنا العقلية والروحية على اللحاق بالغرب والوقوف منه موقف الند للند . لم ينبهم علينا أن لا اعتماد لنا إلا على أنفسنا ، وأن الطريق شاق ، وكان إنشاء الجامعة الأهلية أول نفخ في البوق لتستيقظ أمتنا .

ولكننا لم نملك ولم نثبت تمام ثقتنا في أنفسنا إلا يوم تأميم قناة السويس . طوى التاريخ في ذلك اليوم آخر صفحة لاستعلاء الغرب على الشرق بفضل احتكاره للسلاح والعلم . إفريقيا كلها فهمت معنى هذا الدرس وتحررت من الخوف . أصبح الطريق أمامها واضحا مفتوحا مأمونا .

ولم يكن غضب المستعمرين من مصر لما فعلته في بلادها ، بل لهذا التأثير الذي أحدثته في إفريقيا . وستظل القاهرة هي التي تضرب الأمثال دائما لإفريقيا .

ومع تملك الثقة بالنفس توالى خطواتنا بسرعة مذهلة . إننا لا نحس بها الآن لأننا نعيش داخلها .

(« المساء » ، ٢٢/١/١٩٦٢ ، ص ٨)

« شخصيات ومراحل عمالية »

جاء أوان الاعتراف – لحسن الحظ فالاعتراف مطهر للنفس ومنفذ لها إلى نعيم الصراحة وشرفها – بأننى ما كتبت هنا يوماً إلا ساءلت نفسى بشيء من القلق يتجدد كل مرة : هل هذا المقال يخدم الذين تصدر لهم « التعاون » لتعبر عنهم وتعنى بمشاكلهم . . أعنى إخواننا العمال ؟ . هل يتوقعون منى أن لا أحدثهم إلا بعد أن أزور مصنعاً ، أو أقابل واحداً منهم ، أو أقرأ قانوناً جديداً يمس أوضاعهم . هل يكرههم أننى لا أفعل ذلك إلا نادراً ؟ . . فيكون جزائى العادل إعراضهم عنى أو إن كانت لهم قراءة لما أكتب فباستخفاف أو من وراء القلب . فيقولون : نحن فى البحر وهو – حضرته – لا ئد بالبر ، يدنا فى الشغل وهو – سيادته – عاطل اليد يتنزه كما شاء له الهوى ، لا فرق عنده بين ما نراه نحن ضرورياً وما نراه نحن غير ضرورى ، بل لغل أول شىء يهमे هو آخر شىء يهمنى . هل باله معنا أم هو شارد ؟ . . هل نظرته من عينيه المفتوحتين تبصرنا أم تتخطانا لأنها مستغرقة فى أحلام اليقظة ، لم تهزه بعد يد أو حادثة تقول له استفق ! . صح النوم ، ثم ما يلبث قلقى أن يزول أو على الأقل أن يخف حين أتمتم فى

سرى من باب التشفع والتبرير - من باب العشم - إننى أحدثهم عن الحياة ووجوهها المتعددة ، عن مفارقاتها ودروسها . . عن خيرتها وعجيباتها ، وما جدوى أن يشغلنى : ما هى مهنتك إذا لم يشغلنى قبل ذلك من أنت ، أو كيف تعمل قبل كيف تحيا . . إننى أحدثهم عن وإلى « الإنسان » الذى هو كامن أولاً فى نفس « العامل » ، إننى أبحث عن الصلات التى تجمع بين الناس جميعاً متخطية فروق الطوائف ، إننى أفسح لهم مجال تصاريف اللغة ليعين منها اشتقاق مصطلحات كل مهنة ، إذا سرحت بهم شرقاً وغرباً ، فى الحاضر وعبر الماضى فلأن هذه هى وسيلتى للالتحام بنفوسهم ، من داخل الداخل ، نجتمع أولاً اجتماع إنسان بإنسان ثم نفرقنا مطالب العيش يميناً ويساراً . . لكل منا مهنته .

اليوم زال منى القلق وإن لم أفارق منهجى ، إننى مستقر كالفنجان على صحنه المصنوع له ، سأتبقى فى الدنيا الواسعة ولكنى سأنفذ إليها من خلال باب يهم كل عامل - فى تقديرى - أن يعرف ما وراءه ، سأحدث عن كتاب يعالج تاريخ الجهاد الطويل المير من أجل انتزاع الاعتراف بحقوق العمال . ومن هو أشد جدارة منهم بمعرفة تاريخ هذا الجهاد ، بتقدير الذين حملوا أعباءه ، بالاعتراف بجميلهم ، بالترحم عليهم ، قلائل هم . . لماذا لا يكون لكل واحد منهم صورة فى بيت كل عامل ، يلفت إليها نظر أبنائه لاتخاذها مثلاً يحتذى .

كتاب دسم وسهل الهضم معاً ، فيه تثقيف وترويح للنفس معاً ، قرأته بمتعة كبيرة وعلمت منه أشياء كنت أجهلها وعشت كالبهيم ، طور الله فى برسيمه . . أفلا تنقضى الحشرات إلا بانقضاء العمر ، رضيت بهذا

الكتاب كما هو وتراجعت كل تحفظاتي عليه ، سيأتى دورها . . هذا هو الكتاب الذى أصدره أخيراً الأستاذ أمين عز الدين – لا أدرى كيف أشكره – بعنوان « شخصيات ومراحل عمالية » ، (كتاب الجمهورية – عدد ١٦) . . أتمنى أن يقرأه كل عامل ، بل أن يقرأه مرة وأخرى ، لا لمجرد الإلمام . . بل لاستذكاره كأنه ورد السحر ، أن يقرأه لنفسه ، سراً مرة وجهرًا مرة ليسمعه الذين هم من حوله . .

كتاب دسم وسهل الهضم معاً لأنه عصر لك تاريخ الحركة العمالية فى جرعة واحدة . . ولأنه – وهذا هو الأهم – نفذ إلى تعريفك « بالمجاهد » من خلال تعريفك أولاً « بالإنسان » ، فهو لم يجعل التاريخ مادة جافة ترهقك بأبحاث نظرية مجردة فلسفية عن نشأة المذاهب وتعارضها ، عن دعائمها الفكرية وصراعاتها ، بل جعله مادة تنبض بالحياة من خلال استعراضه لسيرة « الإنسان » الذى كان أداة فى يد التاريخ ، عاملاً على انطاق مراميه إن لم نشأ أن نقول عاملاً على صنعه أو تطويره .

فعمدة القسم الأول من الكتاب سيرة أربعة أشخاص هم محمد فريد ، ومحجوب ثابت ، وسيد درويش ، وعزيز ميرهم ، منزوون هم فى هوة الماضى مع أن زمنهم غير بعيد عنا ، ومع ذلك عادوا بفضل قلم المؤلف أحياء ، كما نرى قسماً وجوههم تلم بخوالج ضمائرهم . . سيرة كل منهم قصة درامية ، لها قدرة شديدة على جذبك والاستحواذ عليك حتى كأن القصة هى قصتك أنت عشتها بنفسك وكأن كل جراحات أبطالها هى جراحات قلبك أنت . . قدمهم لنا المؤلف لا لنعرفهم فحسب ، بل لنحبهم لأنهم جديرون بالحب . وإفساح مجال الحب وتهئية

كل فرصة له هي وظيفة الأديب والفنان ، ينبغي أن تكون مطمح كل إنسان ، فإن يوماً ينقضى بغير هذا الغنم لا يعد من أيامك البيض . .
هذه تصبيرة - وإن طال الكلام - أردت بها تشويقك لهذا الكتاب ،
توطئة لأن أحدثك عنه في المقال التالي .

(« التعاون » ، العدد ٣٧٧ ، ١٠/٥/١٩٧٠ ، ص ١٠ ، بعنوان « زال القلق »)

* * *

الكتاب صغير (١٥٣ صفحة من القطع المتوسط وليس غير) والقسم الأول منه بعنوان « شخصيات » - ٦٧ صفحة - يغطي من تاريخ الحركة العمالية عندنا مراحلها المتتالية منذ مولدها في ظل رئاسة محمد فريد للحزب الوطني (١٤ فبراير سنة ١٩٠٨) إلى سنة ١٩٣٧ حينما تولى عزيز ميرهم رئاسة المجلس الأعلى للاتحاد العام لنقابات العمال .

حقاً إنها أعجوبة - كان لها في قلبي صدمة لذيذة - أن لا يقع هذا الكتاب بسبب صغر حجمه في خطر « كلفتة » عمادها القفز وعدم الترابط ، ثم لا يقع أيضاً بسبب امتداد مساره في خطر كلفتة ، تأخذ هذه المرة صورة ثروة تزعم أنها تصلح وحدها للتعميم دون التخصيص ، ونجاة هذا الكتاب من هذين الخطرين شفت غليلي من تزايد ميل الكتابات عندنا إلى الكلفتة والثروة ، ولا تظن أن الثروة تجيء من رغبة الكاتب في زيادة الشرح ، هي في الحقيقة أفضل وسيلة عنده للكلفتة ، فالثروة والكلفتة وجهان لعملة واحدة رديئة جداً .

القصد والاتجاه فوراً إلى المعالم الرئيسية وأمهاات المسائل والانتصار عليها هى من سمات هذا الكتاب التى لا تجعله أيضاً إما ينجس فى سرد الوقائع والظواهر المادية فتظل على أرض تتصف بالجفاف وإما ينجس فى تتبع التيارات الفكرية والمذهبية الكامنة تحت الوقائع والظواهر المادية فتحلق معه فى سماء التجريد بعيداً عن الواقع .

عرف هذا الكتاب كيف يمزج مزجاً جميلاً بين سرد الوقائع المادية وتتبع الأفكار الكامنة تحتها ، عرف كيف يقدم لنا كل شخص تحدث عنه : إنساناً ومفكراً فى صورة واحدة ، تتجمع فيها الخيوط دون أن يتبين العين كيف تم نسيجها بحكمة ولغاية مقصودة . .

وواضح أن المؤلف شديد الإعجاب بمحمد فريد ويقول إن مصطفى كامل لم يعن بإقامة حزب منظم إلا بعد سنوات طويلة من جهاده الوطنى . فقد تألف الحزب الوطنى فى ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٠٧ ، أى قبل شهرين اثنين من وفاة اللواء ، محمد خريد سارع حين خلفه إلى رسم اتجاه الحزب فى طريقين رئيسيين : الطريق الأول هو تنظيم الحزب الوطنى بتنظيم قواعده الشعبية العريضة ، والطريق الثانى هو احتواء الطبقة العاملة والصناع الحرفيين للدفاع عنهم والمطالبة بحقوقهم ، فأنشأ الحزب للعمال نقابة الصنائع اليدوية ، وللفلأحين أنشأ النقابات الزراعية والتعاونية ، وأنشأ للمثقفين مدارس الشعب ونادى بالمدارس العليا .

من فرط إعجاب المؤلف بمحمد فريد — وله الحق — نسب إليه نشأة الحركة العمالية وأغفل — وله العذر — لأنه لم يقصد بكتابه هذا وضع تاريخ

شامل جامع مانع لهذه الحركة - فعل ذلك في كتاب آخر له من جزئين -
أغفل تتبع النشأة إلى الجناح الذي يمثله عبد الله النديم في الثورة العراقية ،
كان اتجاهه إلى التنظيمات الشعبية واضحاً وملموساً ، كما أن المؤلف جار
قليلاً - بسبب هذا الإعجاب - على حق مصطفى كامل الذي وصفه بأنه
أقرب إلى الزعماء الرومانتيكيين منه إلى المناضلين الثوريين . .

ربما لم يعمد اللواء إلى تنظيم الحزب الوطني لأنه أراد أن يحصل على
عون كل مواطن ينجذب له مع إبقائه في الوقت نفسه - وبخاصة إذا كان
من موظفي الحكومة - بمنأى عن عسف السلطات ، انتظاراً ليوم تتجمع
فيه في الحزب قوى تستطيع أن تصد هذا العسف . .

ولماذا لا نقول أيضاً إن اللواء كان يسعى لنوال تأييد الجيش دون أن
يتخذ التأييد صورة الانتماء لحزب قائم منظم ، وفي ذاكرتي رواية عن حفلة
أقيمت ليلقي فيها اللواء إحدى خطبه ، فشهد بين الحاضرين ضابطاً بزيه
العسكري . بدا عليه القلق : وطلب إلى أحد أعوانه أن ينصح الضابط
بالانصراف ، إذا أراد أن يحضر فليكن بزي مدني لا عسكري . .

الحزب الوطني برياسة محمد فريد هو إذن صاحب الفضل في التبشير
بالحركة العمالية والسعي لتنظيم تجمعات العمال ، دفاعاً عن حقوقهم . .
وقد اعترف المؤلف بصراحة وشجاعة أن سنده هذا الحزب تمثلت في أبناء
الطبقة الوسطى من التجار والمثقفين . . كان لابد أن ننتظر طويلاً حتى
يطلع من داخل العمال قاداتهم . . طويلاً ، ليس فحسب لأن النقابات لم
تكد تقام حتى أصبحت ورقة تتلاعب بها الأحزاب السياسية في تطاحنها من

أجل الوثوب إلى مناصب الحكم ، بل لأن الخلفية الثقافية في المجتمع المصري حينئذ كانت بسبب فقرها — لا تتيح حركة الانبثاق الداخلي في نقابات العمال ، فالأمية فاشية ، وأبواب التعليم المجاني موصدة . . ووسائل توصيل الثقافة قليلة وغالية . .

تعود لذاكرتي هنا سيرة مستر موريسون وزير الداخلية في وزارة الحرب بإنجلترا تحت رئاسة تشرشل ، أمه خادمة تمسح البلاط على ركبتيها . . ولما وضعته وقعت في يد قابلة جاهلة — لأنها رخيصة الأجر — ففقت إحدى عينيه وهي تنزعه من بطن أمه . هل هناك أسوأ من هذه الظروف لنشأة طفل يصبح فيما بعد وزيراً جليلاً . . روى لنا في سيرته كيف علم نفسه بفضل كتب زهيدة الثمن لا يزيد عن بنس واحد ، وبفضل ترده على مكتبات عامة تيسر له وهو مرتاح تحصيل الثقافة التي كانت تنقصه ، وكذلك إرنست بيغان — زميله ووزير الخارجية — كان سائق عربة يجرها حصانان لتوزيع زجاجات البيرة . . يقول لنا في سيرته إنه كان يسوق العربة ، فارشاً فوق رأسه غطاء من المكانتوش ليقيه المطر والبرد وهو في مقعد مكشوف ، وواضعاً في الوقت ذاته كتاباً على اليد التي لا تمسك اللجام ، ليقرأ ، ولتعلم . .

كلاهما دخل نقابة منظمة مستتبة ، اندعك في مراكزها الثانوية ثم ارتقى قليلاً قليلاً وهو يثبت كل مرة قدرته على الفهم والتنظيم والمعالجة ، قدرته على القيادة وعلى المفاوضة ، وعلى قياس المستطاع الذي لا بد من الحصول عليه بغير المستطاع الذي لا بأس من تأجيله بغير إهماله ، ولأن

النقابات من شعارها التضامن والإخلاص للمبدأ ، فإن العيون ترقبه
والأيدي تدفعه إلى الأمام لأن كسب زملائه ببلوغه هو مرتبة القيادة لا يقل
عن كسبه هو للمنصب الذى ينتظره .

إن سيرة موريسون وبيفان وكير هاردى وغيرهم من العمال زعماء
الحركة العمالية هى من الكتب التى ينبغى لنقابات العمال عندنا أن تتولى
الإنفاق على ترجمتها ، إذ ينبغى لكل عامل أن يقرأها ، لتكون حافزاً له على
الوعى بنفسه ، وبما حوله . . على الوعى بأنه لا على شىء إلا على جهده
الذاتى يتوقف تدرجه إلى الصفوف القيادية .

كثير من الدراسات التى كتبت عن محمد فريد تجعلك تعلم من هو ،
أما هذا الفصل الصغير من كتاب الأستاذ أمين عز الدين فيجعلك تحبه .
قد خلطنا به ، واصطحبنا معه فى رحلاته إلى أوروبا لعقد المؤتمرات ولقاء
زعماء الحركة العمالية هناك . . لقد نشرت أخيراً أجزاء كبيرة من مذكرات
محمد فريد فإذا بها تكشف عن جراح قلبه وامتناعه من أناس كثيرين
راشهم بسهام غضبه ، تكشف عن مرارة من عجب أنها لم تثبط همته .
وكان آخر كأس شربه تجاهل الوفد المصرى له ، وصد يده التى مدها
بالعون .

وفى صورة تنبض بالحياة قدم لنا المؤلف بعد ذلك محبوب ثابت ،
وعزيز ميرهم الذى انفرد من بين رتل القادة بتراجع اسمه وذكره عند
الجيل الصاعد ، كيف لا نشكر المؤلف أنه أعاد إليه حقه وأخرجه من
أكفانه . . يبقى بعد ذلك الفصل المخصص لسيد درويش ، وهو فى

اعتقادي من أفضل ما كتب عن هذا الملحن العظيم ، لأنه بالتفاته بارعة
ربط بين فنه والطبقات الكادحة .

وأخيراً يقدم لنا المؤلف لوحة جميلة لما عاناه الشعب المصري فيما يسمى
« الشغل في السلطة » أيام الحرب العالمية الأولى . . ولم يتورع المؤلف من
أن يدين – تلميحاً لا صراحة – من رضى من أبناء الشعب – وهم
كثيرون – بأن يكونوا أداة في يد المستعمر الباطش ، بل إن بطش ابن البلد
بابن البلد أشد قسوة وفجاجة من بطش المستعمر به . . انظر إلى هذه
الصورة المؤلمة التي رواها سلامة موسى عن نفسه :

« قصدت ذات يوم إلى مأمور في الزقازيق أطلب منه إطلاق اثنين من
الفلاحين ، فتأملني ثم قال : أنا عايز أرحلك أنت لفلسطين ! » .

وقد شعرت باعتزاز كبير حين تحدث المؤلف في هذا الفصل عن أحمد
خيرى سعيد ، ناظر مدرستنا المسماة في تاريخ أدبنا بالمدرسة الحديثة . .
فقد كان يصاحب جموع العمال المسخرين للعمل مع السلطة الإنجليزية في
فلسطين ، وكتب قصة نشرها في صحيفة « الفجر » تروى مأساتهم
ومداينة الأطباء المصريين لرؤسائهم الإنجليز . . ترحمت عليه من جديد
وقرأت على روحه الفاتحة . .

(« التعاون » ، العدد ٣٧٨ ، ١٧/٥/١٩٧٠ ، ص ١٠ ، ٩)

معليهش . . والولد المدلل !

والولد المدلل هو جان كوكتو الأديب الفنان الفرنسى الذى نشرت الصحف نعيه أخيرا . لزمه هذا الوصف طول حياته حتى إذ هو شيخ قد بلغ من الكبر عتيا .

أما الأم التى دللته فهى باريس . لو كانت غانية تتزين لكان هو عطرها الذى خلطت عناصره ضربة معلم ، طيف مبهم من متعه وشبهة من خدر ، أو مآدبة لكان هو فيها كأس الشمبانيا أو كل حبيب هذه الشمبانيا ، أو فترينة لكان هو فيها آخر تقليعة فى مودة قبعات المانيكان . غفرت له نزواته - وما كان أكثرها ، من أجل مواهبه ، وما كان أكثرها ، يؤلف المسرحية ويخرجها ويصنع لها الديكور والملابس ويضيف الإضاءة . حشر أنفه فى الباليه والموسيقى فكانت أصدق حساً من أنف أرباب المهنة . دخل السينما على كبر (أورفيه - الجميلة والبهيمة) فإذا بالدخيل ييز الأصيل . وكان موضع إعجاب وموضع تنذر واستخفاف . كنت وأنا فى باريس (١٩٥٠) أقرأ شتائم موجهة ضده مكتوبة على جدران المترو ، يرد فيها

اسم جان ماريه الممثل الفرنسى ، إذ لم ينجل كوكتو من إشهار عشقه له ،
والبركة فى أندريه جيد .

ولعل الذين شتموه ازدهوا ليلتهم على باب مسرحيته لينعموا بالذكاء
الذى يغنى عن علم الفقيه - وكان مع ذلك فقيها عالما ، وبالتالى الذى
يسحر الأبصار ، وبالتعبير بالهمسة واللمسة . . كان هو الذى يقول الذوق
والظرف . للذين فصلتهم عن الكادحين لوثة الفن أو قرصة السأم أو فرط
الترف أو حياة الليل . . كان له جذب مغناطيسى خفى . ما يهل على باب
الصالون المزدهم كعلبة السرددين (ومع ذلك لا يدوس أحد على قدم أحد
أو يحتك كتف بكتف) حتى يشعر من هو أصم مكفوف البصر فى الركن
القصى أن كوكتو قد وصل . ليس فى عالم الأدب أو الفنون الجميلة شخص
مؤهوب مشهور أو مغمور إلا عرفه كوكتو وارتفعت بينهما الكلفة، إنه يصعد
سلما حلزونيا ضيقا مظلمًا ستة أدوار فى بيت عتيق ليدخل حجرة أجزم أنها
أقذر حجرة عرفها تاريخ الفنون ليزور وسط القمامة والأبخرة العفنة
صديقه الديكوريسست النابغة - العزبانى كريستيان بيرار ، فلما مات صديقه
رثاه قائلاً : قد فقدت الدنيا عطرها، ولعل باريس أمعنت فى تدليل ولدها
المدلل لأنه آخر العنقود ، فلا أظن أن هذا الجنس من الفنانين ستتجدد له
ذرية فى فرنسا من قادم ، فقد خف فيها كبت عامة الناس لغرائزهم الجنسية
وحين يخف هذا الكبت تبوخ نزوة الفنان . لم تعد المسألة من الكاتب ؟
بقدر ما هى ماذا كتب ؟ سيتخذ الفنان سمة أستاذ الجامعة الذى يقق عينيه
فى الدرس والتحصيل أو سمة الموظف الروتينى فى دار نشر قومية أو غير
قومية .

ومصيبة كوكتو أن مؤلفاته لا تدل عليه بقدر ما تدل عليه حياته ، فقد كانت حياته أروع أعماله . وما أظن أن مؤلفاته ستعمر من بعده طويلا .
الذنب ذنبه ، إنها حبيب الشمبانيا ، يفور بأزيز لذيد - ولكن لهنيهة -
كأنه لحن موسيقى ، ما أجمله ، ولكن ما أقصر عمره . .

رثيت لكوكتو المفطور على البوهيمية ، الدائم الشباب في عز شبابه يوم
أن دخل الأكاديمية وانسلك بين الخالدين وكأنهم حطام أو أصنام . وضع
على صدره الوسام والتزم الوقار ، ولكن طمأننى عليه تلك القبعة
المضحكة التي يلبسها عضو الأكاديمية في الجلسة الرسمية فقد خيل إليها أنه
وضعها على رأسه وهو يقهقه في سره طويلا . . هي أيضا غفرت له سخريته
بها . .

ولم يشأ أهل باريس إلا أن يجعلوا من موته خاتمة مطابقة لحياته فزعموا
أنه بعد أن شيع جنازة المغنية إديث بياف - صديقه الروح بالروح - عاد إلى
بيته حزينا عليها مكسور القلب فمات بسكتة قلبية . . وإديث بياف كانت
من قطط دخانيق الحوارى ، ثم ارتقت إلى سطح الشهرة في إنشاد الأغاني
العاطفية الخفيفة وأبت أن تموت إلا وهى بين أحضان زوج فى سن حفيدها
لو كان لها حفيد . . هل تصدقه أو لا تصدقه وهو يقسم بأغلظ الأيمان أنه
متيم فى هواها . . ولو صدق لقال . . وفى مالها .

من الإنصاف لكوكتو أن أقول عنه إنه حقاً لم يعرض فى مؤلفاته لمشكلة
اجتماعية عويصة ، لا هى ولا علاجها مما بهم ولكن همهم كان الكشف عن
هذا التركيب المعقد لعواطف الإنسان . أن تسيل من النفوس ولو بالرمز
حديثها الصامت عن أحلامها وأوجاعها ، أن يستنقذ الجمال من ديين أكوام

الدمامة ، فيهصر قلبك حين يريك أن الدمامة عرضية وخلل طارئ وهو
يريك أن الجمال زائل أو أن قبضه على الأقل قبض الريح .

هذه هى المأساة الجديدة فى المسرح الحديث ، حلت محل صراع
البطل ، أن يكشف لك برفق عن ضعف الإنسان ليدفعك لا إلى مقتته
واحتقاره ، بل إلى العطف عليه والرثاء له ، فغايته هى المصالحة لا بينك
وبين الحياة فحسب بل بينك وبين نفسك ، فإنكارك لضعفك إنما هو نوع
من المقاومة . . .

زار كوكتو مصر فى مطلع عام ١٩٤٩ على رأس فرقة تمثيلية (الفتى
الأول فيها هو جان ماريه) وقدمت فى دار الأوبرا ثم فى الإسكندرية عدة
مسرحيات من بينها مسرحية لكوكتو . وقد حضرت هذا الموسم لحسن
الحظ ، ودعيت إلى المأدبة التى أقامتها السيدة قوت القلوب (ولها مؤلفات
بالفرنسية - هكذا زعمت) تكريما لهذه الفرقة . كان كوكتو يجول بيننا كأنه
فرقع لوز ، وضع يديه خلف ذيل جاكته وأخذ يروح بهذا الذيل . . لعل
الصالون كان شديد الحر ، ولعل كوكتو كان له وجهان : أمامى
وخلفى . . ثم كتب عن رحلته لمصر وتركيا واليونان كتابا لم يشأ أن يسميه
إلا بعنوان « معليهش » ، مكتوبا هكذا بالأحرف اللاتينية على الغلاف
Maalesh فتعلم من هذا العنوان وحده أن مصر قد فازت من الكتاب
بنصيب الأسد ، وأنه يماشى ويتملق فكرة ثابتة استقرت خطأ فى أذهان
الغرب عن الشرق ، كأنه يقول من باب الدعاية لقرائه فى فرنسا : ما لزوم
عنوان طويل عريض مثل « خواطر وانطباعات عن رحلة فرقة تمثيلية
لمصر » ؟ أليس كلمة معليهش وحدها كافية . بل هى فوق ذلك ستثير

ابتسامتكم وتلهفكم للمزيد من العجائب والغرائب في بلاد تتركب الحمير
والجمال وكل شيء فيها ماشى بالبركة ؟

إننى لا أحب التعليل السهل فأتهم كوكتو بأنه قدم إلينا وفي نيته أن
يسبنا على طول الخط ، إنه بينه وبين نفسه يؤمن أنه وصف ما لدينا من
جميل بكرم ومن قبيح بلا تحامل وإن نظرت الخاطفة في رحلة سريعة كان
أثناءها منشغلا ليلا ونهارا في الإشراف على الفرقة هى مع ذلك أوبرك
وأصدق من البحث المستفيض الذى يستغرق أعواما طويلة ، فهو يقبل
ويغضب إذا اتهمته بالغرور ولكن لا يقبل أن نتهمه بسوء النية أو فساد النظرة .
والمصيبة أن الذين يتهموننا بالتعصب إذا دافعنا عن أنفسنا هم أنفسهم من
غلاة المتعصبين لأنهم لا يتزحزون عن الفكرة الثابتة الخاطئة ، بل يرون
كلامنا وهو قاصر على الدفاع هجوما عليهم ، وتجريحا لبراءتهم غير
المنكورة ..

وقد صادرت الحكومة فى ذلك العهد هذا الكتاب لا لأنه يتضمن
تزييفا على المصريين بل لكلام جاء فيه - لا طلع ولا نزل - عن الملك
فاروق .

سأقدم لك فى المقال التالى مقتطفات من كتاب « معليهش » ولكنى
محتاج قبل ذلك أن ألفت وأدور قليلا حول هذه الفكرة الثابتة التى استقرت
فى الغرب عن الشرق . . من أين جاءت ؟ من المسئول الأول عنها ؟ .
وأقول لك منذ الآن إن المسئول الأول عنها هو فى نظرى كتاب « ألف ليلة
وليلة » .

(« المساء » ، ٢١ / ١٠ / ١٩٦٣ ، ص ٨)

معليهش . . وألف ليلة وليلة . .

قال العقاد - أستاذنا الكبير - في يومياته الأخيرة بصحيفة « الأخبار »
إننا نجد في لغة الإنجليز والفرنسيين مثيلا شائعا لمعنى كلمة « معليهش »
عندنا ، فهي ليست وقفاء علينا حتى نتهم بها وحدنا (يعنى : لا تعالينى ولا
أعيرك) .

وقول العقاد حق - كالعهد به دائما - إذا كان الكلام مقصورا على
مقابلة قاموس بقاموس ، ولكن الحكم يختلف - فى نظرى الضعيف - إذا
أخرجنا الكلمة من بطن القاموس إلى السير فى الطريق لنرى كيف ومتى
يستخدمها الناطقون بها . فبهذا وحده نستطيع أن نفهم لماذا يعيرنا الغرب
بأننا أهل « معليهش » وأنها هى الماركة المسجلة لبلادنا ، يكفى أن يضعها
كوكتو عنوانا لكتاب له حتى يدرك القارئ الفرنسى أن الحديث هو عن
مصر .

لا ينكر الفرنسى أن مقابل كلمة (معليهش) موجود فى لغته ، ولكن
ما هى بعب لأن الذى يستخدمها ليس هو المحقوق بل صاحب الحق ،

الذى له أن يستقضى حقه وله أن يصالح عليه وله إن شاء أن يتنازل عنه قائلًا (معليهش) فهي ليست للهرب من المسئولية بل لقبول العذر أما عندنا فهي في نظره عيب و تهمة لأن الذى يستخدمها عادة هو المحقوق لا صاحب الحق .

فالفرنسى يؤمن عن سماع أو عن تجربة فيما يؤكد أن النجار عندنا يقسم بأغلظ الأيمان — بعد أن قبض نصف الثمن عربونا — أنه سيسلمك الدولار بعد أسبوع واحد ، فإذا حل الموعد تحجج قائلًا إن الدهان لم يجف بعد ، وأضاف (معليهش) . . الحقيقة أن الدولار ليس غير مدهون فحسب بل غير موجود إطلاقا ، إنه ينتظر قبض عربون جديد من زبون آخر على نيّاته ليشتري به الخشب اللازم لدولابك ، فحياته كلها تطبق للمثل القائل (طاقة هذا لذاك) ليس له ضحية واحدة ، بل كل زبون ضحية تتكرر معه كلمة « معليهش » .

. وقوله معليهش معناها : يعنى يا أخى الدنيا طارت ، هل حبكت أن يلزمك الدولار اليوم لا بعد غد أو حتى بعد أسبوع ، هل ستقوم القيامة ؟ أليست ملابسك مستفة فى أمان الله فى دولابك القديم فلا أظن أنك تنشرها على حبل الغسيل فما الضير أن تبقى حيث هى إلى أن يحلها ربنا ؟ الصبر طيب . أتريد أن تذلى لأنك دفعت لى عربونا ؟ يا أخى الأرزاق على الخلاق . . . وربك كريم . . . إلخ إلخ .

أخذك فى مائة سرساب وسرداب فكيف يمكن لك مناقشة مثل هذا الرجل ؟ إنه يطلب منك أن تمزق الأجندة وتحطم ساعتك ومنطقك وأن

تكون حياتك سهلة ، كل شيء فيها عائم غير مستقر . لا يقال الوعد لم يتحقق بل الطالع لم يصدق .

ويقول الفرنسي : أما عندنا فالنجار لا يبيع الدب قبل صيده ، حسب حسابه وأضاف يومين أو ثلاثة لزيادة التأكيد ، فهو لا يتخلف إلا لعذر قهري خارج عن إرادته ، للزبون أن يشكوه للبوليس أو يرفع عليه دعوى مطالبا بالتعويض إذا كان عنيدا مشاكسا أو رد محاكم ، وله أن يقبل عذره ويقول له (معليهش) لا يفور دمه ، أما فوران الدم فهو حكر للزبون المصرى والبركة فى كلمة (معليهش) يقولها المحقوق لا صاحب الحق .

ومما زاد فى اعتقاد الغرب أن كلمة معليهش عملة شائعة التداول بيننا أننا نستخدمها أحيانا كثيرة للاعتذار عن خطأ مقربه ولتطبيب خاطر ، معناها : آسف ، لا مؤاخذه ، حقك على ، هات رأسك أبوسها ، إنها ترجمة أمينة لكلمة (بردون) المهذبة وهى فى هذه الحالة وليدة مفهوم الحياء عند المصرى ، وهو قد يختلف عن مفهومه عند الغرب ، فاختلطت عليه معليهش بنت الحلال بمعليهش بنت الحرام .

والاختلاف بين الشعوب فى مفهوم الحياء مبحث شائق ، والغربى يسمى ما ارا فهم الشرقى لا لشيء إلا لهذا الاختلاف فى مفهوم الحياء ، فهو يخطئ ويهمل كذلك بالكذب والنفاق حين يسمع منا على الفور كلمة (تفضل) إذا أبدى إعجابه بشيء فى يدنا ، (تفضل) عنده معناها (خذ) وعندنا معناها إننى خجل من أن أملك دونك شيئا يروقك وتتمنى

أن لو كان لك ، فكلمة (تفضل) هى تعبير عن هذا الحياء لا أكثر ولا أقل .

وقد شاهدت سيدة فرنسية فاضلة حديثة العهد بمصر ، أبدت إعجابها بمسبحة فى يد صديق لزوجها فقال لها (تفضلى) فما كان منها إلا أن أخذتها ووضعتها فى حقيبتها - ولما عادت إلى البيت كاد زوجها يضربها علقه وقال لها هذه مجاملة لا تؤخذ أبدا مأخذ الجدة عندنا ، فأجابته : هى عندى نفاق رخيص يحسن بكم أن تبرأوا منه .

انظر أيضا إلى كلمة (حبل) - إنا نراها لا تتخذه الحياء فنحن لا نحجم عن استخدامها فى قصصنا ، بل رأيت فى أحد الأفلام فتاة تضرب بطنها بكفها أمام عشيقها الذى غدر بها وتصيح (أتركنى حبل ، وماذا أفعل بهذا الولد الذى فى بطنى ؟) لم تكفها العبارة فأضافت إليها الإشارة ، أما الإنجليز فيرونها فجأة بذئنة ينبغى اقصاؤها من حديث المهذبين ، وتحاولوا على أداء معناها بكنيات بعيدة ، فلو وجدوها فى قصة لنا مترجمة بلغتهم لحكموا علينا بقله الحياء . ظلوا على هذه الحال إلى أن فاجأهم أخيرا مؤلف مسرحية ببطلته وهى تعلن أمام النظارة أنها حبل

ونالت المسرحية نجاحا كبيرا لهذا السبب وحده ، ثم إذا بى فى أواخر عمرى أسمعها مرارا فى الأفلام الأوروبية الحديثة ، وهكذا أصبحنا فى الهما

فأنت ترى أن اتهامنا بكلمة معلية حتى يثبت صدق فى جانب فهو لا يخلو من الغلو الناجم عن سوء الفهم إن لم تشأ أن تقول وعن سوء النية والتعصب ، وقد دافع العقاد خير دفاع وأحب أن أضيف إلى دفاعه

شهادة المثل الشائع « لو فيها معليهش كان شنقوه ليه » دليل على أن الشعب المصرى لا يقبل منطق كلمة معليهش بنت الحرام .

* * *

لا سهولة المواصلات وسرعتها ولا مرور الزمن ولا احتمال وجود كثير من المنصفين بين من زاروا بلادنا - لا شىء من هذا استطاع أن يتعتع من أذهان الغرب تلك الصورة العجيبة التى يتخيلها للشرق والتى ورثها فى اعتقاده من ترجمة كتاب ألف ليلة وليلة إلى اللغات الأوروبية - ولست أريد أن أصدع رأسك يبحث عن أصل هذا الكتاب ومتى ترجم وعلى يد من ، ولكن يكفى أن تعرف أثر هذا الكتاب أن تسأل أى أوروبى وهو داخل ليشهد فيلما من إنتاج هوليوود عن السندباد أو على بابا ، ماذا تنتظر أن ترى ؟ فإنه سيحبك من فوره : الشعب فى الطريق يتألف كله من شحاذين ومشوهين فى أسمال بالية وفقير مدقع ، على قارعة الطريق جارية بيضاء تباع بالمزاد العلنى ، وعلى ربوة قصر الملك له مائة محظية على الأقل إنه شجاع وسط الحريم ، جبان أشد الجبن إذا تعرض للخطر ، ووزير دساس لثيم ، منافق يتظاهر بالصالح والتقوى أمام الناس فإذا خلا لنفسه شرب الخمر وسكر وعربد ، غاية المهارة عنده هى الطعن بالخنجر فى الظهر ومن وراء ستار ، المرأة مجرد متاع للرجل ، غادرة لا يؤمن جانبها ، (ألم تذكر لنا ألف ليلة وليلة فى مطلعها أنها خانت خليلها لا مع رجل بل مع قرد) . الشعب كله غارق فى البهيمية واللذة الحسية والتواكل ، الحلول غير متعلقة بالإرادة ، بل بالسحر والمعجزة . الكذب مباح ، لا دليل على الذكاء إلا الخيانة والغدر ، كل صديق جاسوس محتمل ، كل إنسان

مشغول بنفسه لا يهتم إلا أن يحقق أطماعه ولوداس على جثث منافسيه .
سيحقق الفيلم كل ظنون هذا المشاهد الأوروبي ، ولن يجرمه أيضا من
سماع صوت المؤذن . .

إننى واثق أن الصهيونية وراء هذه الأفلام ، تسعى جاهدة لتثبيت هذه
الصورة فى أذهان الغرب .

وحين اختار كوكتو لكتابه عن مصر عنوان معليهش كان هو أيضا إلى
حد ما متأثرا بهذه الصورة . . انتظرنى للمقال القادم حتى أقدم لك بعض
فقرات من هذا الكتاب .

(« المساء » فى ٢٨ / ١٠ / ١٩٦٣ ص ٨)

* * *

معليهش يا كوكتو !

إليك فقرات من كتاب « معليهش » الذى وصف فيه كوكتو رحلته إلى
مصر سنة ١٩٤٩ على رأس فرقة مسرحية ، وقد احتفى به « النيل »
(حينئذ) محمد وحيد الدين ابن الأميرة (وقتئذ) شويكار ، ووضع سيارته
وسكرتيه الأجنبية تحت تصرفه طوال إقامته . فلا عجب أن أهدي إليه
كوكتو كتابه بكلمة قال فى ختامها :

« تقبل هذا الكتاب الذى يروى يوميات فرقة مسرحية . واعذرني إذا
قلت فيه أشياء لا يقرها واجب الضيف نحو كرم مضيفه . أفمن المستطاع
أن يلجم لسان ثرثار ؟ فلمنى علنا ولكن أحيينى سرا . » .

والجملة الأخيرة هي من خصائص كوكتو ومنطقه الذكى . رشاقة التعبير ، الابتسامة الذكية ، المتسامحة ، تكشف بطيف من السخرية عن قدرة النفس على الجمع بين المتناقضات : الكره فى العلن والحب فى السر ، لا لأن صاحب هذه النفس خبيث ، بل لأنه ضعيف ، لأنه إنسان . إنه لا يخضع لزيف الإجماع ، وينبرى متفردا لتبرير النفاق فى خضم العواطف كأنما يرد له كرامته المهذرة .

وهذه الجملة لا يستهلكها أداء وظيفتها فى هذا المقام وحده ، بل تدب فيها حياة مديدة ، فتحمل قارئها على الانتباه لحالات أخرى من جنسها ، فما أكثر أشباه الرجل الذى يتعلق بامرأة يعلم أنها تخونه . إنه يكرهها بلسانه ويحبها فى قرارة قلبه .

يقول له : أحببني سرا رغم سوء أدبي ، لأنى جرؤت دونك على الإفصاح عن عيوبك . أعفيتك وطهرتك من خجلين ، خجل كتمانها فى جبن ، وخجل الاعتراف بها جهرا فى شجاعة . إن كوكتو يجب أن يكون هو الطفل المزبلح الذى ينطق بكل نداء نيابة عن أهل البيت .

أمثال هذه الجملة مشورة كرش الملح فى أسلوب كوكتو . إنها تعتمد على الصدق فى الجمع بين المتناقضات ، فى الكشف عن الزيف،الكريم الوجه فى الأخذ بيد المنبوذ ، فى احتضان غير المألوف ، فإذا به هو الأعم والأصدق . وهذه اللفات هي التى تغنى اليوم أسلوب كتاب الغرب ، يحسن بزملائهم الناشئين عندنا -لا أقول تقليدها ، بل الانتباه إليها ، فهى التى تضيف على الكلام تموجه وحيويته وتقطع رتابته . ومع ذلك فالمصيبة أنك لا تدري أهى فطنة أم مجرد بهلوانية .

ولعل مذهب كوكتو هو القول بأن رأس الحكمة هو التلاعب
بالألفاظ . . هو دليل ذكائه وسرافتانه بنفسه .

كيف يعمل روميو

بدأت تجارب المسرحية في باريس قبل السفر . يقول كوكتو :
« يشترك جان ماريه في تمثيل فيلم « مايرلنج » ، فهو بالنهار يقف أمام
الكاميرا . وبالليل يعمل في تجارب أدواره في ست مسرحيات . إنه
لا يطيق البطالة أبدا ، فهو كلما استطاع لا يتأخر عن العمل بيديه في
تفصيل ملابس مسرحية « بريتانيكوس » . ينبغي للفتيات اللاتي يلاحقنه
ويتصورن ولا ريب أن حياة نجوم الفن ما هي إلا راحة متصلة وسلسلة من
الأحلام أن يشهدنه يعمل لكي يفهمه . »

في جمر ك مطار القاهرة

الجمرك صراخ وزحام وتدافع بالمناكب وهرج ومرج تختص بها شعوب
البحر الأبيض . الحقائق لا تنفك تضيع وتظهر وتتقاذفها الأيدي في
الهواء . وأحسبنا أننا في رعاية ملائكة يسهرون علينا . فإجراءات الجمرك

فى مصر لا تنتهى ولكننا فرغنا منها فى دقائق قليلة - والتأم ركبنا بربطة المعلم من جديد على باب المطار تحت أشعة الشمس نتفرق ونضيع ثم نتجمع ، لكى نفترق ونضيع ثم نتجمع مرة أخرى . . إلى أن حملتنا إحدى سيارات محمد وحيد الدين ، يقودها كاروللو سكرتيره الخاص ..

(ملحوظة : إذا قرأت رحلة ابن جبير وجدته لا يقل عن كوكتوشنيكا على الجمرك فى مصر . فأنت ترى أن شهرته عريقة .)

المنظر من نافذة السيارة

سيارات مصر ذات فخامة واقتدار ، أوهى على الأقل مجرد مظهر لهذا الاقتدار لأن مصر لا تستطيع استخدام هذه السيارات ، فإذا استئنت طريق الهرم ، والأوتوستراد الذى يربط القاهرة بالإسكندرية ، والذى رصفته شركة شل ، فإنك تجد مصر محرومة من الطرق .

وأول شىء يستلفت نظر راكب السيارة هو هذا الخلط بين فرط الترف وفرط الفاقة ، وإذا كان هذا الترف يبطن أحيانا سقم الذوق ، فإن الفاقة تكشف عن وجهها للناظرين على الأرصفة ، فى مشارف أحياء مبنية بالطين . . وعلى الكبارى ، وفوق عربات الكارو (وهى بمقام التاكسى فى مصر) حشد من النسوة بملايات لف سوداء . الجلابيب الطويلة القذرة . الكوفيات الملتفة

على الرؤوس ، هيئة مشية الناس ، ألقفا الطويل الأسمر - كل ذلك ينطق
بنبل ووفرة هيهات أن تجد لهما مثيلا في أى ديكور مسرحى .

هذا الشعب الذى يتسكع فى الطرقات ، وينام على التراب ، يؤثر
بحكم مطابقة البيئة ألوانا هيهات تقليدها ، ألوان الرمل والسماد وماء
النيل ، إنه مخلوق للكسل والموت . إنه يفوق الزمان طولا ودواما - هذا
الشعب الذى تهيج أعصابه القهوة والحشيش والشاى الأسود . . إنه توزع
بين اضطراب التلاميذ فى حوش المدرسة وبين غيبوبة هى أشبه بدبيب
الموت . إن زعيق الكلاكسون لا ينتهى . كل سائق يستخدمه بلا مبرر ،
كأنه طفل يلهو بيق .

٥٠ أسرة

زمام مصر فى يد ٥٠ أسرة ، فليس بها طبقة متوسطة ، بقية الشعب
تتسكع وتتخمر ، فإذا ثارت فتورتها متميعة . الملك مهدد على الدوام
بالقتل . إنه لا يحب إلا السريحة . يطب فجأة على النوادى واحدا بعد
الأخر فى حراسة شديدة من البوليس ، ولكن كراهية الشعب للأجانب قد
خفت .

« يانطرة رخی رخی . . على قرعة بنت أختى . . » .

أكتب هذه السطور والجنود العائدون من فلسطين يتجهون إلى حيث

يتجمعون فى استعراض كبير أمام الملك . الميدان أمام الفندق يشيع فيه
الاستعراض . اشتدت برودة الجو . إن البرد لم ينقطع منذ وصولنا إلى
القاهرة ، وبرد شهر مارس يسمى هنا برد العجوز .

الدبابات وفرق الموسيقى والفرسان تمر فى فوضى وسط زحمة تصفق
لهم وتزعق . المتفرجون يعتلى بعضهم أكتاف بعض ، وتحت نافذتى
كاميون مملوء برجال البوليس ليشرف على هذا المشهد الذى يشبه عجينة
البطاطس . السماء تمطر ، ما هى إلا قطرات قليلة متفرقة ، فمصر
لا تعرف المطر — ومع ذلك فإن التندبة كانت بمثابة طوفان الإعصار .

رجال البوليس يغطون رؤوسهم بأذيال معاطفهم ينشرون « تندة »
فوق الكاميون . أصحاب الجلابيب يهربون بمئة ويسرة ، غطوا رؤوسهم
بورق الصحف . أصحاب الطرايش غطوها بالمناديل . ثار الحشد ،
جلجل الكلاكسون . من السهل تصور ثورة هذا الشعب الذى ليس له
قصد سياسى إلا السلب والنهب إذا عمت الاضطرابات .

فورا . . معناها ٣ أيام

كففت عن الكتابة لأن خادما الفندق دق على الباب ودخل ليعيد إلى الولاة
التي أعطيتها له منذ ثلاثة أيام ليملاها بالبنزين وقلت له : « هاتها فورا »

نكته تصبح تشنيعا

قال لى فليكس روللو : سائق التاكسى يطلق الكلاكسون لأنه يتصور أن زعيقه يطفىء النور الأحمر . قلت لسائق مرة : لماذا تطلق الكلاكسون ؟ فأجاب : ليطفىء النور الأحمر . فشرحت له أن إشارة المرور جهاز ميكانيكى لا ينخفض لأوامره . ولم أكد أفرغ من شرحى حتى أضاء النور الأخضر ، فالتفت إلى السائق وقال : رأيت صدق كلامى ؟

المكيفات

جميع المكيفات فى مصر تعمل على شد الأعصاب وإهاجتها ، أما المكيف الوحيد الذى يهدىء الأعصاب ، الأفيون الوحيد هو الدين . تسير عربات النقل بالليل فى طريق الإسكندرية كما تشاء ، على يمين الطريق أو يساره ، وماذا يهم ؟ خليها على الله ، فحوادث المرور فى القاهرة تفوق الحصر . إن الدين هو الأمل الوحيد لشعب مستسلم لقدره ، فهو يسرع بلا تردد إلى بناء مسجد بدلا من بناء مستشفى تملأ العين .

لا تعلموا ابن البواب

إن مشهد هذا الشعب يكاد يرر رأى القائلين بأنه شعب ينبغى ألا

يقرب العلم ، لأنه إذا لم يصب من العلم إلا بعضه لا كله تشوش فكره
ونشأ يحسد الغير على ما يملكه . والطبقة المتعلمة لم تعد طبقة الفراعنة
والكهنة . وإذا استثنينا عددا لا بأس به من أصحاب العقول الممتازة فإن
الذكاء لا يشع في نظرات أفراد الطبقة التي تعرف القراءة والكتابة . الفن
هنا في انحدار ، والفقر في انحدار . وأصحاب الحرف اليدوية الداخلة في
الفنون الجميلة يختفون باختفاء أولئك الذين كانوا يحثون مواهبهم على
الإبداع .

على العين والراس

يحدث لى كثيرا أن ألقى قلبى ينصهر وأنا أرقب الشعب المصرى .
ماذا به ؟ خضم لا ينتهى من الأسمال البالية . تناقض شنيع بين فرط
الترف وعربات الكارو والأقدام الحافية . ولكن يرد قلبى وأنا أحس أن
هذا الكرب فى مصر يختلف عن مثيله إذا منيت به فرنسا . فهناك يأخذ
الشعب الأمور بشيء من السهولة ، بشيء من تقبل المرتاح . أكاد أقول
بشء من النعيم والأبهة . قد نبهنى أندريه جيد إلى هذه الخصلة التى تجمع
المتناقضات . إنه لا يطيقها .

الفن العربى

زرت متحف الآثار العربية ، وفيه هالنى تحول التعبير الدال على

صاحبه وعصره إلى قوالب جاملة . تحول الفن الإنسانى إلى زخارف هندسية وفن غير إنسانى . والواقع أن الجمال قد انتهى بصلاح الدين . ملحوظة : لا أدرى ما دخل صلاح الدين هنا . كل ما فى الأمر أنه باق فى ذهن كوكتو من أيام الحروب الصليبية . وهذه جهالة كبرى من كوكتو .

وله فى الكتاب سقطة أخرى شنيعة ، فقد زار معبد الكرنك ، فرأى على أحد جدرانہ نقشا باسم رامبو ، وهو اسم الشاعر الفرنسى الفذ الذى لم تنقطع فضائحه أيام صحبته لزميله الشاعر الماچن المسكين فيزلين ، فكاد كوكتو يجهث أمام النقش ويصلى ركعتين . ظن أنه التقى بأثر شاعر يأتى به ، ومع ذلك فمن الثابت ثبوتا قاطعا أن رامبو - وإن مر بمصر وهو فى طريقه إلى الحبشة - لم يزر أبدا معبد الكرنك ، وإنما النقش لسائح لافى العير ولا فى النفير يحمل الاسم ذاته .

هذه عينة من كلام كوكتو عنا . لا حاجة لنا اليوم للرد عليه ، لأن مصر كلها تكفلت بهذا الرد يوم ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ .

(والمساء ، ٤/١١/١٩٦٣ ، ص ٨)

تهيئة الجو

« سلم على زملائك » - هذه هى التعليمات الوحيدة التى كان يتلقاها رجال السلك الدبلوماسى من وكيل وزارة الخارجية وهم يقابلونه للاستئذان منه فى السفر إلى مقر أعمالهم فى أى بلد من بلاد العالم . . وحتى هذه التعليمات الوحيدة كانت تهمل ولا تنفذ . أصبحت لتكرارها وسخافتها موضع استهانة وتندر ، فلم أشهد فى كل المناصب التى شغلتها فى ذلك العهد زميلا وفدا إلىينا من القاهرة فقال لنا : تنفيذا لتعليمات وكيل الوزارة أبلغكم أنه يسلم عليكم . ليس المطلوب منهم القيام بأى نشاط سياسى ، كل المطلوب منهم أن لا يندفعوا بحماسة إلى وضع إصبعهم فى عش ما ، فقد تخرج منه حفنة من الزناير تسبب للوزارة وجع الدماغ .

ومع ذلك فمن الإنصاف أن نحمد لوكيل الوزارة صراحته وواقعيته . فقد كان السلك الدبلوماسى منذ نشأته فى أعقاب تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ مجرد حلية يتزين بها الجالس على العرش بعد حصوله على لقب

« ملك » . فلم تكن عصر سياسة خارجية مستقلة بالمعنى المتعارف عليه دوليا . إنما هي علاقة ثنائية بين مصر وإنجلترا . واستمر الحال على هذا الوضع حتى بعد عقد معاهدة سنة ١٩٣٦ . تستطيع أن تقول إن أول انبعاث لسياستنا الخارجية جاء على خفر واستحياء بعد قيام الجامعة العربية بعد أن باركها المستر إيدن بتصريحه المشهور . وتستطيع أن تقول أيضا إن الجامعة كانت أول محاولة لإنجلترا لضم الشرق العربي كله في حلف واحد تحت جناحها .

ورغم هذا الانبعاث الضئيل ظلت تعليمات وكيل وزارة الخارجية لرجال السلك الدبلوماسي عند سفرهم : سلّم لي على زملائك . والسبب الآن مزدوج : أزمة ثقة ورغبة في الاستئثار لاكتساب الشعور بالأهمية ! السراى لا تثق بكفاءة وزارة الخارجية وتستأثر بالسياسة الخارجية لها أعوانها واتصالاتها . . . ووزارة الخارجية لا تثق بكفاءة رجال السلك الدبلوماسي ويسعدّها أن تستأثر بما بقى لها من فتات عن طريق اتصالاتها بسفراء الدول الأجنبية في القاهرة . ولم تكن اللعبة في الحقيقة ثنائية : السراى ووزارة الخارجية ، بل كانت ثلاثية ، لأن رئيس الوزراء في ذلك العهد - حين لا يكون وزيرا للخارجية - كان له أيضا اتصالاته بهؤلاء السفراء على خلاف العرف المتبع في كل بلاد العالم . وربما علمت السراى أشياء لا يعلمها رئيس الوزراء ، وربما علم رئيس الوزراء أشياء لا يعلمها وزير الخارجية ، وكل هذا العلم لا يعلمه رجال السلك الدبلوماسي : باب السراى ورئيس الوزراء ووزير الخارجية مفتوح على مصراعيه لكل رجال السلك الدبلوماسي الأجنبي في حين أن سفير مصر في الخارج - على جلاله

قدره - قلما يقابل وزير الخارجية في البلد الذي يقيم فيه ، وتقتصر اتصالاته على موظف صغير هو وكيل القسم المختص بالمنطقة التي تقع فيها مصر . لا عجب أن كان رجال الملك الدبلوماسي إذا قدموا للقاهرة لم يجدوا في السراي أو رئاسة الوزارة أو ديوان وزارة الخارجية إنساناً واحداً يسألهم عن شيء ، وكان يقال عن سفير كبير لنا في الخارج إنه كالساعة المضبوطة . . لا يقدم ولا يؤخر .

من بين رجال السلك الدبلوماسي من قنع بهذا الوضع راضياً مسروراً وحمد ربه أن الدولة تتيح له السياحة في الأرض والتمتع بمباهجها بالمجان ، وأنها إذا لم تكلفه بعمل فقد حطت عنه كل مسئولية وكل تعرض للخطأ المفضى إلى المجازاة .

ومنهم من لم يخدم في قلبه حبه لوطنه وإحساسه بكرامته فرأى أنه إذا لم يستطع أن يكتسب ثقة الوزارة فتفضى إليه بطرف من أسرارها وتكلفه بمسعى سياسى ولو كان ضئيلاً ، فإنه على الأقل قادر على أن يخدمها ، أن يكون ذا نفع بأن يكون لها بمثابة العين التي ترى والأذن التي تسمع ، فينقل إليها بصدق وأمانة صورة للواقع الذي يعيش فيه ، حتى تكون على بينة منه ، حتى تقارنها - على الأقل - ببقية الصور التي تحملها إليها مصادر أخرى قد تكون جاهلة أو مغرضة أو متآمرة . وكان هؤلاء هم المعذبون في أرض وزارة الخارجية . ما أشبههم بوكيل يتحرق على مصلحة موكله ، فيسارع إلى الاتصال به بالتليفون ليبلغه نبأ هاماً ، ويطلب منه المشورة فيما يفعل إزاءه وبعده ، فإذا به يسمع صوتاً مجهولاً له يقول له : خليك على التليفون سأنادى لك على موكلك ، ثم يمضى دهر طويل دون أن يصله

رد ، فيضع السماعه مكانها وهو يضرب كفا بكف من شدة الحسرة ومن دهشته وعجبه لحماقة موكله وإهماله . كانت وزارة الخارجية قلما ترد على رسالة لمبعوث لها في الخارج .

فما بالك بهذا العذاب إذا كان الوكيل رجلا يتأجج في قلبه حبه لوطنه وثقته بنفسه وإخلاصه . قد قذفت به الأقدار في أخطر معركة تخوضها الأمة العربية في العصر الحديث : معركة فلسطين ، ولس الفرق الشاسع بين الواقع والوهم في أذهان ساسة بلده ، جهلا أو تجاهلا ، ما بين صدق الحوادث وكذب المزاعم المضللة . وأحس بمقدار الخطر الذي يشهده قادما على أمته قدوم الليل ، فنسى الراحة والسلامة وأبى إلا أن يرشد وينبه ويحذر . ولكنه بقي كمن يؤذن في مالطة ، بل علم أن وزير الخارجية لا يقرأ رسائله ، وتجرع غصة أشد حين زار القاهرة فرأى هذا الوزير يتجاهله ، ويأبى أن يصحبه في رحلة سياسية هامة كان ينبغي أن يكون له فيها نعم الناصح الأمين ، لأنه بالموقف أشد خبرة منه .

ووزير الخارجية يسوغ لنفسه حماقته وسوء أدبه باعتقاده — وهو واهم ، وهو الأزعر بجانب ذيل السراى وذيل رئيس الوزراء — أن الخيوط كلها تتجمع في يده ، أتته من كل صوب ، وأن هذا المتحمس اللحوح ما هو إلا من نسل « كاسندرا » لا ينذر إلا بشؤم ، وما هو إلا خيط واحد من بين آلاف الخيوط ، يظن أنه لا يرى منها إلا جانباً ضئيلاً ، ليس هو الذي تقوم به كفة الميزان أو تقعد ، ليست الدبلوماسية هي كتابة تقارير ، بل اتصالات في الكواليس وكان وزير الخارجية يؤمن أنه يجيد

التمثيل أمام الستار ، أما وراء الستار فلا يضارعه ممثل آخر في البراعة والحيلة .

صدقت المصائب كل ما حذر به الوكيل الأمين الذى ظل صوته يؤذن في مالطة. ياله من عذاب ، ياله من حسرة ، ياله من مرارة . ولم ينفع مرور عشرين عاما في طمس حداثتها وتخفيف أوارها وها هو ذا صاحبها يعصرها لنا أخيرا في كتاب يقدمه لأهل وطنه ، للأمة العربية كلها ، لا لتندب وتبكي ، بعد فوات الأوان ، ولا لأن تشكره على جهده وإخلاصه وصدق نظره ، بل لتتعظ بالتجارب الماضية وهى ترسم طريق المستقبل .

إنه أول من جسر - في مبلغ علمي - على أن يلاحق كل مشؤل عن نكبة فلسطين بنصيبه من الذنب ، وأعجب أنه استطاع - رغم الحسرة والمرارة - أن يكتب عن هؤلاء المذنبين بأسلوب علمي هادئ مؤدب ، ولكنه خلع على القارئ كل هذا الغيظ الذى تكتمه ، فأصبح غيظي من المؤلف لهدوء أسلوبه أشد من غيظي على المذنبين . .

قد أطلت في وصف حسرته ومرارته لأنها مفتاح الكتاب وتفسير الآراء والنصائح التى وردت به ، ولنا عليها كلام آخر .

أما الكتاب فعنوانه « صفحات مطوية عن فلسطين » ، وأما مؤلفه فهو أستاذى وزميلي القديم وصديقى العزيز أحمد فراج طابع وزير الخارجية سابقا . إنه شهد عن كثب نكبة فلسطين حين كان قنصلا عاما لمصر بالقدس من يوليو ١٩٤٧ إلى أكتوبر سنة ١٩٤٨ .

وبعد هذه المقدمة التى أردت بها أن أصف الجو الذى كان يعمل فيه رجال وزارة الخارجية ، سأقدم لك المؤلف والكتاب فى المقال التالى .

(« النساء » ، ١٣/٦/١٩٦٦ ، ص ٦)

صورة بشعة . .

حين انتصرت ثورة ٢٣ يوليو وأقبلت على تطهير أداة الحكم كان واضحا أن السلك الدبلوماسى - بل وزارة الخارجية كلها فى حاجة أشد إلى انقلاب جذرى ليكون تمثيل مصر فى الخارج معبرا عن وجهها الثورى الجديد وجديرا بالاعتماد عليه ، وينبغى الاعتراف أن رجال السلك الدبلوماسى كانت تلاحقهم إشاعة بلغت حد الخبر اليقين بأنهم شرابة خرج - والخرج هو السراى . وكان السؤال هو : هل يمكن أن نستخلص منه نواة طيبة تصلح لتجميع عناصر جديدة حولها ؟ من هو من بينهم من صان نفسه عن الجرى الذليل فى ركاب السراى ؟ .

فى الإجابة على هذا السؤال برز اسم الأستاذ أحمد فراج طابع على رأس القائمة فقد عرف بالرجولة والاستقامة والشجاعة فى إبداء الرأى وأجره على الله . كان قنصلا عاما فى مرسيليا تمر عليه أفراد الأسرة المالكة ذهابا وإيابا ، فلم يحن لأحد منهم رأسه ، أو وقف بين يديه وقفة التابع

الذليل الذى يتطوع لحمل الحقائب . إنه مثال بديع للرجل الصعيدي فى رجولته وإبائه واعتزازه بكرامته . وقد تجلت هذه الفضائل كلها فى كتابه الأول الذى أصدره أخيرا بعنوان « صفحات مطوية عن فلسطين » ، فقد شاء له القدر أن يشهد النكبة عن قرب حين شغل منصب القنصل العام لمصر فى القدس من يوليو ١٩٤٧ إلى أكتوبر سنة ١٩٤٨ .

وتجلت فى الكتاب أيضا آثار المראה التى عاناها حين رأى تقاريره التى يضمناها الصديق الذى شهد به عينه يضرب بها عرض الحائط ثم توضع على الرف فى أرشيف فى بدروم بوزارة الخارجية ، ولا تتفضل بالرد عليه بكلمة واحدة . وقد مهد لكتابه بكلمة قال فيها :

« وإنى إذ أكتب هذا الكتاب ومن بين ما يتضمنه بعض صفحات مطوية كانت سرية وقت كتابتها قبل ١٥ عاما ، وفقدت سريتها الآن ، فإنما أبغى من ذلك أمرين :

- ١ - أن أبين أخطاء الماضى فنتجنب الوقوع فى مثلها فى المستقبل .
- ٢ - أن أضع أمام المهتمين بفلسطين الحقائق التى شهدتها مجردة من الغرض خالية من أى زيف .»

وتجد فى الفصل الأول « أهداف اليهود وخططهم فى تحقيقها وحججهم فى تبريرها » تلخيصا بارعا مفيدا للمراحل التى مرت بها قضية فلسطين : نص وعد بلفور فى ٢ نوفمبر سنة ١٩١٧ ، الكتاب الأبيض « تشرشل » فى أول يوليو سنة ١٩٢٢ الذى يقول « ليس فى تصريح بلفور ما يدعو إلى تحويل فلسطين كلها إلى وطن قومى لليهود ، ولكن يجب إنشاء

مثل هذا الوطن في فلسطين » . تقرير لجنة شوسنة ١٩٢٩ . تقرير لجنة الانتداب الدولية سنة ١٩٣٠ . الكتاب الأبيض الثانى سنة ١٩٣٥ . تقرير لجنة بيل ١٩٣٧ ، وقد ظهرت فيه فكرة التقسيم لأول مرة ، دولة يهودية فى الشمال والغرب ، وعربية فى الشرق والجنوب . تقرير لجنة وودهيد سنة ١٩٣٧ التى هزأت بفكرة التقسيم ، مؤتمر لندن سنة ١٩٣٩ الكتاب الأبيض الثالث سنة ١٩٣٩ الذى أوصى بإقامة دولة موحدة تجمع بين العرب واليهود ، لجنة الانتداب فى عصبة الأمم رفضت هذا الكتاب « ٤ ضد ٣ » . تقرير اللجنة الإنجليزية الأمريكية ١٩٤٦ الذى أشار أيضا بإنشاء دولة موحدة مع السماح بهجرة اليهود وإعطاء رخصة لدخول ١٠٠ ألف فورا . مؤتمر لندن سنة ١٩٤٦ - ١٩٤٧ . لجنة تحقيق من الأمم المتحدة بعد عرض القضية على دورة استثنائية للجمعية العمومية ، وبرزت فى تقريرها فكرة التقسيم من جديد وتدويل القدس ، وأعطت النقب لليهود مع نظام فدرالى . اقتراح أمريكا وضع فلسطين كلها تحت الوصاية فى ١٩ مارس سنة ١٩٤٨ .

انسحاب إنجلترا وبدء الحرب ووساطة برنادوت الذى أوصى بإعطاء النقب للعرب فقتله اليهود . ويستمر تلخيص المراحل إلى أن يبلغ قيام دولة إسرائيل والاعتراف بها بعد ٢٤ ساعة من إنشائها من أمريكا وروسيا على السواء .

تلخيص بديع ينبغى أن لا يغيب عن نظر كل مواطن عربى لا يتسع وقته للتخصص ومراجعة المطولات ، ولكن الجانب التاريخى العام فى هذه الفترة قد جاء مبسطا إلى درجه لا نحمدها للمؤلف . فهو مثلا (فى

ص ١٣) يستشهد بفقرة من كتاب محمد على علوبة منقولة عن كتاب وايزمان. وكتاب وايزمان بين أيدينا وكان ينبغي الرجوع للأصل لا إلى الناقل عنه ، كما أنه يعتمد كثيراً على الصحف وبرقياتها في وصف الحالة الداخلية في إسرائيل وهو معذور فليس لديه مراجع أخرى . إن كتاب الأستاذ أحمد فراج طابع دليل على النقص الكبير لدينا في تسجيلنا لأحوال العدو وتتبعها في كل الميادين . لا بد في اعتقادي من إنشاء معهد متخصص لدراسة إسرائيل تجمع فيه كل وثائقها .

ويعضى المؤلف بعد ذلك في تعليق مسئولية النكبة في أعناق محمد أمين الحسيني ، وعبد الرحمن عزام ، والمرحوم الملك عبد الله . وبالنسبة لدور مصر المرحوم محمود فهمي النقراشي . ورياض الصلح والسيد مزاحم الباجهجي وحكومة عموم فلسطين .

وبالرغم من الأسلوب الهادئ المؤدب الذي كتب به المؤلف عن هؤلاء المسئولين عن النكبة فإن القارئ العربي سيملكه شعور شديد بالغضب والخجل حين يرى أمامه أبشع صورة متصورة لتخاذه الدول العربية ومعاداة بعضها لبعض وكلها جميعاً على الشعوب العربية . ولولا هذه الصورة البشعة لما رأينا المؤلف ينعى على العرب رفضهم للكتاب الأبيض سنة ١٩٣٩ الذي دعا إلى إنشاء دولة موحدة ، ثم طالبوا بعد ٨ سنوات بتنفيذ توصياته ، كما نعى على العرب أيضاً رفض فكرة الوصاية . (راجع التلخيص) . ولكنني أسأل المؤلف : لو قبل العرب الأخذ برأيه أكان قيام دولة إسرائيل قد امتنع أو تأخر ؟ إنه لو راجع مقدمته التي كتبها هو بنفسه لأدرك معنى عظمة هذه المؤامرة الكبرى التي هدفت إلى قيام دولة

إسرائيل قصدت بها تحقيق أحلامها وقصد الغرب شل المنطقة العربية الغنية بالبتروول إذا شملتها النهضة وتشتت مواردها فى التسليح ، وحقق الاثنان بنجاح المؤامرة لأن بلاد العرب كانت فى نظرها منطقة خلاء حضارى .

والذى يهمنى فى المحل الأول فى هذا الكتاب هو موقف مصر فى حرب فلسطين ، والسؤال هو : لماذا دخلت الحرب وهى غير مستعدة عسكريا ؟ كيف أمنت للإنجليز وهم يحتلون أرضها ؟ كيف أمنت بتسليم القيادة إلى ملك يرضع من ثدى إنجلترا ؟ يشهد لنا المؤلف بأن محمود فهمى النقراشى لم يكن يريد الحرب ، فقد سمعه بأذنه يقول لعبد الرحمن عزام « كفاية لوتربة يا عزام ، أنا لست مستعدا للحرب وكل ما أستطيع أن أقدمه هو المال » ولكنه عدل عن رأيه ودخل الحرب . فما هو السر ؟ لا يلقى المؤلف ضوءا يكشف لنا ولو جانبا ضئيلا من السر . إننى أعتقد أن الإنجليز لا الملك فاروق هم الذين أضاءوا الضوء الأخضر وقالوا للنقراشى : تقدم ونحن معك .

وكانوا يريدون منه أن يحقق بالفعل وفى الميدان خطة يتكتمونها ، وهى أن تنتهى الجولة الأولى باحتلال كل من الطرفين للقسم الذى دبرته إنجلترا له فى مشروع التقسيم الذى تتكتمه . وغلطة النقراشى — فيما أعتقد لم تكن فى أنه دخل الحرب ، بل فى أنه لم يفهم خطة إنجلترا . كانت تريد استخدامه كاستخدام القرد ليد القط فى احتلال النقب لتنفى إنجلترا مسئوليتها عن ضياعه من يد اليهود ، فهى كانت فى تلك المرحلة راضية بإنشاء دولة يهودية على الساحل ، ولكنها كانت تريد لها دولة ضعيفة تخضع

لها ثم تقوى شيئا فشيئا وفقا للمصالح البريطانية . وأرادت باحتلال العرب للنقب أن تظل المنطقة العربية متصلة وهي واثقة أنها ستظل في منطقة نفوذها فتكون ورقة لعب في يدها ضد إسرائيل إذا هددت مصالح إنجلترا . لم يفهم النقراش خطة إنجلترا ، وبدلا من البقاء في النقب جرى إلى تل أبيب وهي أبعد عليه من لبن العصفور فكانت النكبة .

لقد سمعت بأذن من وزير الخارجية في ذلك العهد « المرحوم أحمد محمد خشبه » أن المستر شامبان أندروز هو الذي بارك قرار مجلس الوزراء بدخول الحرب . إن ضياع النقب لم يكن هزيمة للعرب وحدهم بل كان انتصارا لإسرائيل على إنجلترا . و صلب نكبة فلسطين هي قطع اتصال الرقعة العربية ومد أنابيب من حيفا إلى إيلات - ربط البحر الأبيض بالأحمر - ولكني أقول دائما إن نكبة فلسطين كان لابد من حدوثها لأجل أن تستيقظ الأمة العربية - ولا شك أنه من أجل حوادث العصر الحاضر اعتناق مصر للقومية العربية واتصال الجناح الغربي بالجناح الشرقي في التصدي لإسرائيل . وفوق ذلك فإن الله سبحانه وتعالى لم يظلم العرب ، فحين شاءت إرادته أن تقوم إسرائيل دولة وضع في يد العرب أقوى سلاح ينتصرون به في المعركة سلاح البترول . فإذا أضاعوه من يدهم فهم الملولون وحدهم .

((المساء) ، ٢٠/٦/١٩٦٦ ، ص ٦)

« أضواء على الدبلوماسية »

من حق الأستاذ أحمد عبد المجيد أن تكون وزارة الخارجية عندنا في مقدمة الشاكرين له على تأليفه لكتاب صدر له أخيراً بعنوان « أضواء على الدبلوماسية » فهو - أولاً - يثبت للناس - وإن لم تفتح هي فمها - أن في رحابها يتهيأ العيش للأدب والفن ، تستطيع أن تستشهد بنفر من أبنائها مثل ناجى وطاهر العمرى فى التصوير وأحمد راسم وحسن مظهر » وإن كان جل إنتاجهما بالفرنسية وعبد الشافى اللبان فى الأدب ، وأحمد عبد المجيد الذى عمل بالسلك الدبلوماسى ثلاثين سنة حتى ارتقى من أول درجات السلم إلى مرتبة السفير هو من هذا الركب ، إنه شاعر رقيق له ديوانان ، أولهما « همسات » وثانيهما « أوراق الخريف » يتمثل فيهما الشعر وهو يتخلص من الذوق الكلاسى إلى الذوق الحديث ، وهذا النغم الشعرى الذى يخفق به قلبه هو الذى جعله أيضاً من مؤلفى نصوص الأغاني وكم دارت على ألسن الشعب - لا فى مصر وحدها بل فى العالم العربى كله - كلمات له ألفها لعبد الوهاب فغنى بها مثل « كلنا نحب القمر » و« مريت

على بيت الحبايب ، من اشتياقى . . » ، أمامى أمثلة ، فى ذهنى للأستاذ عثمان عسل سفيرنا فى أكرا الذى ترجم لنا بعض قصائد بودلير ، تشير بأن هذا التقليد - ازدهار الأدب والفن فى حمى وزارة الخارجية ، سيظل متصلا إن شاء الله . إن نسيت أسماء أخرى فالذنب ذنب الذاكرة فى السن التى بلغت ، ليس جحودا لفضل او إنكارا لجميل . ولا أحب أن أنتقل الى بقية الكلام دون أن أذكر أيضا للأستاذ أحمد عبد المجيد صفة تجعله فى المحل الأول فى أصدقائه - وهم كثر - تكاد تبلغ صداقتهم له بسببها حد العشق ! . . صفة تسلكه فى هذا الرتل الذى هو زينة الحياة وبهجتها الممتد من البابلى والبشرى وحافظ إلخ إلخ الى حسين الترسى ورامى وأم كلثوم ، أعنى رتل أئمة الدعاة وفن التنكيت ، أرجو أن أقدم لك فى فرصة أخرى أمثلة من نكات أحمد عبد المجيد التى يطلقها عفو الخاطر ، وليدة اللحظة ، لا لبراعتها فى الفكاهة ، بل لأنها تمت إلى الأدب الرفيع أيضا من حيث حسن الذوق وقوة الخيال وتمام العناق بين اللفظ والمعنى .

وثانيا لأن هذا الكتاب « أضواء على الدبلوماسية » يثبت للناس - إن لم تفتح وزارة الخارجية فمها - خلاف ما يظنه الناس من أن تطور السياسة والتقدم الهائل فى طرق المواصلات قد سحب البساط من تحت أقدام العمل الدبلوماسى حتى ليبدو للأعين أنه أصبح ترفا لأمسوغ له ، يثبت الكتاب أن العمل الدبلوماسى له أهميته وجدارته بالبقاء . يقول (ص ٢٦١) « وظيفة السفير لا تزال تحمل عبء جس النبض ، وتهيئة الجو المناسب وإزالة العوائق والعقبات والإعداد والتمهيد لكل محادثة ذات خطر يقوم بها

وزير خارجيته ، وإلى جانب كل ذلك تحمله لكل صدمة عند وقوع نزاع بين بلده والبلد المعتمد لديه . » وبعد أن ذكر الكتاب سعى السفراء لتدعيم الروابط الاقتصادية والعلمية والثقافية بين بلدهم والبلاد الأخرى قال : « لقد أصبحت دور السفارات في عصرنا الحديث بمثابة الواجهة الخارجية التي تعرض فيها خير النماذج المشرفة للدولة من كل جانب » وهكذا فإن أحمد عبد المجيد ، على خلاف مارك أنطوان - لم يشأ في هذا الكتاب أن يقبر السلك الدبلوماسي بل أن ينفخ في روحه ، ولكنى لم أر مدافعا فاقه في التزام الاعتدال والتريث والاعتراف بالحقائق التي له والتي عليه ، وقد وصل أحمد عبد المجيد إلى خاتمة البحث بعد أن طاف بنا عبر التاريخ فيبدأ بتعريف الدبلوماسية ثم يشرح تطورها في مختلف العصور ثم يتطرق إلى الحرفة ذاتها فيشرح أدواتها ومصطلحاتها إلخ إلخ ، ولكن هذا الجانب المنهجي الدراسي في الكتاب لا يهمني (لأنى أجد مثيلا له في مراجع أخرى) قدر ما يهمني الجانب الآخر في الكتاب الذى جمع فيه أحمد عبد المجيد خلاصة قراءاته المستفيضة عن تجارب سفراء عديدين وهم يصارعون مشاكل مناصبهم فى أدق الأوقات وأشدّها ضعفا عليهم ،

تجارب سفيرى فرنسا فى إنجلترا وروما « وهما إخوان كامبدن » قبل الحرب العالمية الأولى وتجارب سفيرى ألمانيا فى موسكو وإنجلترا « كونت فيرنر فون دير شولزبرج وهربرت فون ديركسن » ، وكذلك سفيرى الولايات المتحدة فى لندن وباريس « مستر كندى ومستر بوليت » قبل الحرب العالمية الثانية ، يضاف إلى ذلك هذه الصورة الحية الممتعة التى قدمها المؤلف لسكرتير وزارة الخارجية الفرنسية « فيليب برتلو » قبل الحرب العالمية

الثانية ، هذا هو الجانب النابض في الكتاب ، تقرأه كأنك تقرأ ، قصة
درامية تهتز بما تتضمنه من لحظات الصراع العنيف بين قوى جبارة ، قوى
مادية ومعنوية ، فليس ينبغي لكل عضو في وزارة الخارجية عندنا أن يقرأ
هذا الكتاب بل إنني واثق أن كل مثقف سيجد فيه فائدة ومتعة ، وينتهي
الكتاب بعرض ينصف سياستنا الخارجية كل الإنصاف ، قد شعرت
باعتراز كبير بيلدي وأنا أقرأه ، فقد أثبت المؤلف أن سياستنا الخارجية
تعتمد على المثل العليا التي تهفو إليها الإنسانية ، من الاعتراف لجميع
الشعوب بحقوقها في تقرير المصير ، من مقاومتها لكل أنواع العدوان ، من
وقوفها ضد الاستعمار ، حتى كأنك لتحسب أن لا مصلحة لنا إلا الدفاع عن
هذه المبادئ والتمسك بها . .

حقا إن مكتبتنا لم تشرها كتب عديدة مؤلفة لا مترجمة — عن
الدبلوماسية وتجارب كبار سفرائنا ولا بد أن نشيد هنا بأعمال أستاذنا أحمد
فراج طايح الذي قدم لنا جوانب من تجاربه في الأمم المتحدة وفي فلسطين ،
أما عبدالمجيد فلم يشأ في كتابه أن يحدثنا عن شيء من تجاربه ، لعله يخترنها
لكتاب آخر نرجو ألا يغيب علينا ، ولكنه لحسن الحظ لم ينس وهو يؤلف
« أضواء على الدبلوماسية » حتى وهو يتحدث عن الجانب الحرفي أنه
أديب ، صاحب أسلوب ، فالتزم في الكتاب كله رشاقة اللفظ والعبارة ،
فهو أيضا نص أدبي . . انظر كيف يعرف البروتوكول :

« ومعنى البروتوكول أو المراسم في عالمنا الحديث هو قدرتنا على فهمنا
للحياة وكيفية استقبالنا لها والإحاطة بتفاصيلها ودقائقها والعناية بمعرفة ما

يحيط بجوها من مظاهر الاستقبال والاجتماع والاحتفاء والتصرف
الصحيح في مختلف المناسبات ، والعلم بما ينبغي أن يترك وما يتعين أن
يكون ، هو في كلمة جامعة « فن الحياة » .

(والمساء « ٢٦ / ١ / ١٩٧٠ ص ٦ ، ٥)

التنبؤ بالماضى !

يوم ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ كانت السفارة الملكية المصرية بتركيا تصطاف - وأنا معها - في قصر ببلدة على البسفور . هربنا من حر أنقرة ولكننا لم نهرب من النكد . مجلة هزلية تركية تصدر في إستانبول نشرت على صفحتين بالكاريكاتير رسماً للملك فاروق يعوم كأنه الدرفيل يلبس نظارة سوداء ، وعلى بطنه العارية المتفخخة تتواثب حوريات البحر .

سمعت بأذن في مسرحية لفرقة ناشد الهزلية - مثيلة فرقة الريحاني عندنا - كلمة بذئثة نابية موجهة إلى حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم ، ضحك الجمهور لها وأنا أنكس رأسى لا أدرى أين أتوارى المفروض - حتى ولو لم تصلنا تعليمات - أن نذهب لوزارة الخارجية لنحتج ، ولو تحليلاً للمرتب الكبير الذى نقبضه كل شهر سفلة ، فكنا نقابل بابتسامات ساخرة ، حديثنا ليس برطمة بغضب ، بل استجداء بأدب كأننا نقول لهم :

— ولو إكراما لخاطرنا ، ومنعاً لكسوفنا بين الناس . نحن نعلم قبلكم أن الإهانة في محلها .

وكان رجال وزارة الخارجية التركية يتهموننا في وجوهنا — حين نلقاهم لعمل — بأننا « أولا » جماعة عواطفجية سياستنا هوائية ، أما هم فالمصلحة عندهم تأتي قبل العاطفة والحقائق المرة قبل الآمال الحلوة ، هكذا يزعمون .

وبأننا — ثانياً — أعجز من أن نحسن إنشاء وزارة للخارجية عريقة التقاليد ، تفهم مهمتها وتؤديها على أحسن وجه . فالعمل الذي ذهبت من أجله يتعلق بتصويت مرتقب في الأمم المتحدة . فإذا بي أجد محدثي يعلم عن موقف وفدنا في تلك الهيئة ما أجهله أنا . معلوماتنا عن سياسة بلدنا وعن سياسة تركيا مستقاة كلها من الصحف ، وشتان بين ما يجري في السر وبين أقوال الصحف . بعض سفرائنا العظام كانوا يرسلون بالشفرة النص الكامل لمقال منشور في إحدى الصحف ، لا يغفلون حروف الجر وأداة التعريف . لو كان ذكاؤهم من قماش لما كفى لتفصيل بنطلون شورت لعصفور كناريا ، فهم علاوة على سخفهم الشديد وتبذيرهم بسفاهة لأموال الدولة ، لا يدركون أنهم بعملهم هذا يكشفون بحماقة عن مفتاح الشفرة ، فلا شك أن وزارة الخارجية في البلد الذي يقيمون فيه ، وربما السفارة الإنجليزية أيضا ، قادرة على أن تعرف فيم أرسلت البرقية ، فما عليها إلا أن تقارن بين النص الواضح والنص المملغز حتى تهتدي بسهولة إلى مفتاح الشفرة

كانت سمعتنا قد هبطت إلى الحضيض . أحاط بنا جو من الذل

والمهانة ، وغلبنا شعور بأن أكلنا حرام لاحلال ، كأكل القوادين . وكنت ألحظ بوضوح ووجل كيف يؤدي هذا الشعور إلى الانزلاق لصور بشعة كثيرة لحظة النفس ، وقد يما قالوا : « من يهن يسهل الهوان عليه » .

وكان بيننا من يشبه الغريق في بحر يأس شديد يفضى إلى التبلد والبلالة وعدم المبالاة ، وإلى شلل الإحساس والقدرة على الاستجابة السريعة ويقظة الذهن . ومع ذلك لا ينفك يقب على السطح داعيا ربه أن يزيل الغمة . بقى أمله معلقا بالجيش المصرى بعد أن احترقت كل الأحزاب السياسية .

من الطبيعى أن يمنعه تمزقه هذا من أن يدرك حق الإدراك معنى الخبر الذى دهمه يوم ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ بتحرك الجيش المصرى للعمل كما كان يؤمل ، بل أصيب بذهول . أخذ يتتبع الأخبار بلهفة لمجرد حب الاستطلاع ، غير قادر على أن يفهم مغزى الذى حدث ، ثم انجلت بصيرته يوم ٢٦ يوليو حينما أذيع خبر طرد الملك . تملكه وبقية زملائه يقين أن الأمر جدلا هزل ، وأن مصر قد طوت عهدا لتبدأ عهدا جديدا يتمنخض بأحداث جسام وبآمال كبار . وغمرت النفوس راحة شديدة وهى تتبين أن الثورة بحمد الله ثورة بيضاء . فقد كان الجيش قادرا على أن يقبض على الملك ويحاكمه ويعدمه ، ولكنه لم يفعل بل اكتفى بطرده ، وأحسنا أن الثورة تعكس لحسن الحظ طبع الشعب المصرى فى كرهه لسفك الدماء فى المعترك السياسى .

يوم ٢٣ يوليو مقرون فى الذاكرة بالذهول رغم أن الذى حدث كان

مأمولا ؛ إذا لم أشأ أن أقول : وكان متوقعا . أما يوم ٢٦ يوليو فمقرون
بشهقة الخلاص ويقظة الذهن واستنارة الفهم . شدت فيه جميع الأوتار
المرخية في الآلات الموسيقية داخل أرواحنا استعدادا لعزف لحن عظيم .

وأحسنا بوعى أو بغير وعى أننا أصبحنا مطالبين ببذل جهد كبير من
أجل المشاركة في تحريك العرب المغروزة في الوحل . ولعل هذا الإحساس
لم يخل من شيء من التهيب لما ران على النفس طويلا من يأس عميم مفض
إلى التشكك في القدرات الكامنة .

ومن حسن الحظ أن ٢٣ يوليو لم يصبر طويلا حتى يصبح ٢٦ يوليو ،
فما هي إلا ثلاثة أيام وليس غير . فلا أحد يدري ماذا كان يحدث للثورة لو
تأخر طرد الملك أسبوعا أو شهرا . فقد اغتر الناس أول الأمر بقبوله
للمطالب التي قدمت إليه . ولا أقصد الاحتمالات السياسية ، بل أقصد
قدرة الثورة على شعللة إحساس الشعب وحشد كل قواه الروحية لتبلغ
الذروة في لحظة واحدة فلا تتعرض بعد ذلك للتميع .

ولحظ الناس بابتسام ماهر ، أو مكر مبتسم ، أن الثورة من عمل
إنسان بارع في التخطيط والتوقيت . وأدركوا أن طرد الملك كان مقرا حتى
في يوم ٢٣ يوليو رغم قبوله للمطالب المقدمة إليه . ولعل وجود الملك في
الإسكندرية لا في القاهرة هو الذى فصل بين التاريخين العظيمين بثلاثة
أيام .

ولكن لا بأس ، أصبح لنا للثورة عيدان لا عيد واحد . . عيد في
القاهرة ، وعيد في الإسكندرية التي فازت جامعتها بشرف المبادرة إلى
مساندة الثورة وتأيدها ، ولا زلت أغبطها على هذا الحظ العظيم

لا عجب بعد ذلك أن صدرت من الإسكندرية لا من القاهرة جميع القرارات الثورية ، كتأميم القناة والتحول الاشتراكي .

بقى علينا عبء ثقیل : كيف نعامل أفراد أسرة محمد على المقيمين باستانبول ، فيهم الأمير والنیل — كماركات السجائر — تكأكأوا علينا يسألوننا عن الأخبار ، ويستفسرون عن مغزاها . زال احترامهم المخادع للملك فاروق زعيم الأسرة ، وانهاروا عليه بالسنة حداد . إنه في نظرهم سبب مصيبتهم . عجيب أمرهم ؛ في القاهرة يزعمون أنهم أتراك لهم الشموخ على أهل مصر . في تركيا يزعمون أنهم مصريون منهم ، لأن انتسابهم لمصر يكسبهم قدرا من الحصانة الدبلوماسية . وكان من هؤلاء الأمراء من يطلب منا أن نستورد له السيجار الفاخر الذي يدخنه عن طريق السفارة حتى لا يدفع الرسم الجمركي رغم ضآلته بالنسبة إلى ثرواتهم الطائلة . هم في مصر مصابون بداء العظمة والاستعلاء ، كأن البلد ملك أبيهم ، وهم في تركيا مصابون بمركب النقص ، فالخديو عندهم أفندينا ، ولكن أفندينا هنا يقف وقفة التابع الخاشع أمام عظمة السلطان الملقب أيضا بخليفة المسلمين وخازن لواء النبي .

جميع المسئولين — حتى أفراد الشعب — يضعون أسرة محمد على — رغم أصلها التركي — موضع التابع الذي يقبل العتبات . وجزاء المتعاضم أن يجد من يتعاضم عليه ، ولكن المصيبة أن يكون هذا الأخير باطه والنجم . . . فقرو عنطرة .

لهذا كان أفراد بيت محمد على ييلعون بسهولة في تركيا شعورهم بمركب النقص ، ويعرضونه باستعراض ثرائهم الفاحش والطنطنة به . لم يكن

صعبا عليهم أن يصبح كل واحد منهم مليونيرا في تركيا ، فالجنيه المصرى كان يساوى ١٠ ليرات تركية . حتى العشرونير مثل كان في تركيا محترما . وكان يكفيك أن تقول إنك مصرى حتى ينحنى لك الناس انحناءهم لمهراجا كشمير في سابق العصر والأوان .

وأريد أن أشهد للتاريخ أنى وجدت جميع أفراد أسرة محمد على المقيمين باستانبول — وبصفة خاصة النساء — قد تنفسوا الصعداء ، وهدأت هواجسهم ، لا لأنهم رأوا العرش يثول لابن فاروق ، بل لإسناد الوزارة إلى على ماهر . وقد سمعت بأذى إحدى الأميرات تطمئن حاشيتها بأنه ما دام على ماهر في الحكم فلا خوف علينا . إنهم يعرفونه وكيلا لدائرة سيف الدين . لم آسف على ضعف ذكائى قدر أسفى عليه ذلك اليوم . كان ينبغى أن أتوقع خروجه من الحكم بعد قليل .

وكانت هذه الأميرة قد تقدمت بها السن ، ومع ذلك فإن صورتها الفوتغرافية في جواز سفرها الدبلوماسى تمثلها وهى فى سن السادسة عشرة . . إن لم تكن صورتها هذه هى منتهى الخرور فهى على الأقل غاية البخل .

(« النساء » ، ٢٧/٧/١٩٦٤ ، ص ٨)

السفير

المستشار أديناور - مدّ الله في أجلك حتى تبلغ عمره وأنت في أرقى المناصب - توحى إلى صورته بأنه رجل صارم لا يعرف الهزل ولا يعجبه الحال المائل . حين ذكرت بعض الأنباء أن سفيره في موسكو - الهرهنزكروول قد دخل من وراء ظهره في مباحثات مع خروشفوف حول مسألة برلين ، لم يتردد لحظة واستدعاه على ملاوجهه ليغسل له رأسه . وقد يقال إن مما أغاظه من سفيره أن هذا النبأ ينشر وهو معتزم السفر إلى واشنطن لمقابلة الرئيس كنيدي ، فالرحلة إلى أمريكا عنده فرقة كعب .

هذ هو ما روته الصحف ، وأحب أن أنبهك أن هناك دائما هوة - تتسع وتضيق ولكنها موجودة - بين الواقع وأقوال الصحف في السياسة الخارجية في جميع الأزمان وكافة الدول

فقد يكون هذا الخبر مكذوبا من اساسه ، لأن وزارة الخارجية الألمانية لها تقاليد العتيقة وليس من المعقول أن يكون الهركروول مغفلا أو مغرورا

إلى هذا الحد ، وقد يكون هذا النبأ أيضا مما يوصف في عرف الدبلوماسية القديمة التي لم تنته بعد مع الأسف بأنه « بالون تجربة » ، أى اختراع إشاعة كاذبة تطلق في الجو لا لشيء إلا لتدل على اتجاه الريح ، فلا يستبعد أن يكون أديناور نفسه هو الذى أطلق هذا البالون - رغم زعمه أنه غاضب من سفيره - ليثبت للرئيس كنيدي مرة أخرى أنه مخلص في مفاوضاته معه ، أو تكون موسكو هي التي أطلقت هذا البالون ، لا في صحافتها ، بل في صحافة دولة أخرى ذرا للرماد في العيون محاولة منها إما لتحطيم هذه المفاوضات وإما لتنبيه أديناور أنه إذا أولى ظهره لأصدقائه المختلفين الذين يدورون بين عواصم المعسكر الغربي كأنهم يركبون مرجيحة لفافة ، ثم اتصل وحده بموسكورأسا فقد يكسب أكثر مما يظن . ومما يعين على الظن بأن الخبر مكذوب أننا سمعنا بعد ذلك بعودة السفير مكرما معززا إلى موسكو .

لكن النبأ إذا صح ليس بمستغرب أيضا ، فمن عادة بعض السفراء ترديد الشكوى بأنهم في واد ووزارة خارجيتهم في واد ، وأن تقاريره لا تلقى العناية الكافية ، وأنه باعتباره عين هذه الوزارة أقدر على رؤية المشكلات في أماكنها وأقدر على حلها من هؤلاء السادة النجباء المتربعين على مكاتبهم في العاصمة البعيدة . وقد يحمل الغرور بعضهم على التطوع بعمل يصفه بأنه جس نبض لا أكثر ولا أقل ، ليس فيه خروج عن التعليمات ، وإذا لم يكن لسفير أن يجس النبض فماذا بقى له بعد ذلك ؟ (إذا رأيت جميع السفراء يحملون ساعات فاعلم أنها لقياس هذا النبض) ..

وهناك عوامل كثيرة تسحب الأرض شيئا فشيئا من تحت قدم السفير حتى تزل وهو لا يدري . إنه يصل إلى مقر عمله وهو متحفظ متحمس لقضية وطنه ، فإذا به يجد نفسه يذوب قليلا قليلا وسط أناس يتسمون له ، ويدعونه للمآدب ، وتجلس إلى جواره من بنات البلد ساحرات ، حديثهن شهى ، فإذا بصورة هذا الشعب الغول في نظر حكومته تشحب على مهل في نظره حتى يقول لنفسه : « إنهم أناس طيبون مثلنا » ، وقد يزيد فيقول : « إنهم والله مظلومون » . فيرى أن الحق كل الحق ليس ملكا خالصا لبلده ، بل إن للبلد الذى يقيم فيه بعض الحق ، لا ينكره إلا أحق ، فيميل إلى المصالحة ، وقد يذهب به التضعضع إلى حد ضيقه بسياسة حكومته ويصفها بأنها عمياء أو متعصبة .

سمعت مرة سيدة جريئة تقول لسفير لنا في فرنسا قبل الثورة :

— « يا إكسلانس ، لست أدري هل أنت سفير مصر في باريس أم سفير فرنسا في القاهرة » .

هذا بسبب فرط حماسه — لطول إقامته بباريس — لوجهة النظر الفرنسية . وهذا الموقف لا يتناقض مع ما شهدته في تجاربي من أن رجال السلك الدبلوماسى بصفة عامة يميلون إلى إطلاق ألسنتهم بالانتقاص من البلد الذى يقيمون فيه أيا كان هذا البلد ، إما لمناخه أو لبعده أو لتأخره وخلوه من المدارس اللائقة لأبنائهم ، أو لاتصاف أهله — فى زعمهم — بالنفاق أو الخداع أو شحهم فى فتح بيوتهم للغرباء ، ولكنه كلام فك مجالس من قبيل حب التشكى وإظهار النفس فى مظهر البطولة وقبول الفداء دون مشوبة مع أنهم غارقون فى النعيم .

ولعلك رأيت مثالا من هذه العقلية في خبر هذه الفتاة الأمريكية التي التحقت بجيش الخدمة في الخارج الذي يجنده الرئيس كنيدي ليعث به إلى البلاد المختلفة ليعين أهلها فيما يزعم - ولوجه الله فحسب - على التقدم والرقى . لم تكد تصل إلى بلد إفريقي حتى أرسلت لصديق لها بطاقة مفتوحة ضمنيتها أفحش سب لهذا البلد وأهله ، فسحبتهما وشنجتون أيضا على ملا وجهها لقاء حماقتها وإن زعمت أنها لم تقل إلا الحق وأن الحق ينبغي أن لا يجرح .

وقد ذكرتني حادثة السفير هانز كرول بزميل عملت معه في السلك الدبلوماسي ، تلقى درسا في مطلع حياته كاديودي به . كنا نقيم في بلد شرقي بينه وبين مصر في ذلك العهد البعيد شيء يشبه القطيعة . وكان صاحبنا قد ذاب وسط الابتسامات والمآذب فتطوع حضرته وأفهم وزير خارجية هذا البلد أن مصر لو وصلتها رسالة رقيقة منه تسيح بدفئها الثلج فإنها مستعدة لأن تنسى الماضي وتفتح صفحة جديدة .

لا شك أن الوزير ظن أنه يحمل إليه تبليغا رسميا ، ولم ير مانعا من أن يحمله الرسالة المطلوبة فطار بها إلى القاهرة . ظن أنهم سيقابلونه بالأحضان ويقولون له « عفارم عليك » ، وقد يمنحونه نيشانا أو ترقية يسيل لها لعبه ، فإذا به يتلقى قلما على قفاه وقلما على صدغه ، آمن بعدهما بأن الله حق وأن الحماقة أعيت من يداويها .

لذلك كان من تقاليد كافة وزارات الخارجية أن لا تطيل من إقامة السفير في منصبه إلا للضرورة القصوى وطلبا لمنفعة محققة من أجل أن

تصونه من زلة القدم ، وتتيح لخلفه نظرة جديدة مستقلة من روابط الصداقات والارتباطات .

فإذا التزمت هذه الحدود فإنها لا تفرط في سفيرها بسهولة ، وتعتبر كرامته من كرامتها . فقد يجلب هذا السفير على نفسه امتعاض الحكومة التي يمثل بلاده عندها . وربما كان المنطق والمصلحة يقضيان بأن تسحبه دولته ، ولكنها لا تسارع عادة بتلبية أول إشارة بالانقضاء ، وإلا فقدت حرية التصرف ، وخضعت لإملاء الغير ، حتى ولو كان هذا الغير من الأصدقاء . ولا يمنعها هذا التريث من دراسة موقف السفير لترى إلى أى حد هو مظلوم .

حين ذهب ريمون بواناكاريه رئيس جمهورية فرنسا قبل الحرب العالمية الأولى إلى موسكو لتوثيق الصلة استعدادا للحرب القادمة مع ألمانيا ، مال وزير خارجية روسيا على أذنه وقال له : سفيركم عندنا المسيو لويس ، نعم نعم رجل طيب ، ولكن من طراز عتيق . إنه يجس نفسه في السفارة ولا يخالطنا ونحن في هذه المرحلة في علاقاتنا نحتاج إلى سفير لا نجد مشقة في الاتصال به .

وكتب بواناكاريه في مذكراته يقول إنه حين سمع هذا الكلام ، ومع علمه بحاجته إلى إرضاء موسكو ، أصر في نفسه على ألا يستجيب لهذا الطلب . لا شك عنده أن التهمة صادقة ولكنه أبقى سفيره حيث هو ، لا لشيء إلا ليحفظ لفرنسا حرية اختيار سفرائها . وربما أضاف في نفسه أيضا : لا بأس من أن أنقله بعد ستة أشهر أو سنة مثلا عند إجراء حركة تنقلات دبلوماسية شاملة لئلا يظهر منها أنه مقصود بالنقل وحده .

ولكن بعض الدول ، فى لهفتها على استبقاء علاقتها الحسنة بدولة أخرى فى ظروف دقيقة حساسة ، تفرط أحيانا فى سفيرها وتسحبه إذا لقي امتعاض البلد الذى به منصبه هذا السفير هو وحظه ، إن كان له سجل مشرف فلربما نقلته إلى منصب أرقى على حد تعبير قول الإنجليز « ركلة بالقدم إلى أعلى » ، وإلا أودعته وزارة الخارجية فى حجرة اصطلاح الدبلوماسيون على وصفها بأنها « ثلاجة » يتجمد فيها الموظف إلى أن يأتى الله بالفرج .

ومن ذكرياتى أن دولة يشبهونها بأنها دار فى الشرق لها شرفة تطل على الغرب كان لها فى وقت مضى سفير فى القاهرة جاء ذكره فى قضية ضبط مخدرات فى سيارة السفارة . والتصقت التهمة ، أو ألصقت ، بالسائق . ولكن السيارة على كل حال تحمل علم بلادها . والظاهر أن حكومته لم تر مفرا من نقله من منصبه . (أروى لك هذه الحكاية لأعطيك مثلا من الألاعيب الصغيرة والبراعات التافهة التى كانت تهيم بها الدبلوماسية العتيقة) وكانت كذلك تعلم أن حكومة القاهرة لا تحب هذا السفير كل الحب . فانظر ماذا فعل وزير خارجية تلك الدولة ؟

فرش أمامه خريطة الميدان وصف جنود الطرفين كما يفعل الطفل حين يلعب بجنوده من حجم عقلة الإصبع ، لحمها من رصاص ، وقال لنفسه : البراعة كل البراعة أن تصيد عصفورين بحجر واحد . إننى أريد نقل هذا السفير ولكنى سأتصرف بحيث يأتينى طلب نقله من القاهرة فأحملها جيلا قد ينفعنى فى المستقبل . ولما رأى سفيرنا فى أول حفلة مال على أذنه وقال له :

— سمعت أنكم لا تحبون سفيرنا عندكم ، فإذا كان هذا صحيحا
فأنارهن إشارتكم . أخبروني برغبتكم فسأنفذها لكم إثباتا لصداقاتنا
الأخوية .

لعل سفيرنا خرج من الحفلة مسرعا ليبرق إلى القاهرة بهذا النبا الخطير
وقد وهم أنه فاز بفضل مجهود لم يبذله في تحقيق رغبة حكومته على أهون
سبيل . ولكن وزير خارجية مصر كان — لحسن الحظ — مدققا أيضا في
هذه البراعات الصغيرة ، فشر ساعديه وكتب لسفيرنا يقول : يا لك من
أبله . . تريد أن تحملنا جيلا نحن في غنى عنه . إنه يسرنا نقل هذا
السفير ، ونحن نعلم أن حكومته ستنقله ، فلم نتبرع بطلب نقله ؟
تعليماتك إليك أن تقابل وزير الخارجية في حفلة كما قابلتك في حفلة (انظر
إلى براعة التكتيك) وكما همس في أذنك فاهمس له في أذنه . (ولم يحدد له
هل هي أذنه اليمين أم الشمال . ترك هذه المسألة لبراعة السفير) . وقل له
إن مسألة السفير تخصصهم هم وخدمهم ، إن شاءوا شالوه وإن شاءوا
حطوه ، ونحن في الحالين شاكرون راضون .

ولما وقع على هذا الخطاب « السرى الهام جدا » أحس ولا شك أن نابه
أزرق . ولكن حين علمت نبأه لم أتمالك من الابتسام لهذه البراعات
الصبيانية التافهة .

ولكن الابتسام يخفى حين أقرأ في المعاهدات التي كانت إنجلترا
تعقدتها مع دول شرقية خاضعة لاحتلالها ، غلبانة لا تملك طائرة واحدة ،
وجيشها يعد على الأصابع ، مدرب على ضرب السلام في
الاستعراضات ، فيضمن سياسة إنجلترا تلك المعاهدات بالمواد التالية :

المادة كذا : يكون لكل من الطرفين الساميين المتعاقدين الحق في مرور طائراته في المجال الجوي للطرف الآخر وذلك في سبيل المعاملة بالمثل وعلى قدم المساواة التامة بينهما .

مادة أخرى : يكون لكل من الطرفين الساميين المتعاقدين الحق في تدريب جنوده في أراضي الطرف الآخر ، وذلك من سبيل المعاملة بالمثل وعلى قدم المساواة التامة بينهما .
على من كانوا يكذبون ؟

كانت هذه البراعات التافهة تكسب أبطالها النياشين الضخمة على صدورهم ، ساسة إنجلترا لأنهم جاءوا بالذئب من ذيله ، وساسة البلد الشرقي لأنهم — في زعمهم — صانوا الكرامة ولم يفرطوا في حق إلا مقابل حق . . . وابق قابلي .

ولكن مثل هذه البراعات التافهة لا تستحق منا اليوم إلا الاحتقار الشديد لساسة الطرفين الساميين المتعاقدين . ولو كنت من أهل إنجلترا لخرجت من ساستها ، ولو كنت من ساستها لفضلت اليوم أن أخفي وجهي من العار عن أعين الناس .

(المساء ، ٤/١٢/١٩٦١ ، ص ٨)

مقال بلا صواميل يخر منه الماء

كرمال تذروها الرياح ، تشييه حفظناه كالبيغاء ، تراكمت عبر النهر العفى الغويط فإذا هي سد منيع لا يقل عن الخراسانة . ما من ضعيف إلا فيه طاقة مخبوءة . ثغرة في السد الرملى لا بد لها من الديناميت لا الفؤوس . لحظة مترقبة بلفهة . إجماع لا فرق فيه بين شاهد وغائب . حل الموعد . طرقعت أصابع نوبل . دوى الانفجار . انتقلت اللحظة المرتقبة من المستقبل إلى الحاضر ، ومن الحاضر إلى الماضي . الماضي لص يخطف من الحاضر ويجرى إلى أزقة خلفية . ولكنه لم يستطع أن يهرب سريعا بهذه اللحظة المرتقبة . ظلت تتلأأ في خطوها ، فما أكثر الحبال التي شدت بها إلينا .

نفذت المياه لفورها من الثغرة . . كأنما كانت تعلم من قبل أين باب القفص . لم ينقطع تحسس كفوفها لجدار السد ، جربت أن تميل عليه فوجدت كتفه أقوى من كتفها ، لم يتزحزح أمامها ، لا ترفض دخول باب يفتح لها حتى ولو كان اتساعه لا يزيد عن عنق زجاجة . رويدا رويدا أول

الأمر ، ثم إذا بها تتدفق وتندفع وتعلو وتتقدم نحو الأفاق تطلب استواء
السطح أمام الثغرة ووراءها .

المهم أن تنحدر المياه من مكان مرتفع ولو بمقدار شبر حيثئذ تنطلق
من عقابها قوة هائلة ، سلاحها هو ثقلها الضاغط على الموانع . إن أردت
أن تعرفه فحاول أن ترفع صفيحة مملوءة بالماء ، أو اذكر مشية السقاء في
حوارى القاهرة وانحناء ظهره وليس فوقه إلا ملء جلد عجل رضيع ،
لاغرو أن يكون دعاؤه « يعوض الله » - تعويض عن هد الحيل تحت عبء
كأنه الحديد ، أوقارن بين حجم الحجر الكبير في طرف الشادوف وحجم
الدلو الصغير في الطرف الآخر .

ليس في الطبيعة منظر أروع من هبوط الشلالات الشاهقة ، لجمع
الحال حيثئذ بين رقة الاسم وجبروت الفعل . هذا الهدير الصاخب يقابله
صمت القبور في أعماق المحيطات ، حيث الظلام الدامس وبرودة
الموت . مياه تكاد تتجمد كالصلب من شدة الثقل والضغط فوقها ، ومع
ذلك تعيش فيها مخلوقات من حيوان ونبات . إن هبوط الإنسان إلى هذه
الأعماق لا يقل عجباً عن ارتفاعه إلى الفضاء . أفكر الآن في صيادى
اللؤلؤ الذين يرتزقون بتمزيق الماء لدماثهم لأنهم لا يملكون ثمن جهاز
الغوص .

نحن نحب أن نعرف الماء وهو رقائق فوق حصباء الجداول ، له خرير
بديع النغم ، وهو قطرات ندى معلقة بأجفان الزهور ، له لمعان الجواهر . .
في قمم الجبال الشاهقة وهو منعقد في ثلوج ظاهرة . . في جريانه على الترع

والقنوات بين حقول تلهث من العطش . . على الأنهار العظيمة المباركة
وهي تحمل الحياة . خط التقاء الرمال والطين في أرض مصر تشهده من
الطائرة فتحسبه مرسوماً بالقلم الرصاص فوق ورقة ، قاطع في الفصل
والتحديد بين دمار وعمار ، كل من الخصمين يسعى لعبور هذا الخط
ليطغى على الآخر ، بالخطف جهاراً أو الاختلاس سرا ، ولا هدنة بين
الاثنين . تصورت الرمال دائماً في هيئة أنياب ، والطين في هيئة أصابع .

نحب أن نعرف الماء وهو قطرات عطر رحيم بأرض لا تشقها أنهار .
لا تمثل حرقه الابتهاالات في صلاة كصلاة الاستسقاء . وآخر زاد للإنسان
قبل أن يموت هو في أغلب الأمر جرعة من الماء . العيش بجانب الماء ، هذه
هي أول مادة في باب الالتزامات في قانون الحياة منذ نشأتها ، سواء في ذلك
الإنسان والحيوان . بحث الإنسان عن الماء لا ينتهي ، يشق إليه الآبار
ويغوص بها ولو إلى ضمير الأرض . رأيت في الصحراء رجلاً يسحب حبل
دلو في بئر ويمشي كأنه مسافر ، يكاد يغيب عن الأبصار من قبل أن يخرج
الدلو . تمنيت أن لو ظهر على وجه الرجل أيضاً بعض آثار العجب الذي
ظهر على وجهي ، ولكنه لم يسأل عني .

يستهويني دائماً أن أطل في الآبار العميقة وأحس في كل مرة برجفة .
من بحث الإنسان عن الماء الحلوا أنه استخرجه من البحر المالح ، ولكن
النفقة باهظة . حلم العصر الحديث . . عصر الذرة ، هو خفض هذه
النفقة بحيث يجزى الرى بها ، حيثئذ يتغير وجه الأرض ، وربما اختفت
الصحراء .

أحب وصف القرآن الكريم للماء . جاء ذكره في ٦٦ موضعاً ، الماء في

القرآن الكريم هو الرزق ، هو النشور ، هو الرحمة والطهر ، هو سر الحياة وإذا تأملت وجدت آيات كثيرة تشير إلى أن المولى - سبحانه وتعالى - يهب الماء للإنسان بمقدار ، كأن في ذلك إشارة من بعيد إلى قدرتها على الدمار لو انفلت عيارها . . كما حدث في الطوفان في عهد سيدنا نوح - عليه السلام . . « ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر » . . إن لفظ « منهمر » في هذه الآية الشريفة يوحي وحده بالكارثة . .

وفي الأنشودة التي نظمها القديس فرانسيز من مدينة ألسيز بإيطاليا ليمجد مخلوقات الله جميعا ويؤكد الأخوة بينها جاء ذكر الماء أيضا :
« تباركت يارب أن خلقت لنا أختنا الماء ، أم الخير الطاهرة ، الكنز المتواضع » .

* * *

تتابعت هذه الأفكار في رأسي بلا رابط وأنا أقرأ وصف تدفق المياه من ثغرة السد الرملى نحو الآفاق وأتأمل الصور الفوتغرافية البديعة التي رسمها محمد يوسف . أحب أن أشيد هنا بموهبته ، وانبعثت من قلبي صلاة كلها حمد وشكر للمولى - سبحانه وتعالى - أن هيأ للإنسان هذه القدرة المخارقة التي حولت النهر العظيم من مجرى قديم إلى جديد يمر بأنفاق داخل الجبل . وكلما حمدنا الله تعالى زدنا قدرة خشوع واعتزاز . . ما ألد اجتماع هاتين العاطفتين في القلب ، لعل سر شقاء الإنسان أنه لم يعد يفلح في الجمع بينهما دائما في قلبه

ثم ابتسمت وأنا أتأمل النيل يمر لأول مرة بتجربة جديدة لم يسبق له بمثلها عهد منذ مولده . . المرور داخل أنفاق تحت الجبل . افتقاد الشاطئين

ورؤية السماء . هل هذا ممكن ؟ تصوريته ارتد جنينا يدخل حديقة الملاهي لأول مرة ويجد نفسه في قماط ممرات قصر التيه أو بيت جحا . . . لعل النيل يقول لنفسه - وهو يمر في ظلام هذه الأنفاق - هذه هي آخر المتمة ! لن أستغرب بعد اليوم أى شىء يحدث لى .

ومع ذلك فما أكثر تجارب النيل . . وكيف لا تكون له تجارب وليس كمثله نهر فى طول قامته وامتداده من قلب قارة عظيمة حتى يبلغ البحر البعيد . ياله من نهر ! والقارة هى إفريقيا . ويا لها من قارة !! عرف الانحدار من أعلى الجبال وهو لا يزال معصوراً من مطر غزير ، وعبور البحيرات الكبيرة والصغيرة فلا تأسره ، والنفاذ من خلال ثغرة بين الصخور لا يزيد عرضها عن ثمانية أمتار فلا تخنقه ، وعرف كيف يعترضه بحر عظيم من الشجيرات والنباتات الطفيلية فلا يغص بها حلقة ، لا يكاد يخرج من أولى بحيراته حتى يجد الإنسان قد أقام له سداً منيعاً . سينابل أمثالا له على طول طريقه . عرف أيضاً كيف يخوض وسط مآزق عديدة بين صخور تقلقل طريقه .

هذه التجارب الشداد ينساها جميعاً من أجل تجربة حلوة لا يعرفها نهر آخر . تجربة لقاء اللونين فى مدينة الخرطوم - الأبيض والأزرق . هذا لقاء أخوين بعد غربة ، أو لقاء عاشقين بعد فراق . جمال هذا اللقاء لا يفصده انفصال النيل بعد مسافة شاسعة إلى فرعين شمال القاهرة فما المصعب إلا على بعد فرقة كعب ، ولعل النيل نهر مغرم بالسخرية .

قرأت الوصف وتأملت الصور وعادت إلى ذهني ذكريات إقامتي في الصعيد . كنت حديث عهد به وبالجسور والحيطان ، لم أتصور قط وأنا في القاهرة أن أشرب ماء عكراً ، أو أن الشرب - حتى لهذا الماء العكر - مشكلة قائمة معظم شهور السنة . في ضمير الشعب أن تسبيل الماء للعطاش ثواب ليس فوقه ثواب . وإذا كان السبيل قد اختفى فإن جميع قهاوى القاهرة لا تجرؤ أن تصد إنسانا يدخلها لاشيء إلا ليشرّب ماء ، ومثلج أيضاً ، ولو طلب هذا العطشان لقمة باردة واحدة بالمجان لأكل بدلها علة ساخنة . فإذا بي لشدة عجبى أرى بعض القرى في الصعيد حين حللته - وهى القرى الهائمة وسط الفيضان - لا تجد بعد الفيضان ماء تشربه إلا هذا الماء الأسن المتخلف في حفر صغيرة من الفيضان السابق . ماء ثقيل غليظ تشعر مجرد رؤيته أنه وعاء جراثيم لا حد لها .

وكنت أعجب كيف يحدث في أرض النيل أن يصبح شرب الماء مشكلة عويصة ؟ ولا تنزال هذا المشكلة قائمة إلى اليوم لا في أرض الفياض فحسب ، بل في بعض مناطق البرارى في شمال الدلتا حيث لا تمتلئ الترع إلا مرة كل ٢٠ أو ٢٥ يوما . الشرب هنا أيضا من الماء العكر المتخلف - في الحفر منذ آخر زيارة الماء للترعة .

إن ارتسمت في ذهني وأنا أقرأ وصف دخول النيل إلى الأنفاق صورة أراضى قاحلة موحشة شاسعة تكسى بثوب أخضر بهيج ، فقد ارتسمت قبلها صورة الفلاح - أينما كان - يشرب بكوب ماء صافيا على مدار السنة .

سلام اللقاء . . سلام الوداع

يخيل إلى أن النوبة تقول الآن في سرها لثلا يشتبه العتاب عند الأحبة باللوم والتقريع . . أين كنتم ؟ كيف أرضى منكم أن يكون سلام اللقاء هو سلام الوداع . أكان ينبغي أن يرتفع الماء إلى فمي وأشرف على الغرق لكي أفوز منكم بلفتة وابتسامة يختلط فيها الإعزاز بالتحسر ، والفهم بالاعتذار ؟

أحتم أن لا ينطلق وجه الأمومة بسر جمالها إلا وهي تحتضر ، وأن لا يقدر الإنسان ملكه حق قدره إلا إذا فقد ، وأن لا ترقى المتعة المطمئنة بالقرب الذي هو في اليد إلى سحر اللفتة على الغريب البعيد المنال ؟

عاشت النوبة أعواما طويلة وراء ستر من النسيان ، القناع على وجهها . لم يقصدها اختيارا إلا قلة قليلة منا . أول محطة بعد أسوان هي أبو سنبل ، فالهدف هو زيارة أصنام الموتى الغابرين لا منازل الأحياء

حتى تلك السفينة الصغيرة التي لها موعد معلوم تلم فيه بقرى النوبة

وهى آتية من الشمال ومن الجنوب فتوصل بينهما - كالحبل السرى - وبين بقية الأرض والناس ، حتى هذه السفينة ليست من عندنا ، بل من عند السودان شقيقنا فى الجنوب .

ولعل هذا النسيان كان مما يوافق طبع النوبة ومزاجها ، هى عالم ينطوى على نفسه ، تتشبث منازلها بسفوح جبال جرداء لأنها مسقط الرأس والموطن وإليها المآب . غرق بعضها مرة فنجت بالقفز كالماعز ، لا إلى الشمال أو الجنوب ، بل إلى قمة أعلى فى سفح الجبل ذاته ، لا يضيرها الارتفاع لأن النيل يلاحقها ، يظل عند موطئ أقدامها .

لم تكد تستقر حتى تهددها الغرق من جديد . قفزت مرة أخرى إلى قمة أعلى . فتأت هذه المنازل المبرقشة خالط طمى النيل وحمل معه إلى الوادى هدية الخصب والإنبات . واليوم سيعم الماء الجبل كله . لن تبقى فيه قمة ناجية ، فلا مفر من القفز هذه المرة إلى الشمال . . ما أشبه النوبة بذلك الطائر الذى تحكى الأسطورة أنه حين يرى زاد صغيره قد انقطع يشق بمنقاره صدره ويكشف عن قلبه ويهبه طعاما له .

* * *

ولعل النوبة لم تستيقظ على دوى الدينا ميت فى السد العالى ، أو على دبب تحول مركز الثقل فى الوادى نحو الجنوب . وبقيت قرى النوبة راقدة فى سباتها ، منطوية على نفسها . وجدت سعادتها فى عزلتها وفى هذا التلاؤم العجيب بين المعمار والبيئة والسكان . كل منزل قائم بذاته منفصل عن جيرانه . أهم شئ فيه هو البوابة - والبوابة والنوبى كالعاشق

والمعشوق - تزينها زخرفة كالدنتلا ، ورسوم ساذجة ولكن تناسب ألوانها يدل على ذوق فطري سليم .

وهذه الرسوم تكون في أغلب الأحوال من عمل سكان المنزل ، حتى الصبية الصغيرة عندها ما تريد أن تعبر عنه . وكل صاحب منزل ألصق على واجهته بعض الأطباق - دلالة على أنه كريم يحسن لقاء الضيف . ولكن النوبة من طبعها دائما أن تحترس من الضيوف - أما الذى يأتى إليهم ليقيم بينهم فأهلا وسهلا به ، بشرط أن يعتنق كل عاداتها وتقاليدها . فيشارك في أفراحها ، ويعرف كيف يؤدي واجب العزاء في ماتمها .

النيل والشمس هما العنصران الثابتان في حياة النوبة ، حتى الأطفال حين تلعب بالحجارة ترسم صورة قارب صغير . أما الشمس فإلى مشرقها تتجه أبواب جميع الحجرات في كل المنازل ، ولا بأس أن تكون واجهة البيت ذاته إلى الشمال أو إلى الجنوب . ويقول أهل النوبة اليوم في تعليل هذا التعلق بالشرق إنه أيضا اتجاها إلى الكعبة .

والقرية مبنية لسكان يتراوح عددهم بين ٣٠٠ أو ٤٠٠ ولكن عدد من يقطنها لا يزيد عن السبعين أو الثمانين - أغلبهم شيوخ وعجائز وصبيان . أما الشبان فقد هاجروا لطلب الرزق إلى الشمال . ولكن لابد لهم أن يعودوا إلى بيوتهم عند كبر السن ، ما أعجب هذا الشيخ الذى قابلته في إحدى القرى ، رأيته يلبس البيريه لا العمامة الملفوفة ، وفوق صدره « سويتير » من الصوف . إنه عمل في الاسكندرية سائقا للأوتوبيس مدى ٣٥ عاما . فلما تقاعد عاد بالبيريه والسويتير إلى النوبة ليعيش وراء البوابة المرقشة التى لم تفارقه ذكراها في نهاره وليله .

واليوم الموعود هو يوم وصول سفينة البريد ، لا لأنها تحمل فحسب
أنباء الغائبين ، بل لأنها تأتى بحالات البريد التى تكفل للمتخلفين من
نساء الأسرة وصبيانها رزقهم . رأيت المرأة وبناتها تعيشان على جنيهن
ونصف كل شهر .

لا شك أن البريد يغيب أحيانا ، فهذه المرأة العجوز المبتسمة لم تنقطع
عن قولها لى طول إقامتى بقريتها :

- ابنى عباس فى الزمالك ، هل تعرفه ؟ . . طبعاً تعرفه . سلم لى
عليه . . إنه ابنى . . ثم أبت إلا أن تجعلنى أزور داره . لها أيضا بوابة
مؤخرقة عليها أطباق كثيرة ، وحجرة نومه تتدلى من سقفها أسباط من
الودع والصدف كأنها أفخر الثريات ، والجدران كلها مغطاة بصور ، من
بينها صورة على ظهر علبة بسكويت ، وصورة لفريد الأطرش . هذا منزل
مستعد لاستقبال صاحبه الغائب منذ زمن طويل حتى ولو طب فى أية
لحظة .

وأهل النوبة - بسبب هجرة الرجال - أشد من بقية أهل الوادى قسوة
على نسائهم ، فختان البنت عندهم «فرعونى» ، أى لا يبقى ولا يذر . .
وقال لى محدثى :

- لنضمن للمرأة عفافها حتى ولو غاب زوجها أكثر من ٣٥ يوما .

وقد دُهِشت لتحديد طاقة العفاف بخمسة وثلاثين يوما فسألت عن
السبب ، فأجاب :

- لأن إجازة الجنود في الجيش حق لهم لا مجال لرفضه إذا طلبوها كل ٣٥ يوما . فأنت ترى أن رقم ٣٥ هو درجة الحمى في ترمومتر العفاف عند أهل النوبة .

وبقيت النوبة راقدة في سباتها راضية بعيشتها التي هي عين الشظف والحرمان ، وإنما جاءت يقظتها عندما رأى العمدة ذات يوم سفينة تقف بالقرية وينزل منها جماعة من الأفندية فيحيطون به إحاطة السوار بالمعصم وينهالون عليه بالأسئلة :

- هل عندكم رقص وأغان ؟
- في الأفراح . . . عندنا واحد ينفخ في مزمار وآخر ينشد .
- وفي أي سن تتزوج البنت عندكم ؟
- في سن الثامنة عشرة . (فأنت ترى أن العمدة لا يجهل القانون) .
- وهل تأكلون البصل مثل الفلاحين ؟
- لو وجدناه لأكلناه . . .
- وما هي هذه الأطباق على بوابات بيوتكم ؟
- هذه زينة .

وحار العمدة في تفسير هذا الهجوم المفاجيء ، وفهم هدفه ، فسألهم :

- ومن يكون حضراتكم ؟

فأجابوه :

- نحن من مركز الفنون الشعبية .

ثم تفرق الأعضاء ليسألوا سكان القرية فردا فردا عين الأسئلة . .
والله مع الصابرين .

ثم رحلوا ، وجاءت بعد قليل سفينة أخرى تحمل طاقما جديدا معه
آلات غربية لم تشهدهما القرية من قبل . . فبادرهم العمدة بالسؤال هذه
المرة :

- من يكون حضراتكم ؟
- نحن من مؤسسة دعم السينما . سنعمل فيلما ملونا عن
قربتكم . . هل عندكم رقص وأغان . . . إلى آخر الموال .

ثم رجعوا ، وجاء في أثرهم جماعة تمت إلى الحى اللاتينى بنسب
وثيق . . وقالوا للعمدة :

- نحن أعضاء التفرغ . . وشيخ طريقتنا هو حامد سعيد . . هل
عندكم رقص وأغان ؟ ثم انتشروا في القرية كالجراد ، لا يرسمون المنازل
فحسب بل كل من يلقاهم من الرجال والصبيان ، أما النساء فيجدون من
العيب أن تؤخذ لهن صورة .

ثم رحلوا ، وجاء بعدهم وفد الأدباء ، وفي أثرهم طلبة كلية الفنون
الجميلة ، ومن ورائهم وفد معهد المعلمات . . وكان آخر متممة الوفود من
وزارة الداخلية لملء استمارات الهجرة وتحديد المنازل الجديدة في كوم
امبو .

ولا يزال المولد قائما . . ولا يزال السؤال الأول لأهل النوبة : هل
عندكم رقص وأغان ؟ . . وكان بودى أن أسأل هذا السؤال أيضا ، ولكن

لأننى ذهبت إليها فى ركاب هذا المولد فقد خجلت أن أسأل العمدة أيضا :

- هل عندكم رقص وأغان ؟

سينزل أهل النوبة فى مساكن جديدة أقيمت لهم فى كوم امبو ،
وستعطى لكل أسرة قطعة من الأرض لتزرعها . . ولكنى واثق أن عزلتهم
ستنقضى ، لا بد أنهم سيدوبون بين بقية سكان الصعيد . . فينبغى بعد أن
يتم السد ويعم خيره الوادى ألا ننسى وجه هذه الأم الجميلة التى غرقت
تحت الماء وقدمت لنا - كطائر الأساطير - قلبها طعاما لنا . .

(« النساء » ، ٤/٢/١٩٦٣ ، ص ٨)

تمثال

في عيد الثورة سألت نفسي : ترى لو أردنا - أخيرا : - أن نقيم تمثالا يرمز لها ، يقف شاهدا على الذوافع والأهداف ، على الجهد والتحديات ، يؤججها ويحث مسيرتها ، يكون مألوفا ومفاجأة في آن واحد ، يصطاد العيون فلا مهرب منه ، ثم لا تستطيع الوجوه أن تشيح عنه ، يقع معناه في النفوس بقوة فيhezها يتغلغل في الضمائر ، يقلقها ، يوقظ السامى واللاهى ، والناسى والمتناسى ، يصطدم بالجاحد والكافر ، يضعنا إزاء المسؤولية وجها لوجه ، بأى تمثال يكون ياترى ؟

وجدته ، أحلم به الآن ، أتمنى أن أراه منصوبا على القاعدة الخالية في ميدان التحرير ، لا لأنه قلب العاصمة فحسب ، ولا للدلالة على أن القاعدة التى كانت قد أعدت للغاصب الظالم قد أطيح به فأورثها الله لصاحبها الشرعى سبحانه المعز المذل بل للارتباط بين التمثال ومعنى التحرير ، التحرير من القهر ، واسترداد الكرامة .

أريده تمثالا كبيرا ، ولكن بغير غلو ، كفى أن يظل عاشقان يتواعدان تحت جناحيه وأن تكمن كل براعة الفنان الذى يصنعه فى صدق تعبيره .
إننى أتملّل للبراعة ، وأحياناً أجبها إذا كانت على حساب البساطة والعرق .

حينئذ تكون البراعة هى عين الحيازة والغشومية، لا لأنه سيكون لرجل بسيط ، ولكن لأن التماثيل لا تقام إلا للأبطال فهو بطل أيضا ، بل لا مرأى فى بطولته ، بسيط إلى حد أنه أصبح غفلا مقصيا على حافة المجتمع . هو الذى وقع حقا من قعر القفة ، التدافع به إلى حافة المجتمع مزق جلبابه الوحيد فهو هلاهيل ، جرده من سترته ، من إنسانيته ، هو الحلقة المفقودة بين الحيوان والإنسان مثلت أمامنا مهينة . لا يصيب من الطعام إلا خسيسه ، لابد أن يحمل مع وزره زاده وزواده ، زكية متربة بها بتاو ، لا ينكسر إلا على الركبة ، لا بأس فالأسنان أقوى من حجر الطاحون ، وكيس منتهى مغبر به فحول بصل ينخشخش قشرها ، تفشش - على الأرض بضربة من كلوة يد كأنها يد الهون ، تغلى فى المعدة وتليس الفم ويبقى فحيحها لا ينطفئ ويشتد ويبقى مع الجوع ، التنفس صهد فرن موقد بروث الجاموسة . السعيد من حمل معه - شركة - بلاصى غسل أسود ، له ريم حامض مقاسه شبر يغلى هو أيضا . ينام على الأرض ، ملتحفا بالسماء ، دعك أن أحدا لا يسأله كيف يعيش ، فلا أحد يسأله من أنت ، ماذا تأكل ، أين تنام ، ما مرضك . الدودة تقاسمه منذ مولده أمعاءه ودماءه وبرازه ، إنه مجرد رقم فى كشف حساب ، مزور أيضا ، يبصم عليه فلا تكون بصمته إلا غفلا هى الأخرى ، بين بصمات غفل ،

لا فرق بينها ، رغم الزعم أنها تختلف فتدل على أصحابها هي كحياته بقعة سودة مشلطة بلا تحديد يفرز له كيانه . هو مجرد كوم لحم مكس بين أكوام من اللحم ثم تدلق الكتلة على الأرض ، في القرية ، ساعة القيظ أو أن الليل يتصف .

قياده ليس بيده ، ومع ذلك فهو البطل ، عطاؤه لا يعوقه عطاء في صمت ، بلا حسرة بلا تشك ، بلا من ، المن يتطلب الاستعلاء ، أما هو ففي الفقر ، في الحضيض ، يكفيه أن له الجنة ، إن كان إيمان قد بقى له فهو إيمانه بأن الله سينظر إليه يوم القيامة ويشمله برحمته ، تستطيع أن تكيل عرقه ، يقول ماء النيل لعرقه يا أخى ، فهو يروى الأرض مثله ، منه الخصب والثمار ، هو الذى ينثر العمار ، الأرض البور والجذباء يفلحها ، الجسر يقيمه ، الغور يردمه ، البئر يفتحها الترعة يشقها ، المصرف ينحته . الفأس التى فى يده جرباء مقشفة كجلده ، ولكنه حين يهوى بها إلى الأرض بحزقة تتجسس فى حلقه ، تحس أن اليد جبارة ، من أى معين تنبع قوتها ، من جدد الجدد بناء الأهرام ولا شىء يبرق فى حياته إلا حد هذه الفأس .

أريد أن يقام فى قلب ميدان التحرير تمثال لعامل التراحيل كما كان قبل الثورة ، هو أصدق رمز لها هو الشاهد على الدوافع والأهداف ، على الجهد والتحديات .

بل أزعم أنه لولا عامل التراحيل لما فهمنا التركيب النفسى للرئيس جمال عبد الناصر ، هذا الفتى الناشئ فى بنى مر ، لاشك أن بذرة الثورة غرزت فى ضميره حين شاهد لأول مرة مظالم الإقطاع وانتبه لها ، حين رأى

الفلاح الأجير عبدا مستذلا لأنه لأجل أن يعيش ينبغي أن يزرع ، ولكى يزرع ينبغي أن يجد الأرض ، إنه جائع للأرض ، ولكى يجد الأرض ينبغي أن يتنازل قهرا عن كل حرية وكل ضمان ، مورد الرزق عنده غل وذل ، وذل لمن ، لا لخالقه بل لمخلوق مثله ، إنما ولد وفى فمه ملعقة من ذهب وفى صدره قلب من حجر .

أتخيله شابا قد طر شاربه منذ يومين ، منفلتا عن قريته يحبب الغيطان استثناسا بالطبيعة فهى التى ترطب قلبه الذى بدأت دقاته تصبح دقات جرس منبه ، وطلبا للخلوة شأن كل الرعاة ، فإذا بكميون يقبل وهو يترنح ، ينبعث من داخله ضجيج كأنه لمساجين وإن بقيت معاصمهم بلا كلبشات ، وإذا بالكميون يقف ويدلق على الجسر أمامه كوم اللحم ، هاله هذا الامتهان لكرامة الإنسان ولكن هاله أكثر أنه رأى الوجوه تبسم . لأصحابها زئيط كالعيال يوم الفرح . هاله وشاقه معا هذا التدافع الصبيانى لإعداد إبريق الشاى ، وهذا الموال الذى انطلق من فم المنشد بينهم ، موال فيه غرام وحرقة وشكوى من الغربة ولهفة على العودة للأهل والبلدة ، فيه رضى وعجب للقدر ، امتلأ قلبه بالتصميم على الثورة ، على أنها ستكون شغله الشاغل ، ستؤرقه ليلا وتلجم لسانه نهارا ، يصرف كل دقيقة فى حياته يفكر كيف يعد لها ويفجرها ، علم عنها إن لم يحقق عزمه فلن يهنا له نوم ولن يطيب طعام ، ولن يأنس لأهل ، بل أزعم أنه حين رأى هذا الفرق الهائل والتضاد المذهل بين البطولة والبساطة ، بين القهر والرضى أحس أيضا بمعنى الفن ، وليد الكشف والرغبة الملحة فى التعبير .

وكما أتطلع إلى اليوم الذى نقيم فيه هذا التمثال أتطلع بوثوق إلى اليوم

الذى سنهدمه فيه ، حين يكون الرمز قد فقد جدوا، وحين يصبح عامل
التراويل فى ذمة الماضى أثرا لاتعبه ذاكرتنا ، ولو قال لنا قائل إنه كان
موجودا لما صدقناه

(« المساء » ، ٢٧/٧/١٩٧٠ ، ص ٦)

حمارة زرقاء

قرأت وصفها مرارا قبل أن أتشرف بمعرفتها وألقاها وجهها لوجه : ولو أن وجهها هو مقاس وجهى مضروبا - المقاس لا وجهى - من حيث العرض فى اثنين ، ومن حيث الطول فى أربعة . إنه وصف موجز من خمس كلمات « حمارة زرقاء سن عشر سنوات » وأحيانا كثيرة يكون من ست كلمات فيصبح : « حمارة زرقاء عرجاء سن عشر سنوات » . أنت ترى أنها من المخاليق التى لا يمكن التزود فى وصفها إلا بالسب ، يرد هذا الوصف فى إعلان فى الصحف وفى الوقائع الرسمية ونصه كالآتى :

« إنه بناء على طلب دائرة فلان باشا الفلانى وفى سوق بلدة . . . مركز . . . الساعة التاسعة صباحا من يوم كذا كذا كذا ، سيباع بالمزاد العلنى حمارة زرقاء عرجاء سن عشر سنوات ، وثلاث كيلات ذرة ، وطشت صفيح ملك محمد عبد الله عبد الله محمد وذلك سدادا لمبلغ ٢٥ . مليا و١٢ جنيها » خذ بالك من رقم الملايم ! » فعلى راغب الشراء إلخ « إلخ . »

وأقسم لك أن هذا النص كان يبدأ أحيانا هكذا :

« إنه بناء على طلب الخاصة الخديوية ، أو الخاصة السلطانية . . »
وقد تسامعنا في عهد السلطان حسين الذي كان يسمى نفسه أبا الفلاحين
أن رئيس وزرائه حسين رشدي باشا الذي كان قائما على العرش بعد سفر
عباس الثاني إلى تركيا قبل الحرب العالمية الأولى ثم مد يده ليعين العم على
الجلوس مكان ابن الأخ ، فكان بين الرجلين - وبين قرنتيهما أيضا -
صداقة ومودة ، تسامعنا أنه دخل على السلطان وهو غاضب أشد الغضب
وفرد له صحيفة فيها إعلان ورد به اسم الخاصة السلطانية وضربه مرارا
بسبابته وهو يقول بشارب مرتعش : - عيب يا مولانا !

ما هو العيب ؟ الحجز والبيع بالمزاد العلني ؟ لا . العيب هو النشر . .
أن يقرأ الناس جميعا أن الخاصة السلطانية - من أجل مبلغ زهيد - تجرد
فلاحا مسكينا من كل ما يملك من متاع ومؤونة ، تلاحقه ملاحقة الكلاب
السلوقية حتى تصرعه في سوق بلدة . مركز . لا لزوم للنشر . . فترك
للإدارة أن تبذل في السر كل ما لديها من وسائل الضبط والإكراه لتحصيل
مبلغ ١٢ جنيها وفوقه خمسة وعشرون مليا . . وقد بلغ نشاط الإدارة في
خدمة أرض الجالس على العرش ذروته في عهد فؤاد وفاروق . وسألت مرة
فلاحا عن أعز أمنية له ، فقال لشدة دهشتي : أن لا تشتري الخاصة الملكية
أرضا في بلدنا .

وحين عملت معاونا للإدارة وقابلت وجهها لوجه هذه الحمارة الزرقاء
العرجاء أيام المزاد في السوق عتبت في قلبي على المحضرين . كنت أريد
منهم أن يفوا بحقها فيكون وصفهم : حمارة واطئة ، مطأطئة الرأس ،

مدللة الأذنين ، على مصب قناة الدموع في العينين عناقيد من ذباب لا يرتوى ، الركب مخلخلة ، العمود الفقري فيه مطبات ، الجلد مسلخ ومجروح والجروح مكتومة بالرماد وبالحناء .

بقى سؤال : هل الـ ١٢ جنيها و ٢٥ مليا هي دين تخلف عن السنة الزراعية المنتهية ؟ الله أعلم . من الجائز جدا أن يكون عمر هذا الدين خمس سنوات أو ست سنوات أو أكثر ، فالديون مقيدة في دفاتر حسابات الدواير ، يحتفظ بها حضرة الناظر ليستبقى سيطرته على الفلاح ، يشهرها في وجهه وقتما يريد ، إذا لعب بذيله — كما يقول . فإذا انكسر فلاح في دين علم من يومه أن يده على كل ما يملك في الحاضر والمستقبل مهددة بالقطع ، في أي وقت . كانت نظرة هؤلاء الفلاحين تقول لي حين عاشرتهم : يا أخى ! إننا لا نملك شيئا ، والأدهى أننا لن نستطيع أيضا مهما فعلنا أن نملك شيئا .

وأنت تعلم أن سعر قنطار القطن هبط في سنة من ٢٠٠ ريال الى أقل من ٥٠ ، وبعد هذه المصيبة بعشر سنوات رأيت بعيني أوامر حجز وبيع تنفذ على المدينين . . وقل هذا عن السنوات التي تهجم فيها الدودة .

طبعاً كان هناك كثير من الفلاحين يضرب المثل الأعلى في البلطجة ،
منطقه : يا ليتنى كنت على بلاطة فحسب ، بل أنا البلاطة ذاتها . فماذا
تأخذ منى الريح ، كان همه الأوحاد أن يضع يده على قطعة أرض وأن
يخطف منها كل ما يستطيعه ، بحركة اللص أو المختلس، ويوم الحساب . .
ابقى حاسبى . ماذا ستأخذ منى ؟ فقدان الثقة بين مالك الأرض والفلاح

حلقة مفرغة لعينة ، هي التي عرقلت وقضت على نمو نظام أصيل في بلدنا . . تعرفه الشريعة الإسلامية وتجذبه بسبب كراهيتها لكل أنواع المضاربة وأعنى به نظام المزارعة الذي يقتسم فيه المالك والفلاح محصول الأرض بعد خصم المصاريف . . نظام عادل لا يهدد الفلاح بديون هو غير مسئول عنها . . .

وفيما عدا الفدادين التي كان يزرعها بأنفسهم هواة الفلاحة من كبار الإقطاعيين كانت بقية الأرض فقيرة مريضة ، مهملة ، تزرع بطرق بدائية كأنها لا تزال في العصر الحجري ، لا يفترق حالها عن جاموسة الفلاح العجفاء ، ولا عن هذه الحمارة الزرقاء العرجاء .

(« التعاون » ، العدد ١٧٩ ، ٢٤/٧/١٩٦٦ ، ص ٨)

تراب السفر

بعض الألفاظ وطرق التعبير في لغتنا الفصحى الموروثة قتلها بلا رحمة تقدم العلم ، قتله لكثير من الخرافات . مثالها عبارة عزيزة عندي ، تربي عليها لحم أكتافى ، رثيت أخيرا لمصرعها ، تلك هى قولهم فى وصف الراجع من رحلة إلى بيته : « نفض عنه تراب السفر » .

فبفضل تقدم العلم وإكرام المولى — سبحانه وتعالى — لعبده فى أواخر أيامه ، أتيح لى أن أعود من أسوان فى عربة سكة حديد مكيفة الهواء لا يتسلل إليها التراب ، تجرها قاطرة ديزل لا تنفث الدخان عمودا إثر عمود وسحابة وراء سحابة .

ولكن تقدم العلم بحرمانه لى من نفض تراب السفر عن ثيابى أضاع على قدر من لذة الرحلة ، فقد كنت أتمنى أن أدخل دارى وأنا معفر من ساسى لراسى ، ولا بأس أن أكون مكحل العينين ، أجش الصوت ، وفى أذنى طنين لأنها مسدودة .

نقص طعم الرحلة قليل من الملح ، حين دخلت دارى فلم أجد ترابا عالقا بشيأى ، هو وحده الذى كان يجعلنى أشم رائحة الطريق الذى قطعته ، وأسترجع صدى كل صوت طرق سمعى ، وأحسُّ بهذا الخدر اللذيذ من أثر التعب الذى لولاه لكأنت الرحلة فى عز الراحة ، ماسخة المذاق . وقديما قالوا بقدر المشقة يكون الثواب . ماذا سيحدث للإنسان حين تقوم الآلة بدلا عنه بكل عمل يستلزم منه بذل شىء من الجهد وتحمل قليل من التعب الجسمانى .

كنت أحب أن يظل عالقا بشيأى ولو أثر ضئيل من تراب قرية القرنة الجديدة التى بناها بجوار الأقصر المهندس النابغة الشاعر الحالم حسن فتحى ، فطار صيتها فى الأرض ، ورسمتها أشهر مجلات العمارة ، وتحدثت عن هذا المثل الرائع لمطابقة فن العمارة للبيئة ، فلا تناقض أو فروق شاسعة بين المسكن وساكنه . إنها تجمع بين الصدق والنفع والجمال ، لا تهدد كرامة الإنسان ، لا بتقديمها منزلا حقيرا ، بل ببنائها له مسكنا زائفا - ولو كان فخما - هيهات له أن يألفه ولو طال مكثه فيه ، لأنه غريب عنه ، لا يعبر عن شخصيته ، ولا يعكس شيئا من مزاجه . سيجد فيه التعب بدل الراحة ، والقلق بدل الاطمئنان .

وبجست خلال القرية بقلب حزين . إنها قرية كاملة مهجورة ، يكاد يصفر فيها الريح . جدران بعض المنازل قد تشققت ، وما أظن من العسير إصلاحها ، ووقفت ذاهلا أمام مسجدما الجميل أمتع عيني وروحي برشاقته وابتسامته الرقيقة . إنه يكاد يكون نفما مشكلا من حجارة وطوب . وفتحت الباب فإذا بى أدخل على حديقة صغيرة . هكذا ينبغى

أن تكون المساجد ، ثم وصلت إلى الساحة فوجدتني في مسجد السلطان حسن وقد لبس ثياب القروي ، وغمرتني أضواء لا أدرى من أين تنبعث ، لا تبهظ العين من فرط رقتها . إنها لا تكتفى بأن تغمرك بل تنفذ إلى قلبك . ولم أر شيئاً يماثل في الرشاقة هذا السلم الخارجي ، السور الصاعد إلى المئذنة ، ولا شيئاً يماثل في الصدق هذه المئذنة ذاتها في محيطها .

وجست خلال السوق ، ومررت تحت البواكي ، ودخلت المنازل ، فكأنني أمر في طرقات متحف اللوفر ، ولولا الحياء للثمت الجدران والأرض من فرط إعزازي لها .

فقد أبى سكان القرنة القديمة الانتقال إليها ، ولست أريد أن أدخل في هذا الجدل القائم بينهم وبين السلطات الرسمية ، ولا أن أبحث عن مبلغ الصدق في قولهم إن المنازل في القرية الجديدة معرضة للسقوط على رؤوسهم إذا سكنوها ، ولا في قول من يرد عليهم بأنهم لا يريدون ترك قريتهم القديمة لأنهم ينبشون أرضها بحثاً عن الآثار الفرعونية . كل الذي يهمني أن أسأل عن مصير هذا العمل الفني الفذ ، هل نتركه يتهدم ، نقبل أن ينمحي بعد أن أنفقت فيه الأموال الطائلة ، وبعد أن نطق بكل ما يقدر عليه بناء من جمال ؟

إنني ألح على وزارة البلديات أو إدارات الإسكان - فلست أدرى أيها صاحبة الاختصاص - أن تحرص على سلامة هذه القرية النموذجية من التهدم والتلف ، فتسارع بترميم الجدران . وينبغي أن لا تبتشئ إذا لم تف القرية بالغرض الذي أنشئت من أجله ، وأنها باقية إلى اليوم مهجورة .

فلتنظر إليها نظرتها إلى متحف لفن العمارة القروية في مصر ، يشاد بذكره
ويحث السياح على زيارته ، وتوفد إليه طلبة المدارس للتعلم برؤيته ،
والاستماع إلى شرح لأسراره ودوافعه. وإذا سألنا غريب لماذا بقيت القرية
مهجورة فلا نخجل ونجيب :

— لأنها سبقت الزمن . . . وأنا سندركها عن قريب .

لم يكن الذى شد أعصابى أثناء الرحلة معبدا أو قبرا فرعونيا ، بل منظر
الوادي وأنا أشقه من الجنوب إلى الشمال ، فقد رأيت رأى العين جميع
المشاكل التى نواجهها ، وأحسست بالجهد الجبار المبذول للتغلب عليها . .

هذا الوادى الضيق المحصور بين جبلين والذى يمثل حين يتسع هذا
الصراع المخيف بين طمى النيل ورمال الصحراء ، يكاد الحد الفاصل
يكون مرسوما بالقلم . أناس كثيرون وحيوان قليل، منظر الحقول
والمحاصيل لم يتغير كثيرا منذ طفولتى . الآلات الحديثة للزراعة تكاد تكون
معدومة . وينبغى ونحن نتحدث عن الصناعة أن لا ننسى الزراعة ،
وستظل المشكلة التى تواجهنا هى كيف نوفق بين إدخال الآلات الحديثة
وبين قيام الأرض بتوفير الرزق لأكبر عدد من السكان يعيشون عليها ، فلن
يتأتى إدخال الآلات الحديثة إلا إذا فتحت مجالات للرزق تمتص أفواج
الفلاحين المتعطلين بسبب هذه الآلات .

ينبغى من اليوم أن نقوم بدراسة النسبة المثلثية بين رقعة الأرض وعدد
فالحيتها وحساب مقدار الفائض سواء فى الإنتاج الزراعى أو الأيدى
العاملة :

ومنازل أغلب القرى تكاد هي الأخرى لم تتغير كثيرا منذ طفولتي ، ثم تتوالى على والقطار يمرق بى أبنية عالية حديثة ضخمة ، مدارس ومستشفيات ومجمعات . . هذه هي بشائر المستقبل ونماذج من دعائمه ، ولكنى أعترف أن التناقض بينها وبين منازل القرى المجاورة كان يذهلنى عن أن أحكم من فورى أى الشعورين يغلب على ، الشعور بالضيق من تخلف المنازل أم الشعور بالأمل المرتقب من هذه الأبنية الحديثة . ولم يوقظنى من الدهول إلا إحساسى بجسامة الجهد الواجب علينا بذله لبناء أمتنا بناء جديدا جديرا بها .

نعم ، سنبنى منازل القرية ، وسيأتى عن قريب ذلك اليوم الذى إن لم تنعدم فستقل فيه الفروق بين هذه المنازل وأبنية المستشفيات والمدارس والمجمعات . فإن لم ير جيلنا هذا اليوم فإن جيل أبنائنا سيرونه ولا ريب .

وكان واضحا أيضا كل الوضوح أن مركز الثقل فى الوادى لم يعد فى العاصمة وحدها ، فمنطقة أسوان تنمو بسرعة ملحوظة لتكون عاصمتنا الصناعية ، ولكن التدفق على الصعيد لا يزال يأتى إليه من الشمال لا من الجنوب . هذا ما أحسست به أيضا والقطار يمرق بى خلال الوادى . ولا تسل عن فرحتى حين رأيت فى أقصى الجنوب فى الصعيد حشودا ضخمة من العمال منتشرة كالنمل على مسافة طويلة تعمل فى تمهيد الأرض لبناء طريق يحاذى شريط السكة الحديدية .

لقد بدأ جنوب الصعيد يستيقظ بدفع من الشمال . شتان بينه اليوم وبينه فى الماضى أيام صباى وشبابى حين كان فى نظر الحكومة والموظفين

منفى كريها محروماً من العمران ، متروكا لسباته العميق . وسيتغير جنوب الصعيد من جال إلى حال حين يتم بناء السد العالى ، إذ ستندفق عليه الخيرات من الشمال ومن الجنوب . . وسيكون أول أرض فى مصر تضاء بكهرباء السد .

وكل أحاديث جلسائى فى القطار توحى بالأمل الكبير فى المستقبل .
إنهم جميعا مؤمنون بأن نظام الحكم المحلى قد نجح وبدأ يؤتى ثماره . فهذا مدير المستشفيات فى أسيوط يحدثنى عن الاجتماعات التى تعقدها الهيئة الصحية بكامل فروعها مع مجالس المدن والقرى لمناقشة الاحتياجات ووسائل تنفيذها ويبشرنا بقرب بناء مستشفى جامعة أسيوط (لا أدري كم مليوناً من الجنيهات) ، وأن العمل جارٍ لتوسيع أحد المستشفيات لتتنفع به الجامعة انتظاراً لبناء مستشفاهها . سألته عن مدى انتشار مرض القراع بين أولاد الفلاحين ، لأن هذا المرض هو مقياس التأخر ، فاعترف بأنه لا يزال يتفشى أحيانا فى بعض المدارس القروية ، ولكنهم يعالجونه بدواء حديث لم أكن قد سمعت به ، أقراص عن طريق الفم يقاس مقدارها بوزن المريض .

وجارى الآخر الأستاذ بإحدى مدارس الصعيد يحدثنى عن السرعة التى تتم بها موافاة مدرسته بالآلات التى تطلبها لتعليم التلاميذ فن الخزف وعن إقبال هؤلاء التلاميذ على تعلم هذا الفن وبراعتهم فيه . أستمع لحديثه فأذكر مدرستى الابتدائية (والدته عباس باشا الأول بالصليبة) — إنها لم تكن تعرف الخزف والرسم والأشغال اليدوية — حتى سماعا .

الحديث كله يوحى بأننا أصبحنا لا نرهب الأمال الكبار، بل نحس
أننا أكبر منها . حتى شعرت أن الحاجة لم تعد الكفكفة من اليأس وقيام
الوثوق بالنفس ، بل أن نقول للشعب : حيلك ، حيلك ، اللى جاي أكثر
من الرايح . .

(« المساء » ، ١١/٢/١٩٦٣ ، ص ٨)

لثلا . . ننسى

من حسن الحظ أن نوبتى فى يوميات «مع الناس» تصادف هذه المرة أعياد الثورة ، فالكلام الكثير المنحبس فى قلبى يحتاج إلى هزة عاطفية من أجل أن ينطلق ، لا تلحقنى هذه الهزة من رأى مهما كان جميلا أقرأه أو أسمعه ولا من حدث مهما كان جميلا أشهده ، بل لابد لها أن تكون من وحي إنسان حى ، له جذب المغناطيس ، وإشعاع الجواهر ، أستطيع أن أتطلع إلى عينيه فأحس وأحب ، وأن أتأمل جبهته فأفهم وأطمئن ، وأن أرقب انطباق شفثيه فأحدس وأشفق ، وأن أستمع إلى نبرة صوته فأسلم لها مع هواى قيادى ، واليوم تتقد فى قلبى صورة بطل عاشرتها عن قرب - رغم البعد - تسع سنوات يوما بيوم ، كانت عندى أول الأمر غامضة ، ثم لم تلبث أن استبانى ، ثم تألقت حتى حسبنا من فرط لمعانها أنها بلغت حدودها فإذا بها لا تكف عن الاتساع والانطلاق والتجدد . العزم واحد والخطى نحو الهدف متتابعة ، منطقية متوقعة ، مذهلة مفاجئة معا ، قفل على نفسه بابه ، تكفيه راحة القرب إلى أهله وعياله يصد عنه مناهج الدنيا

ما أقوى سحرها ولكن ما أرخص عطرها في نظره ليفرغ إلى حمل عبء
يصرع العمالقة فتنهض به كتفاه العريضان ، غير معتمد إلا على إيمانه بربه
وقومه ، أودع آماله مغاليق قلبه . لا يستأمن عليها أحدا ، وهو يرى رأى
العين كمن كشف عنه الغطاء يوما آتيا عن قريب ، هو من صنع حبه يتزاح
فيه عن قومه بلاء الإنقسام ووصمة الجوع والفقر والمرض والجهل ؛
ويتحقق فيه — من صنع انتقامه — انتصارنا على أخبث عدو ، نكبنا به
وحدنا ظلما ، كأنما لنكفر عن خطايا بقية الشعوب التي حاقها سرطانه من
قديم فغفلت أو تغافلت عن تغلغله وسريانه. أما الحب فمن طبع هذا
البطل ، وأما الانتقام فمفروض عليه قسرا يتحمله كرها ، لا حيلة له
فيه ، لأنه رد عدوان مجرم لثيم من شيمته الغدر ، والسلب والنهب وذبح
الشيوخ والأطفال ، ولا أعرف مأساة إنسانية تهز النفس مثل اجتماع
حلاوة الحب ومرارة الانتقام في قلب رجل حر شريف يريد أن تسود أخوة
الشرفاء الأحرار لا بين الأفراد وحدهم بل بين الأمم أيضا .

في هذا العيد تعود لذاكرتي أصداء سني عملي بالسلك الدبلوماسي من
١٩٢٩ إلى ١٩٥٤ وأستطيع أن أشهد لك أنني عاصرت فيها ارتفاع سياستنا
الخارجية من سخرية الحضيض إلى كرامة القمة التي بلغناها بفضل جمال
عبد الناصر ، أنت تعلم — ومؤتمر بلغراد على الأبواب — مكانتنا اليوم في
الميدان الدولي فدعني أصف لك — لكى تقارن ولئلا تنسى — نتفا من
العمل داخل سفارة مصرية قبل الثورة فهي تدلك على نوع سياستنا
الخارجية حينئذ .

كان موظفو السلك الدبلوماسي من أول السفير ونازل - لا يسمعون من الوزير أو وكيل الوزارة عند استئذان في السفر للخارج إلا قوله للواحد منهم : « ابق سلم لي على زملائك » وإذا زاد شيئاً قال له « كل الذي نرجوه منكم أن تتجنبوا الفضائح » هذه هي كل توصياته وتعليماته ، وقد بلغ

حسن الظن ببعض الوزراء المفوضين أن يسألوا الوزير أو الوكيل : « ما هي سياستنا نحو البلد الذي سأعمل فيه ؟ » فكانت الإجابة دائماً « هذا متروك لحسن تصرفك » هل هو ضارب رمل .. أم يدير عزبته الخاصة ؟ وكنت أخرج من عند الوزير أو الوكيل وأنا فخور كل الفخر بأنني مختار لحمل تحياته إلى زملائي وإن كنت طبعاً لا أبلغهم إياها عند وصولي لأنها تكون

من سخافتها قد ذابت في السكة وحينما أصل أجد قوما ليس في عملهم شيء ينطبق على وصفه بأنه عمل دبلوماسي ، وكم ضحكنا ملء أشداقنا حين وصلنا زميل جديد قادم رأساً من إحدى جامعات أوروبا فما كاد يجلس على مكتبه حتى سألنا : « ما هي المعاهدة التي تريدون مني أن أدخل في مفاوضاتها مع وزارة الخارجية هنا ؟ » قلنا له « حيلك حيلك ! أول ما تشطح تنطح » . كانت أيامنا تتوالى متشابهة فارغة ، أستغفر الله ، أستثنى يومين عظيمين ، نستعد لهما قبل حلولهما بزمان طويل استعداداً مضمناً للنفس قبل البدن : عيد الجلوس الملكي السعيد ، وعيد الميلاد الملكي السعيد ، لا بد من إقامة حفلة تسير بذكرها الركبان تطبع لها البطاقات وتوزع ويتابنا القلق في تخمين عدد القادمين ، في ذلك اليوم ، نجتمع كلنا لتعاون أول شيء في الصباح في عمل عظيم جداً ، هو تحرير برقية نحفظ نصها عن ظهر قلب ومع ذلك نغرق كل مرة ونحن نكتبها ، هي موجهة

إلى كبير الأمناء نصها كالآتي : « بمناسبة العيد السعيد ألتمس أن ترفعوا إلى عتبات العرش المفدى باسمي واسم زملائي والجلالية المصرية . . إلخ إلخ » وأحيانا لا يكون في البلد جنس مصرى واحد ، ومع ذلك يبقى النص على حاله ، فهذه هى الأصول . . أهم شخص نهتم به يومئذ هو مراسل « الأهرام » فى بلدنا ، نتملقه ونمسح له الجوخ وقد ندفع له أيضا حلوانا من المصاريف السرية . . كل هذا ليتفضل ويرسل إلى جريدته برقية تصف فخامة الحفلة ونجاحها وعدد حاضريها ، البرقية كذب فى كذب لأنه يرسلها دائما قبل الحفلة . . عدد الحاضرين لا يزيد عن مائة ، أما قراء « الأهرام » فيعلمون أنهم جاوزوا الألف . . بعض الوزراء المفوضين يرسلون إلى القصر الملكى من وراء ظهر وزارة الخارجية صورا فوتوغرافية عديدة للحفلة العتيدة وبعضهم يرسل أيضا بيانا بأصناف المأكولات التى قدمها لضيوفه . وبعد إرسال البرقية نجلس فى قلق ننتظر الرد . ومع أننا نعلم أن هذا الرد محفوظ أيضا عن ظهر قلب بحره سكرتير صغير فى الديوان الملكى فإننا نفرح به أشد الفرح ونقرأه مثنى وثلاث ، ونقتنع بأننا نتمتع بالرضا السامى بعض الوزراء المفوضين لا ينامون الليل إذا تأخر الرد يوما . . يضربون أخماسا فى أسداس ، حذر أن يكون التأخير علامة على الغضب السامى .

ولكن ما الذى حدث فى الحفلة ؟ سفراء أمريكا وإنجلترا وفرنسا انتهزوها فرصة لتبادل الآراء والمعلومات ، فانتحوا فى ركن يؤلفون حلقة مهابة ، سفير روسيا يقتحمها أحيانا وينضم إليها بلا دعوة ، وسفير تركيا يتلصص ويتشقلب ويفعل المستحيل ويريق ماء وجهه لأجل أن يقف

ولو على هامشهم ، أما جميع سفراء الدول العربية ففي ركن آخر ، إذا كلمهم إنسان فليسألهم عن الصحة والحال والجو . . لماذا وجع الدماغ معهم ؟ ليس عندهم أنباء أو معلومات تصلح للتبادل .

كان أصغر سكرتير في سفارة أجنبية في بلدنا يعتبرها إهانة كبيرة ، إذا كان له عمل في وزارة الخارجية المصرية فلم يستقبله وكيل الوزارة على الأقل أما في الخارج فكان سفيرنا أو وزيرنا يعتبر أنه نال نصرا كبيرا إذا قابله وكيل الوزارة ، لذلك فإنه يتهرب من المقابلة ويوفد مستشاره أو سكرتيه ، فلا يقابله في وزارة الخارجية إلا موظف صغير يرأس الفرع الصغير الذي يدخل في اختصاصه علاقات بلدنا ببلده .

كنا لا نعلم شيئا عما يجري في مصر ، ونعتمد على الجرائد ، وكنت أجد أحيانا من أكلمه في وزارة الخارجية في البلد الذي أقيم فيه أكثر اطلاعا مني على موقف وفدنا في الأمم المتحدة من المسألة التي نتحدث عنها معا .

وقد انتهى هذا الفراغ المخيف ببعض رجال السلك الدبلوماسي أن تحول هواه عن بلده إلى البلد الذي يقيم فيه ، يعطفون على وجهة نظره ويصفونها بالاعتدال والحكمة .

وقد بلغنا الحضيض قبل الثورة حين اختار الملك فاروق مقره المختار في كازينوهات القمار وسط حاشية من الساقطات نستقيظ في الصباح على صحف يجرب فيها كل مصور كاريكاتوري مبتدئ مدى نبوغه في رسم كرش ملك مصر ، وكل كاتب هزلي ناشئ مدى خفة دمه في التنكيت

عليه . . أصبح اسم مصر مسبة ومدعاة للضحك والسخرية ، والمصيبة أنه كان مطلوباً منا أن نذهب ونسعى لوقف هذه المقالات أو الاحتجاج عليها ، فكان موقفنا عند هذا السعي أشد مرارة على النفس من رؤية المقالات ذائبها . . . هبطت سمعتنا إلى الأرض ونزل رجال سلكنا الدبلوماسية في نظر الناس من مقام تنابلة السلطان إلى مقام أغوات السلطان ، يسدلون الستر على باب حريم يرتع من ورائه سيدهم مع مائة جارية .

أقول لك هذا وعندي كثير غيره، يضيق عنه المقام ، أقوله لالشيء إلا لكي تقارن . . ولئلا تنسى .

(زوال النساء ، ٢٤/٧/١٩٦١ ، ص ٨)

سباق مع الزمن

سباق واحد ينفرد دون كل سباق بأن لا غش فيه ولا تحايل ، لا رحمة فيه ولا شفاعاة ، التخلف فيه لا يعتبر وصمة فحسب ، يمكن بلعها ولو على مضض ، قد يزول خزيها بالانتصار في تجربة قادمة ، بل حكما قاطعا بعجز لا علاج له ، ينحى فيه صاحبه بدون أن تتاح له فرصة أخرى، يعزل كالمصاب بمرض خبيث ، كل ما بقى له من حيلة أن يختار إما أن يستسلم فيتعفن سريعا وإما أن يجاهد فيتخط ويتعفن على مهل ، وسيرى بعين مندهشة لو وعت كيف تزداد رذائله بشاعة مع غروب حياته ، بل كيف – وهذا هو الأعجب – تفقد جميع فضائله كل معناها وتصبح أضحائك يتلهى بها صبيان الركب المبتعد إلى الأمام، هو على الحالين هالك هالك لا محالة ..

– هذا هو السباق مع الزمن .

حقيقة معنى التشريعات الاشتراكية الأخيرة عندنا هي أننا لا نريد أن

نتخلف في هذا السباق مع الزمن وإلا حقت علينا النتائج التي رأيت .

أصبحنا بفضل العلم الحديث نرى بالعين دون أن نتقل من مكاننا ودون حاجة إلى شهادة شاهد كيف تتقدمنا بمراحل شاسعة شعوب أخرى كثيرة في هذا السباق مع الزمن ، انعقد إجماعها على أن عهد نفوس الفرد ليديه من مسئولية تضامنه مع البشر جميعا لا مع أفراد قومه فحسب قد ولى وانتهى إلى غير رجعة — هذا هو سير الزمن ، والويل للمتخلف . .

أصبح همجية لا تعقل اليوم بل تروى كمعجائب قبائل أوغلت في الهلاك أن يجلس في بيته إنسان عاطل لا عمل له أمام مائدة دسمة تمنحه المرض قبل الصحة ليرمى من النافذة الفتات والعظام العارية فيتلقفها رهط جياع . . أتعرف من هم ؟ هم — يا للعجب — الفلاحون الذين أعدوا له بجهدهم وعرق جبينهم أطايب مائدته . أصبح من الخرافات البالية أن يضم الفرد بيت يليق بكرامة الإنسان وعلى مرمى حجر منه أخ له في الوطن يضمه جحر لا يليق بكرامة الحيوان . . بل أوشكنا أن نعتبر من أجناس الأحياء التي انقرضت لأنها غلطة في سلسلة النشوء والارتقاء مستشفى بها درجة أولى وثانية وثالثة ، فالإنسان في الصحة قد يختلف ، ولكنه في المرض واحد ، والعناية بالمرض فرض إنساني إما أن يؤدي أو لا يؤدي ولا يمكن تقسيمه إلى درجة أولى ودرجة ثانية ودرجة ثالثة . أصبح من رسوم كهوف العهد الحجري مدرسة تفتح بابها على مصراعيه لأولاد كل فصيلتهم أن أباهم غني ، ثم قفله بالضبة والمفتاح في وجه أولاد كل ذنبهم أن أباهم فقير . أصبح من محتويات متاحف العصر الحجري مومياء عامل يضمن

بجهده نجاح المصنع ولا يضمن له أحد شيئاً . . حتى ولو دوام لقمه العيش .

لا أنسى الأيام التي كنت أسكن فيها وأنا صبي منزلاً أمام مصنع كازوزة ، رأيت بعيني أكثر من مرة كيف تنفجر زجاجة فتفقع عين العامل أو تبتز بعض أصابعه . أتعرف ماذا كان جزاؤه ؟ الرفت فوراً . . وشاهدت وأنا فتى يافع كيف كان مالك الأرض يحصل من الفلاح على بصمة ختمه أو إيهامه فوق عقد إيجار من نسخة واحدة يحتفظ بها هذا المالك ويدون كاتب الدائرة في دفتره كما يشاء ودون رقيب ديون هذا الفلاح ، فإذا لم يف بها محصول أصابته آفة سماوية لا دخل للفلاح فيها ، كالذودة أو الصقيع أو الفيضان الداهم – أو نكب بهبوط بليغ في الثمن ، بقيت هذه الديون معلقة في رقبة الفلاح تلحقه طول حياته لا يملك معها أن يصبح في يوم صاحب حلة من النحاس أو حمارة عرجاء . ولو فعل لوقع عليها الحجز فوراً : كم من مرة قرأت عيني إعلاناً عن مزاد علني لبيع حمارة سدادا للدين للخاصة الملكية . رأيت فلاحين يجلسون عرايا فوق القرن إلى أن تفرغ الشمس من تجفيف جلبابهم الوحيد بعد أن غسلته زوجاتهم في ترعة عكرة ، رأيت الأكل على مدار العام خبز شعير وبصل أو خبز ذرة وفص ملح ، والعيد الأكبر يوم أن تفتس جاموسة أو يدهس القطار جملاً ، ويحز القصاب الرقبة قبل طلوع الروح بغمضة عين . رأيت الفلاح المفلس وقد احتاج لمبلغ قليل من المال لجنى القطن لا يجده إلا عند مراب (أحياناً هو أجنبي وأحياناً كثيرة هو من أهله وقومه) فيبيعه على الورق قنطاراً بمبلغ لا يزيد على ربع الثمن وتسديده في أقل من عشرة أيام . كان كل رجل شريف

يغص بلقمته ، ويصيبها في حياء مغيط ، كالدجاجة المحتالة ، تلتقط حبة الأذرة من الأرض خطفا وتلصصا . لم يكن المحرومون سعداء ولا الشرفاء سعداء . والحرمان من السعادة داء تتردى عليه بقية النعم والفضائل ، وتنزلق القدم بسهولة إلى مهاوى الغلظة والجحود وبلادة الحس .

يجب أن لا ننسى هذا كله ؛ فيه وحده نفهم حقيقة معنى القوانين التي صدرت أخيرا ، مهما تكن جذرية جريئة فإنها قبل كل شيء عادلة ، إنها تعالج جروحا طال عليها النسيان .

بل أذهب إلى أبعد من هذا كله وأوجه كلامي إليك يا من وجدت في هذه القوانين حدا من ملكتيك الكبيرة أو إيرادك الضخم ، وأقول لك إن القصد الأول من هذه القوانين أن لا نتخلف في السباق مع الزمن ، هي في حقيقة الأمر وقاية لك من علاج لولا هذه القوانين لما ضمن لك أحد أن لا يوغل هذا العلاج ويصادر ولا يحد ، ويتزع ولا يعرض . لا تكن كالملك فاروق وحاشيته وأعوانه ، واتعظ بجزاء لقوه عن حق ورضيت أنت به وحمدته لأنه عدل ، عموا عن حركة الزمن وهو يسير وظنه يوما واحدا ثابتا ، يتكرر ، لم يدركوا أن الملكية عندنا أصبحت نظاما باليا عتيقا أفسح المجال للجمهورية ، هذا هو سير الزمن ، وأن الشعب كله أصبح يؤمن بضرورة الإصلاح ، وأول إصلاح هو إعادة النظر في توزيع الثروة العقارية — لأننا في بلد فلاحين — وأن الشعب كله يؤمن أن أرض الفلاح قد سرقت منه ، وأن الأسرة المالكة هي رأس قائمة اللصوص . كان الأعمى يرى أن الشعب كله أصبح لا يطبق السكوت على هذا الظلم وأنه يؤمن أن « محضر التحقيق » في حادثة السرقة هذه لم يقفل بعد ، وأنه ينتظر

قرار وكيل نيابة بوضع اللصوص في السجن ورد المال لأهله . عموا عن كل هذه النذر ، بل صدروا في غيهم وذادت قبضتهم على المال الحرام شدة ، ثم استشرى جشعهم ، وأصبح تعديا ، فلما دقت بابهم بليل يد صاحب المال المسروق تهاووا كالحطام الخاوية شأن اللصوص إذا جلسوا لاقتسام النهية فسمعوا ذق كعب بندقية الشرطي على بابهم. وأقول لك إن لا شيء يهدد كرامتك وإنسانيتك وأدميتك مثل أن ترضى أن يكون جزاء أخيك الفلاح على صبره — وصبره سلبية طويلة — تأييد حرمانه بدلا من إنصافه ، حق الشكر — وهو ينال منك إسعافه — أن يوجه هذا الشكر منك إليه لا منه إليك ، وأن تحمد أخيرا للناطق بلسانهم أن أخذت بالعدل والحسنى والمحبة فحد ، ولم يصادر ، ولما انتزع عوض ما هو الوصف عندك — خبرني — لإنسان غير محروم يبتئس إذا عم الخير ؟

(« النساء » ، ٧/٨/١٩٦١ ، ص ٨)

من وحى بطل شهيد

ومع العلم بكراهية أهلنا للهجرة فإن من ساح منا في بلاد الله الواسعة
كان لا يعدم حيث لا يتوقع أفرادا قلائل من شعبنا قد ألقوا مراسيهم في
أرض غريبة يدهش حين يعلم أن ملك الملاهي في برلين مثلا رجل مصرى
لعله من كوم الدكة ، أو أن صاحب الضياع الواسعة والعمارات الكبيرة في
فرنسا هو مسيو حافظ من أطسا ، أو أن أكبر شيب شافر (متعهد البواخر)
في استانبول هو سيد بك حظر تارى من بور سعيد .

منهم من تكسبه الزوجة الأجنبية فتطبعه هو وأولاده بطباعها ، ومنهم
من يستعصى عليها ويظل بيته في لغته وعاداته ومأكله وصيامه مقتطعا من
جو أحياء تجاور مسجدا في القاهرة .

وكنت إذا لقيت واحدا منهم أستجيب للدافع خفى يجعلنى أدور حولهم
وأشتم أخبارهم . كل واحد منهم هو عندى قصة مثيرة ساحرة مليئة
ولا ريب بالمغامرات والدراما والفكاهة .

أتمنى أن يوجد بين أيدي شبابنا كتاب ولو من خمسين صفحة يجمع فيه أديب قصص أخبار هؤلاء المواطنين الذين هاجروا ونجحوا أو بقوا على إخلاصهم لوطنهم . فلا شيء أدعى لتبصير شبابنا بفضائل العزم والإرادة من المثل الحى . وليس أشهى لنفوسهم من قراءة السيرة التى تشبه قصص المغامرات .

وكان أول شيء أود أن أعرفه هو حال الولد الهجين : أب مصرى وأم أجنبية . هؤلاء الذين قدر عليهم أن يولدوا فى مهد تشده يد إلى اليمين ويد إلى اليسار ، هم الممزقون بين ولائين ولغتين ونمطين من الحياة ، بين المسجد والكنيسة ، بين الديك الرومى فى الكريسماس والحمصية والسسمية فى مولد النبى . هم المطلوب منهم دون غيرهم أن يصنعوا شيئا جد عسير ، قد يكون مستحيلا ، هو عقد الصلح بين النقيضين . منهم من ينجح فيجمع من الأفضلين ، ومنهم من يفشل فيجمع بين الأسوأين فهذه تربة من شأنها أن تثبت فى بعض الحالات أمر العذاب والحيرة ونفص اليدين من التركتين معا ، والشعور بالضيق وخلخلة الجذور ومن شأنها أيضا أن تثبت فى حالات أخرى نزعة تغليب ولاء على الولاء الآخر لأن المسألة ليست مسألة وراثة قدرية بل مسألة اختيار إرادى بين أبوين يتبادلان الجذب إما جهرا وإما سرا . فالهجين قد يكون أشد حماسا لوطن أمه من بنى قومها ، أو أشد حماسا لوطن أبيه من بنى وطنه ، لأن الاندفاع تعبير عن الرغبة الملحة فى نفي التهمة بأن المعدن خليط وليس بأصيل . لم أقابل هجينا فى مصر أو فى الخارج إلا تأملت عينيه طويلا فيمتلئ قلبى بالحنان الباسم لمن يتسحب إلينا وبالحنان الأسيف لمن يتسحب منا . والسؤال

الذى أوجهه إليه على استحياء وألفة وسط الحديث هو : بأى لغة من اللغتين يفكر ، فإن الإجابة على هذا السؤال تدلنى وحدها رغم كل المظاهر أى الطريقين سلك ضميره .



وفى قلب كل هجين خوف لا يعرفه غيره أن تقع الحرب بين قوم أبيه وقوم أمه فيطلب إليه أن يقف فى الجيش بين أعمامه ليقتل أخواه ، بطولة زملائه سهلة أما بطولته هو فتتطلب منه بذلا يفوق طاقة البشر . فليس من الغريب أن يكون أكثر منهم فهما لحسة العدوان وأشدهم ثورة عليه وليس من الغريب أن يتقدم هو أولا ليفديهم بنفسه .

فكيف لا أحنى رأسى لذكرى هذا الشاب الهجين الذى كنت أعرفه . أبوه مصرى ليس له صبى غيره . لو كان للنبل والشهامة وعزة النفس وجه لكان هو وجهه . كان ضئيل الجسم ولكن إرادته من حديد لم يرث من قوم أبيه وقوم أمه إلا فضائلهم فهو كريم ودود بحبوح لا يمتنع عليه إذا ضحك أن يقهقه فيهتز جسده ويضرب ركبته بكفيه ويفحص الأرض بقدميه . فإذا جد الحديث ثبتت نظراته وأدركت أنت أنه يعمل فكره ويحسب حسابه فلا تصدر منه حركة إلا وهى منتظمة فى موضعها وأداتها ويخيل إليك أنها لم تتطلب منه إلا أكبر الجهد . وتعجب أنه قضى غرضه من أول محاولة ، وكنت لا تدري أنه أعد لها فى ذهنه من قبل أن يقدم عليها امتحانا صبوراً شاقاً . كانت له روح شرقية لا يكرها التساهل والاستجابة السريعة

للعاطفة وعقل عربي له منطق عمل صارم يستطيع في غمضة عين أن يفصل بين القشور واللباب ، وأن ينفذ إلى الصميم ولو وسط ضباب شديد «عشان خاطرى» ورقة تكسبه بها إذا كان في الإجابة إرضاء لك فيه الخير ولو استثقلك وأنت تزعجه ، ولكن هيهات أن تكسبه بها إذا كان فيها ضير أو سخر يثير الخصم ولو كنت من أعز أحبابه . ولكته كان قلقا شأن الذى لا يجد إنسانا أميناً كريماً على مستواه عقلاً وروحاً ليفضى إليه بالسر حين لا يطاق كبتة . وكان فى قلبه مع الأسرار كنوز يود لو عرضها على من يفهم قيمتها . لم ألقه إلا تخيلت جواداً من جياذ السباق وهى هجين أيضاً تنثر بقدرات هائلة على الانطلاق وهى محبوسة فى الحظيرة . فى عيونها عطش للرياح وفى خياشيمها جوع لنفحة العشب وزفير الرمال وفى حوافرها شحنة متوترة من كهرباء . إنه ينطلق فى المدرسة فهو الأول فى الفصل وفى الألعاب الرياضية ، ولكنه غير راض . إن الانطلاق الذى يهواه لا علاقة له بهذه الدنيا بل هو انطلاق فى عالم بطولى تكشف فيه روحه عن معدنها الحر .

وقع عدوان الإنجليز على بور سعيد فأنقلب قلقه إلى اضطراب ، وغلب صمته على كلامه وانزواته على مخالطته لأهله . وكان يعود من المدرسة بوجه يحاول أن يفسر الحزن بأنه تعب وإرهاق . لعله دار بنظرته على زملائه يستفسر مكنون ضميرهم هل يرون أن التكليف ساقط عنه ، فهو حر أن يقبله أولاً يقبله . هل يمتحنون فى سرهم مقدار حبه لوطنه ؟ هل فى قلوبهم شك ؟ وهل يرتفع الشك بسبب حماسهم إلى حد التهمة مع علمهم به ؟ ألا يدرون ما الذى يقدر عليه وما الذى يتوى عمله ؟ لم يكن

حزنه لأنه تعرض ولو لشبهة الامتحان بل لخشيته عن أن يفسر تطوعه بأنه استفزاز .

وقام في موعده ولبس ثيابه كما يفعل كل يوم . يده لا تعرق ولا ترتعش . ريقه لا يجف وعينه لا تبوح بالسر . وسلم على أهله كما يفعل عند خروجه . حسبوه ذاهبا للمدرسة ولو تأملوه لرأوا أن ظهره زاد استقامة وصدره استعراضا ورأسه ارتفاعا . لا أحسبه تلفت وراءه لعله يلمح للمرة الأخيرة وجهها حبيبا يطل عليه ويدعوله بالسلامة . إنه واثق أن جميع من في البيت حين يعلمون خبره لن يندهشوا فهو في مأمن من العتاب . حينئذ انتبه - ولم يكن بالغافل لفيض حبه لأهله وإعرازه وتقديره لهم ، وحمد ربه وشكره أن كان ابنا لهذه الأسرة .

وفي بور سعيد وقف أمام العدو وقفة جيش كامل لأنه كان على حق ، ويحارب بإيمان . كان واثقا أن الوطن كله قد تمثل فيه ، وأن جميع فضائل هذا الوطن قد انبرت للدفاع عن سلامته وكرامته ، وعن شرف أهله وأعراضهم وتحمل أفظع الآلام وهو جلد لا يثن ولم يجئه الموت خطفا فلا يمتحن شجاعته بل وقف منه على بعد بوجهه البشع ، وظل يتقدم منه خطوة خطوة وهو واثق أنه بالغه ليس في الأرض قوة تصده عنه فلم يزغ من البطل البصر ، ولم يختلج هذب ، وبلغ من نسيانه لجسده أنه حين رأى دمه ينزف من جروحه قطرة قطرة حسبه دم فتى غيره لأن هذه الجروح لم تلحق بروحه ، ولم يكن بالموت حاجة لأن يقهره ويتزع روحه قسرا لأنه هو نفسه الذي بذلها فداء لبلده . ولو كان عنده شيء آخر منها لوهبه أيضا بنفس راضية . ولما أدرك أنه سيولى طاب له أن يتمتع بالدلال على وطنه ولو مرة

دلال المحب على الحبيب فكتب على الجدران بإصبع مغموسة في دمه رسالة غرام سطورها القليلة المرتعشة من صوغ الحنان، ألفاظها البسيطة قالت كل شيء وإن أسقط من بينها كلمة لا ينسى بها الوفي المخلص ، والباقي على العهد هي كلمة « الوداع » .

وهذا المستعمر الذي قهره البطل الشهيد^(١) في بور سعيد قد ارتكب هو وقرناؤه أبشع جرم عرفته الإنسانية حين زيف وزور ، ولقّب بالزواج تسرى أبنائه بنساء في شعوب بكر في أواسط إفريقيا وآسيا . فقد نتج عن هذه العلاقة الكاذبة جيل كبير من البشر يحسبون أن لهم أبا ينتمون إليه ، ولهم العذر إذا حاولوا تقليده والانتفاء إليه ، وإذا يرونه محتقرا لأقوام أمهاتهم صنعوا صنعه ، بل ربما زادوا عليه ، ثم يتبهون فإذا الأب يهجرهم ويهرب إلى بلده ويتركهم لا جنسية ولا وطن لهم ، بل قل لا كرامة لهم . الأوربي يحتقرهم والوطني يحتقرهم فهم جيل محطم تفتسه بسهولة كل الرذائل والأمراض الخلقية . كيف يزعم إنسان أن يكون من حقه وفي طاقته أن يذيق بنفسه راضية وبلا خجل أو وازع من ضمير إنسانا مثله كل هذه المهانة وهذا العذاب الروحي . هذا ما كانت تفعله هولاندا في أندونيسيا ، وكانت لا تسمح لهؤلاء الأبناء بحمل الجنسية الهولندية أو بالسفر للالتحاق بآبائهم الجبناء الفارين ، وهذا ما كانت تفعله إيطاليا في إريتريا والصومال . . وهذا ما كانت تفعله إنجلترا في الهند وإن سترته بأقنعة من نفاق أصبح لصيقا باسمها وطبعها . . إن أوروبا قارة لها وجهان ، أحدهما في غاية الدمامة .

(١) هو الشاب جواد على حسنى واحد من شهداء المقاومة الشعبية أثناء العدوان الثلاثى على

مصر عام ١٩٥٦ م . (« النساء » ، ٢١ / ١ / ١٩٦٣ ، ص ٨)

الست الطاهرة

منذ النكسة لا أهم بكتابة رسالتى الأسبوعية للمساء إلا عادت لذاكرتى - كرجع الحمى - حكاية قرأتها منذ زمن طويل رواها أنا تول فرانس فى أحد مؤلفاته لعلها حكاية قديمة تلققها هو فصاغها من جديد بأسنويه الساحر فبدت كأنها من ابتكاره . كل نص لها قديم منحول أو فنج أو تأتأة قبل الإفصاح . وقد قال جوته : ما الفن إلا صب خمر جديد فى قنينات عتيقة، هيهات لى أن أروىها لك من الذاكرة كما رواها هو ، ولا شك أنها ستخرج من يدى متهتة أو ممسوخة .

إنها عن بهلوان فقير يعيش متوحدا شريدا هائما على وجهه كأنما بينه وبين الأسرة والمسكن والمستقر نفور شديد متبادل . ومع ذلك فهو سعيد بحب الحياة ، أنيابها إذا أطبقت عليه هى عنده أنياب القطة على جلد رقبة رضيعها تنقله من خوف إلى أمن ، ليس هو الذى يلعنها ويحب الناس حب راكب القطار لمناظر الطبيعة التى تمر بها ، فالعمر عنده رحلة سريعة، إذا أصابه من إنسان أذى أو سمع عن دناءات البشر مد نظره إلى الأمام لا إلى

الخلف ، وإذا كل الأذى والدنيا تتراجع هي الأخرى بسرعة القطار الذي يركبه . يكفيه أنه يطل من النافذة فيلفح الهواء وجهه ويتشمم أنفه أريج الحقول فيتمتم قلبه بصلاة خافتة .

أروج أيامه حين يقبله سيرك متجول ضمن لاعبيه ، كلا الطرفين يعلم بالخبرة أن العشرة قصيرة الأجل، وظيفته حينئذ أن يعرض على الجمهور ألعابا هي خرق لكل قوانين الجسد بعضلاته وعظامه ، أن يمشى على كفيه ، أن يدير جسده في الهواء بسرعة كأنه عجلة مغزل ، أن يرفع قدمه وراء ظهره حتى تعلو هامته ، أن يجعل من بطنه قبة مستندة على ذراعيه وقدميه ويهبط إلى الأرض ويدس رأسه بين ساقيه ويمدها ويرفع وجهه للجمهور كأنه ساكن في بدروم والأدوار العليا هي بقية جسده ، أهو أخطبوط أم ضفدعة أسطورية ارتد نظامها إلى فوضى كأن عظامه من مطاط ومفاصله كعود اللبلاب . والعجيب أنه إذا وقف ليحيى الجمهور وجده سويا كإنسان صحيح .

نحن نراه اليوم متعطلا لا يسأل هل هو الذى هجر السيرك أم أن السيرك هو الذى لفظه ليسير بين الحقول هائما على وجهه . لن يخطئه - فالرزق في يد الله تعالى - سوق في قرية فيعرض فيه ألعابه ويجود عليه أهل الخير بما وسعه كرمهم ، ثم ينام ما أحلاها نومة على كوم من القش في الهواء الطلق تحت النجوم ، أو في أجمل صحبة في اصطبل بين الخيول أو الأبقار فيحس بنبض الحياة وضراعة الضعفاء إحساسا قويا .

فإذا به يمر أمام تمثال للسيدة العذراء . يقيم الفلاحون تمثالها وسط

الحقول تبركا ، مرفأ سلام يطل منه رمز لقلب رؤ وف على كرمهم وآثامهم الصغيرة فيمسحها عن ضمائرهم . وكان الهواء قد رق إذ مالت الشمس إلى المغيب واكتست السماء بأجمل أثوابها ، في يد من هذه الفرشاة التي رسمت هذه اللوحة البديعة بضربتين أو ثلاث . وكلما مالت الشمس تموجت على وجه العذراء ظلال وكأنها نطق نجوى في ضميرها . أسبلت جفونها ! ولكن هيهات أن تنام . ثق أنها حين هل عليها فتحت عينيها وهمست له :

— مرحبا . . . سلام عليك ، كنت أنتظرِكَ منذ زمن طويل أين كنت ؟ كيف حالك ؟ استرح إلى جانبي من عنائك ولو قليلا .

ركع أمامها ورسم علامة الصليب على صدره وقال لها كأنه يكلم إنسانا يسمعه :

— يا ست يا طاهرة يفى بعض الفلاحين بتذره إليك فيشتري لك عقدا يحلى به جيدك أو باقة من زهر أنيق يضعه تحت قدميك . وأنت أعلم بحالى . ليس عندي ما أشتري به لأجلك عقوداً أو زهوراً ، ولكن عندي هدية لك هي كل ما أملك ، فتكرمي بقبولها .

رمى كيسه بعيدا عنه وانتصب أمام التمثال ثم انحنى محييا له كما يحى الجمهور عادة وقال لها : - انظري هذه هي اللعبة الأولى (مشى برهبة أمامها على كفيه) انظري هذه هي اللعبة الثانية (أقام من بطنه قبة وسكن وجهه بدروم منزله) . انظري هذه اللعبة الثالثة إلخ إلخ .

لم تشهد عين العابه إلا عين ساهمة لتمثال منفرد بين الحقول
الشاسعة . . .

* * *

منذ النكسة هكذا أنا أيضا هذا البهلوان أقول لأمتي في محنتها . ياست
يا طاهرة ليس في العمر الذي بلغت يد تحمل السلاح فلم يبق لي إلا أن أظل
أكتب كما كنت أفعل - متجلدا صابرا لا يتطرق اليأس إلى قلبي لأن وثوقي
في صلابتك وخلودك لا يتزعزع .

هذه هي هدية واحد من أبنائك هي كل ما يملك ، ردت محنتك كل
عمله إلى نوع من شقلبة هذا البهلوان وسط الحقول . هو وهي ولا ثالث
معهما .

(« المساء » ، ٢ / ١٠ / ١٩٦٧ ، ص ٤)

العودة من زيارة للجبهة

الكلام الطويل الذى كنت قبل اللقاء أريد أن أقوله لهم ، والكلام الذى كانوا - فيما أتوقع - يريدون قوله لى إذا التقينا ، تحول حينئذى اللقاء من اللسان إلى القلب ؛ أصبحت العين أو اليد هى المتكفلة بالتعبير عنه ، بحديث غير منطوق لا يقبل إذن وصفه بأنه طويل أو مختصر ، أو أنه حوار يجرى بترتيب الأجوبة على الأسئلة لأنه وليد التحام شعورى ، اتحد الضميران « أنتم » و « أنا » لقاء هو بين غرباء فإذا به منذ اللحظة الأولى لقاء بين متعارفين من قديم ، الرد ليس خلفه اليوم بل شقيق عمره مساو لعمرهم ، تكلمت اليد ، اليد التى صافحتها متينة . قرية . صلبة . كأنها رفعت لتوها عن فأس عزق الأرض من مطلع الشمس إلى مغربها منذ الصبى ، صابرة ؛ صامدة ؛ مالكة لإرادتها . وإرادتها من حديد . والعشم باق بعد ذلك فى وجه الكريم ؛ تعطى كل ما عندها . كرما وسخاء وصراحة . فليس فيها موارد ولا شبهة . أو احتجاز لرصيد ولو طفيف من الحذر ورغبة امتحان اليد التى تصافحها احتياطا للمستقبل .

الكاشف للطبائع من تحت الأقنعة . المؤيد للظن . بالخير أو الشر .
بالصدق أو الخداع . لا امتحان لأن الحكم غير مؤجل . بل سبق
صدوره . تقول لى هذه اليد : ثق بنا . شدة هذه اليد هى شدة الإيمان .
لن تبقى بها ذرة جهد أو عزم إلا بذلته .

واليد التى يصافحونها تقول لهم إنها صك وديعة النفس والشرف
والوطن والمستقبل فى يديكم . كذلك هى . لن تبقى عندها ذرة من تصديق
وثقة إلا منحنتها لكم . عن جدارة . كل قول يدعم هذه الجدارة تقبله .
وكل قول مناف لها ترفضه . إنها خجلى كما تحسون من نبضها لأنها لا تحمل
من العبء ما تحملون ، وأن فداء الوطن بالروح من نصيبكم أولا . إنها
محاذرة أن ينفصح حديها عليكم لئلا يشتبه بالشفقة التى يكرهها الأقوياء .
وعهدا لكم دعاء متصل . وثبات . وصمود . وحب إلى أن يأتى الله
بالنصر على يديكم هذه . المتينة . الصلبة . القوية .

وتقول لهم العين التى تطالع عيونهم – وهى تغض من بصرها – لا
تحكموا علينا من هو القاهرة وأضواء لياليها ، فلتشق عينيكم قلوبنا لتروا
الأرق الذى يماثل أرقكم ، واللهفة على النصر التى تضارع لهفتكم .
جهادنا إدراك كل إنسان أن ثباته فى موقعه . أن أدائه بإحسان لعمله
هو نصيبه من المعركة ، إدراكه أنه يبنى هذا السد الذى يحول دون
الاستسلام أو قبول الأمر الواقع ، حتى إذا طغى من ورائه سيل التصميم
على النصر تدفق فاكثسح العدو وأزاحه عن أرض الوطن .

وكان آخر نجوى العين واليد لهم : المعركة القادمة فاصلة ، لمئات
السنين ، لا معركة بعدها . .

راعى من قواتنا المحاربة - من جميع الرتب - صحة الروح والبدن ،
الوجه مشرق بالإيمان ، والوثوق ، والإصرار على حمل التبعة ، على تقبل
الفداء بنفس رضية . على مواجهة الخطر بشجاعة لا تتزلزل . مهما كان
جسيميا . والبدن مشدود . ممشوق . لا أكراش ولا أرداف ، ولا خلقة
مكعبة ؛ هى قامة الشاب الرياضى المدرب خير تدريب ؛ الملابس
- ونحن فى وسط الصحراء - كلها نظيفة ، وكل بناء دخلته كبيرا أو
صغيرا ، مقاما على الأرض أو غائضا فيها ؛ من حجر أو خشب ؛ يشع
بالنظافة وحسن الترتيب .

راعى ما وجدته من ألفة بين الرؤساء ومن يعملون تحت إمرتهم ؛
علاقة أخ بأخ أو أب بأبنائه ، ورأيت الطاعة والمحبة يتعانقان .

إن كنت قد فزت من هذه الزيارة الخاطفة للجبهة بكنز ثمين فهو بدء
صداقتى بضابط رأيت فذا فى خلقه وعلمه وكفاءته ، درس فى أمريكا
وإنجلترا وروسيا ، وجدته فى قلب الصحراء له هبة الأسد ، وإشراق
منار ، ووداعة ناسك وصبر أيوب ، رأيت جميع من يعملون معه تحت إمرته
يتدفق من عيونهم نحوه تيار من الحب والتوقير ، تكاد تلمسه بيدك . هذا
هو نمط الضابط فى جيشنا الجديد .

ولابد لى أن أحدثك عن رئيسة وفدنا ، وعن الشاعر الذى صحبنا
أو - من باب الأدب - الذى كنا فى صحبته وبقية رفقاء الرحلة . . .

(التعاون ، العدد ٣٣٤ ، ١٣/٧/١٩٦٩ ، ص ١٠)

الشاعر في الجبهة . .

في يدنا تذكرة « ذهاب وإياب » صالحة لنهار واحد : كنا ذاهبين لزيارة الجبهة لأول مرة ؛ ثم نكر عائدين إلى العاصمة : إلى بيوتنا : نستأنف حياتنا : ومشاغلنا يارب كم هي تافهة . كنا بالنسبة للجنود من الطوارئ : لقاء عابر : قصير : ما يكاد تأتلف حتى نفترق ؛ ربما على أن لا نعود ؛ لا شك أن ذكرى وجوهنا ستبهت سريعا ؛ كان كل ما نراه جديدا علينا : نحن طقم من الغشم ؛ أسألنا أسئلة نلميذ في ابتدائي ؛ أما هو — الشاعر — وإن كان معنا ؛ حاله كحالتنا ؛ فقد بدا عليه أن في يده هو وحده نصف التذكرة المخصص للإياب ؛ كأنما كان وهو من اللابدين في العاصمة في زيارة خاطفة لها ؛ يتعجل وهو في عز الراحة والفسحة لحظة العودة : للجبهة : فحين وصلنا نطقت عيناه دون عيوننا بأنه وجد قديمه ؛ عاد من جديد إلى خنّه ؛ التحم بتعشيقته ؛ لا شيء جديد عليه ؛ استقبله الجنود كأنه رفيق لم يحسوا أنه غطس إلا حين قب ؛ الفراغ الذي تركه عند اختفائه بقي مملوءا بأنفاسه ؛ بإشعاعه ؛ والعجيب أنه كان يزور هذا القطاع من الجبهة لأول مرة ؛ مثلنا ؛ وهذا كله بسبب التحام له شعوري من سابق بالجنود ؛ أينما كانوا في الجبهة ؛ من لم يره منهم وصل صيته إليه ؛ وتمثل شبحه كأنه حاضر بشخصه معه ؛ وكأنه هو — وهو نزيل العاصمة — يعيش معهم ؛ نعم ؛ بذهنه ؛ بقلبه ؛ وما قيمة الجسد هنا .

هو شاب أسمر نحيل — مفتول مشدود كالوتر ؛ مبتسم مع ذلك في حياء كالبنات البكر ؛ ليس بيننا من ينطق مثله بأنه قطعة من عجينة

الجنود ؛ اليد التى فركت جوانب الماجور بعد تقريصه فتلت اللواصق
بالكفين حتى تشكل له قوامه ؛ الفرق أن الأرغفة فى زى عسكرى أما هو
فقد ألبسته هذه اليد بنطلونا وفوقه « بول أوفر » أسود ؛ مزقته من (حرام)
قديم ؛ الجميع من نبت أرض واحدة ؛ التراب الذى يعلق بالوجوه كلها
من طمى ترعة واحدة ؛ جف فى وقدة الشمس وتطاير بعد أن دعت به
القدور وغسلت الملابس ؛ ففيه بقية من رائحة عرق أهل البيت وطبيخ
عشائهم على قد الحال ؛ فيه دفء الحياة بجانب مصطبة الفرن ؛ فوق
مصطبة الفرن .

لازمنا الشاعر خلال الزيارة : ولكن أين هو ؟ ما أراه يهبط إلى خندق
حتى أراه يعتلى دبابة ؛ هوفى خلوة مع فرد ؛ فإذا به نواة حلقة تلتف حوله
وتحجبه عن الأبصار : يمرق فيبعد والخيط الخفى الذى يمسكه هو من
مطاط ؛ كلما تفاقم شدة إلى أمام تفاقت سرعة رده إلى الوراء ؛ ولكن
هيهات أن يتمزق ؛ لأنه رباط روحى لا ينفصم ؛ ما هذه النار التى قددت
للشاعر جسده وقلقلت حركته ؟ خيل إلى أن قلبه قبلة زمنية تريد أن
تنطلق ؛ وجاءت لحظة الانفجار ؛ وقف على شرف من الأرض ؛ وتجمع
الجنود من حوله وأمامه ؛ ثبتوا عليه عيونهم وآذانهم ؛ مال برأسه وصدره
قليلا إلى الأمام ؛ كأنه يهم بهجوم ؛ وتدفق الشعر من فمه ؛ حارا ؛
متقددا ؛ متصلا ؛ كأنه لم يلتقط خلال القصيدة الطويلة أنفاسه ؛ واللغة
من صميم لغة الشعب ؛ الشعب الكادح ؛ غير المترف ؛ الشرب فى هذا
الشعر من قلة لا من فريجيدير ؛ والزهرة فلة لا كاميليا أو أوركيديه ؛ ولكن
عجبا ؛ هذه القلة أصبحت فى هذا الشعر لا رى إلا منها ؛ مأوها ماء كل

نبح صاف انحدر من غمام طاهر ؛ هي رمز لجمع الشمل تحت السقف ؛
والسكينة بعد الشقاء ؛ لبل الريق بعد العطش ؛ للغوث بعد الكرب ؛
وللشكر للمولى على نعمه ؛ أترفها وأشدها ابتذالا هو أجلها قيمة ؛ هي
التي توحى فوق ذلك بالأمن والسلام ؛ والزهرة رمز لكل حديقة يانعة
نسقتها يد فنان مسرف في أطماعه ؛ رمز لكل خضرة اكتست بها الأرض
من نسيج الطبيعة الخام وحدها ؛ وكدت أرى رأى العين أن صوته
لا يذوب في الهواء بل يرتسم عليه لبقى ؛ ارتسام حروف على صفحة
بيضاء ؛ سيدور حول الأرض ؛ لا يتبدد ولا يبلى ؛ حدثهم عن مصر
وخلودها ؛ عن العمار الذي ستزدهر به المدائن المهجورة الآن ؛ عن الغد
المشرق الذي سيمسح بكفه فترة الوجوه اليوم ، حدثهم عن شعب مصر ؛
باني الحضارة ؛ عن أصالته وطيب معدنه ؛ عن حبه للسلام ؛ ورقى
الإنسان ؛ حدثهم عن غدر العدو وخسته ؛ معوله طائش ولا ريب لأنه
يدق على صخرة ولأن قانون الحياة هو البناء لا الهدم ؛ المعول الذي في يدنا
ليس للتخطيط بل للحرث .

هل فهم كل الجنود كل كلامه ؟ هل انتبهوا لجمال استعارته وكنايته ،
ورموزه . . جاءت متدفقة من قلبه ، لا من صنعة متكلفة ؛ لست أدري ؛
ولكني رأيتهم يشربون كلامه ؛ الهزة المقصودة منه سرت في أبدانهم ؛
تغلغت فيهم روح القصيدة ؛ ما قيمة تفاصيلها ؟ عبر الألفاظ وصل
إليهم المعنى ؛ إذا أحببت إنسانا فحدثه بأى لغة شئت — حتى باللاوندى —
وثق أنه سيفهمك .

ولما فرغ الشاعر من إنشاده تقدم له أحد الجنود على التو ؛ يريد أن

يقول له شيئاً ؛ ربما يحمله سلاماً لإنسان ؛ فمنحه وجهها مشرقاً بالسكينة والاطمئنان ؛ والراحة ؛ ورد عليه بصوت هامس حنون ليس فيه أثر لإجهاد أو بحة ؛ كأنما هذا الوجه لم يكن منذ لحظة في قمة التوتر والانفعال ؛ وهذا الصوت لم يكن من فرط حرارته يشرخ حنجرته ؛ تلقفته طبيعته الحلوة من يد شيطان شعره الذى كان ينفذه نفض المنجد للقطن على قوسه .

هذا هو الشاعر عبد الرحمن الأبنودى الذى سعدت بزيارة الجبهة فى صحبته ؛ وبقي لى كلام عن رئيسة الركب وعن رفقاءنا من نجوم السينما والتلفزيون والصحافة .
(التعاون ، العدد ٣٣٥ ، ٢٠/٧/١٩٦٩ ، ص ١٠)

* * *

نجمة السينما فى الجبهة

من أقسى العذاب الذى اختص به الإنسان أن يجد نفسه - بسبب شهرته - نهبا للأنظار أينما حل ؛ أينما ذهب ؛ تلاحقه العيون وتتركز عليه ؛ ترقب ملفظه ؛ وملبسه ؛ وقسمات وجهه ؛ وأقل حركاته ؛ أن يجد حياته الشخصية المكونة مفتشة ؛ مفتضحة ؛ تندلق أخبارها فى الصحف ؛ على الألسن ؛ بالحق مرة ؛ بالباطل مرارا ؛ حتى نخدعه لا يسلم من أن تصوب عليه من بعيد كاميرا (زوم) قمة السفور لا تصبح الحد الأقصى لوجود الشخصية وتبينها ؛ بل الحد الأقصى لتحللها المؤدى

إلى انعدامها ؛ لأنها لم تعد فيها ذرة ملكا لصاحبها ؛ ولعل من أصحاب الشهرة من لا يبتس إذا فقدتها ؛ فخلا إلى نفسه ؛ وهى تكفيه ؛ أما نجوم السينما فيتصاعد عذابهم درجة أخرى مخيفة ؛ لا أقول مجدهم بل حياتهم مستمدة من هذه الشهرة ؛ وقف عليها ؛ فهم حائرون لا يعرفون هل يهربون من الشهرة أم يجرون وراءها ؛ يفعلون الاثنين معا ؛ لزاما عليهم ؛ الجمهور حبيب وجلاد معا ؛ وهذا نوع من التمزق ؛ تنفك معه قواعد المنطق وحساب الليل من النهار وحدود السلوك ؛ وضوابط الغرائز ؛ القلق ؛ والأرق والخوف من انحدار الأضواء ؛ يخفف الملق ؛ يهصر القلب ؛ يلبد فى الركبتين ؛ يكلبش فى فم المعدة ؛ يحثم على الصدر ؛ ييرجل النبض ؛ هذا هو خبزهم اليومي ؛ وشرط مع ذلك أن لا يتصدى النجم السينمائي للجمهور إلا وهو مبتسم ؛ كأنه فى غاية الاطمئنان ؛ والراحة ؛ والسعادة ؛ والرى من النوم ؛ وأدهى من أن تكذب على الناس أن تكذب على نفسك .

لست مغفلا ؛ الوفد المسافر للجبهة ؛ وفيه شاعر شاب ؛ وكاتب كهل ؛ وفتيات حسان من مديعات التليفزيون ؛ وعدد من رجال الصحافة ؛ وأهم من هذا فان رئيسه سيدة أين منها أفذاذ الرجال ؛ جليلة القدر ؛ قوية الإشعاع ؛ كبيرة القلب ؛ ما هو إلا حلقة الخاتم العاطلة ؛ جعلت لأن يركب فيها درة ثمينة ؛ هى التى تعطيه وحدها قيمته ؛ درتنا نجمة سينمائية ؛ هى سعاد حسنى ؛ سنكون جميعا فى ركابها ؛ هى هديتنا للجنود فى الجبهة .

التأم الشمل فى ردهة الانتظار ؛ لا ينقصنا إلا حضور سعاد حسنى .

لو كان الذى غاب إنسانا غيرها لقمنا وسافرنا ؛ ولكننا انتظرناها بطيب خاطر ؛ نلتمس لها المعاذير ؛ لم تنبس شفة بلوم أو عتاب ؛ كسد سوق التنكيت السخيف ؛ وحين قمنا لنركب الأوتوبيس لم نكن نقصد بدء السفر ؛ بل مد الوقت عساها تحضر ؛ حتى صوت «الموطور» كان ينطق أن نية السفر غير صادقة ؛ فهو يبرطم ولا يهدر ؛ وأخيرا هلت سعاد حسنى ؛ فتاة يتمثل فيها الجمال المصرى بوداعته وسمسمته وخفة ظله ودمه ؛ قليلة الحجم ؛ نحيفة ؛ لينة ؛ تصر فى منديل ؛ وكأننا تصالحنا جميعا على أن لا نرهقها بنظراتنا ؛ أن نعاملها معاملتنا لفتاة لا شهرة لها بين الناس ؛ فلم تكذ تستقر فى الأوتوبيس تدور عيناها علينا - ولعلها وجدت بيننا كثيرا من معارفها وأصدقائها - حتى ملكت اطمئنانها ؛ رمت كل الأقنعة من النافذة ؛ سمرت طبيعتها التى جبلها الله عليها ؛ ملكت شخصيتها ورضيت بها ؛ بدت لى حينئذ تلميذة اختطفت فى وسط اللعب من حوش المدرسة ؛ كل منها أن تعود إليه لتستأنف لعبها . كانت فى ثوب أسود ؛ حدادا على أبيها ؛ طبعا استبقى من بقية أثوابها الملونة فتحة الديكولتيه - وكما زاد الحداد من جمالها زاد من توفيق الألفة بيتنا ؛ ولم يكن عزاؤنا لها بذكر المصاب ؛ بل الإحساس به وكتمانه ؛ ولم يسألها أحد منا متى تخلع الحداد . وفتحت لنا قلبها واعترفت بأنها لم تنم ليلتها إلا غرارا ؛ وعلى وش الفجر ؛ البطولة التى تتباهى بها التلميذة الآن هى حضورها للمدرسة والجرس يدق . .

كل الذى تصورته توجسا عن لقاء الجنود بالنجمة السينمائية كان وهما ؛ دهشت حين وجدتهم يستقبلونها استقبالهم لشقيقة لهم ؛ أوفدتها

الأسرة لزيارتهم ؛ هي من لحمهم ودمهم ؛ انعدمت فيها - في نظرهم -
الأنثى وبقى الإنسان ؛ الأخت القادمة من وسط اللعب في حوش
المدرسة ؛ التبادل بينهما هو لحنان الأقرباء ؛ الأحباء نثرت هذه الأخت على
الجميع سعادة بريئة خالصة ؛ نطقت بها الوجوه والعيون ؛ الأخت . . لا
أعرف شعبا يعلى من معزتها كشعب مصر ؛ وتركنا لسعاد حسنى التعبير
ببساطتها ووداعتها عن كل ما تكنه قلوبنا من عواطف نحو إخواننا الجنود ؛
لولم نكن في ركابها لكان نطقنا تلعثا إذ لو أفصح لما بلغ فصاحتها . وكانت
سعاد حسنى وهى تقدم بحياء إلى الجندى هديته من الحلوى ترخى جفنها
لثلا يرى الدموع التى تترقرق فى عينيها ؛ إنها دموع ليست من
الجليسرين .

(« التعاون » ، العدد ٣٣٦ ، ٢٧/٧/١٩٦٩ ، ص ١٠)

من رسم قدر بصير ودود . .

يحق لوزارة الخارجية أن تفخر بأنها - لأول مرة في عمرها غير القصير - قدمت للأمم رئيسا للوزارة ، وفي أى وقت ؟ في وقت تم فيه الأمة بمرحلة خطيرة حاسمة في تاريخها ، وفاة الرئيس وظن الأعداء أن هذا البلد سيتمزق بددا ، الفرق بين الحل السلمى والحل العسكرى لرد العدوان وتحرير الأرض لا يزيد عن شعرة (تعود إلى ذهني الآن كلمة معاوية) فإذا برئيس الوزراء الذى وقع عليه الاختيار بتوفيق بارع يفرض الاحترام بالإجماع فى الداخل والخارج ، وتعلق عليه الآمال باطمئنان .

فمحمود فوزى هو ابن وزارة الخارجية ، ونجمها اللامع ، ويحق لى أن أتكلم عنه لأننى كنت زهاء ربع قرن فردا فى الأسرة التى ينتمى إليها ، أسرة السلك الدبلوماسى ، وشغلت منصبا أتاح لى أن أكون أول من يتلقى تقاريره ويحل رموز برقياتہ التى كان يرسلها إلى وزارة الخارجية ورؤساء الوزارات المتعاقبة وأعرضها عليهم ، عن جهده فى الأمم المتحدة فأتبين

وقع هذا الجهد على نفوسهم وتقديرهم له ، ولم يسلم هؤلاء السادة من حكمة شهوة التخيير والتبديل ، والإسراع بنسبة الفرق بين الأمل والواقع إلى تصرفات الرسول الموفد ، لا إلى غموض فكر الراسل وتردده ، وأشهد أنهم بعد قلب الأسماء كانوا ينتهون دائما إلى الإعراف بأنه « ليس لدينا من هو أفضل من فوزى » تمسكوا به جميعا رغم تباين شخصياتهم وأمزجتهم .

ولكن لا بد أن أبدأ من البداية ، كنا نقسم رجال وزارة الخارجية إلى فئتين ، فئة - وهى الغالبية - نسميها أولاد الأعيان ، مظهر ولا مخبر ، ربما يجيدون الكلام بلغة أجنبية لأنهم تربوا فى مدارس أجنبية ، ولكن ثقافتهم ضحلة ومحدودة ، وقدرتهم على العمل صفر ، صناعتهم التمسح بالسراى والتزلف لها ، وفئة أخرى نسميها « العتالة » الأخذين عملهم مهما هان مأخذ الجد ، هم التروس الصلبة التى تدور بها عجلة الوزارة البراقة ، وكان محمود فوزى من هذه الفئة ، التى لا يسعى بها قدم إلى السراى دوسا على الكرامة رغم الإغراء الشديد ، وقد شاء قدر بصير ودود أن يرسم له - كأنما عن عمد ووعى - مسار حياته ، فكان أول منصب شغله فى مدينة روما ، منبع الحضارة الغربية وفنونها ، ولما غادر هذه المدينة كان قد تعلم الإيطالية ، لأنه يعرف كيف يقضى الوقت الذى يصرفه غيره فى اللهو ساهرا أمام مكتبه ليدرس ويتثقف ، لا يقوى من الشباب على مثل هذا الضبط للنفس إلا أولو العزم منهم ، ثم قاده القدر إلى نيويورك - ثم إلى نيواورليانز ، (كلمة نيو ومعناها جديد موجودة فى الاسمين) فوجد نفسه فى قلب العالم الجديد ووضع إصبعه على نبض ديناميكيتة وعلى شواهد عللة

أيضا ، صقل في هذه الفترة نطقه بالإنجليزية ، كأنما يقول له القدر ، ستقف عما قريب في المحافل الدولية تخطب بالإنجليزية ، فلا أريد منك رطانة الدخلاء عليها ، تصرف السامع بشذوذها عن تتبع المعنى أو عن احترام المتكلم .

ثم ساقه القدر البصير الودود إلى اليابان ليعرف عن قرب ما هي خصال شعبها العجيب التي أتاحت له أن يلحق في الشرق بأرقى أمم الحضارة في الغرب ، لقد تركت اليابان أثرا عميقا على محمود فوزى ، وقد رأيته وهو عائد منها فكدت أقول له : حتى ملاحك أصبحت الآن تذكرنا باليابان : وكما تعلم الإيطالية في روما تعلم اليابانية في اليابان ، وأنت تعلم كم هي عسيرة هذه اللغة ، اكتسب من اليابان أيضا هواية الرسم بالرمل الملون داخل الزجاجات ، هواية تجمع بين الذوق والصبر ، هذا لا شك شعاره الذى لصق به بعد ذلك : الذوق والصبر .

حينئذ قال له القدر البصير الودود : انتهت الجولة التدريبية ، عد الآن إلى القدس ، لتغرز في هذه القضية الخطيرة التي ستعرض لها أمتك . والقدس فوق ذلك بؤرة الخصومات الدولية والطائفية ، والعقدة التي اشتبك فيها التاريخ القديم والحديث ، وكأنما لا فكاك لها ، إنها طريق ملء بالألغام ، لا يجتازه إلا من يمشى بحذر شديد ، وهو عالم بمعنى كل حجر ، وكل حفرة ، وكل إيماءة من جفن ، أو عدلة لخطاء رأس ، أولون لثوب ، أو طول للحية ، فكانت القدس أفضل مهد لولادة دبلوماسى محنك .

تم التدريب والصقل ، إذن هيا إلى الأمم المتحدة ، لتكون ممثل مصر ، رأسك برأس كبار الساسة ودهاتهم ، هنا مجال عقد صداقات نافعة ، كذلك طريقك عند التفاوض ، وقت أوانه .

وعند قيام الثورة كان محمود فوزى سفيرنا فى لندن ، ولكنه استدعى ليكون وزيرا للخارجية ، وكانت الثورة تتلمس طريقها للثور على وزير للخارجية يكون حسن السمعة ، مخلصا لبلده ، كفؤا لمنصبه ، وبعد تجربة لم تطل لم تجد أمامها إلا محمود فوزى . وهكذا ظل يعمل إلى جانب الرئيس وثيق الصلة به ، منذ مطلع الثورة .

وشاء القدر البصير الودود وهو يعده لرياسة الوزارة أن يخرج من الأبواب المغلقة التى يؤدى وراءها عمله ليرزه إلى عيون الشعب ، فرآه على الشاشة الصغيرة وهو يقدم تقريره فى أول اجتماع للمؤتمر القومى يوم ٢٣ يوليو سنة ١٩٦٨ ، فرأى الشعب كله هدوءه ورزاقته واتزانته وحكمته وسيطرته على جو الجلسة ، بحزم دون أن تفارق الابتسامة شفقيه . . فى حديثه إلى الأمة فى ذلك اليوم تكررت كلمة العقل ، (إننا نعلم جميعا أننا قادرون إذا عقلنا .) سعة الخيال وامتداد الأمل مع التمسك بالعقلانية فى آن واحد ، هذه هى (الوصفة) التى نجد فيها حلول مشاكلنا السياسية والاجتماعية معا .

وقد شاقنى أيضا أن أجد الكلمة المتكررة فى أول بيان لانعقاد مجلس الوزراء تحت رياسته هى كلمة « النظافة » ، فنظافة المظهر رمز أو قل قرينة لا بد منه لنظافة اليد ، والضمير ، والعقل .

(« التعاون » العدد ٤٠١ ، ٢٥/١٠/١٩٧٠ ، ص ١٠)

كومبارس

الكومبارس من ألزم اللوازم ، لا يتم المشهد أو ينجح إلا بفضلهم ، تدفعهم يد المخرج على خشبه المسرح وشاشة السينما ليتمكن « النجم » من تمثيل دور البطولة . هم أهل البلد يحملون نعش « هاملت » ، أو يزدهجون على المحطة في انتظار السيدة العجوز ، أو يزعمون زعقة عظيمة حين يقتل « أورست » أمه كلتيمنسترا . وقد يقول واحد من الكومبارس عن البطل « أنا والله مثلت دورى أحسن منه » ولكن لن يذكره ناقد ، بل لن يحس به مشاهد واحد . لن يرد اسمه ولو فى الهامش ويبسط ٦ فى كتاب عن تاريخ المسرح من عشرين مجلداً . ذنبه على جنبه ، إنه ارتضى لنفسه أن يقوم بدور الكومبارس . أما إذا قنع به طول حياته فهذه هى الخيبة التى ليس وراءها خيبة .

تستطيع أن تلخص تاريخ القرون الأخيرة بأنه مسرحية يقوم فيها استعمار أوروبا بدور البطل ويقوم فيها الشرق كله بدور الكومبارس ، مع

أن الكومبارس هم أهل البلد ولولا هم لما نجحت المسرحية . . .

تعال نُقلِّب صور هذا الألبوم :

فرانكو يدخل مدريد وسط كوكبة من فرسان مراکش ، هل تجد لهم
ذكرا في سجل أمجاد أسبانيا ؟ طبعاً لا . لأنهم كومبارس . .

فرنسا حاربت دائماً بجموع غفيرة من مراکش وتونس والجزائر
والسنغال إلخ إلخ وانتصرت . هل تجد لهم ذكرا في سجل فرنسا ؟ طبعاً
لا لأنهم كومبارس .

إيطاليا تسوق أهل الصومال لتحارب في ليبيا وتسوق أهل ليبيا
لتحارب في الصومال والحبشة . هل تجد إيطاليا واحدا يرجع إليهم ولو ذرة
من الفضل ؟ طبعاً لا لأنهم كومبارس .

من أجل أعمال محمد عاكف شاعر تركيا الأكبر قصيدة يصف فيها
جيش إنجلترا الذي هاجم الدردنيل . قال إنه خليط من الهنود والزنوج
وقبائل أستراليا البدائية . وكان هذا أيضاً حال جيشها في الحرب العالمية
الثانية . هل تجد لهم ذكرا في سجل أمجاد إنجلترا . طبعاً لا لأنهم
كومبارس .

بعد الحروب تعال نقلِّب صفحات أخرى من الألبوم .

قطع سان جون فلبى الربع الخالي وألف كتاباً عظيماً عن رحلته . قلب
صفحاته كما شئت ، لن تجد فيها كلمة واحدة تشير إلى الأدلاء العرب

الذين صحبوه وقادوا خطاه وأمسكوا بزمام بعيره وأرشدوه إلى الطريق.
لا يذكرهم .

— طبعا — لأنهم كومبارس .

اكتشفت البنت الحلوة روزينا فوربس — فيما تزعم — واحة الكفرة في
بلادنا ، وكتبت كتابا عظيما وصفت فيه أحمد حسنين بأنه كان سكرتيرها
الخاص ، ولو قلت أدبها لقلت إنه خادمها الأمين ، مع أنه هو الذى قاد
خطاها . لماذا أنزلته هذه المنزلة ؟ طبعا لأنه كومبارس .

هذا الفيلم التسجيلى الذى يرقد الآن فى أرشيف الجمعية الجغرافية فى
إنجلترا شهدته فى باريس سنة ١٩٥٠ فلم يغيب قط عن ذاكرتى . إنه رحلة
بعض الإنجليز إلى قمة الهمالايا فى داء ملابس ثقيلة ، على عيونهم
نظارات شمس ، أحذيتهم ثقيلة لا يتسرب منها الثلج . أما الحمالون
الهنود فقد لقوا عذاباً شديداً من الزمهرير لأنهم حفاة تجرح الشمس عيونهم
كأنها طعنة سكين . هم الذين حملوا الأمتعة فوق البيعة ، وسندوا
الأوروبيين بالكف حتى طلعوا معا إلى القمة . ولكن ليس فى الفيلم ذكر
لاسم واحد منهم . لماذا ؟ طبعا لأنهم كومبارس .

آخر صفحة فى الألبوم :

صحراء قاحلة يعيش أهلها على الكفاف يأتى إليهم أوروبى ويقول لهم
وقعوا بأختامكم على هذه الورقة . اتركوني أحفر هنا وسأعطيكم مالا
كثيرا .

وينفجر البترول ويسيل إلى أوروبا ليبنى مصانع وينشئ حضارة وأهل الصحراء في يدهم مال لا يعرفون شيئاً يشترونه به إلا السيارات الفخمة . لماذا ؟ لأنهم كومبارس .

وكذلك لم تجرؤ إسرائيل على إقامة دولتها إلا بعد إيمانها أشد الإيمان ومعها أوروبا وأمريكا أن المنطقة كلها هي منطقة كومبارس .

لماذا ؟ لماذا ؟ لأن النجم الذى يلعب دور البطل يظهر على المسرح وفى جيبه مفتاح مهم جدا . مفتاح اسمه العلم والتكنيك راقد داخل علبة قطيفة مكتوب عليها « حضارة » .

هذا العلم هو الذى يقف وراء الخريطة الدقيقة والمكروسكوب ومعامل التحليل وآلات الرصد وأدوات الحفر والتكرير وسفن النقل . وهذه الحضارة هي التى تقيم الجامعة والمعاهد والجمعيات الجغرافية . .

لقد رضى الشرق طويلا أن يقوم بدور الكومبارس ولكن التفسير الصحيح للنهضة الحديثة هو أنه لم يعد يقنع بأن يظل طول عمره من الكومبارس .

(« التعاون » ، العدد ١٧٣ ، ١٢/٦/١٩٦٦ ، ص ٨)

للحضارة العربية في هذا الجزء من الأرض ، المهتدة بالانسحاق والزوال ،
من أجل إنقاذ هذه الحضارة كان لابد أن تتحول مصر سريعا الى دولة
عصرية ، كان لابد من تجربة الوحدة مع سوريا ، من الذهاب إلى اليمن ،
لا طلبا لبسط نفوذ ، كما توهم المسارعون إلى الريية ولو من أخ شقيق ، بل
لتجميع الأمة العربية صفا واحدا متحدا في مواجهة العدو ، كم تحملت
مصر من أعباء تهد الجبال ، في الداخل والخارج ، من أجل صيانة هذه
الحضارة وتحريكها ودفعها إلى الأمام ، جهاد رمزه عيد الثورة في كل عام ،
وهو في هذا العام — على دوى المدافع المطالبة بالثأر، المبشرة بقرب النصر —
أعظم جلالا وأفصح نطقا . . .

(مجلة « المجلة » ، العدد ١٥١ ، يوليو ١٩٦٩ ، ص ٢ ، ٣)

في البال والخاطر

قلبي مع صديق عزيز مغترب ، عسى أن يبلغه صوتي فيعلم كم نحبه
ونجله وندعوله . انه في البال والخاطر ، لا ننساه . وحة حنان وافدة مع
النسائم من أرض الوطن سيجدها شجرة باسقة وارفة الظلال ، وتقريب
كأس من الود إلى فمه عبر الأثير هو عنده اغتراف من نهرها العظيم . فتي
لولا ينبغ في فنه لبقى نابغا في آدميته . نعم الإنسان هو للناس جميعا سمح
بشوش ودود ، فما بالك به إن كنت صديقه . هيا ، تمتع ماشئت من
كنوزه ، هيهات أن يغتالها نزيف .

كم أشفق عليه ، إنه يدفع الآن ضريبة منحة جليلة اختص بها ، ذكاء
مفرط حاد خارق ، أبي أن يسايره ببساطه كما يفعل الأذكاء من عامة
الناس في أخذهم للحياة من أيسر جوانبها ، في قناعتهم بالنصيب والحسن
أن عز لأحسن ، أما هو ، فلأنه فذ ، نابغة ، أنفته لا تحطم ، وهمته
ملحاحة ، يأخذ الدنيا غلابا ومن عتي قرونها ، طموحه لا حد له ، حتى

الكمال لا يرضيه تمام الرضى ، لأن لذته فى السعى لا فى الوصول فقد شد وراض ذكائه قسرا على الاتقاد فى كل لحظة كالجمرة ، لم يصنع لعطوف يقول له : هذا الذكاء من فرط الاتقاد قد ينسحق رمادا قبل الأوان ، الجمرة قد تضىء ولكنها تحرق أيضا ، ينم عن هذا الذكاء عينان واسعتان فى خضرة البرسيم والندى ، عسير على جفن كل عين مهما تطاول وانشد أن يسترها كأنما لا بد أن تستبقى ولو شقا ضئيلا كحز السكين تطالع منه الدنيا نورا وظلاما . هى أيضا كعين بصيرته ، عدسة بلا غطاء تنبعث من هذه العين ، لا ، بل تثب منها نظرة فى قمة اليقظة ، لا ، بل فى قمة الانتباه ، لا بل فى قمة التحفز ، لا ، بل فى قمة الافتراس ، مصوبة فى وقت واحد إلى الأمام ، إلى الجنب ، إلى الأعلى إلى أسفل ، ثم لا تستطيع أن تقول إنها زائغة تائهة ، ستؤمن أنها تلاحق مقصدها وهى به عليمه متيقنة ، إنها شص مصنوع لصيد الحيتان والدود ، لها سكون مستفيض تماثل به نظرة النسر على قمة شاهقة يرقب بصبر قطاة تتخفى فى دغل بطن الوادى ، لها وميض خاطف تماثل به نظرة القطة : برق وشرر وكهرباء وتسديد . بشرط من لهيب يموج عليه قوس قزح .

وقد تقول عن نظرتة لأنها تنتح من أغوار سحيقة مجللة بالأسرار أن لها من نظرة ساهرة الليل بين الأطلال جماها وسلامها إذ هى ساهمة فى وضوح النهار ، ونظرة هذا الفتى فوق ذلك جوابة ، كالمصباح الكشاف ، لا تقنع بحد الأفق ، بل تصر أن تتخطاه وكنت أحس تلك النظرة تنفذ من خلال ثيابى وجسدى ، لحما وعظما أحس بها ، أنها ترفعنى من الأرض .

تطوح بى معها على مدار الأفق . على حافة هوة مخيفة مجهولة أصبحت

ريشة في جناحها ، يالها من رجة تنفضني . لم يستمع لعطوف يقول له :
لك رفق بالناس فارق بنظرتك . لا تبقيها عطشى إلى الخشوع ، دعها
ترتخي بعد شد ، دعها تلملم سهامها المتناثرة إلى محجرك ، كالعصفور إلى
عشه لتتنفس قليلا وهي هادئة مطمئنة .

إنه يدفع الآن ضريبة نهمه المسعور للمعرفة ، لا لتحصيلها لذاتها ،
بل لشهادة قدرها على قدر كرامته وهو يريد لها في القمة ، منتصرة على كل
تحد ، غير خائبة في امتحان ينقب عن المعرفة لا بفأس الأثرى بل بمبضع
الجراح ، فما وقع على شعرة إلا شقها نصفين ليرى خلقتها ، على أخفى
عاطفة إلا تغلغل في أحشائها ليفض سرها ، وصم أذنيه عن عطوف يقول
له : حذار من أن تتكشف لك من تحت المسائل مشاكل يستعصى على
عقلك فحصها وبالأولى فهمها ، ستتجمع هذه المشاكل وتطبق على عقلك
كالقيد ، ستجثم فوقه كالكابوس ، حذار من أن تتفتت في قبضتها ،
لا تلبث مشكلة داهية أن تقودك إلى مشكلة أدهى إلى أن يواجه عقلك
مشكلة الكون ، كأنه يصطدم بجدار أصم حذار من مثل هذه الصدمة إنها
مزلة له ، مؤذنة باختلاطه ، تعدل مأساة كونية ومهزلة أرضية في نفس
واحد ، لك حد أعرفه لكى تقف عنده ، حتى الرسول وقف عند سدره
المتهى .

إنه يدفع الآن ضريبة إيمانه بأن له رسالة ينبغى أن يؤديها ، يتفزز لأن
العمر مهما طال أقصر من أن يكفيها . فهو في عجلته محموم أبدا . رسالته
أن يكشف الحقيقة للناس . أن يحيط عنهم بهذا الكشف أغلاهم . فتتظهر
نفوسهم من الدمامة والقسوة والظلم . إنه يحلم بجمهورية من الملائكة

على الأرض . فإذا الأرض جنة . وكان لا بد له أن يحتضن كل إنسان ،
وأن ينفذ تحت جلده ليعرف همه . . لم يمنح سمعه لعطوف يقول له :
حذار : . إذا عرفت هذا الهم أصبح كأنه همك . ستتجمع هموم الناس في
نفسك فإذا هي حامض متلف لها . ستري أنك شيئاً فشيئاً ستحيل الهموم من
تشخيص إلى تجريد فإذا بك في بيداء ليس بها معالم ، ذاب أنين كل حبة
رمل في صمتها الرهيب ، وهذا هو نطقها بالغناء سيضل بها عقلك ، حذار
أن لا يكون رقي نفسك إلا رقياً للصليب ، فتستشهد وأنت فاتح ذراعيك
للقطيع .

يا ولداه . لأنه نابغة فقد سبق الركب، والذي يسبق الركب كالذي
يتخلف عنه ، لا بد له أن يشعر بالوحدة ، لها صقيع كالنار تتقدد عليه
روحه ، ربما خيل له من فرط لهفته على المشاركة أن هذا السبق هروب ،
فإذا فوزه لا يطيب نفسه ويرضيها ، بل يتليها بوجع أليم، كنت لا أراه
إلا أحسست أنه يتكتم عذاباً يرضيه .

لعل الذي جره من قياده فاستسلم كالذبيحة هو تحقق حدسه الصادق
بأن سحابة مطرها دموع ستظلل حبيبته ، أمه ، أم الصابرين وأنها
ستصاب بجرح بليغ . وحين لم يدر كيف يفديها خر صوابه ، وجثا على
الركبتين ، هكذا كانت صلاته لها .

سحب يده الرقيقة من يدنا العاجزة وابتعد قليلاً قليلاً ليخامرنا بأنه
غير ماض بلا مقصد في رحلة طويلة ، لئلا يقول وداعاً ، عين الوقت الذي
هو فيه ملء السمع والبصر ، يعتز به وطنه ، ما من أحد عرف شخصه

أو قلمه إلا أنزله في قلبه منزلة الإعزاز والإعجاب . أدبه يتدارسه قومه
وأقوام أخرى عديدة من وراء البحار . تترجم له، وإذا كتبوا القائمة وضعوا
اسمه على رأسها ثم من تحته بمسافة كبيرة يأتي اسم آخر سدادا للخانة . . .
ولكن هيهات لغيابه أن ينسينا ذكره ، إنه لا ينفك في البال والخطر . إنني
واثق من رحمة ربه ، فما محنته إلا تجربة عابرة وإن تكن قاسية ، ما إن تقوم
أمنه عن قريب من كبوتها حتى يقوم هو من كبوته ، سنظل نقف في المحطة
في انتظار عودته مبتسما ، سليما معافى .

(« الساء » ، ١٧ / ١ / ١٩٧٢ ، ص ٤)

يصف المؤلف في هذا المقال الأديب الكبير « . . . »

سجل هذا الشعب

أى عجب ! . لم يترك غير هذا الشعب سجلا كاملا ، باقيا على الدهر ، مستوعبا لكافة معيشتة ومعتقداته ، علومه وفنونه ، عمله وهواه . . ما من ساعة من عمره إلا قلنا كيف كان يقضيها ، وما من مهنة مهملها هانت إلا كان لها نصيب في هذا السجل ، يشرح التدريب عليها ، ثم أداءها خطوة خطوة ، بحشد من قوى البدن تنطق بالصبر والتجمل والصمود ، تتين في الحركة ، وبحشد من قوى الروح تضيء ، وتهلل وفرح على ملامح الوجه ، هيهات أن ترى وجها عابسا أو محنقا أو مجهدا .

لا يدانيه شعب آخر في هيامه بالخلود ، ولأن الحياة على الأرض مرحلة عابرة مؤدية لعالم الحق فإنها اتقدت بين يديه وتفجرت ، حياته بلغت ذروة الحياة .

أتأمل صورته وهو عارى الرأس ، غير متشح إلا بإزار قصير ، لم يشأ إلا أن يقدم لنا شبابه ، لأن الشباب هو الصلابة والنضارة معا ، عدة اليوم

وأمل المستقبل . فلم أر في هذا السجل شيخا أو عجوزا ، شباب في عز الفتوة . الجسم ممشوق . . إذا عمل فوجد . . وإذا خطا فبعزم . . الرأس مرفوع ، والنظرة دائما الى أمام . . جسور غير منكسرة ، لم أر من هو بدين أو أكرش . . تكريما لكرامة الجسد وسيطرة الارادة والرياضة عليه . . شعب يهيم بالمثل العليا والحدود القصوى ، يأنف القليل والدنيء . . إن مقبرة فهي الهرم الأكبر ، إن معبد فهو الذى تراه في الأقصر بمساحته الشاسعة وأعمدته الضخمة . . إن تمثال فالذى تراه في أبي سنبل . . لم يتضخم رأس إنسان ألف مرة إلا عنده ، كما تراه في أبي الهول .

هذه الخصلة لصقت بطبعه ، هيهات أن يلبها كر الأيام ، تغمض العين ثم تفتحها عليه بعد أن أشرق في سمائه نور الإسلام ، فرى مسجد ابن طولون كأنه معد لمن أراد أن يصلى الجمعة من أهل العاصمة جميعا ، ومسجد السلطان حسن بقوسه العظيم ومئذنته التى علت جميع مآذن العالم الإسلامى .

وقبل الوداع رأيت أكبر سد وأكبر بحيرة من صنع الإنسان .

لم يعيش شعب كما عاش هذا الشعب منذ فجر الوجود والضمير ، في أرضه . حددتها له الطبيعة . لا قلم إنسان في معاهدة أو اتفاق ، متصل تاريخه بلا انقطاع . . غذته دماء متتالية ، زكت بها وإن لم تتبدل أرومته .

شعب جمال لأعباء المسئولية مهما ثقلت ، حفاظا على استقلاله وحرمة وطنه . . غير عامل حسابا في أنانية إلا لنفسه . . مصلحة بقية الأسرة

والعشيرة والجيرة هى مصلحة ، كما صد الغزاة عن أرضه صدهم عن أرضهم ، من هكسوس ومغول وتر ، والآن جاء دور الصهاينة ، لا يغمض عينيه عن الخطر حتى ولو لم يبلغ واديه . . بل يسارع للنجدة ، غير منتظر أن يأتيه من يستصرخه . . بل أكاد أحس وأنا أتأمل تاريخه أنه يهيم بحمل الأثقال الجسام ، متطوعا ، بقى له الغرم ونسى الغرام ، من غيره يحمل اليوم مثله أعباء مكافحة الاستعمار فى قارته ، بل فى كل مكان يسترق فيه الإنسان ، أعباء مكافحة العنصرية البغيضة ، أعباء القومية العربية وهى تمر بمرحلة المخاض بأوجاعه نحو ولادة الوحدة الحتمية . . لا يطلب لنفسه استعلاء ولا فرض سيطرة ، ولا حتى اعترافا بصنيعه . . لا يطلب إلا الوفاق والمناصرة . . ويطلب - لأنه عواطفى - صدق الود والريق الحلو . .

هذا الكلام من إملاء اليوم الذى كتبه فيه . . يوم ٥ يونيو . .

(جريدة « التعاون » ، العدد ٣٨١ ، ٦/٧/١٩٧٠ ، ص ٨)

هذا الشعب

بعض الأحداث ، لأنه مولود على قمة الحدة ، شديد التضخم ،
عنيف الأثر ، يحمل على الظن — بسبب أن مقدماته كانت قد أزمّت فبدت
أقل خطراً — في الظاهر المتلبس بالتغريير — إنه مفاجأة لم تكن متوقعة ،
أوبداية تفتح صفحة جديدة من التاريخ ، أو تستحدث موقفاً طارئاً
تتطلب معالجة مبتكرة ، وما هو في الحقيقة إلا حلقة في سلسلة من طبيعة
واحدة أفضى بعضها الى بعض ، المنطق لم ينكسر ، فإذا رددنا الحلقات
— سوابقها وآخرها — إلى مقياس المدى الطويل تساوت حكماً ، وكثير من
الناس في يوم ٥ يونيو — نظراً لحدته وجسامته وعنفه — خضعوا لهذه المظنة
في لحظة الجزع في حضن الدهول ، ثم ردهم وعيهم الغريزي سريعاً إلى
إدراك حقيقته فكانت استجابتهم مبادرة ثورية .، تلقائية لرفض الهزيمة ،
عقد العزم على الصمود ، على تحمل الآلام ، على الوقوف فوق القدمين
مهما أثخن الجسد بالجراح واصطبغ بالدم . والسند هو الصبر ، لأن له في
ثرى بلادهم الضاربة فيه جذورهم معيناً متراكماً لا ينضب ، كم صبرت

مصر ، فكان الصبر أقوى أسلحتها للانتصار على العدو ، على الظلم ، وكانت التوقعات الحكيمة . والبصيرة تؤكد كلها أن هذا الشعب سيخر على الأرض .. سينهدم في وهدة اليأس سيستسلم بلا قيد أو شرط أو إن بقيت له ذرة من قدرة فسيقول لننقذ ما يمكن إنقاذه ، نساوم ، نصطليح ونحن صاغرون .

وليست هذه أول مرة يحار فيها الأعداء — بل الأصدقاء أيضا — في فهم مسلك هذا الشعب وقت الأزمة وعند الشدة ، يخدعهم انبساط أرضه ، ولين طبعه ، كراهيته للعنف، تحرره كل التحرر من التعصب ، حتى لنفسه ، فيظنوه هشا ، مفككا ، لاهيا ، قانعا بيومه أيا كان ، حاملا وزره على محمل القدر ، إباؤه مزعزع وغضبه كغضب الأطفال — سريع الاشتعال ، سريع الانطفاء ، لأنهم لم يروا منه — هذا الجبل الغارق في غيابات التاريخ — إلا قمته المخروطية الطافية ، براءتها تخفى نذيرها ، وغابت عنهم صلابة هذا الشعب وعراقته ، وقدراته الكامنة ، نسوا أن مصر ملكت شخصيتها واتصلت حضارتها منذ فجر التاريخ .. فليس حسابها كحساب أى بلد آخر .

فإن كان يوم ٥ يونيو نكبة فإن هزيمة حرب سنة ١٩٤٨ كانت نكبة ، والهدنة نكبة ، ونقض الهدنة نكبة ، واحتلال النقب نكبة ، بل إنشاء أول مستعمرة صهيونية في فلسطين سنة ١٨٨٢ كان نكبة ، هذه هي الحلقات التي أفضت الى ٥ يونيو ، تنفرد من بينها نكبة الهزيمة في حرب سنة ١٩٤٨ ، بأنها هي التي حددت مسار مصر من بعد ، ففي الرماد المتخلف عن هذه الحرب نبتت بذرة ثورة ٢٣ يوليو ، لأن مصر هي العمود الفقري

للحضارة العربية في هذا الجزء من الأرض ، المهددة بالأنسحاق والزوال ، من أجل انقاذ هذه الحضارة كان لابد أن تتحول مصر سريعا الى دولة عصرية ، كان لابد من تجربة الوحدة مع سوريا ، من الذهاب الى اليمين ، لا طلبا لبسط نفوذ ، كما توهم المسارعون الى الريية ولو من أخ شقيق ، بل لتجميع الأمة العربية صفا واحدا متحدا في مواجهة العدو ، كم تحملت مصر من أعباء تهد الجبال ، في الداخل والخارج ، من أجل صيانة هذه الحضارة وتحريكها ودفعها الى الأمام ، جهاد رمزه عيد الثورة في كل عام ، وهو في هذا العام - على دوى المدافع المطالبة بالثأر المبشرة بقرب النصر - أعظم جلالا وأفصح نطقا . . .

(مجلة « المجلة » ، العدد ١٥١ ، يوليو ١٩٦٩ ، ص ٢ ، ٣)

مؤلفات يحيى حقى

- ١ - قنديل أم هاشم - مع سيرة ذاتية للمؤلف
- ٢ - فجر القصة المصرية - مع ٦ دراسات من نفس المرحلة
- ٣ - فكرة فابتسامة
- ٤ - صبح النوم
- ٥ - خطوات في النقد
- ٦ - دمة فابتسامة - مع الدعابة في المجتمع المصرى
- ٧ - دماء وطن - مع قصص أخرى من الصعيد
- ٨ - تعال معى إلى الكونسير - مع الكاريكاتير فى موسيقى سيد درويش
- ٩ - ناس فى الظل - مع شخصيات أخرى
- ١٠ - أم العواجز
- ١١ - حقيية فى يد مسافر - ورحلات أخرى
- ١٢ - عطر الأحباب - مع ٢٠ دراسة أخرى
- ١٣ - عنتر وجوليت - مع ١٠ لوحات أخرى
- ١٤ - ياليل ياعين ، سهراية مع الفنون الشعبية - مع مقالات السيرك والمولد
- ١٥ - أنشودة للبساطة - مقالات فى فن القصة
- ١٦ - خليها على الله
- ١٧ - صفحات من تاريخ مصر

- ١٨ - من فيض الكريم
١٩ - الفرائش الشاغر وقصص أخرى
٢٠ - مدرسة المسرح
٢١ - هموم ثقافية
٢٢ - تراب الميرى
٢٣ - عشق الكلمة
٢٤ - من باب العشم
٢٥ - فى السينما
٢٦ - هذا الشعر
تحت الطبع
٢٧ - فى محراب الفن (موسيقى - تشكيل - عمارة)
٢٨ - كناسة الدكان

الفهرس

صفحة

- بلاغ عن جريمة قتل ٥
- ارجع لنا بالسلامة ٩
- صندوق عبوة سكر ، وربما « سترافيس » أيضا ١٣
- المنبع ١٧
- ٥ ديسمبر سنة ١٧٩٨ ٢٣
- حوت وهدهد وغراب وحادأة وطاووس ونحلة ،
وفوق البيعة بساط الريح والجن الأزرق ٣١
- هذا العيد ٣٩
- هذه الندوة ٤٥
- جواهر علق بها التراب ٤٩
- علم وتواضع ٥٣
- عودة الغائب الجريح ٥٩
- الأعياد والألعاب في القاهرة ٦٥
- ذكريات ٩٣
- عربي وفرنجنى ٩٧
- معاناة من الداخل ١٠٣
- أسواق ١٠٧

- ١٠٩..... سوق العصر -
- ١١٢..... سوق الكانتو -
- ١١٥..... سوق الخيل -
- ١١٧..... دهليز بعد دهليز -
- ١٢١..... المتبوع واحد -
- ١٢٧..... قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل ! -
- ١٣٥..... كنز تافه -
- ١٤١..... سطحية وغرور ! ! -
- ١٤٨..... كيف يتزوج الخديو ! -
- ١٥٥..... نور أحمر من مصباح صغير -
- ١٦٠..... استخلاص الفوائد -
- ١٦٧..... أطالب بعودة مقترب عزيز -
- ١٧١..... في مثل هذه الأيام .. منذ ستين عاما ! -
- ١٧٩..... ذكريات بين حلوة ومرّة -
- ١٨٧..... وجهة نظر قابلة للتصحيح ! -
- ١٩٥..... عيد الجلاء وذكرى دنشواي ! -
- ٢٠١..... ١١ نوفمبر .. ! -
- ٢٠٩..... هذا الجيل -
- ٢١٥..... هذا العام -
- ٢١٩..... دوران حول ثورة ١٩١٩ -
- ٢٢٥..... المناخ الجديد لثورة ١٩١٩ -
- ٢٢٩..... ثورة ١٩١٩ -
- ٢٣٣..... ابن القباقيبى -
- ٢٣٧..... تعليقات عن هواية لا عن احتراف -
- ٢٤٣..... الانسان أولا -
- ٢٥١..... احتكام غريب -

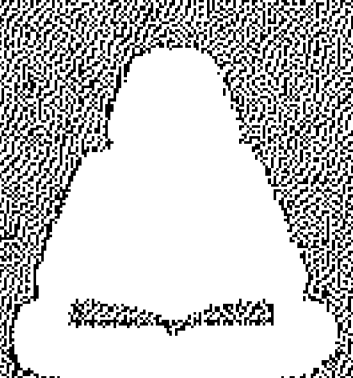
٢٥٥	لحظة ..
٢٦١	الطربوش ..
٢٦٧	٢٩ أكتوبر ١٩٢٣ ..
٢٧٣	تاتا .. تاتا .. خطى العتبة ..
٢٨٣	منادمة الحروب ..
٢٩١	كبش نطاح ! ..
٣٠١	« شخصيات ومراحل عمالية » ..
٣١١	معليش .. والولد المدلل ! ..
٣١٧	معليش يا كوكتو ! ..
٣٣١	تهيئة الجو ..
٣٣٧	صورة بشعة ..
٣٤٣	« أضواء على الدبلوماسية » ..
٣٤٩	التنبؤ الماضى ! ..
٣٥٥	السفير ..
٣٦٣	مقال بلا صواميل يخر منه الماء ..
٣٦٩	سلام اللقاء .. سلام الوداع ..
٣٧٧	تمثال ..
٣٨٣	حمارة زرقاء ..
٣٨٧	تراب السفر ..
٣٩٥	لثلا .. ننسى ..
٤٠١	سباق مع الزمن ..
٤٠٧	من وحى بطل شهيد ..
٤١٣	الست الطاهرة ..
٤١٧	العودة من زيارة للجبهة ..
٤٢٠	الشاعر فى الجبهة ..
٤٢٣	نجمة السينما فى الجبهة ..

- من رسم قدر بصير ودود ٤٢٧
- كومبارس ٤٣١
- فى البال والخاطر ٤٣٧
- سجل هذا الشعب ٤٤٣
- هذا الشعب ٤٤٧
- مؤلفات يحيى حقى ٤٥٠

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ٤٤٤٢/١٩٨٩

ISBN ٩٧٧ - ٠١ - ٢١٦٢ - ٢



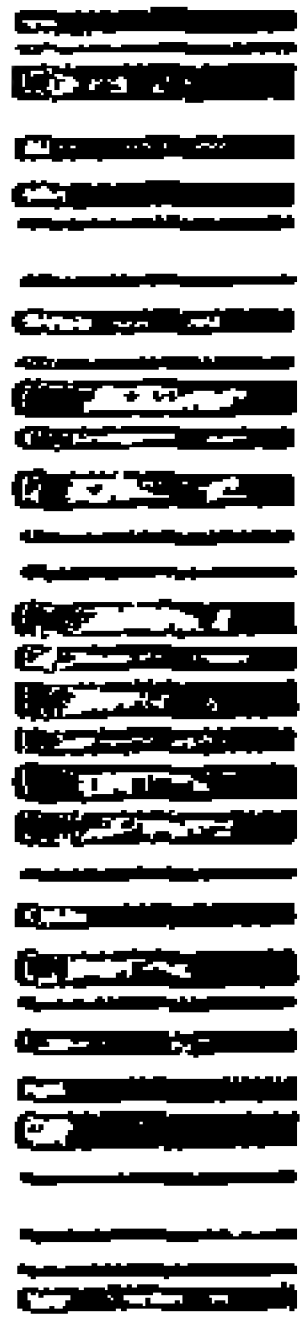
سازمان اسناد و کتابخانه ملی
جمهوری اسلامی ایران

« . . لم يعيش شعب كما عاش هذا الشعب منذ فجر الوجود والضمير . . شعب خال لأعباء المسئولية مهما ثقلت جفاظا على استقلاله وحرمة وطنه غير عامل حسابا في أنانية إلا لنفسه . . مصلحة بقية الأسرة والعشيرة والجيرة هي مصلحته ، كما صد الغزاة عن أرضه صدهم عن أرضهم ، من هكسوس ومغول وتتر ، والآن جاء دور الصهاينة . . »

يمثل هذه الكلمات عبر يحيى حقى عن فهمه لروح شعبه في هذا الكتاب الذى يضم العديد من تأملاته في تاريخ مصر . . بعضها نتيجة قراءات عميقة ، وبعضها الآخر ذكريات لمواقف عاشها بنفسه وأحداث عاصرها ، سجلها بأسلوبه الأدبى الفذ فتحوّلت إلى متعة فنية نادرة . . إن أضواء مراحل هامة من تاريخ مصر ، فهي تكشف في الوقت نفسه عن جوانب من وجدان الكاتب الكبير وطبيعة فهمه لتاريخ بلاده وتأثره به

فؤاد د

Bibliotheca Alexandrina



0347518

مطابع الحيا

٥٥ قرشا